وَقفٌ للهِ تعالى..

الكَوَاشِفُ الجَلِيَّة

عَنْ مَعَانِي الوَاسِطِيَّة

جمع الفقير إلى عفو ربّه

عَبْدُالعَزِيزِالمُحَمَّدُ السَّلمَانُ

المدرّس في معهد إمام الدعوة في الرياض سابقاً

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

طبع على نفقة جماعة من المحبين للخير الموكل عنهم إبراهيم بن علي العودة جزاهم الله كلهم خيراً . ونرجوامن أهل الخير الإسراع لطباعته .

الطبعة التاسعة عشرة
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

وَقفٌ لِلّهِ تعَالَى

من أراد أن يطبعه لوجه الله تعالى لا يريد به عرضاً من الدنيا وإنما يريد أن يجعله وقفاً لوجه الله تعالى فقد أذنا له بذلك على أن يكتب مثل ما ذكرنا في الصفحة الأولى ليعلم كل من له رغبة في ذلك وجزى الله خيراً من طبعه وقفاً أو أعان على طبعه أو تسبب لطبعه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين إنه جواد كريم قريب مجيب. اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تفرد بالجلال والعظمة والكبرياء والجمال وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن بعض ما أوليه من الإنعام والإفضال وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فبما أنه طلب مني أحد إخواننا أن أحول الأسئلة والأجوبة الأصولية إلى شرح للعقيدة الواسطية فأجبته إلى ذلك وزدت ما أرى أن الحاجة ماسة إليه وحذفت ما أرى أن الحاجة إليه قليلة وراعيت في ذلك أن يكون مناسباً للأستاذ والتلميذ ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل ، على أني جمعت الكثير فيه من كتب المحققين كالشيخين شيخ الإسلام مؤلف العقيدة وتلميذه ابن القيم ونحوهما ومن الكتب التي تستمد من كتبهما وأمثالهما من المتبصرين وسميته (الكواشف الجلية عن معاني الواسطيــة) وأسأل الله الحي القيوم العلي العظيم الأول الآخر

الظاهر الباطن العليم بكل شيء ذا الجلال والإكرام الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد القريب المجيب أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به من قرأه ومن سمعه ومن سعى في بثه إنه على كل شيء قدير ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بالله يَا نَاظِراً فيه وَمُنْتَفِعاً — منه سَلِ الله توفيقاً لِجَامِعِهِ
وقل أنله إلَه الخَلْقِ مَغْفِرَة — واقْبَلْ دُعَاهُ وَجَنِّبْ عن مَوَانِعِهِ
وخُصَّ نفسَك مِن خيرٍ دعوتَ به — ومَن يقُومُ بما يَكْفِي لِطَابِعِهِ
والمسلمينَ جَمِيعاً مَا بَدَا قمرٌ — أو كوكبٌ مُسْتَنِيرٌ من مَطَالِعِهِ

مؤلف العقيدة

هو شيخ الإسلام ومفتي الأنام المجتهد في الأحكام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، ولد رحمه الله بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وقدم به والده وأخويه عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ ، فأخذ الفقه والأصول عن والده وسمع عن خلق كثير منهم الشيخ شمس الدين والشيخ زين الدين بن المنجا والمجد بن عساكر وقرأ العربية على ابن عبد القوي صاحب عقد الفرائد وعني بالحديث وسمع الكتب الستة والمسند ، وأقبل على تفسير القرآن فبرز فيه وأحكم أصول الفقه والفرائض وغير ذلك من العلوم وتأهل للتدريس وله دون العشرين سنة وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، وألف مؤلفات كثيرة في فنون عديدة وله الفتاوى المفصلة ورد على المبتدعة ، وقد ساق ابن القيم رحمه الله بعض مؤلفات شيخه رحمهما الله فقال :

وله المقامات الشهيرة في الـورى قد قامها في الله غير جبان
نصر الإلـه ودينـه وكتابـه ورسولـه بالسيف والبرهـان
أبدى فضائحهم وبيّنَ جهلَهـم وأرى تناقضَهم بكل مكـان
ومن العجائـب أنه بسلاحهـم أرداهم تحتَ الحضيض الداني
فاقرأ تصانيفَ الإمـام حقيقـةً شيخ الوجود العالِم الربـاني
أعني أبا العباس أحمد ذلك البحـ ـر المحيط بسائر الخلجـان
واقرأ كتاب العقل والنقـل الذي ما في الوجود له نظير ثـان
وكـذاك منهـاج لـه في رده قول الروافض شيعة الشيطـان
وكذاك أهـل الاعتـزال فإنه أرداهم في حفـرة الجُبَّان
وكذلك التأسيس أصبح نقضُـه أعجوبـة للعـالم الرباني
وكذاك أجـوبة له مصريـة في ست أسفار كتبن سمـان
وكـذا جواب للنصارى فيه مـا يشفي الصدور وإنـه سفران
وكذاك شرح عقيـدة للأصبهـا ني شارح المحصول شرح بيان
فيهـا النبـوات التي إثباتهـا في غايـة التقرير والتبيـان
وكـذا حـدوث العـالم العلـوي والسُّفلي فيـه أتم بيـان
وكـذا قواعـد الاستقامـة إنهـا سفران فيما بيننـا ضخمان
وكذاك توحيد الفلاسفـة الأولى توحيدهم هو غاية الكفـران
سفرٌ لطيفٌ فيه نقض أصولهـم بحقيقـة المعقـول والبرهان
وكـذاك تسعينيـة فيها لـه رد على من قال بالنفسـان
تسعـون وجهـاً بينت بطلانـه أعني كلامَ النفس والوجـدان
وكذا قواعـدُه الكبار وإنهـا أوفى من المائتين في الحسبـان

وكذا رسائله إلى البلـــدان والـــ	أطراف والأصحـــاب والإخوان
وكذا فتـــاواه فـــأخبرني الـــذي	أضحى عليهـــا دائم الطوفـــان
بلغ الذي ألفـــاه منهـــا عـــدة	الأيام من شهر بلا نقصـــان
سفرٌ يقابل كل يـــوم والـــذي	قد فاتني منهـــا بلا حسبـــان
هـــذا وليس يقصر التفسير عـــن	عشر كبار ليس ذا نقصـــان
وكذا المفاريد التي في كل مســـ	ـألة سفر واضح التبيـــان

وكان رحمه الله لا يبالي في مقال الحق يصدع به القريب والبعيد يأمر بالمعروف العدو والصديق. وكان بعيداً عن المداهنة والمصانعة في أمور الدين لا تأخذه في الله لومة لائم . وكان رحمه الله معظماً للسلف الصالح ينقد من رآه خارجاً عن طريقهم . ومما يدل على أنه محب للحق بعيد عن المداجاة والمصانعة أنه لما قدم مصر عقد عدة مجالس ألقى فيها عدة محاضرات فحضر أبو حيان أحد مجالسه فأعجب به إلى أن امتدحه في هذه الأبيات :

لمـــا أتـــانا تقي الـــدين لاح لنـــا	داع إلى الله فرد ما له وزر
على محياه من سيما الأولى صحبوا	خيرَ البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منـــه دهـــره حـــبراً	بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنـــــا	مقام سيد تيم إذ عصت مضر
وأظهـــر الحق إذ آثـــاره اندرست	وأخمد الشر إذ طارت له شرر
يا من يحدث عن علم الكتاب أصخْ	هذا الامام الذي قد كان ينتظر

يشير إلى أنه المجدد ، ثم بعد ذلك جرى بينهما كلام في بعض المسائل النحوية وجرى ذكر سيبويه وقيل إن الشيخ رحمه الله استدل على مقاله ورأيه بأشياء اجتهادية فعارضه أبو حيان بأقوال سيبويه فغضب الشيخ وأغلظ القول وقال إن سيبويه ليس رسولا للنحو والعربية حتى يقبل قوله بلا حجة ولا برهان ويلزم الناس الأخذ بكل ما قال .

وقال إن سيبويه أخطأ في الكتاب في ثمـــانين موضعاً ما تفهمها أنت فكان ذلك سبب مقاطعته إياه وعاد ذاماً له واقعاً في دينه وعقيدته وذاكراً له بكل سوء وما كان دينه وعقيدته قبل هذه الحال غير دينه وعقيدته بعدها ولكن المتغير الهوى فبعداً له . وجرى له رحمه الله محن كثيرة منها محنة بسبب تأليفه الفتوى الحموية وجرى له رحمه الله فتياه بالطلاق الثالث .

ولما كان في سنة ٧٢٦ هـ وقع الكلام في شد الرحال إلى قبور الصالحين والأنبياء فأفتى الشيخ بتحريم ذلك فحصل له ما حصل من علماء زمانه وكان منشأ ذلك الهوى والحسد فحبس رحمه الله بأمر من السلطان بقلعة دمشق وبقي رحمة الله عليه سنتين وثلاثة شهور ، ولما صار بالسجن قال ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت معي لا يفارقني أنا حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في مجلسه في القلعة لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال ما جزيتهم على

ما تسببوا إلي من الخير أو نحو هذا ، وقال المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه ، وقال ابن القيم وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدرا وأقواهم قلباً وأسرهم نفساً تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت الأرض بما رحبت أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلا فيذهب ذلك كله فينقلب انشراحاً وسروراً وقوة ويقيناً وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها ، في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها . وكان رحمه الله في هذه المدة مكباً على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين وذلك في سنة ٧٢٨ هـ . وقد مدح الشيخ رحمه الله بقصائد كثيرة في حياته ورثي بأكثر منها بعد وفاته ، ومن مراثي العلماء والشعراء التي قيلت بعد وفاته رحمه الله ما يلي . . قال الدقوقي :

مضَى عالمُ الدنيا الذي عزَّ فقدُهُ	وأضْرمَ ناراً في الجوانح بُعدُه
مضى الزاهد النّدبُ ابن تيمية الذي	أقر له بالعلم والفضل ضِدُّهُ
مضى الطاهر الأثواب ذو العلم والحجى	ولم يتَدنَّسْ بالمآثم بُرْدُهُ
يَحِنُّ إليه في النهار صيامُه	ويشتاقُه في ظلمة الليلِ وِردُهُ
وما ماتَ من تبقى التصانيفُ بعده	مُخَلَّدةً والعلمُ والفضلُ ولْدُهُ

حَمَى نفسَه الدنيا وعَفَّ تكرُّمـــا ... ولَمّا يُصَمِّرْ لِلدَّنِيّاتِ خدَّهْ
وكان لنا بحراً من العلـــم زاخـــراً ... فما بالهُ لم يَصفُ مذ غاب وِردُهُ
وخلَّفَ آثاراً حساناً حميـــــدةً ... إذا عُدِّدَتْ زادتْ على ما نعدُّهُ
وكان يقولُ الحقَّ والحقُّ حلْـــوهُ ... مَريرٌ لهذا كان يُكْرَهُ رِدُّهُ
وفي الله لم تأخذْهُ لومةُ لائـــمٍ ... ولا خافَ من عُمْرٍ تشدَّدَ حَرْدُهُ
ولم تُلْهِهِ الدنيا وزخرفُهـــا الذي ... يروقُ لمن لم يُؤنسِ الدهر رُشْدُهُ
وكان إمامـــاً يُسْتضَاءُ بِنُـــورِهِ ... وبحراً من الأفضالِ قد غيض عِدُّهُ

ومن مرثية الخياط الحوخي :

تَنَكَّرتِ الدنيا على كُلِّ عـــارف ... رأى منك مأهولَ المنازلِ بَلْقَعَا
فيا أحمدَ المحمودَ قد كنت للهدى ... مناراً وللشرع الحنيفي مَشْرَعا
لقد كنتَ عن شرٍ بطيئـــاً ووانيـــاً ... وفي طلبِ الخيرات عجلانَ مُسرِعا
وللحكم طوداً راسخاً باذخ الذرى ... وللجود والإحسان والعلم منبعا
وركناً لدين الله حـــين تهدمـــت ... قواعده منه وَهِي وتَضَعضعـــا
يصول بسيف العلم في معرك النهى ... وأرماح شرع الجهل أقبلن شُرَّعا
وكم من ظلام الظلم زحزح غيهبـــاً ... بساطع نور العدل من حين شعشعا
وكم من طريق في المباحث مبهـــم ... بإيضاحه أضحى لساريه مهيعـــا
تولى عن الدنيا حميداً ولم يكـــن ... لزخرفها المذموم يبدي تطلعـــا
وعاش إلى أن مات لم يعط نفســـه ... بتأميل ما في دار دنياه مطمعا

ومن مرثية لبرهان الدين :

لِفَقْدِ الفتى التيمي تَجْري المدامعُ وتَصْدَعُ بالنوح الحمامُ الصوادعُ
على ماجدٍ جَلَّتْ مَآثِــره التي لها في قلوب العارفينَ مَوَاقِـعُ
علومٌ وأخلاقٌ كـرامٌ وسُؤددٌ وجُودٌ ومجدٌ باذخٌ وتَواضُعُ
وزُهْدٌ وإيثارٌ وتَقْـوى وعِفَّـةٌ وتلكَ سجايا حازَها وهو يَافِـعُ
هو الحبرُ أما المشكلاتُ فَحلُّهـا يَسيرٌ لديه وهو في الجَدَلِ بارعُ
وأما عقودُ الدين فهي وثيقَـةٌ لدَيه وعنها بالرماحِ يُنَازِعُ
تبارك مَن حَلاَّهُ بالزهد وَالتُّقَى ورَصَّعَ ذاكَ الحليَ منه التواضعُ
وفي الله لم تأخُذْهُ لومـةُ لائمٍ وليس له في نصرةِ الحقِ وازِعُ
وآتاه ذو العرش المجيدُ مواهبـاً وليس لما يعطيه ذو العرش مانع
أما كان في دفعات غازان جـائلاً بعزمة ليث لم ترعه الوقـائع
يقـول لجيش المسلمين ألا ابشروا بنصر على الأعداء والنصر واقع
فأصبح جيش المسلمـين مؤيـداً وغازان لاقى حتفه وهو راجع
تصانيفه في كـل علم بديعـة وفيها لأهل الابتداع بدائـع
ولم يبتغِ شيئاً سوى وجـه ربـه وفي زخرف الدنيا عدته المطامع
فيا فَوْزَ مَن يَحوي تصانيفَه ولا يزال لها في كل وقت يطالع
علوماً لمن يبغي النجاة اعتنى بهـا وللناس في تلك العلوم منـافع
وذو الفضل يؤتيه المهيمن فضلَـه ولا حاصدٌ إلا لما هـو زارع
فلم أر في عمري الذي طال مثلـه وما أنا في رؤيا المماثِل طامـع
عسى الله في الجنات يجمعنـا بـه فكل امرىءٍ منا بذلك طامِـعُ

ومن مرثية ابن خضر :

لقد عذبوا قلبي بنار الأحبــــة … وذاب فؤادي من فراق الأحبةِ

فقدت إماماً كان بالعلم عــاملاً … وكان حقيقاً قامعاً كل بدعةِ

شجاع همام بارع في صفاتــــه … يروم مراماً في المراقي العليــةِ

تزهَّدَ في كُلِّ الوجودِ وغَيْرُه … يَدورُ على الدنيا بنفْسٍ دَنِيـةِ

ويلقى لمن يلقاه بالبِشر والرضــا … بأوصافه الحسنى ونفس زكيةِ

ويدعو لِمن قد نال من ثَلْمِ عِرضه … ولم يَنتقِمْ مِمَّنْ أتى بالأذيــةِ

يُجاهد في اللهِ الكريمِ بجهْــدِه … بِصدقٍ وإخلاص وعزم ونيةِ

ويأمــر بالمعروف حُبّــاً لربــه … وينهى عن الفحشاءِ نهياً بهمَّةِ

تَقيٌّ نقيٌّ طاهرُ الذَّيْلِ مُذْ نشــأ … كريمُ السجايا ذُو صفاتٍ حميدة

ألا يا تَقِيَّ الدين يا فردَ عصْره … بروقُك قد لاحت كشمسٍ مضيئةِ

ظَهَرتَ بأنواعِ العلومِ وجِنسِهـا … وسارت بها الركبان في كل بلدة

وأوضحت إشكالاً وبيَّنتَ مُبْهَماً … وأبديتَ أسراراً بنفسٍ عَليمَةِ

وكم غُصْتَ في بحر المعارِف غوصةً … وبحَّجْتَ فاستخرجتَ كلَّ يتيمةِ

ظَهرتَ بإحسانٍ وحسنٍ سماحــةٍ … ودينٍ وتوحيدٍ وكلّ فضيلــةِ

صَبَرتَ على الأحكامِ طوعاً وطاعةً … وذُقتَ مِن الآلامِ طعمَ البليةِ

وكنتَ حمولاً للنوائبِ كلِّهــــا … صبوراً على الأقدارِ في دار غربةِ

لقد عِشْتَ محبوباً ومِتَّ مكرمــاً … عليكَ مِن الرحمن أزْكَى تَحيةِ

وبَعْدُ فللهِ المحامدُ كلُّهــــا … على ما أرانا مِن وضوحِ المحجةِ

وبهذا قد تم ما اخترناه من المراثي التي رثي فيها رحمة الله عليه وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ونسأل الله الحي القيوم الحليم الكريم العلي العظيم القوي العزيز مالك الملك ذا الجلال والإكرام بديع السموات والأرض فالق الحب والنوى فالق الإصباح محيي العظام وهي رميم، الأول والآخر الظاهر والباطن الذي أحاط بكل شيء علماً،الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن ييسر لدين الإسلام من يقوم بنصره ويزيل ما حدث في البلاد الإسلامية من البدع والضلالات والمنكرات التي فشت فعمت وطمت وأفسدت العقائد والأخلاق وصارت عادات عند كثير من الناس وألفها الكبير فاستهان بها وشب عليها الصغير فأحبها واستأنس بها ولم يبق من ينفر منها ويبغضها وينكرها إلا القليل ، فلا حول ولا قوة إلا بالله الحي القيوم العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

من أراد طباعة هذا الكتاب وقفاً لله تعالى فقد أذن له وجزى الله خيراً من طبعه وقفاً لوجه الله تعالى أو أعان على طبعه أو تسبب لطبعه فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجة. وعن أبي مسعود

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » رواه مسلم ، وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله » رواه أبو داود ، وعن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا » متفق عليه .

وقف لله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ خطبة العقيدة

قال المصنف رحمه الله :

« الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . »

الحمد لغة الثناء باللسان على الجميل الاختياري على وجه التعظيم والتبجيل ، وعرفاً فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً على الحامد وغيره. والألف واللام للاستغراق. فجميع المحامد كلها لله ومن أسمائه تعالى الحميد ، قال ابن القيم رحمه الله عليه :

وهو الحميدُ فكل حمدٍ واقـــع أو كان مفروضاً مَدَى الأزمان
مـــلأ الوجـــودَ جميعَه ونظـيرَه من غير ما عَدٍّ ولا حُسْبـــان

هو أهلُــه سبحانـــــه وبحمـده   كل المحامد وصف ذي الإحسان

وإثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله ، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الاطلاق وغايته : أنه محمود من وجه دون وجه ، ولا يكون محموداً من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبه .

وقال الشيخ رحمه الله : والحمد نوعان حمد على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر ، وحمد لما يستحقه بنفسه من نعوت كماله. وهذا الحمد لا يكون إلا لمن هو في نفسه مستحق للحمد وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي أمور وجودية فإن الأمور العدمية المحضة لا مدح فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم أن كل من يحمد فإنما يحمد على ماله من صفات الكمال. فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق ، والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد ، فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة وهو أحق من كل محمود .

وقال : وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن ما في قلوبهم من محبة الله لا يماثله فيها غيرها ولهذا كان الرب محموداً حمداً مطلقاً على كل ما فعله وحمداً خاصاً على إحسانه إلى الحامد ، فهذا حمد الشكر والأول حمده على ما فعله كما قال تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) الآية .

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) . والحمد ضد الذم والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته؛ ولا يكون حمد المحمود إلا مع محبته ولا ذم المذموم إلا مع بغضه. وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ولا يكون حمد إلا بحب المحمود وهو سبحانه المعبود المحمود ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين تحميده وتوحيده . وأفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله . اه .

٢ - معنى الإله

أما معنى «الإله» فهو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال. ولفظ الجلالة الذي هو «الله» علم على ذاته سبحانه وهو أعرف المعارف على الإطلاق . وكونه سبحانه مستحقاً للألوهية مستلزم لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبوداً لذاته إلا هو . وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل،وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد . . كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا). روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع » وفي رواية بحمد الله وفي رواية فهو أجذم رواها الحافظ الرهاوي في الأربعين له .

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه التي لا تحصى. وأعظم نعمه

إرسال محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . كما قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وأما « الرسول » لغة : فهو من بعث برسالة ، واصطلاحاً : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه فإن أوحي إليه ولم يؤمر فهو نبي فكل رسول نبي ولا كل نبي رسول . وقال الشيخ : فالنبوة داخلة في الرسالة والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة .

و« الهدى لغة » : الدلالة والبيان وينقسم إلى قسمين : هدى دلالة وبيان ، وهذا القسم يقدر عليه الرسل وأتباع الرسل ممن يجعله الله سبباً لهداية شخص أو أشخاص . قال الله تعالى : (ولكل قوم هاد) وقال : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وقال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه « لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم »

ومن هذا القسم قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أي بينا لهم ودللناهم وأرشدناهم فلم يهتدوا وهذه التي بعثت بها الرسل لتدل الأمم إليها وتدعوهم إلى قبولها فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة .

وأما القسم الثاني : فمعناه التوفيق والإلهام وهذا لا يقدر عليه إلا الله مختص بمن يشاء الله هدايته ودليله قوله تعالى : (إنك

لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقوله : (فمن يرد الله أن يهــديه يشرح صدره للإسلام) . وهذه خاصة يتفضل بها على من يشاء من عباده وهو أعلم بالمهتدين .

النوع الثالث : هداية عامة قال تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

النوع الرابع : غــاية هداية الدلالة والبيان والتوفيق وفائدتها ونتيجتها . قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) الآية . وقال إخباراً عما يقوله السعداء (الحمد الله الذي هدانا لهذا) الآيــة . وقوله بالهدى المراد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الشرع القويم والدين الكامل وما أنزل عليه من القرآن الذي به حياة القلوب وهداية الخلق .

قال ابن كثير : الهدى هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح فإن الشريعة تشتمل على شيئين . علم وعمل : فالعلم الشرعي صحيح والعمل الشرعي مقبول فإخباراتها حق وانشاآتها عدل .

وقال الشيخ تقي الدين : الخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين في العلم النافع والعمل الصالح وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأفضل ذلك وهو الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .

فالعلم النافع هو الإيمان، والعمل الصالح هو الإسلام . العلم النافع من علم الله والعمل الصالح هو العمل بأمر الله، هذا تصديق الرسول فيما أخبر ، وهذا طاعته فيما أمر ، وضد الأول أن يقول على الله ما لا يعلم ، وضد الثاني أن يشرك بالله ما لم ينزل بـــه سلطاناً ، والأول أشرف فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، اهـ.

والمراد بالدين هنا جميع ما شرعه الله من الأحكام اعتقادية كانت أو قولية أو فعلية وإضافة الدين إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته أي الدين الحق .

وقال الشيخ تقي الدين : الذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد للعباد في المعاش والمعاد .

قال : ودين الأنبياء كلهم «الإسلام» كما أخبر به في غير موضع ، وهو : الاستسلام لله وحده ، وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به في ذلك الوقت ، فطاعـــة كل نبي هي من دين الإسلام إذ ذاك، ولهذا خرج اليهود والنصارى عن دين الإسلام فإنهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله واعتاضوا عن ذلك بمبدل أو منسوخ . وهكذا كل مبتدع ديناً خالف به سنة الرسول لا يتبع إلا ديناً مبدلا أو منسوخاً .

والشرك كله من المبدل ، لم يشرع الله الشرك قط وكذا

كل ما كان أهل الجاهلية يحرمونه مما ذكره الله في القرآن كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك من الدين المبدل ، ا هـ .

وقال فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً وأمره أن يقول (هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

٣ ـ الوجوه التي يستحيل معها أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين الحق

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة ، وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته ـ محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز عليه وما يمتنع عليه .

فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب

ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً أو قولا ؟ .

ومن المحال أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة ، وقال : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » وقال فيما صح عنه أيضاً « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم».

وقال أبو ذر لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً ، وقال عمر ابن الخطاب : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » رواه البخاري .

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب ، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام، ثم إذا كان قد وقع ذلك منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه .

ثم من المحال أن تكون القرون الفاضلة ، القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول ، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق ، وكلاهما ممتنع ، اهـ من الحموية .

وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين ، أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ، علمه وعمله. فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان ، وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملا ، وبين أن أصول الدين الحق الذي أنزل الله به كتابه وأرسل به رسوله — وهي الأدلة والبراهين والآيات الدالة على ذلك — قد بينها الرسول أحسن بيان ، وأنه دل الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التي بها يعلمون المطالب الإلهية وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله والمعاد وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية ، بل وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية ، وإن كان لا يحتاج إليها فإن كثيراً من الأمور يعرف بالخبر الصادق .

ومع هذا فالرسول بين الأدلة العقلية الدالة عليها فجمع بين الطرفين السمعي والعقلي ، وبينا أن أدلة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث ، والفقهاء والصوفية وغيرهم بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين .

وقال : أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولا أو تعمل عملا كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل

أما القسم الأول : فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر ، إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس ، وهذا من أعظم ما أقام به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه ، وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه ، والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب ، فالحمد لله الذي بعث فينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة . والذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنـــا الإسلام ديناً . والذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء .

وأما القسم الثاني وهو دلائل هذه المسائل فإن الله بين الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم ما لا يقدر أحد من هؤلاء أهل الكلام والفلاسفة وغيرهم قدره ، ونهاية ما يذكرون جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) .

فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو

القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وفي القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين من المسائل والدلائل، اهـ.

قال الناظم:

فإيّاكَ عنْ آراءِ كل مزخرف	مقَالتهُ كالسُّمِ في ضمنها الردي
فقد مات خير الخلق والدين كامل	غني عن التبيين من كل ملحد

وقوله: (ليظهره على الدين كله) أي ليعليه وينصره ظهوراً بالحجة والبرهان والسيف والسنان حتى يظهر على مخالفيه.

وقد وقع ذلك فإن المسلمين جاهدوا في سبيل الله حق جهاده عملا بقوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) يعني لا يكون شرك، وقوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد..) وقوله: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية، وقوله: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله: (وجاهد في الله حق جهاده..) وقوله: (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) الآيتين. وقوله: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم).

وقوله صلى الله عليه وسلم: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم » الحديث، رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث الذي أخرجه

مسلم « وقاتل بمن أطاعك من عصاك » وروى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء » وفي حديث صفوان ابن عسال قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فقال : « سيروا باسم الله قاتلوا من كفر الله » الحديث رواه أحمد وابن ماجة .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن أنس « الجهاد ماض منذ أن بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال » ، وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال « اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله» الحديث رواه أحمد . وفي الحديث الآخر كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية يقول« إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً » رواه الخمسة إلا النسائي وفي الحديث الآخر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم » أي صبيانهم رواه الترمذي . وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا لا تطيب أنفسهم ويتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله » الحديث متفق عليه .

وفي حديث عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفل في البداءة الربع وفي الرجعة الثلث ، رواه أحمد وابن ماجة والترمذي . وفي رواية : كان إذا أغار في أرض

العدو نقل الربع وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نقل الثلث. الحديث رواه أحمد . وفي الحديث الآخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » رواه أبو داود وغيره . .

ففي الآيات الكريمات والأحاديث ما يدل على أنه يجب قتال الكفار ابتداء ودفاعاً. ومن أراد زيادة على ما ذكرنا فلينظر إلى الجزء الثالث من الأسئلة والأجوبة الفقهية المقرونة بالأدلة الشرعية من ص ٦٣ إلى ٨٤ في جواب سؤال ٢٦ . وبعد أن جاهد المسلمون في الله حق جهاده فتح الله لهم فاتسعت البلاد الإسلامية مع قلة عددهم وعددهم بالنسبة إلى جيوش أعداء الإسلام فعلت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان .

قال ابن القيم فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ففي هذا تقوية لقلوبهم وبشارة وتثبيت لهم وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه ، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ولا تخلياً عن رسوله ودينه كيف وقد أرسله بدينه الحق ووعده أن يظهره على كل دين سواه ؟ !

وقوله : (وكفى بالله شهيداً) المعنى وكفى بشهادة الله سبحانه إثباتاً لصدق رسوله . قال الله تعالى (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله ونصره

وتأييده ومن أسمائه تعالى الشهيد فلا يغيب عنه شيء . والرقيب والشهيد مترادفان وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمبصرات وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية قال تعالى (والله على كل شيء شهيد) وقال (إن الله كان عليكم رقيباً) .

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله ؛ وعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه .

قال : (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً)

الشهادة الإخبار بالشيء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته . والمعنى : أقر واعترف مصدقاً ومعتقداً أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له ، ولهذا قال : إقراراً به وتوحيداً ، أي إقراراً بالقلب واللسان ؛ وتوحيداً أي إخلاصاً في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية .

وأعظم ما يوحد به ويتقرب إليه به، تحقيق العقيدة السلفية المحتوي عليها هذا الكتاب مع النية الصالحة، فبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال وتقبل وتستقيم الأمور كلها ، فعلى الإنسان أن يجتهد في السعي في إصلاح نيته وليحذر كل الحذر من أن يكون هدفه الدنيا .

فقد ورد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، يعني ريحها » رواه أبو داود .

قال ابن رجب رحمه الله على هذا الحديث :

سبب هذا والله أعلم أن في الدنيا جنة معجلة وهي معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته ، والعلم النافع يدل على ذلك فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة ، ولهذا كان أشد الناس عذاباً في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه وهو من أشد الناس حسرة يوم القيامة حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها فهو كمن معه جوهرة نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع به ، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه ، بل أقبح وأقبح من ذلك من يطلبها باظهار الزهد فيها فإن ذلك خداع قبيح جداً .

وقال رحمه الله : النوع الثاني من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرئاسة على الخلق والتعاظم عليهم وأن ينقاد الخلق له ويخضعون له ويصرفون وجوههم إليه وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم فهذا موعده النار ، لأن قصد التكبر على

لخلق محرم في نفسه . فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان. انتهى .

وعن كعب بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » رواه الترمذي وغيره . قال شيخ الاسلام رحمه الله : كثير من طلبة العلم ليس مقصودهم به إلا تحصيل رئاسة أو مال ولكل امرىء ما نوى، وأما أهل العلم والدين الذين هم أهله فهو مقصود عندهم لنفعه لهم وحاجتهم إليه في الدنيا والآخرة . ولهذا تجد أهل الانتفاع به يزكون به نفوسهم ويقصدون فيه اتباع الحق لا اتباع الهوى ويسلكون فيه سبيل العدل والإنصاف ويحبونه ويتلذذون به ويحبون كثرته وكثرة أهله وتنبعث هممهم على العمل به وبموجبه وبمقتضاه ؛ بخلاف من لم يذق حلاوته وليس مقصوده إلا مالا أو رئاسة فإن ذلك لو حصل بطريق آخر لسلكه وربما رجحه إذا كان أسهل عليه .

وقال : وأكمل أنواع طلب العلم أن تكون همة الطالب مصروفة في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم وفهم مقاصد الرسول صلى الله عليه وسلم في أمره ونهيه وسائر كلامه واتباع ذلك وتقديمه على غيره؛ وليعتصم في كل باب من أبواب العلم بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة الجوامع . انتهى .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

والجهلُ داءٌ قاتلٌ وشفاؤهُ ... أمرانِ في التركيبِ متفقانِ
نصٌّ منَ القرآنِ أو منْ سنّةٍ ... وطبيبُ ذاكَ العالمُ الربّاني
والعلمُ أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... منْ رابعٍ والحقُّ ذو تبيانِ
علمٌ بأوصافِ الإلهِ وفعلِهِ ... وكذلكَ الأسماءِ للرحمنِ
والأمرُ والنهيُ الذي هوَ دينُهُ ... وجزاؤهُ يومَ المعادِ الثاني
والكلُّ في القرآنِ والسننِ التي ... جاءتْ عنِ المبعوثِ بالفرقانِ

وقال بعضهم : واعلم أن للتعلم ست مراتب : أولا حسن السؤال ، ثانياً حسن الإنصات والاستماع ، ثالثاً حسن الفهم ، رابعاً الحفظ ، خامساً التعليم ، سادساً وهي الثمرة العمل به ومراعاة حدوده .

وحرمانه يكون بستة أوجه : أولا ترك السؤال ، ثانياً سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع ، ثالثاً سوء الفهم ، رابعاً عدم الحفظ ، خامساً عدم نشره وتعليمه فمن خزن علمه ولم ينشره ابتلاه الله بنسيانه جزاء وفاقاً ، سادساً عدم العمل به فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فإذا أهمل العمل به نسيه . قال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به وقال بعضهم العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل فما استدر العلم واستجلب بمثل العمل به .

وللعلم ثلاث مراتب: المرتبة الأولى علم اليقين وهو انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئي للبصر، ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها إلى العين كنسبة الأولى للقلب، ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام، فالأولى كعلمك أن في هذا الموضع ماء والثانية كرؤيتك لهذا الماء والثالثة كالشرب منــه .

وقال الشيخ : لو أقام العلماء كتاب الله وفهموا ما فيه من البينات التي هي حجج الله وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهي سنته ، لوجدوا فيها من أنواع العلوم ما يحيط بعلم الناس ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة حيث يقول (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين ، ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمون به فروع الدين وما كان من الحجج صحيحاً ومن الرأي سديداً فذلك له أصل في كتاب الله وسنة رسوله فهمه من فهمه وحرمه من حرمه . اهـ .

٤ ـ أركان لا اله الا الله وشروطها

ولكلمة الإخلاص أركان وشروط . فأركانها اثنان : نفي وإثبات . وحد النفي من الإثبات « لا إله » . أي نافياً جميع ما يعبد من دون الله. والإثبات « إلا الله » أي مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه. وأما شروطها فسبعة لا تصح هذه الكلمة ولا تنفع قائلها إلا إذا استجمعت له الشروط التي تلي :

الأول : العلم ، بمعناها نفيـاً وإثباتاً قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .

الثاني : اليقين ، أي استيقان القلب بهـا قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) إلى قوله (أولئك هم الصادقون) وقال صلى الله عليه وسلم « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة « من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة » كلاهما في الصحيح .

الثالث : الإخلاص ، قـال الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال (ألا لله الدين الخالص)

وعن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

الرابع: الصدق، قال الله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) عن ابن عباس قال من جاء بلا إله إلا الله، وقال (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال صلى الله عليه وسلم «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» متفق عليه. وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم «يشهد أن لا اله إلا الله مستيقناً بها قلبه» الحديث رواه مسلم. وقال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي علمه شرائع الإسلام: «أفلح إن صدق».

الخامس: المحبة، قال الله تعالى: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله» الحديث متفق عليه.. وقال صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى

أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» متفق عليه .

السادس : الانقياد لها ظاهراً وباطناً ، قال الله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) . وقال تعالى (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

السابع : القبول لها ، وقد جمع بعضهم شروط « لا اله إلا الله » في بيت فقال :

عِلمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصِدْقُكَ مَعْ محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لهَـا

فلا يرد شيئاً من لوازمها ومقتضياتها قال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) إلى قوله (بل لما يذوقوا عذاب) وقال أيضاً في حق من لم يقبلها (أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون) إلى قوله (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا اله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا

منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مـــا بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » متفق عليه .

وقد شهد الله لنفسه بالوحدانية في قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فقد تضمنت هذه الآية الكريمة حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال فقد تضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود بـــه .

وعبارات السلف في « شهد » تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والاخبار وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن اعلامه وإخباره وبيانه فلها أربع مراتب : فأول مراتبها علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته . وثانيها : تكلمه بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها . وثالثها : أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له . ورابعها أن يلزمه بمضمونها ويأمره به . فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع علمه بذلك وتكلمه وإخباره لخلقه وأمرهم وإلزامهم به .

فأما مرتبة العلم، فإن الشهادة تتضمنها ضرورة والا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به قال الله تعالى : (إلا من شهد

بالحق وهم يعلمون) ، وقال صلى الله عليه وسلم « على مثلها فاشهد » وأشار إلى الشمس ، وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوابلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان : إعلام بالقول ، وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر ، تارة يعلمه به بقول وتارة بفعل ولهذا كان من جعل داره مسجداً وأبرزها وفتح طريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلماً أنها وقف وان لم يتلفظ ، وكذا شهادة الرب عز وجل وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، وأما بيانه واعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أن لا إله إلا هو ، وقال الآخر :

وفي كُلّ شيءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تدلُّ على أنَّـه الواحِـدُ

لَهُ كُلُّ ذَرَّاةِ الوجُودِ شَوَاهِد ... على أنَّهُ البَارِي الإلهُ المُصَوِّرُ

وقال آخر :

تأمَّلْ سُطُورَ الكائنـاتِ فإنهـا ... منَ المَلِكِ الأعلَى إليكَ رَسَائِلُ

وقد كَانَ فيها لَوْ تأمَّلْتَ خَطُّهـا ... أَلاَ كُلُّ شيءٍ مَـا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر)

فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه . وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به فإن مجرد الشهادة لا يستلزمه لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) وقال (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله وأن ألوهية ما سواه باطلة ، فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً ، ولا إله إلا الله هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وما من رسول إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » وحق هذه الكلمة هو فعل الواجبات وترك المحرمات ، وأما فائدتها وثمرتها فالسعادة في الدنيا والآخرة لمن قالها عارفاً لمعناها عاملا بمقتضاها وأما مجرد النطق فلا ينفع ، قال شيخ الإسلام : من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب والسنة والاجماع . ا هـ .

وقيل لوهب بن منبه أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله قال بلى ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان فان أتيت بمفتاح له أسنان فتح .

قال ابن القيم رحمه الله في هادي الأرواح: وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحاً يفتح به فجعل مفتاح الصلاة الطهور ، ومفتاح الحج الإحرام ، ومفتاح البر الصدقة ، ومفتاح الجنة التوحيد ، ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء ، ومفتاح النصر والظفر الصبر ، ومفتاح المزيد الشكر ، ومفتاح الولاية المحبة ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا .

ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض له والفعل والترك ، ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب ، ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده ، ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوى .

ومفتاح العز طاعة الله ، ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة ، ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل ، وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم وهو معرفة مفاتيح الخير والشر ولا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه .

فإن الله سبحانه جعل لكل خير وشر مفتاحاً وباباً يدخل

منه إليه كما جعل الشرك والكبر والإعراض عما بعث الله به رسوله والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحا للنار، وكما جعل الخمر مفتاح كل إثم ، وجعل الغناء مفتاح الزنا ، وجعل إطلاق النظر في الصور مفتاح العشق والطلب، وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان .

وجعل المعاصي مفتاح الكفر ، وجعل الكذب مفتاح النفاق وجعل الشح والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حله ، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مفتاح كل بدعة وضلال وهذه أمور لا يصدق بها إلا كل من له بصيرة صحيحة وعقل يعرف به ما في نفسه انتهى .

وقال الشيخ رحمه الله : وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات وهي الأصول الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل ، وما أنزل إليهم وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر .

وقال : « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً » .

المعنى : أقر وأصدق التصديق الجازم من صميم قلبي المواطىء لقول لساني بأن محمداً عبد الله ورسوله إلى الناس كافة إنسهم وجنهم شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فيجب تصديقه فيما أخبر به من أخبار ما سبق وأخبار

ما سيأتي ويطيعه في كل أمر وينتهي عما نهى عنه واتباع شريعته والتزم سنته .

فالشهادة للرسول بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد لا تكفي إحداهما عن الأخرى، ولا بد فيهما من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي صلى الله عليه وسلم لربه وكمال رسالته المتضمنة لكماله صلى الله عليه وسلم وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال .

وقد جمع الله فيه أكمل الصفات وأفضلها التي يوصف بها الأنبياء في نفسه وأخلاقه وفي دينه وشريعته وما جاء به وفي آياته وبراهينه المتنوعة التي هي أكثر وأقوى وأوضح من جميع البراهين اليقينية الدالة على صدقه وصحة ما جاء به .

قال ابن القيم رحمه الله : وكما أن محمداً صلى الله عليه وسلم عام الرسالة إلى كل مكلف فرسالته عامة في كل شيء من الدين أصوله وفروعه دقيقة وجليلة فكما لا يخرج أحد عن رسالته فكذلك لا يخرج حكم تحتاج إليه الأمة عنها وعن بيانه لها . . اهـ . وقال الشيخ : جميع الدين داخل في الشهادتين إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله وأن نطيع رسوله والدين كله داخل في هذا ، عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله وكل ما يجب أو يستحب داخل طاعة الله ورسوله .

٥ - الرسول أكمل الخلق وأصدقهم وأعلمهم

وقال : ومن تأمل ما جاء به علم أن مثل هذا لا يصدر إلا عن أعلم الخلق وأصدقهم وأبرهم ، وأن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمداً للكذب مفترياً على الله بالكذب الصريح أو مخطىء جاهل ضال يظن أن الله أرسله ولم يرسله لأن فيما أخبر به وما أمر به من الاحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدى الخلائق وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلا ما بين أنه من العلم والخبرة والمعرفة في الغاية التي باين بها أعلم الخلق وأكملهم .

وفيه من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق ومن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله يدعي هذه الدعوى العظيمة وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وقال : إذا علم الرجل أن محمداً رسول الله بالعقل والنقل والبراهين اليقينية ثم وجد في عقله ما ينازعه في خبره ، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه ، وأن لا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة اليه وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه ، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطب فإذا كان عقله يوجب عليه أن ينقاد لطبيب

يهودي فيما أخبره به من مقدرات من الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص مع ما في ذلك من الكلفة والألم ، لظنه أنه أعلم منه وأنه إذا صدقه أقرب لحصول الشفاء مع علمه أن الطبيب يخطىء كثيراً ، وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب ، بل يكون استعماله لما يصفه سبباً لهلاكه ، ومع هذا يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه ، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والرسل صادقون مصدقون ؟؟

لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط ، ومن عارضهم ففيه من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ، فكيف يجوز أن يعارض من لم يخطىء قط بمن لم يصب في معارضته قط ، وقال عدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في نفسها ، فما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فهو ثابت في نفس الأمر سواء علمنا صدقه أو لم نعلم .

ومن أرسله الله إلى الناس فهو رسوله ، سواء علم الناس أنه رسول أو لم يعلموا ، وما أخبر به فهو حق ، وان لم يصدقه الناس وما أمر به عن الله فهو أمره ، وان لم يطعه الناس فثبوت الرسالة في نفسها ، وثبوت صدق الرسول ، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ليس موقوفاً على وجودنا فضلاً عن أن يكون موقوفاً على عقولنا أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا ، وهذا كما أن وجود الرب وما يستحقه من الأسماء والصفات ثابت في نفس الأمر ، سواء علمناه أو

لم نعلمه .

فتبين بذلك أن العقل ليس أصلا لثبوت الشرع ، ولا معطياً له صفة لم تكن له ولا مفيداً له صفة كمال ، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم فالعلم تابع ليس مؤثراً فيه ، فإن العلم نوعان : أحدهما العلمي وهو ما كان شرطاً في حصول المعلوم ، كتصور أحدنا ما يريد أن يفعله ، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج إليه . والثاني الخبر النظري ، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم ، كعلمنا بوحدانية الله وأسمائه وصفاته ، وصدق رسله وملائكته وكتبه ورسله وغير ذلـــك .

فإن هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نعلمها فهي مستغنية عن علمنا بها ، والشرع مع العقل هو من هذا الباب ، فإن الشرع المنزل من عند الله ثابت بنفسه ، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه .

وهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا ، فإن العقل اذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به ، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلا ناقصاً . اهـ .

وقال : ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبتة بل المنقول الصحيح ، لا يعارضه معقول صريح قط ، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما

خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهاً فاسدة ، يعلم بالعقل بطلانها . بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع .

وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار ، كمسائل التوحيد والصفات ، ومسائل القدر والنبوات والمعاد ، وغير ذلك ، وجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه ، إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول .

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول ، بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاؤه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته ، والكلام على هذا الأصل على وجه التفصيل مذكور في موضعه . فإن أدلة النفاة للصفات والقدر ، ونحو ذلك اذا تدبرها العاقل الفاضل ، وأعطاها حقها من النظر العقلي علم بالعقل فسادها ، وثبوت نقيضها . اه .

وقوله (عبده ورسوله الخ) في هذا إشارة للرد على أهل الإفراط الذين غلوا فيه ورفعوه فوق منزلته وارتكبوا ما نهاهم عنه النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو فيه كالبوصيري وأمثاله ، وفيه أيضاً رد على أهل التفريط الذين يشهدون أنه رسول الله حقاً ، ومع ذلك فقد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم واعتمدوا على الآراء المخالفة لما جاء به ، ولم يميزوا بين حق الله وحق رسوله والحق كمشترك .

فحق الله عبادته وحده لا شريك له فأنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله وحده وذلك كالصلاة والحج والذبح والسجود والتوكل والرغبة والرهبة والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والنذر والخوف والرجاء والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير والإنابة والتقى وحق الرسول صلى الله عليه وسلم تعزيره وتوقيره وتبجيله قال الله تعالى (وتعزروه وتوقروه) والحق المشترك هو الإيمان والتصديق والحب قال ابن القيم :

الـربُّ ربٌّ والرسـول فعبـده	حقاً وليس لنا إلـه ثان
فلذاك لم نعبده مثل عبـادة الـر	حمن فعـل المشرك النصراني
كلا ولا نغـلي الغلو كما نُهـى	عنه الرسول مخافة الكفـران
لله حـق لا يكـون لغيره	ولعبده حق همـا حقـان
لا تجعلوا الحقين حقـاً واحـد	من غير تمييز ولا فرقـان
فالحـج للرحمـن دون رسولـه	وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
وكذا السجود ونَذرنـا ويميننـا	وكذا متاب العبد من عصيـان
وكذا التوكـل والإنابـة والتقـى	وكذا الرجاءُ وخشية الرحمن
وكذا العبادة واستعاذتنـا بـه	إياك نعبـد ذان توحيـدان
وعليهمـا قام الوجـود بـأسره	دنيا وأخرى حبذا الركنـان

وكـذا التسـبيح والتـكبير والتهليـل حـق الهنـا الديـان

لكنمـا التعزير والتوقير حـ	ق للرسول بمقتضى القـرآن
والحب والإيمـان والتصديق لا	يختص بل حقان مشتركـان
هـذي تفاصيـل الحقوق ثلاثـة	لا تجهلوها يا أولي العرفـان

وإنما جمع له صلى الله عليه وسلم بين وصفي العبودية والرسالة ، لأنهما أعلى ما يوصف به العبد ، والعبادة هي الحكمة التي لأجلها خلق الله الخلق كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

فكمال المخلوق في تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر الله نبيه بوصفه بالعبودية في أسمى أحواله وأشرف مقاماته ، كالإسراء وقيامه بالدعوة ، قال تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده) وقال : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وذكر بذلك الوصف في مقام الايحاء إليه . وفي مقام التحدي بالذي أنزل عليه قال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقال (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة .

ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة ، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد أن يتراجع الأنبياء : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى . والصلاة لغة الدعاء ، وأصح ما قيل في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال : صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلى ، وآله صلى الله عليه وسلم آل الشخص هم القوم المنتمون إليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابة ونحوها وأحسن الأقوال في آل النبي صلى الله عليه وسلم أنهم أتباعه

على دينه والصحابي كل من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً ومات على ذلك .

وقوله (وسلم تسليماً) مزيداً والسلام بمعنى التحية أو السلامة من النقائص والعيوب ومن كل مكروه ، ومن أسمائه تعالى السلام قال ابن القيم رحمه الله :

وهـــو السلام على الحقيقة ســـالم   من كل تمثيل ومن نقصـــان

وهاتان الجملتان خبريتان لفظاً إنشائيتان معنى ، وجمع المصنف بين الصلاة والسلام اقتـــداء بالآية الكريمة (إن الله وملائكته يصلون على النبي) الآية ،وقوله مزيد صفة لـ (تسليماً) وهو اسم مفعول من زاد المتعدي والتقدير مزيداً فيه .

وقوله : (أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره) .

أما بعد : كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع في المقصود ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي بها في خطبه ومكاتباته ، وتقديرها عند النحويين « مهما يكن من شيء بعد » وقد اختلف في أول من قالها كما أشار إلى ذلك الميداني :

جرى الخُلْفُ أمَّا بَعدُ مَن كانَ بادئاً   بها عُدَّ أقوالٌ وداودُ أقْرَبُ
ويَعقوبُ أيـــوبُ الصبـــورُ وآدمٌ   وقِسٌّ وسُحبانٌ وكَعبٌ ويَعرِبُ

والإشارة في قوله « هذا » إلى ما تضمنته العقيدة والاعتقاد مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به وأصله من عقد البيع ثم استعمل التصميم والاعتقاد الجازم فهو يطلق على التصديق وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين ، والفرقة الطائفة من الناس ووصفها بأنها ناجية أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » .

ومن قوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ونجاتها من الشرور والهلاك في الدنيا والآخرة بسبب استقامتها على الحق وتمسكها بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المنصورة التي أعانها سبحانه وأيدها وقواها على من خالفها إلى قيام الساعة والمراد ساعة موتهم بمجيء الريح التي تقبض روح كل مؤمن وهي الساعة في حق المؤمنين وإلا فالساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق . وأهل بدل من الفرقة بالكسر ويجوز فيها الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم وبالنصب على إضمار فعل تقدير أعني أهل السنة .

قال الشيخ لمن اعترض نعته لأهل السنة بأنهم الفرقة الناجية وزعم أنه إذا كان هذا قول الفرقة الناجية خرج عن ذلك من لم يقل ذلك من المتكلمين : قال الشيخ فقلت لهم : ليس كل من خالفني في شيء من هذا يكون هالكاً فان المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطاياه وقد لا يكون بلغه في ذلك من

العلم ما تقوم عليه الحجة وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته ، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة لا يجب أن يدخل فيها المتأول والتائب وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى بل موجب ذلك أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجياً ، وقد لا يكون ناجياً كما يقال من صمت نجا. اهـ. والسنة لغة الطريقة المجعولة ليقتدي بها قال لبيد :

مِن مَعشر سَنَّتْ لهم آباؤُهم ... ولكلِّ قومٍ سنةٌ وإمامُها

والسنة شرعاً أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وإقراراته ، وأهلها هم المتبعون لها المعتنون بدراستها وفهمها المحكمون لها ونسبوا اليها لتمسكهم بها وانتسابهم اليها دون الطرق الأخرى ، والجماعة في الأصل القوم المجتمعون والمراد بهم هنا سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد تكاثرت الأدلة على لزوم الجماعة فروى الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً أن « يد الله مع الجماعة » وعن أبي ذر مرفوعاً « عليكم بالجماعة ان الله لم يجمع أمتي إلا على الهدى » وعن أبي ذر مرفوعاً « من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » قال السفاريني :

اعلم هديت أنه جاء الخبر ... عن النبي المُقتفَى خيرِ البشر

بأن ذي الأمة سَوْفَ تَفْتَــرِقْ   بضعاً وسبعينَ اعتقاداً والمُحِقْ
ما كان في نَهْجِ النبي المصطفــى   وصحبه. من غيرِ زيغٍ وجفـا
وليس هذا النصُّ جزماً يُعْتَبَـــرْ   في فِرقةٍ إلا على أهلِ الأثــرْ

وقال أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب « الحوادث والبدع » حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيراً لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال السنة والذي لا اله إلا هو بين الغالي و الجافي فاصبروا عليها رحمكم الله فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فما بقي الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعتهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك كونوا . انتهى.

٦ ـ الأركان الستة وكيفية الإيمان بها

١ ـ الركن الأول : الإيمان بالله

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه وأنه الخالق الرازق المحيي المميت وأنه المستحق لأن يفرد بالعبودية والذل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأنه المتصف بصفات

الكمال المنزه من كل عيب ونقص، وهذا هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء شخصية المسلم .

وفي كتاب العقل والنقل : الإقرار بالصانع ضروري فطري لا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق للخالق فهم يحتاجون إليه من جهة ربوبيته إذ كان هو الذي خلقهم وهو الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار وكل ما حصل من أحد فإنما هو بخلقه وتقديره وتسببه وتيسيره وهذه الحاجة التي توجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم كما يخاطبهم بذلك في كتابه وهم محتاجون إليه من جهة ألوهيته فإنه لا صلاح لهم إلا أن يكون هو معبودهم الذي يحبونه ويعظمونه ولا يجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله بل يكون ما يحبونه كأنبيائه وصالحي عباده إنما يحبونهم لأجله .

ومعلوم أن السؤال والحب والذل والخوف والرجاءوالتعظيم والاعتراف بالحاجة والافتقار ونحو ذلك مشروط بالشعور بالمسؤول المحبوب المرجو المخوف المعظم الذي تعترف النفوس بالحاجة إليه والافتقار الذي تواضع كل شيء لعظمته واستسلم كل شيء لقدرته وذل كل شيء لعزته . فاذا كانت هذه الأمور مما تحتاج النفوس اليها ولا بد لها منها بل هي ضرورية فيها كان شرطها ولازمها وهو الاعتراف بالصانع والإقرار به أولى أن يكون ضرورياً في النفوس . وأصل الايمان قول القلب وعمله وعبوديته للخالق والقلب مفطور على هذا وهذا .

وقال : وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره

أشد وأكثر كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر ، وكانت طرق معرفته أظهر وأكثر ، وكانت الأسماء المعرفة له أكثر ، وكانت معانيه أدل. ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه ، وكان ذكرهم لأسمائه أعظم من ذكرهم لأسماء ما سواه . وله سبحانه في كل لغة أسماء وله في اللغة العربية أسماء كثيرة . والصواب الذي عليه جمهور العلماء أنها لا تنحصر في تسعة وتسعين كما في أحاديث أخر .

وفيه من القضايا الكلية الضرورية أن كل محدث لا بد له من محدث وكل مفعول ومصنوع لا بد له من فاعل وصانع وكل ممكن لا بد له من واجب والآية والدلالة يجب أن يكون ثبوتها مستلزماً لثبوت المدلول الذي هو آية وعلامة عليه إلى أن تندرج تحت قضية كلية ، واذا كان كذلك فجميع المخلوقات مستلزمة للخالق بعينه وكل منها يدل بنفسه أن له محدثاً بنفسه والعلم بأفراد ذلك لا يحتاج إلى العلم بالقضية الكلية ، وهو أن كل محدث فلا بد له من محدث .

وفيه : ومن أنكر من أهل الإلحاد وجود الرب قيل له معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه ، وإما غير واجب بنفسه ، واما قديم أزلي ، واما حادث كائن بعد أن لم يكن ، واما مخلوق مفتقر إلى خالق ، واما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق ، وإما فقير إلى ما سواه ، وإما غني عما سواه ، وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه ، والحادث

لا يكون إلا بقديم والمخلوق لا يكون إلا بخالق ، والفقير لا يكون إلا بغني عنه فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه ، وما سواه بخلاف ذلك .

وقد علم بالحس والضرورة وجود موجودات سواه ، وما سواه بخلاف ذلك وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن ، والحادث لا يكون واجباً بنفسه ولا قديماً أزلياً ، ولا خالقاً لما سواه ، ولا غنياً عما سواه .

فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما غني والآخر فقير ، وأحدهما خالق والآخر مخلوق ، وهما متفقان في كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً ليس أحدهما مماثلا للآخر في حقيقته إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه وأحدهما غني عن كل ما سواه والآخر ليس بغني ، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق .

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب ، فيلزم اجتماع النقيضين على تقدير تماثلهما وهو منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع مع اتفاقهما في أمور أخرى كما أن كلا منهما موجود ثابت له حقيقة وذات هي نفسه فعلم بهذه البراهين اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا للباطل ، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلا للباطل والله أعلم .

وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه فان الله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك ، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعمله وقدرته والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه (اه من م م) .

وفيه : وبين الخالق والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على ذي بصيرة منها أن الرب غني بنفسه عما سواه ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية ، ومنها ان الرب وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين ، فهو يخلق ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته ، والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره .

ومنها : أن الرب أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه عنه بخلا عليه ، ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك ، مما يحصل به العلم والعمل الصالح وهو الهادي لعباده فلا حول ولا قوة إلا به ، ولهذا قال أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) وليس يقدر المخلوق على شيء . ومنها أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر القليل منهما فكيف والعبادة من نعمته أيضاً .

قال بعضهم :

إذا كان شكري نعمةَ نعمةٌ علَيَّ إذاً في مِثْلِها يَجِبُ الشُكْرُ
فكَيفَ بلوغُ الشُكْرِ إلا بفضلِهِ وإن طَالَتْ الأيامُ واتّصَلَ العُمْرُ

ومنها أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته فلن يدخل أحد الجنة بعمله ، وما من أحد إلا وله ذنوب تحتاج إلى مغفرة الله . اهـ من كتاب التوسل والوسيلة .

٢ ـ الركن الثاني : الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور ، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون يسبحون الليل والنهار لا يفترون وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها ، ويجب الإيمان على التفصيل بمن ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك . فجبريل هو الموكل بأداء الوحي وهو الروح الأمين ، وميكائيل الموكل بالقطر ، وإسرافيل الموكل بالصور ، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح .

ومنهم الموكل بأعمال العباد . وهم الكرام الكاتبون ومنهم الموكل بحفظ العبد من بين يديه ومن خلفه وهم المعقبات . ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه . ومنهم

الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه ، ومنهم الموكل بفتنة القبر وهم منكر ونكير ، ومنهم حملة العرش .

ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام وكتابة ما يراد بها ، ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون ، ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر وغير ذلك .

ويجب الإيمان بمن لم يرد تعيينه باسمه المخصوص ولا تعيين نوعه المخصوص إجمالا والله أعلم بعددهم ، قال تعالى : (كل آمن بالله وملائكته) الآية . وقال تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة) الآية . فجعل الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله (ومن يكفر بالله وملائكته) الآية .

وفي حديث جبريل « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه » فهذه الأصول اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل وجميع الرسل عليهم السلام وجميع أهل الملل يعلمون قطعاً أن الملائكة ليست كما يقول الزنادقة أنها قوى معنوية ، وإنما هم مخلوقون من نور كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

وأنهم كما وصفوا بالكتاب والسنة ومن زعم أن جبريل هو العقل الفعال وهو ما يتخيل من نفس النبي صلى الله عليه

وسلم من الصور الخيالية وكلام الله ما يوجد في نفسه كما يوجد في نفس النائم فهذا مما يعلم كل من علم بما جاء به الرسول أنه من أعظم الأمور تكذيباً للرسول ويعلم أن هؤلاء أبعد عن متابعة الرسول من كفار اليهود والنصارى وأن هذا كلام زنادقة الفلاسفة .

٣ ــ الركن الثالث : الإيمان بكتب الله

الإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه حقيقة وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق ولا يعلم عددها إلا الله وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمي منها وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسى .

قال الله تعالى : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) وقال : (وآتينا داود زبورا) وقال : (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى) وقال : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) فيجب الإيمان بها على التفصيل والبقية إجمالا .

ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل والتحريف .

قال الله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

ومنزلة القرآن من الكتب المتقدمة كما ذكر الله فيه قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) . وقال : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) . وقال : (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

قال المفسرون : مهيمناً مؤتمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب ومصدقاً لها يعني يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتغيير وتبديل فما شهد له بالصدق فهو المقبول وما شهد له بالرد فهو المردود وله يخضع كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه . قال الله تعالى : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) .

ويجب على كل أحد اتباعه ظاهراً وباطناً والتمسك به والقيام بحقه . قال الله : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقال : (اتبعوا ما أنزل إليكم من

ربكم) وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب الله فقال « خذوا بكتاب الله وتمسكوا به » وفي حديث علي مرفوعاً : « إنها ستكون فتن قلت ما المخرج منها يا رسول الله قال : كتاب الله » وذكر الحديث .

ومعنى التمسك به والقيام بحقه حفظه وتلاوته والقيام به آناء الليل والنهار وتدبر آياته وإحلال حلاله وتحريم حرامه والانقياد لأوامره والانزجاز بزواجره والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه والوقوف عند حدوده والذب عنه لتحريف الغالين المبطلين والنصيحة له بكل معانيها والدعوة إليه على بصيرة .

وفي جواب أهل العلم والإيمان : السلف متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب وهو أعلى منها درجة فإنه قرر ما فيها من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بياناً وتفصيلا وبين الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها وبين ما حرف منها وبدل وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه .

وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي

نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما قبله من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات وكذلك معنى الشهادة والحكم يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ .

ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ففيه دعوة الرسول وهداية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته وفيه ما جاء به الرسول وفيه أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفصيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن .

ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون من أصناف العلماء في أصناف العلوم والفنون لم يجد عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر ولا كتاب آخر فضلا عن أن تحتاج شيئاً لا يستقل بنفسه عن غيره سواء كان من علوم النقل أو علوم العقل ولله الحمد .

وقال : ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل أو الحس إلا وفي القرآن بيان معناه فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبياناً للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول إما أن لا يعرفوا اللفظ وإما

أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة .

ومن ههنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعاً كالفتن التي تحدث بالسيف ، فالفتن القولية والفعلية من الجاهلية بسبب خفاء النور عنهم فاذا انقطع عنهم نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم .

وفي كتاب العلم المأمول من ما نقله من كتاب العقل والنقل لشيخ الإسلام رحمهما الله . والمقصود أنه لو ساغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله ويعارضوه بارائهم ومعقولاتهم لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى فان الذين سلكوا هذا السبيل كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه والمسلمون يشهدون عليه بذلك .

فثبت بشهادته وإقراره على نفسه وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الأرض أنه لم يظفر من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن إليه ولا معرفة يسكن بها قلبه والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولا صريحاً يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول فصار ما يدعى معارضته للكتاب والسنة من المعقولات ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة وإما بظهور تناقضهم ظهوراً لا ارتياب فيه وإما لمعارضة آخرين من أهل

هذه المعقولات لهم بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه .

والناس إذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على الأخرى بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى فامتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الأقوال التي يسمونها معقولات وإن كان ذلك قد قالته طائفة كبيرة لمخالفة طائفة كبيرة لها ، ولم يبق إلا أن يقال إن كل إنسان له عقل فيعتمد على عقله وما وجده معارضاً لأقوال الرسول من رأيه خالفها وقدم رأيه على نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومعلوم أن هذا أكثر ضلالا واضطراباً .

فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا إلى معقول صريح يناقض الكتاب بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ما سلكوه من العقليات فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب ، فالأول «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » والثاني «كظلمات في بحر لجي » الآية وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور ثم ذكر الآيات المتعلقة بذلك ا هـ .

٤ – الركن الرابع : الإيمان بالرسل :

الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن لله رسلا أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ومعادهم اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يهمل خلقه بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين فيجب الإيمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل والإيمان جملة بأن لله رسلا غيرهم وأنبياء لا يحصي عددهم إلا الله ولا يعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا .

قال الله تعالى : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) وعدد المذكورين في القرآن خمسة وعشرون وهم آدم ، نوح ، إدريس ، صالح ، إبراهيم ، هود ، لوط ، يونس ، إسماعيل ، إسحق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، اليسع ، ذو الكفل ، داود ، زكريا ، سليمان ، إلياس ، يحيى ، عيسى ، محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

موضوع الرسالة

وموضوع الرسالة التبشيرية والتنذير قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) والحكمة في ذلك دعوة أممهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وأفضل المرسلين أولو العزم وهم المذكورون في سورة الشورى ،

قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى الآية) ، وقال ؛ (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) .

وأفضل أولياء الله أنبياؤه وأفضل أنبيائه المرسلون وأفضل المرسلين أولوا العزم وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد والحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم وهم آخر الأمم خلقا وأولهم بعثاً ومن حين بعثه الله جعله الفاروق بين أوليائه وبين أعدائه فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه ظاهراً وباطناً ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أوليائه ، بل من خالفه كان من أعدائه وأولياء الشيطان . اهـ . (من م م) .

ما يجوز على الرسل وما يجب علينا نحوهم

الواجب علينا نحو الرسل والأشياء التي تجوز عليهم والأدلة

على صدقهم وما أيدهم الله به : يجب علينا تصديقهم وأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمروا به وبينوه بياناً واضحاً شافياً كافياً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحل خلافه .

قال الله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) الآية ، ويجب علينا الإيمان بأنهم معصومون من الكبائر وأما الصغائر فقد تقع منهم والكتاب والسنة يدلان على ذلك ولكن لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها ويجب احترامهم وأن لا يفرق بينهم .

قال ابن كثير على قوله تعالى :

(ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً) .

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فامنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد صلى الله عليه وسلم .

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر

الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فمن رد نبوته للحسد أو للعصبية أو للتشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً إنما هو عن غرض وهوى وعصبية اهـ .

ويجب الاهتداء بهديهم والائتمار بأمرهم والكف عن ما نهوا عنه ويجب الاعتقاد أنهم أكمل الخلق علماً وعملا وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقاً وأن الله خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد وبرأهم من كل خلق رذيل ويجب محبتهم وتعظيمهم ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم . ويجوز في حقهم شرعاً وعقلا النوم ، والنكاح والأكل والشرب والجلوس والمشي والضحك وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية .

فهم بشر تعتريهم ما يعتري سائر أفراده فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتل الأنبياء كما أخبر الله بذلك في كتابه بقوله سبحانه (ويقتلون الأنبياء بغير حق) .

ومن الأدلة على ما ذكرنا أولا من أنه يجوز في حقهم أشياء قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين . إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) وقال عز من قائل (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام).

وقال صلى الله عليه وسلم : « لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر . وأتزوج النساء » . وكان صلى الله عليه وسلم يمرض ويتألم ويشتكي ، وكان يصيبه الحر والبرد . والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب . ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه .

وأما الأدلة على صدق الرسل فكثيرة . أعظمها شهادة الله لهم بأنهم صادقون قال الله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) وقال عز شأنه (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) وقال عز من قائل عن إسماعيل عليه السلام (إنه كان صادق الوعد) وقال عن إبراهيم (إنه كان صديقاً نبياً) وقال (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب إلى غير ذلك من الأدلة . فهم أصدق الخلق على الإطلاق . عليهم أفضل الصلاة والسلام . وأيدهم بالدلائل الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة . فمن أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم الذي أعجز الورى كلهم ، ومثل انشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب ومعراجه إلى السماء ، إلى سدرة المنتهى ، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام . وكفاية الله أعداءه وعصمته من الناس ، وإجابة دعائه . وإعلامه بالمغيبات الماضية ، والمستقبلة .

فالقرآن جاء به ذكر عن آدم ونشأته وما وسوس به إليه إبليس وما وقع له من الهبوط إلى الأرض بعد أن كان في الجنة وحدثنا عن نوح عليه السلام وما لقيه من قومه من أذى وسخرية وما

دعا الله به وما أرشده الله إليه من صنع الفلك وركوبه وإنجائه وأصحاب السفينة ودعوته لابنه وعصيانه له وانهمار السماء وتفجر الأرض عيوناً وغرق الكافرين ونجاة المؤمنين .

وأخبر القرآن عن موسى عليه السلام وما تم عند ولادته وما وقع له في مصر وما حدث له في مدين وما رآه في جبل الطور وما كلف به من أعباء الرسالة وما دار بينه وبين فرعون من حوار وما جرى من السحرة وما انتهى إليه أمر فرعون وملئه وموسى وقومه وأخبر القرآن الكريم عن عيسى وأمه عليهما السلام وما وقع لهما من الخوارق وما صنعه لهما بنو إسرائيل من مكائد وأخبره عن غيرهم من الأنبياء قال الله تعالى (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) الآيات .

وقال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) الآية وقال (ذلك من أنباء الغيب نوحيها اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعلمها عن مشاهدة ولكن أعلمه أياها الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء قال تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) .

وأخبر صلى الله عليه وسلم بأمور غيبية عن القرآن قال الله تعالى (وعدالله اللذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) الآية وتحقق الوعد وقال (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء

الله آمنين) الآية وقال (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) وقوله (سيهزم الجمع) الآية فكان ما أخبر به على أتم الوجوه .

ومن هذا الباب إخباره عن مكنون الضمائر فيما أتى به من القرآن فقال (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) وقال الله تعالى (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) إلى غير ذلك من الآيات .

قال الشيخ : ومثل إخبار أهل الكتاب قبله . وبشارة الأنبياء به . ومثل إخبار الكهان والهواتف به . ومثل قصة الفيل . التي جعلها الله آية في عام مولده من العجائب الدالة على نبوته .

ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين . بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه . وبعد مبعثه . ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله من غير أن يعلمه إياها بشر . اهـ .

وكما أيد الله موسى بالآيات البينات . قال تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وكما أيد الله سائر رسله . مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة . وأخلاقهم الفاضلة الجميلة . من سلامة الفطرة والعفاف . والكرم والشجاعة . والعدل والنصح .

وحاصل جواب الشيخ في إثبات الوساطة بين الله وبل

عباده ، أنها على قسمين : واسطة من تمام الدين والإيمان إثباتها وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الرسل ، وسائط بين الله وبين عباده في تبليغ دينه ، وشرعه ، وواسطة شركية وهي التقرب إلى أحد من الخلق ليقربه إلى الله ، وليجلب له المنافع التي لا يقدر عليها إلا الله ، أو يدفع عنه المضار .

فهذا النوع من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، فالخلق مضطرون إلى وساطة الرسل في تبليغ الدين . وليس بهم حاجة إلى وساطة أحد في طلب الحوائج من الله فليس بين العبد وبين الله حجاب . ولا واسطة . اهـ من العلم المأمول .

وفي كتاب العقل والنقل ، الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل ، وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق . وأنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله ، من الخبر والطلب ، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ . كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين ، واليهود والنصارى ، وغيرهم .

فوجب أن جميع ما يخبر الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ، ولا سمعي ، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزماً قاطعاً أنه حق ، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به ، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي لا عقلي ، ولا سمعي ، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك ، فإنما هو بحجج داحضة وشبه من جنس شبه السوفسطائية .

وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك ، وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح ، كان هذا العقل شاهداً بأن كل ما خالف خبر الرسول ، فهو باطل ، فيكون هذا العقل والسمع جميعاً شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع ، وفيه : والكلام هنا إنما هو لمن علم أن الرسول صادق وأن ما جاء به ثابت ، وأن إخباره لنا بالشيء يفيد تصديقاً بثبوت ما أخبر به .

فمن كان هذا معلوماً له امتنع أن يجعل العقل مقدماً على خبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما من أفصح بحقيقة قوله وقال إن كلام الله ورسوله في التوحيد وأمور الغيب لا يستفاد منه علم بالحقيقة ، فهذا لكلامه مقام آخر .

وقال الشيخ رحمه الله : إذا تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ، فالواجب أن يقال : لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين ، وإما أن يكون أحدهما قطعياً ، والآخر ظنياً ، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، وهذا متفق عليه بين العقلاء .

لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة ، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان ، وأحدهما يناقض مدلول الآخر ، لزم الجمع بين النقيضين وهو محال ، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها

قطعية ، فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي . أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين ، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين ، وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر ، فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء ، سواء كان هو السمعي أو العقلي ، فإن الظن لا يدفع اليقين .

وأما إن كانا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما ، فأيهما ترجح ، كان هو المقدم سواء كان سمعياً أو عقلياً . ا هـ . ولا يعلم عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صحيح أجمع المسلمون على نقيضه فضلا عن أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء فإن ما يعلم بالعقل الصريح البين أظهر مما لا يعلم إلا بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية .

فإذا لم يوجد في الأحاديث الصحيحة ما يعلم نقيضه بالأدلة الخفية كالاجماع ونحوه فأن لا يكون فيها ما يعلم نقيضه بالعقل الصريح الظاهر أولى وأحرى . ولكن عامة موارد التعارض هي من الأمور الخفية المشبهة التي يحار فيها كثير من العقلاء كمسائل أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله وما بعد الموت من الثواب والعقاب والجنة والنار والعرش والكرسي وعامة ذلك من أنباء الغيب التي تقصر عقول أكثر العقلاء عن تحقيق معرفتها بمجرد رأيهم .

ولهذا كان عامة الخائضين فيها بمجرد رأيهم إما متنازعين مختلفين وإما حيارى متهوكين وغالبهم يرى أن أمامه أحذق

منه في ذلك ولهذا تجدهم عند التحقيق مقلدين لأئمتهم فيما ان من العقليات المعلومة بصريح العقل فتجد أتباع أرسطو يتبعونه فيما ذكره من المنطقيات والطبيعيات والإلهيات مع أن كثيراً منهم قد يرى بعقله ما قاله أرسطو وتجده لحسن ظنه به يتوقف في مخالفته أو ينسب النقص فى الفهم إلى نفسه مع أنه يعلم أهل العقل المتصفون بصريح العقل أن في المنطق الخطأ البين ما لا ريب فيه كما ذكر في غير هذا الموضع .

وقال ابن القيم رحمه الله مشيراً إلى نصوص الشرع :

ونصوصه ليست تعارض بعضها بعضاً فسل عنها عليم زمان

أو أن يكون البعض ليس بثابت ما قاله المبعوث بالقرآن

وإذا ظننت تعارضاً فيها فذا من آفة الأفهام والأذهان

وقال :

وإذا تعارض نص لفظ وارد والعقل حتى ليس يلتقيان

فالعقل إما فاسد ويظنه الـ ـرائي صحيحاً وهو ذو بطلان

أو أن ذاك النص ليس بثابت ما قاله المعصوم بالبرهان

وفي « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » الدلائل الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به

غيره والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع ، وعمل صالح ، إلا وهو في القرآن أو مثله ، أو أكمل منه وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ، ما لا يوجد في التوراة والإنجيل فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوة محمد وصلى الله عليه وسلم ولا يفعل ذلك إلا من هو أجهل الناس وأضلهم ، أو من هو أعظمهم عناداً واتباعاً لهواه .

وقال : ومن صدق محمداً فقد صدق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، من كذبه فقد كذب كل نبي ، ومن عصاه فقد عصا كل نبي » اهـ .

وقال : ويجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إيماناً مجملا عاماً ولا ريب أن معرفة ما جاء به على التفصيل فرض كفاية ، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله وداخل في تدبر القرآن وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجب على الكفاية منهم وأما ما وجب على أعيانهم فهو

يتنوع بتنوع قدرهم وحاجتهم ومعرفتهم وما أمر به أعيانهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم ، أو عن فهم دقيقة ما يجب على القادر على ذلك ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ، ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتي والمحدث والمجادل ، ما لا يجب على من ليس كذلك ا هـ (من كتاب العقل والنقل) .

وقال : ولا ريب أن من لقي الله بالإيمان بجميع ما جاء به الرسول مجملا مقراً بما بلغه من تفصيل الجملة غير جاحد لشيء من تفاصيلها أن يكون بذلك من المؤمنين ، إذ الإيمان بكل فرد من تفصيل ما أخبر به الرسول وأمر به غير مقدور للعباد ، إذ لا يوجد أحد إلا وقد خفي عليه بعض ما قاله الرسول ا هـ (من التسعينية) .

وقال : ضمن الله السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله وتوعد بالشقاء لمن لم يفعل ذلك ، فطاعة الرسول هي مناط السعادة وجوداً وعدماً ، وهي الفارقة بين أهل الجنة والنار ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس فدل الخلق بما بينه لهم ، وقال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فمن اجتهد بطاعة الله ورسوله بحسب الاستطاعة كان من أهل الجنة والله يرفع درجات المتقين المؤمنين بعضهم على بعض بحسب إيمانهم وتقواهم ، ا هـ .

٥ ــ الركن الخامس : الإيمان بالبعث

البعث لغة التحريك والإثارة وشرعاً إعادة الأبدان وإدخال

الأرواح فيها فيخرجون من الأحداث أحياء مهطعين إلى الداعي كما ذكر الله تعالى (خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) وقال : (يوم يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون) الآيتين . وقال : (فإنما هي زجرة واحدة ، فإذاهم بالساهرة) ، (وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) ، وقال (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) ، وقال : (ان كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) وقال : (وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) ، وقال : (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) الآيتين . وقال : (وأن الله يبعث من في القبور) ، وقال : (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) وقال : (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا انتم تخرجون) ، وقال : (ومنها نخرجكم تارة أخرى) ، وقال : (فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم ينظرون) ، وقال : (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) .. وقال : (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا) وحيث أنه يوجد قسم من الناس قد عميت بصائرهم يثبتون بعث الأرواح دون الأجسام رأيت أنه من المناسب سوق آيات واضحات الدلالة على بعث الأجساد . قال تعالى :

١ ــ (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) .

٢ ــ (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

٣ ـ (فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) .

٤ ـ (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة)

٥ ـ (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) .

٦ ـ (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) .

٧ ـ (كما بدأنا أول خلق نعيده) .

٨ ـ (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) .

٩ ـ (حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ـ الآية) .

١٠ ـ (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) .

١١ ـ (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ـ الآية) .

١٢ ـ (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) .

ومن السنة ما ورد عن المقداد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر

أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم إلى ركبته ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمهم العرق إلجاماً وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فيه » . رواه مسلم .

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم « فيختم على فيه ، ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق » ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للعاص بن وائل ، وقد جاء بعظم قديم ففتته بيده وقال : يا محمد يحي الله هذا بعد ما أرم ؟ قال : « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » فنزلت هذه الآية الكريمة : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) إلى غير ذلك ، من الآيات والأحاديث الكثيرة الصريحة الدالة على ذلك والإيمان بالبعث واجب لما تقدم ولما يأتي وإنكاره كفر ناقل عن الملة الإسلامية بالكلية قال الله تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) وقال : ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) هذه الآية ليس لها نظير الا آيتان أخريان يأمر تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد : الأولى آية التغابن التي سقناها قبل هذه وفي سورة سبأ : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب) الآية .

فيا عَجباً ممن يُضيع حيَاتـــه على حِفْظِ مالٍ وهو لِلْفقير يَدْخرُ
ومنْ تُتَوفّى نفسُه كلَّ ليلـــةٍ وتَرْجِعُ فيه كيف للبَعْثِ يُنْكِرُ
بـــلى قادرٌ أنشـــاهُ أوّل مـــرّةٍ على ردِّ رُوْحٍ منه في الجسمِ أقْدرُ

ومن السنة ما ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمي ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه أياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد » وفي رواية عن ابن عباس « وأما شتمه إياي فقوله لي ولد وسبحاني أن أتخذ صاحبه أو ولداً » رواه البخاري .

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو الصبورُ عــلى أذَى أعدائِـهِ شَتَموهُ بَـلْ نسبُـوهُ لِلبُهتانِ
قالُــوا لَــهُ وَلدٌ وليس يُعيدُنـَـا شَتْماً وَتكْذِيْبــاً مِن الإنســانِ
هَــذَا وذَاكَ بسَمْعِــهِ وبعِلْمِــهِ لَوْ شَاءَ عَاجَلَهُمْ بكلِ هَــوَانِ
لكن يُعافِيهِــمْ وَيَرْزُقُهُمْ وهُــمْ يُؤْذُونَــهُ بالشِرْكِ والكُفْــرانِ

قال الشيخ : الإعادة بعد الممات يعيد الله الخلق بعدمـــا استحالت أجسامهم إلى غيرها فيعيدها من تلك الأجزاء التي انقلبت واستحالت اليها خلقة كاملة مخلوقة للبقاء والنشأة الأولى خلقة فساد وفناء ، فالنشأة الأولى والثانية نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ويفترقان ويتنوعان من

وجه آخر ولهذا جعل المعاد هو المبدأ وجعل مثله أيضاً فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو وباعتبار ما بين النشأتين من الفروق فهو مثله .

وقال الشيخ : أصول الدين الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم قد بينها الله في القرآن أحسن بيان وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة تتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق وأهل البدع ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق وكل ما خالفوا فيه الشرع ، فقد خالفوا فيه العقل فإن الذي بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء هو حق وصدق وتدل عليه الأدلة العقلية فهو ثابت بالسمع والعقل والذين خالفوا الرسل ليس معهم سمع ولا عقل كما أخبر الله عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ، (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فالشرع هو الحق والعدل والقسط والصدق ، وما بعد الحق إلا الضلال .

وقال : فالمسلمون سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وعلى وجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فانه يدخله الجنة ولا يعذب وعلى أن من لم يؤمن بأن

محمداً رسول الله فهو كافر وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد الإيمان التي اتفق عليها المنتسبون للاسلام والإيمان فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد وبعض معاني الأسماء أمر خفيف بالنسبة إلى ما اتفق عليه من أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة مشهود لهم بالضلالة ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم وإنما يتنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ا هـ .

٦ ـ **الركن السادس : الإيمان بالقدر**

الإيمان بالقدر : التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره وأنه الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإرادته ولا يخرج عن مشيئته ، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره ولا محيد لأحد عن القدر ولا يتجاوز ما خط في اللوح المحفوظ وأنه خالق أفعال العباد من الطاعات والمعاصي ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وبهذا الركن تتم الأركان الستة ، وقال ابن القيم :

فالرسل متفقون قطعاً في أصو ل الدين دون شرائع الايمان

كل له شرع ومنهــــاج وذا في الأمر لا التوحيد فافهم ذان

فالدين في التوحيــد دين واحــد لم يختلف منهم عليه اثنــان

دين الالــه اختـــاره لعبـاده ولنفسه هو قيم الأديـــان

فمن المحال بأن يكون لرسلــه في وصفه خبران مختلفــان

وكذاك نقطع أنهم جاءوا بعـد ل الله بين طوائف الانسان

وكذاك نقطع أنهم أيضاً دعــوا للخمس وهي قواعد الإيمـان

إيمـــاننا بـــالله ثم برسلــه وبكتبــه وقيامــة الأبـدان

وبجنده وهــم الملائكــة الأولى هم رسله لمصالح الأكـوان

هذي أصول الدين حقاً لا أصـــول الخمس للقاضي هو الهمدان

وقف لله تعالى

اثبات صفات الله

بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف ولا تكييف

(« قوله : ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل »)

هذا شروع في التفصيل بعد الإجمال ومن هنا للتبعيض والمعنى ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذي هو أعظم الأصول وأساسها وهو الإيمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه الخ . التحريف : هو التغيير والتبديل واصطلاحاً تغيير ألفاظ الأسماء الحسنى والصفات العلى ومعانيها وهو ينقسم إلى قسمين تحريف لفظ وتحريف معنى كقول الجهمي في قوله تعالى (استوى) . استولى بزيادة اللام وكقول اليهود في قوله تعالى (وقولوا حطة) حنطة وكقول بعض المبتدعة في قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) بنصب الجلالة وكقول بعض المبتدعة ان تفسير الغضب إرادة الانتقام وكتفسيرهم

للرحمة بإرادة الإنعام قال ابن القيم رحمه الله :

أُمِرَ اليهودُ بأن يقولوا حِطَّةً فأبوا وقالوا حِنْطةً لِهَوانِ
وكذلكَ الجهميُّ قِيلَ لَهُ استَوى فأبى وَزَادَ الحرفَ لِلنُّكْرانِ
قال استَوَى استَوْلَى وذا مِن جَهْلِهِ لُغَةً وعَقْلاً ما هُمَا سِيَّانِ
نونُ اليهودِ ولامُ جَهْميٍّ هُمَا في وَحْيِ ربِ العرشِ زائِدتانِ

وأما التعطيل فهو مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك قال تعالى (وبئر معطلة وقصر مشيد) أي أهملها أهلها وتركوها ، ويقال : جيد عطل ، أي خال من الزينة ، قال امرؤ القيس :

وجِيدٍ كَجِيدِ الرِيمِ ليس بفَاحِشٍ إذا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

والمراد به هنا نفي الصفات الالهية عن الله وإنكار قيامها بذاته أو إنكار بعضها وأنواع التعطيل ثلاثة : أولا تعطيل الله جل وعلا من كماله المقدس وذلك بتعطيل أسمائه وصفاته كتعطيل الجهمية والمعتزلة ، ومن نحا نحوهم .

ثانياً : تعطيل معاملته بترك عبادته أو عبادة غيره معه .

ثالثاً : تعطيل المصنوع من صانعه كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات وأنها تتصرف بطبيعتها فهذا من أبطل الباطل وأمحل المحال إذ لا يمكن وجود ذات بدون صفات .

وأول من قال بالتعطيل في الإسلام الجعد بن د رهم، قال الشيخ . أصل مقالة التعطيل للصفات انما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام - الجعد بن درهم وأخذهـا عنه الجهم ابن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل ان الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان وأخذها ابان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان الجعد فيما قيل مس أرض حران ،كان فيها خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا دين أهل نمروذ ، ونمروذ هو ملك الصابئة الكلدانية المشركين فكانت الصابئة إلا قليلا منهم إذ ذاك على الشرك وعلماؤهم هم الفلاسفة فيكون الجعد أخذها عن الصابئة والفلاسفة فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين. والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين ثم لما عربت الكتب الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم ولما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته وكلام الأئمة كثير في ذمهم وتضليلهم ، انتهى بتصرف .

وقتل الجعد خالد بن عبد الله القسري بعد استشارة علماء زمانه . وذلك في المائة الثانية قال ابن القيم رحمه الله :

ولأجلِهِ ضَحَّى بِجَعْدٍ خالِدُ الْـ ... قَسْرِيُّ يومَ ذبائحِ القُرْبانِ

إذ قالَ إبراهيمُ ليسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا ولا مُوسَى الكَلِيمُ الداني

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لِلهِ دَرُّكَ مِن أخِي قُرْبانِ

وقتل الجهم سلم بن أحوز أمير خراسان . وأما التكييف فهو تعيين الكنه يقال كيف الشيء أي جعل له كيفية معلومة وأما التمثيل فهو التشبيه وينقسم إلى قسمين تشبيه مخلوق بخالق وتشبيه خالق بمخلوق والأول كتشبيه النصارى المسيح بن مريم بالله وكتشبيه اليهود عزيراً بالله وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله . القسم الثاني تشبيه الخالق بالمخلوق كتشبيه المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه فيقولون له وجه كوجه المخلوق ويد كيد المخلوق وسمع كسمع المخلوق وبصر كبصر المخلوق ونحو ذلك .

فلا مذهب التشبيه نرضاه مذهبا ... ولا مقصد التعطيل نرضاه مقصدا

ولكنّ بالقرآن نهدي ونهتدي ... وقد فاز بالقرآن عبد قد اهتدى

تنبيه : الفرق بين التحريف والتعطيل نفي المعنى الحق دل عليه الكتاب والسنة وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق فإن التعطيل أعم مطلقاً من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس وبذلك يوجدان معاً فيمن أثبت المعنى

الباطل ونفي المعنى الحق . ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض .

وقوله رحمه الله :

(« بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسمائه وآياته ولا يكيفون و لا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه لا سمي له ولا كفو له ولا ند»). قال الإمام الشافعي رضي الله عنه آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، وقال الإمام أحمد رحمه الله نؤمن بها ونصدق ولا نرد شيئاً ونعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق وصدق ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شيء وهو السميع البصير انتهى وقال عمر بن عبد العزيز قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا أو ببصر نافذ كفوا ولهم على كشفها كانوا أقوى وبالفضل لو كان فيها أحرى فلئن قلتم حدث بعدما حدث فما أحدثه إلا من خالف هديهم ورغب عن سنتهم وقد وصفوا منه ما يشفي وتكلموا منه بما يكفي فما فوقهم محسر وما دونهم مقصر ولقد قصر عنهم قوم . فجفوا وتجاوزهم آخرون فغلوا وإنهم فيما بين ذلك لعلى صراط مستقيم وقال أبو عمرو الأوزاعي رضي عنه عليك

باثار من سلف وإن رفضك الناس وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول ، وقال محمد بن عبد الرحمن الأدرمي لرجل تكلم ببدعة ودعى الناس إليها هل علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو لم يعلموها قال لم يعلموها قال فشيء لم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علمته أنت ؟! قال فإني أقول قد علموها قال فوسعهم أن لا يتكلموا بها ولا يدعوا الناس إليها أم لم يسعهم ؟! قال بلى وسعهم قال فشيء وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسعك أنت؟! فانقطع الرجل وكان الخليفة حا ضراً فقال لا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم ، وقال عمر بن عبد العزيز سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاته الأمر بعده سنناً الأخذ بها تصديق للكتاب واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد من خلق الله تغييرها ولا النظر في شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا اهـ .

وفيما نقله الشيخ رحمه الله في الحموية من ما ذكره أبو سليمان الخطابي قال وما جاء منها في الكتاب والسنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله وحققها قوم فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف وإنما القصد في ذلك سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله بين الغالي فيه

والمقصر عنه الأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوها ومثاله فإذا كان معلوماً إثبات الباري سبحانه إنما إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه ولسنا نقول إن معنى اليد القوة أو النعمة ولا معنى السمع والبصر العلم ولا نقول إنها جوارح ونشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل ونقول إن القول إنما وجب باثبات الصفات لأن التوقيف وردبها ووجب نفي التشبيه عنها لأن الله ليس كمثله شيء وعلى هذا جرى قول السلف وفي أحاديث الصفات هذا كله كلام الخطابي وهكذا قال أبو بكر بن الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك انتهى .

مذهب السلف في الصفات :

أهل السنة يصدقون ويعتقدون بأن الله سبحانه ليس يشبهه ولا يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله لأن أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وعظمة فهذه الآية هي قطب أهل السنة والجماعة في باب الصفات فإن الله عز وجل قد جمع فيها بين النفي والإثبات فمن فهم هذه الآية حق فهمها وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ويزداد بصيرة إذا تأمل

معنى قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وإثلاج القلوب فبهذه الحجة والبرهان القوي يتحطم كثير من البدع ويرغم بها أنوف طوائف من القاصرين المتكلمين المتأولين ولا سيما إذا ضم إليه قوله سبحانه وتعالى (ولا يحيطون به علماً) وقوله : (السميع البصير) أي وهو السميع لما ينطق به خلقه على اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم البصير الذي أحاط بصره بجميع المبصرات فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الدقيقة وسريان الماء في الأغصان، وهذه الحيوانات التي اطلع عليها أخيراً التي تعادل الذرة الدقيقة آلافاً منها يراها جل وعلا كالشمس ، لا اله إلا هو .

قال بعضهم :

يا مَنْ يَرى مَدَّ البَعوضِ جَنَاحَهـا	في ظُلْمَةِ اللَّيلِ البَهِيمِ الأَلْيَـلِ
ويَرَى مَنَاطَ عُروقِهَا في نَحْرِهَـا	والمُخَّ في تِلكَ العِظَامِ النُّحَّـلِ
امْنُنْ عَلَيَّ بِتَوبَـةٍ تَمْحُـو بِهَـا	مَا كَانَ مِنِّي في الزَّمَانِ الأَوَّلِ

ففي الآية :

أولا ـ رد على المشبهة .

ثانياً ـ فيها رد على المعطلة وهم نفات الصفات من جهمية او معتزلة أو قدرية أو أشاعرة أو غيرهم .

ثالثاً – فيها رد على المعتزلة ونحوهم ممن يثبتون الأسماء دون الصفات .

رابعاً – فيها رد على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون البعض الآخر وهم متناقضون .

خامساً – إثبات صفة السمع .

سادساً – إثبات صفة البصر .

سابعاً – تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

ثامناً – تقديم النفي على الإثبات لأن الأول من التخلية والثاني من التحلية .

تاسعاً – فيها نفي مجمل وإثبات مفصل .

عاشراً – رد على من زعم أن السمع والبصر بمعنى واحد هو العلم .

الحادي عشر – دلالة على كثرة صفات كمال الله ونعوت جلاله وأنها لكثرتها وعظمتها لم يكن له فيها مثل .

الثاني عشر – إثبات صفة الكلام لله .

الثالث عشر – الحث على مراقبة الله في السر والعلانية .

ومراقبة الرب عز وجل علم العبد وتيقنه باطلاع الله على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله

ومطلع على عمله كل وقت وكل لحظة ونفس وطرفه . وقوله فلا ينفون عنه الخ هذا تقرير على ما تقدم فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون الخ والمواضع جمع موضع والمراد بها المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هي المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها وأما الإلحاد فهو الميل والعدول عن الشيء والإلحاد في أسماء الله وصفاته هو الميل بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها إلى الإشراك والتعطيل والكفر ، وأقسامه خمسة : أولا تسمية الله بما لا يليق بجلاله وعظمته كتسمية النصارى له أباً والفلاسفة موجباً بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك . ثانياً أن يسمى بها بعض المخلوقات كتسميتهم اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان . ثالثاً وصفه بما يتقدس ويتنزه عنه كقول اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة إن الله فقير وقولهم يد الله مغلولة وقولهم إن الله استراح يوم السبت تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . رابعاً تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني .

خامساً تشبيه صفاته بصفات خلقه :

وقوله (لأنه لا سمي له الخ) . هذا تعليل لقوله فيما تقدم إخباراً عن أهل السنة أنهم لا يكيفون ولا يمثلون ولا يحرفون ولا يعطلون المعنى ليس له مثيل ولا شبيه ولا موصوف يستحق اسمه وصفته على التحقيق فهو سبحانه المتفضل بجليل النعم وحقيرها وهو المستحق للعبادة والتعظيم الذي يجب الاعتراف

بربوبيته والخضوع لسلطانه وليس المعنى أنه لا يوجد من يتسمى باسمه لأن بعض أسمائه قد يطلق على غيره ومعنى الكفؤ المكافيء المساوي وأما الند فمعناه المساوي المثيل وقد دل على نفي السمي قوله تعالى (هل تعلم له سميا) فان الاستفهام هنا إنكاري معناه النفي ودل على نفي الكفو قوله تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) وأما الند فقال تعالى (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) وخلاصة ما تقدم أن السلف رضي الله عنهم يؤمنون بكل ما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إيماناً سالماً من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته باباً واحداً فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات . فإثباتنا للصفات إثبات بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف • اثبات وجود

قال ابن القيم رحمه الله :

لسنا نشبه ربنا بصفاتنا	إنَّ المشبِّهَ عابدُ الأوثانِ
كلّا ولا نُخْليه من أوصافِه	إن المعطلَ عابدُ البهْتانِ
مَن شبّهَ اللهَ العظيمَ بخلْقِه	فهو الشبيهُ لمشْرِكٍ نصْراني
أو عطّلَ الرحمنَ مِن أوصافِه	فهُوَ الكَفُورُ وليسَ ذا إيْمانِ

المنحرفون عن طريق السلف :

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الفتوى الحموية .

المنحرفون عن طريقة السلف ثلاث طوائف أهل التخييل وأهل التأويل ، وأهل التجهيل .

فأهل التخييل : هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه فإنهم يقولون : إن ما ذكر الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور لا أنه بين به الحق ولا هدى به الخلق ولا أوضح به الحقائق . ثم هم على قسمين منهم من يقول إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه ويقولون إن من المتفلسفة الإلهية من علمها وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم أولياء من علمها ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين . وهذه مقالة غلاة الملحدين من الفلاسفة والباطنية باطنية الشيعة وباطنية الصوفية .

ومنهم من يقول : بل الرسول علمها لكن لم يبينها وإنما تكلم بما يناقضها وأراد من الخلق فهم ما يناقضها لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق ويقول هؤلاء يجب على الرسول أن يدعو الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل قالوا لأنه لا يمكن

دعوة الخلق إلا بهذه الطريقة التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر . وأما الأعمال فمنهم من يقرها ومنهم من يجريها هذا المجرى ويقول إنما يؤمر بها بعض الناس دون بعض ويؤمر بها العامة دون الخاصة فهذه طريقة الباطنية باطنية الملاحدة الإسماعيلية ونحوهم.

وأما أهل التأويل فيقولون أن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه ويعرفوا الحق من غير جهته هذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك والذي قصدنا الرد عليهم في هذه الفتياهم هؤلاء ، إذ كان نفور الناس عن الأولين مشهوراً بخلاف هؤلاء فانهم تظاهروا بنصر السنة في مواضع كثيرة وهم في الحقيقة لا الاسلام نصروا ولا الفلاسفة كسروا .

وأما أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف يقولون إن الرسول لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك وكذا قولهم في أحاديث الصفات أن معناها لا يعلمه إلا الله مع أن الرسول تكلم بها ابتداء فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالى (وما

يعلم تأويله إلا الله) وهو وقف صحيح لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره وبين التأويل الذي إنفرد الله بعلمه وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين وغلطوا في ذلك ، فان لفظ التأويل يراد به ثلاث معاني ، فالتأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهرة تأويلا على إصطلاح هؤلاء وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك وأن للنصوص تأويلا يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه المتأولون ثم كثير من هؤلاء يقولون تجري على ظاهرها فظاهرها مراد مع قولهم ان لها تأويلا بهذا المعنى لا يعلمه إلا الله وهذا تناقض وقع فيه كثير من هؤلاء المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم .

والمعنى الثاني : أن التأويل هو تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه وهذا هو معنى التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) والمعنى الثالث أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وإن وافقت ظاهره اهـ . فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحقيقة يؤول إليها الكلام فتأويل الخبر هو عين المخبر به وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به كما قالت عائشة رضي الله عنها كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي » يتأول القرآن . متفق عليه وقال تعالى (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) ومنه تأويل الرؤيا تأويل العمل كقوله (هذا تأويل رؤياي من قبل) وقوله (ويعلمك من تأويـل الأحاديث) وقوله (ذلك خير وأحسن تأويلا) وقوله (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) وقوله (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) .

وقال رحمه الله : والرسول بلغ البلاغ المبين وبين مراده فكل ما في القرآن والحديث من لفظ يقال فيه أنه يحتاج فيه إلى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره فلا بد أن يكون الرسول قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر إذ لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل ويسكت عن بيان المراد الحق ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم فان هذا قدح في الرسول الذي بلغ البلاغ المبين الذي هدى الله به العباد وأخرجهم به من الظلمات إلى النور وفرق الله به الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الرشاد والغي وبين أولياء الله وأعدائه وبين ما يستحقه الرب من الأسماء والصفات وما ينزه عنه من ذلك حتى أوضح الله به السبيل وأنار به الدليل وهدى به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ا هـ .

وبالتالي فالنبي صلى الله عليه وسلم اهتم بدعوة الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم حتى قال الله له (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفاً) وأشتد حرصه إلى هدايتهم إلى مكارم الأخلاق وتعليمهم الشريعة الفاضلة التي رفعت أهلها أيام كانوا متمسكين بها وجرد نفسه عن الحظوظ البشرية ولذلك انه لما شج رأسه يوم أحد وكسرت رباعيته وحل به ما يذهب بلب الحكيم ورشد الحكيم لم يزد على أن أعتذر لهم مما فعلوا فقال « اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون » ولهذا قال الله عنه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) .

تنبيه : استنتج نفاة الصفات المؤلون لها بدعتهم من أنه لو كان له صفة مثل السمع والبصر واليد والوجه ونحو ذلك لكان له مثيل من عباده ودليلهم قوله تعالى (هل تعلم له سميا) وقوله (ولم يكن له كفواً أحد) والجواب أن يقال لا يلزم من إثبات الصفات لله أن يكون له مثيل أو سمي لأنه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فلله ذات لا تشبهها الذوات وكذلك صفاته لا تشبهها الصفات فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فهو لا سمي له ولا كفو ولا ند ويوصف عملهم هذا بالألغاز والأحاجي والتدليس الذي هو خلاف اللسان العربي المبين فاثباتنا للصفات إثبات بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف وإنما هو إثبات وجود

لا يقاس الله سبحانه وتعالى بخلقه :

(« وقوله : ولا يقاس بخلقه فانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ، ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ») .

القياس في اللغة التمثيل ، قال تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال) فلا يقاس سبحانه بخلقه في أفعاله ولا في صفاته كما لا يقاس بهم في ذاته خلافاً للمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فانهم قاسوه سبحانه بخلقه فشبهوه بهم فوضعوا له شريعة من قبل أنفسهم فقالوا يجب على الله كذا ويحرم عليه كذا بالقياس على المخلوق فالمعتزلة ومن وافقهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات جحدوا بعض ما وصف به نفسه فسموه توحيداً وشبهوه بخلقه فيما يحسن ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلا فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الكاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها وتوحيدهم إلحاد فى أسماء الله الحسنى وتحريف لمعانيها عما هي عليه فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلا وعدلهم شركاً اهـ . (من كلام ابن القيم) .

الخلاصة : أنه لا يجوز أن يشرك هو سبحانه والمخلوق في قياس تمثيل ولا قياس شمول تستوي أفراده ولكن يستعمل في

حقه المثل الأعلى وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزه عنه قال الله تعالى : (وله المثل الأعلى) .

وقوله : (فانه أعلم بنفسه الخ ..) هذا تعليل لصحة مذهب السلف في الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة ووجه ذلك أنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً الخ . .

فاذاً يجب الرجوع في با ب الأسماء والصفات نفياً وإثباتاً إلى ما قاله الله ورسوله الذي هو أعلم خلقه به وأن لا يترك ذلك إلى قول من يفترون الكذب على الله ويقولون عليه ما لا يعلمون ووجه ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعاني المرادة منه لأحد ثلاثة أمور إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه .

ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور من كل وجه ، فكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم في غاية الوضوح والبيان ، كما أنها المثل الأعلى في الصدق والمطابقة للواقع .

وقوله : (وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه) هذا أخذاً من قوله تعالى : (ومن أصدق من الله قيلا) الخ ، ففيهما إخبار بأن حديثه وإخباره وأقواله في أعلى المراتب من الصدق ، بل

أعلاها ، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين .

وقوله (ثم رسله صادقون مصدقون) والصدق مطابقة الخبر للواقع ، وقوله صادقون : أي فيما جاءوا به عن الله سبحانه مصدقون فيما يأتيهم من الوحي الكريم .

وقوله (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) أي بخلاف القائلين على الله في شرعه ودينه أو في أسمائه وصفاته وأفعاله ما لا يعلمون ، بل بمجرد عقولهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، فالقول على الله بلا علم من أعظم المحرمات ، وهذا المناسب لذكرها هذه الآية . في هذا الموضع والله أعلم .

وقوله : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون .. الخ) ساق المصنف رحمه الله الآية في هذا المقام تعليلا لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أكمل صدقاً وأتم بياناً ونصحاً ، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

مفردات آية العز :

سبحان : اسم مصدر من التسبيح الذي هو التنزيه والإبعاد عن السوء ، العزة : القوة والغلبة والامتناع . الرب : السيد المربي لجميع الخلق بأصناف النعم . السلام : بمعنى التحية

والسلامة من النقائص والرذائل . المرسلين : جمع رسول ، وهو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وعرفه بعضهم فقال : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه . الحمد : لغة المدح على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره سواء أسداه إلى الحامد أو إلى غيره .

المعنى الإجمالي للآية الكريمة :

في هذه الآية الكريمة أدب رباني وختام إلهي لتلك السورة التي نفت عن الله الصاحبة والزوجة والشريك والولد والقرين ، حتى يتأدب المسلمون بهذا ولا يخلوا به في ختام جلائل أعمالهم فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل مما لا يليق بجلاله وعظمته ، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وفيه إشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وإبعاده عن كل شائبة عيب ونقص فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم عن كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ، ولا يشركون ، ولا يغشون أممهم ، ولا يقولون على الله إلا الحق ، عليهم الصلاة والسلام .

قال الشيخ : أهل السنة متفقون على أن الأنبياء معصومون في تبليغ الرسالة ولا يجوز أن يستقر في شيء من الشريعة خطأ باتفاق المسلمين وما أخبروا به وجب تصديقهم فيه باجماع المسلمين ، وما أمروا به ونهوا عنه فهم مطاعون فيه عند جميع فرق الأمة والجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر ، ومن

يجوز الكبائر يقولون إنهم لا يقرون عليها بل يحصل لهم بالتوبة منها من المنزلة أعظم مما كان قبل ذلك ، ا هـ .

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) » .

وعن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال دبر كل صلاة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) ثلاث مرات فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر » .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ تنزيه الله وتقديسه وتبرئته عما يقول الظالمون .

٢ ـ صحة ما جاء به المرسلون وأنه الحق لا مرية فيه .

٣ ـ إثبات صفة الربوبية .

٤ ـ إثبات صفة العزة .

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٦ ـ الرد على منكري الصفات .

٧ ـ إرشاد العباد إلى حمده على إرساله رسله إليهم مبشرين ومنذرين .

٨ – تعليم العباد كيف يصنعون عند إنعامه عليهم ، وما يثنون به عليه .

٩ – في الآية دليل على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا جبريل ولا غيرهما .

١٠ – رد على اليهود القائلين عزير ابن الله .

١١ – رد على النصارى القائلين عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

١٢ – فيها رد على المشركين القائلين إن الملائكة بنات الله .

١٣ – فيها رد على من نسب إلى الله الصاحبة والولد ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

١٤ – إثبات صفة الحمد لله جل وعلا .

١٥ – إثبات صفة الخلق لله .

١٦ – إثبات الألوهية .

١٧ – الحث على الاقتداء بالرسل .

١٨ – دليل على أن الله هو الغني الحميد المربي لجميع الخلق تربية عامة ، ولأوليائه تربية خاصة ، تربية القلوب بالعقائد النافعة والأعمال الصالحة .

١٩ – دليل على صدق الرسل .

٢٠ – وجوب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم .

٢١ - دليل أن الرسل لا يغشون .

٢٢ - دليل على أن الرسل ناصحون .

٢٣ - وجوب احترام الرسل .

٢٤ - وجوب اعتقاد أنهم أكمل الخلق علماً وعملا ، وأبرهم وأكملهم أخلاقاً .

٢٥ - وجوب محبتهم وتعظيمهم والاهتداء بهديهم .

٢٦ - دليل على نصح الرسل واخلاصهم .

ضابط نافع

في كيفية الايمان بالله وأسمائه وصفاته

(وقوله : وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون فانه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) .

فيما ذكر المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله سبحانه وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأنه مبنى على أصلين : أحدهما النفي وثانيهما الإثبات .

أما النفي فانه ينفي عن الله ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص وينفي عنه أن يكون له شريك أو نديد أو شبيه في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة فكل ما ينافي صفات الكمال فان الله منزه عنه .

أما الإثبات فانه يجمع الأمرين : إثبات المجملات كالحمد المطلق والكمال المطلق والمجد المطلق ونحوها ، وإثبات المفصلات كتفصيل علم الله وقدرته وحكمته ورحمته ونحو ذلك من صفاته .

والنفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً فكل ما نفى الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد من خلقه في شيء فإنها تدل على أضدادها من أنواع الكمال فنفي الشريك والند والنظير لإثبات كمال عظمته ، ونفي الصاحبة والولد والظهير يتضمن كمال ربوبيته وقهره ، ونفي العجز لكمال قدرته ، ونفي الجهل والنسيان وعزوب شيء عن علمه يتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفى الظلم لإثبات عدله ونفى النوم والسنة لإثبات كمال حياته وقيوميته ، ونفي العبث وترك الخلق سدى لكمال حكمته التامة ، ونفي المثل لكمال ذاتــه .

قال الشيخ : والله سبحانه بعث الرسل بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاته على وجه التفصيل والنفي على طريق الإجمال للنقص والتمثيل ، فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها منزه عن النقص بكل وجه ممتنع أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال فأما صفات النقص فهو منزه عنها مطلقاً ، وأما صفات الكمال فلا يماثله بل ولا يقاربه فيها شيء من الأشياء والتنزيه بجميعه نوعان : نفي

النقص ، ونفي مماثلة غيره له في صفات الكمال كما يدل على ذلك النصوص والعقل .

وقال : وأما المخالفون للرسل من المشركين والصابئة ومن أتبعهم من الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم فطريقتهم نفي مفصل وإثبات مجمل ، ينفون صفات الكمال ، ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال ، فيقولون : ليس بكذا إلى آخر ما يقولون اهـ .

وقوله (فلا عدول لأهل السنة الخ) هذا مرتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل هو الحق الذي يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، فأهل السنة يقتفون آثار المرسلين ويستضيئون بأنوارهم مؤمنون بجميعهم مصدقون لهم في كل ما أخبروا به من الغيب إذ هو الحق والصدق الذي يجب اعتقاده واتباعه ولا تجوز مخالفته ، وأعظم ما جاء به المرسلون هو الدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله وأنه لا شبيه له ولا نظير فهذا دينهم من أولهم إلى آخرهم .

تنبيه

الرسل والكتب والفطر السليمة والوجود كله الجميع شاهد باثبات الصفات لله جلا وعلا . قال ابن القيم رحمه الله :

وإذا تأملتَ الوجُـودَ رأيتَـهُ ... إن لم تكُنْ مِن زُمْرةِ العمْيَانِ

بشهادة الإثبات حقاً قائماً ... لله لا بشهادة النكران
وكذاك رسل الله شاهدة به ... أيضاً فسل عنهم عليم زمان
وكذاك كتب الله شاهدة به ... أيضاً فهذا محكم القرآن
وكذا العقول المستنيرات التي ... فيها مصابيح الهدى الرباني

ودين الأنبياء كلهم الإسلام .

وقال الله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) أي الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه ، فالإسلام دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض لا يقبل الله من أحد سواه . قال تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

وقوله : (فانه الصراط المستقيم) أي أن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الأبدية .

قال ابن القيم : والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم أنه الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله ، وجعله موصلا لعباده إليه ، ولا طريق لهم سواه ، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة ، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك

كله وترضيه بجهدك ، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ، ولا تكون إرادة إلا متعلقة بمرضاته ، وهذا هو الهدى وهو معرفة الحق والعمل به وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها .

وقال : والطريق إلى الله واحد لا تعدد فيه ، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلا لمن سلكه إلى الله فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه إلى ربه طريق العلم والتعليم قد وفر عليه زماناً مبتغياً به وجه الله فلا يزال عاكفاً على طريق العلم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص ، أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه ، ومنهم من يكون سيد عمله الذكر ، ومنهم من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي ، ومنهم من يكون طريقه الصوم ، ومنهم من يكون كثرة تلاوة القرآن ، ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنهم من يكون طريقه الحج والاعتمار ، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة ، ومنهم الجامع الفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق ، فهو جعل وظائف عبودية قبلة قلبه ونصب عينيه وقد شارك أهل كل عمل وذلك فضل الله ، انتهى .

وقال رحمه الله :

وَتَرَى المُوَحِّدَ دائِماً مُتَنَقِّــــلاً بِمَنَازِلِ الطَّاعَــاتِ والإحســان

ما زال ينزل في الوفـــاء منــازلا وهي الطريق له إلى الرحمن
لكنما معبــوده هــو واحـــد ما عنده ربــان معبــودان

وقال الشيخ : والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي ، فالطريق الشرعي هو النظر بما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها ، فلا بد من علم بما جاء به وعمل ، لا يكفي أحدهما وهذا الطريق المتضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه ، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته ؛ وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فان هذا فيه باطل كثير ، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به رسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة ، والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادات البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة ا هـ .

والصراط يضاف إلى الله ؛ إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله (وأن هذا صراطي مستقيماً) ، وقوله (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله) . وتارة يضاف إلى العباد كما في الفـــاتحة لكونهم أهـــل سلوكه وهو المنسوب لهم وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة مــا دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم . وأمــا مطلق

النعمة فعلى المؤمن والكافر فكل الخلق في نعمه ؛ وذكر الصراط المستقيم مفرداً معرفاً تعريفين : تعريفاً باللام تارة ، وتعريفاً بالإضافة ، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه وأنه صراط واحد ، وأما طرق أهل الضلال فانه سبحانه يجمعها ويفردها ؛ والصراط المذكور في الكتاب والسنة ينقسم إلى قسمين : معنوي وحسي . فالمعنوي ما تقدمت الإشارة إليه والحسي هو الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، فبحسب الاستقامة على ذلك الصراط المعنوي الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار الدنيوية تكون الاستقامة على ذلك الصراط الحسي حذو القذة بالقذة جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد .

والأنبياء : جمع نبي وهو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، وأما الصديقون فهم الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم ؛ فالصديق المبالغ في الصدق ، وأما الشهيد فهو المقتول في سبيل الله ؛ قيل : سمي بذلك لأن ملائكة الرحمة تشهده أي تحضره ، وأما الصالحون فجمع صالح وهو القائم بحقوق الله وحقوق خلقه

وقال الشيخ : لفظ الصالح والشهيد يذكر مفرداً فيتناول النبيين والصديقين والشهداء ويذكر معه غيره فيفسر بحسبه ، اهـ .

وقوله : (وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول : (قل هو الله أحد * ألله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) .

هذا شروع في إيراد النصوص من الكتاب والسنة وتفاصيلها الداخلة في الإيمان بالله وأنه يجب الإيمان بها وإثباتها ، ونفي التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل عنها ، فثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ، وذلك أن القرآن اشتمل على علوم كثيرة وهي ترجع إلى ثلاثة علوم :

أولا : علوم الأحكام والشرائع الداخلة فيها علوم الفقه كلها عبادات ومعاملات وتوابعها .

ثانياً : علوم الجزاء على الأعمال ، والأسباب التي يجازي بها العاملون على ما يستحقون من خير وشر ، وبيان تفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثاً : علوم التوحيد ، وما يجب على عباده من معرفته والإيمان به ، وهو أشرف العلوم الثلاثة .

وسورة الأخلاص كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم

وقواعده . فان قوله (قل هو الله أحد) أي الله متفرد بالعظمة والكمال ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء . يحقق ذلك قوله تعالى : (الله الصمد) أي الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله فهو العظيم الكامل في عظمته العليم الكامل في علمه . الحكيم الكامل في حكمه ، فهو الكامل في نعوته وأسمائه وصفاته . ومن معاني الصمد أنه الذي تصمد إليه الخلائق كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها .

قال ابن القيم :

وهو الإلهُ السيدُ الصمَــدُ الــذي صَمَدَتْ إليهِ الخلقُ بالإذْعانِ
الكامِلُ الأوصافِ مِن كلِ الوُجُو هِ كمالُه ما فيهِ مِن نُقصانِ

فهو المقصود وهو الكامل المعبود فاثبات الوحدانية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى فهذا أحد نوعي التوحيد وهو الإثبات وهو أعظم النوعين ، والنوع الثاني التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل وهذا داخل في قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) أي ليس له مكافيء ولا مماثل ولا نظير .

قال الشيخ تقي الدين : وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه . ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولد كان تنزيهه عنه أكثر ، وكلاهما يقتضي إثبات مثل وند من بعض الوجوه فان الولد من جنس الوالد ونظير له وكلاهما

يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه ؛ فالذي جعل شريكاً لو فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع ؛ وإن كان غير مكافيء فهو مقهور والولد يتخذه لحاجته إلى معاونته له كما يتخذ المال ، فان الولد إذا اشتد أعان والده فان كون المخلوق مملوكاً لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد ، لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته أو ليخلفه بعد موته ، والرب غني عن كل ما سواه . وكل ما سواه فقير إليه وهو الحي الذي لا يموت والوالد في نفسه مفتقر إلى ولد مخلوق لا حيلة له فيه ، والولادة بغير اختيار الوالد ، والرب تعالى يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره ؛ واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص في الولادة ، اهـ .

وسميت هذه السورة بسورة الإخلاص لأنها أخلصت في وصف الرحمن ، ولأنها تخلص قارئها من الشرك الاعتقادي العلمي ، وتدل على أنواع التوحيد الثلاثة فدلالتها على توحيد الأسماء والصفات بالمطابقة وعلى توحيد الربوبية بالتضمن وعلى توحيد الألوهية والعبادة بالالتزام لأن دلالة الدليل على كل معناه تسمى مطابقة ، وعلى بعضه تضمن ، وعلى ما يستلزمه من الخارج يسمى التزاماً ، وسيقت هذه السورة لما تضمنته من النفي والإثبات لأن فيها شاهداً للضابط الذي ذكره المصنف من أنه سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

ففي الآية :

١ - أولا : إثبات وحدانية الله .

٢ - كمال غنى الله سبحانه وفقر الخلائق إليه .

٣ - الرد على من قال ان القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ - الرد على اليهود القائلين عزير بن الله .

٥ - اثبات صفة الكلام .

٦ - الرد على النصارى القائلين إن عيسى بن الله .

٧ - الحث على التوكل على الله إذ هو الواحد المقصود في الحوائج .

٨ - الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله .

٩ - الحث على عبادة الله وحده لا شريك له .

١٠ - تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

١١ - تلقي العقيدة من الكتاب والسنة .

١٢ - إثبات أولية الله .

١٣ - نفي الزوجة عن الله .

١٤ - الرد على من قال بالطبيعة وانها التي توجد الأشياء .

١٥ - الرد على من قال لله كفو أو ند أو مثيل .

١٦ ـ إثبات الألوهية .

١٧ ـ شرف علم التوحيد .

١٨ ـ إثبات الصمدية لله المقصود في الحوائج .

١٩ ـ ان هذه السورة تضمنت أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الاسلام الكبيرة .

٢٠ ـ ان من اعتقد وحدانية الله وصمديته وأنه الفعال لما يريد خلص قلبه من كل غاشية ومن كل شائبة ومن كل تعلق بغير الله .

٢١ ـ ان هذه السورة تضمنت نفي الشريك بجميع أنواعه ؛
فقد نفى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله (ألله أحد) ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله (ألله الصمد) ونفى عن نفسه المشابهة والمجانسة بقوله (لم يلد) ونفى عن نفسه الحدوث بقوله (ولم يولد) ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله (ولم يكن له كفوا أحد) .

وقال الشيخ : والله منزه أن يوصف بشيء من الصفات المختصة بالمخلوقين وكل ما اختص بالمخلوق فهو نقص والله تعالى منزه عن كل نقص ومستحق لغايات الكمال ، وليس له مثل في شيء من صفات الكمال ، فهو منزه عن النقص مطلقاً ، ومنزه في الكمال أن يكون له مثل ، وقد دل على ذلك سورة (قل هو الله أحد) فبين أنه صمد ، واسمه الأحد يتضمن نفي

المثل واسمه الصمد يتضمن جميع صفات الكمال .

وقال : التشبيه الممتنع تشبيه الخالق بالمخلوق أو تشبيه المخلوق بالخالق فيمتنع اتصاف الرب بشيء من خصائص المخلوقين ، كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق ، ويمتنع أن يثبت للعبد شيء يماثل فيه الرب ، وأما إذا قيل : حي وحي ، وعالم وعالم ، وقادر وقادر ، وقيل : لهذا قدرة ولهذا قدرة ، ولهذا علم ولهذا علم ، كان نفس علم الرب لم يشركه فيه العبد ونفس علم العبد لا يتصف به الرب ، تعالى عن ذلك .

وكذلك سائر الصفات وليس في إثبات هذا محذور فان المحذور إثبات شيء من خصائص أحدهما للآخر ا هـ .

آية الكرسي :

(« وقوله : وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم) ولهذا من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح ») .

أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله وذلك لاشتمالها على أجل المعارف وأوسع الصفات ، فأخبر أنه المتوحد في الألوهية المستحق لاخلاص العبودية . وأنه الحي الكامل كامل الحياة ، وذلك يقتضي كمال عزته وقدرته وسعة علمه وشمول حكمته وعموم رحمته وغير ذلك من صفات الكمال الذاتية ، وأنه القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته وقام بالموجودات كلها فخلقها وأحكمها ورزقها ودبرها وأمدها بكل ما تحتاج إليه وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية ولهذا ورد : إن الحي القيوم هو الاسم الأعظم إذا دعي الله به أجاب واذا سئل به أعطى . بدلالة الحي على الصفات الذاتية والقيوم على الصفات الفعلية والصفات كلها ترجع اليهما .

قال ابن القيم :

هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ القَيُّومُ والْـ ... ـقَيُّومُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
إِحْدَاهُمَا القَيُّومُ قَامَ بِنَفْسِهِ ... والكَوْنُ قَامَ بِهِ هُمَا الأَمْرَانِ
فالأولُ استغناؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ ... والفَقْرُ مِنْ كُلٍّ إليهِ الثاني
والوصفُ بالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيـ ... ـمٍ هَكَذَا مَوْصُوفُ أيضاً عظيم الشان
والحي يتلوه فأوصاف الكمـا ... ـل هما لأفق سمائها تطلبان
فالحي والقيوم لن تتخلف الـ ... أوصاف أصلاً عنهما ببيان

ومن كمال قيوميته أنه (لا تأخذه سنة ولا نوم) والسنة

النعاس ، وهو الذي يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين ويكون في الرأس فاذا وصل إلى القلب صار نوماً . والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب تمنعه معرفة الأشياء فلا يحس ولا يشعر بها .

ثم ذكر عموم ملكه للعالم العلوي والسفلي . ومن تمام ملكه أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه . ففيها ذكر الشفاعة التي يجب إثباتها وهي التي تقع باذنه لمن ارتضى . والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون وهي ما كانت تطلب من غير الله أو بغير إذنه . فمن كمال عظمته سبحانه أن لا ينفع عنده أحد إلا باذنه ، ولا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله وبين أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا تخفى عليه خافية من الأمور ولا بينة وأما الخلق فانهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء منها . وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية . وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته كما قال أعلم الخلق ، وهم الرسل والملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) وكما قال الخضر : يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر

ثم أخبر سبحانه عن عظمته وجلاله وأن كرسيه وسع السموات والأرض وما فيهما ، وأنه حفظهما وأسكنهما عن الزوال والتزلزل وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام

والمنافع المتعددة التي لا تحصى . والصحيح أن الكرسي غير العرش . وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ومع ذلك فلا يؤوده ، أي لا يثقله ولا يكرثه حفظهما . أي حفظ العالم العلوي والسفلي وذلك لكمال قدرته وقوته .

(وهو العلي العظيم) حتم سبحانه هذه الآية بهذين الاسمين الجليلين فهو سبحانه الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه علو الذات بكونه فوق الخلق على العرش استوى وعلو القدر اذ أن كل صفة كمال ثابتة له وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها وأكملها ، المتعالي عن نسبة النقص اليه المتصف بأعلى صفات الكمال العظيم الذى له جميع أوصاف العظمة والكبرياء وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته واصفيائه فلا أعظم منه ولا أكبر .

قال الشيخ : يجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة الى الخالق تعالى في غاية الصغر كما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة ولا نسبة الى عظمة الباري بوجه من الوجوه وهي في قبضته أصغر من الخردلة في كف الانسان والخليقة مفطورة على أنها تقصد ربها في جهة العلو لا تلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة وجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين من المتفلسفة وغيرهم فانهم غيروا الفطرة في العلم والارادة جميعاً ، اهـ .

فحقيق بآية احتوت على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن ، وأن يكون لها من المنع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ماليس لغيرها .

مايؤخذ من آية الكرسي :

١ ـ اثبات الألوهية . ٢ ـ انفراده بالألوهية .

٣ ـ إثبات صفة الحياة .

٤ ـ إثبات القيومية لله .

٥ ـ تنزيه الله عن السنة .

٦ ـ تنزيه الله عن النوم .

٧ ـ تنزيه الله عن العجز لما في ذلك من المنافات لكمال حياته وقيوميته وقدرته .

٨ ـ إثبات سعة ملكه وأنه تعالى له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً ليس له في ذلك شريك ولا منازع وأن الجميع عبيده وتحت قهره وسلطانه .

٩ ـ إثبات سعة علمه وأنه محيط بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها وأنه لا يغفل ولا ينسى ولا يلهيه شأن عن شأن .

١٠ ـ اختصاصه بالتعليم وأن الخلق لا يعلمون إلا ما أعلمهم جلا وعلا قال تعالى والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شَيْئًا .

١١ ـ إثبات الشفاعة بإذنه جَلَّ وعلا .

١٢ ـ أن عظمة الكرسي من جملة الأدلة الدالة على عظمة الله .

١٣ ـ اثبات صفة الكلام لله وهى من الصفات الذاتية الفعلية .

١٤ ـ اثبات صفة العلم وهى من الصفات الذاتية .

١٥ ـ إثبات عظمة الله واقتداره وأنه لا يعجزه شيء .

١٦ ـ اثبات أن الله متعالي عن النقص وأنه فوق خلقه بذاته ٠

١٧ ـ الترقي في نفي النقص من الأضعف إلى نفي الأقوى لأن من لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى .

١٨ ـ إثبات المشيئة لله .

١٩ ـ الرد على المشركين القائلين بأن أصنامهم تشفع .

٢٠ ـ الرد على القدرية القائلين إن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ٠

٢١ ـ الرد على من زعم أن الكرسي علمه أو أنه قدرته أو ملكه أو نحو ذلك .

٢٢ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال .

٢٣ ـ الحث على مراقبة الله الذى لا يغيب عن نظـره العبد

٢٤ ـ عظم شأن آية الكرسي حيث أن من قرأها لا يقربه شيطان .

٢٥ ـ الحث على حفظ هذه الآية وقرأتها عند النوم وبعد الصلاة

٢٦ ـ أن الله إذا شاء كشف للعباد بقدر عن شيء من علمه قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

٢٧ ـ أن الكرسي أوسع من السموات والأرض .

٢٨ ـ اثبات قوة الله ٠ قال تعالى « ان القوة لله جميعا » ٠

وقف لله تعالى

٢٩ ـ الحث على الاتجاه إلى الله بالعبودية والعبادة فلا يكون عبداً إلا لله ولا يتجه بالعبادة إلا لله ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله وما يأمر به من الطاعات .

٣٠ ـ ان العباد لا يملكون الأعيان ملكاً مطلقاً وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضي الشرع .

٣١ ـ نفي الشفاعة بغير اذن الله .

٣٢ ـ ان شعور الانسان أن ما في السموات وما في الأرض وكل شيء ملك لله سبب لقمع حدة الشره والطمع والحرص والتكالب على الدنيا .

٣٣ ـ ان العباد لم يؤتوا من العلم إلا قليلا .

٣٤ ـ أن استحضار ذلك وان ما في يده عارية إلى أمد محدود يكسب في النفس القناعة والرضا بالرزق والسماحة والجود بالموجود .

٣٥ ـ ان النوم والسِنة صفة نقص ولهذا نزه سبحانه وتعالى نفسه عنهما وكل نقص أو عيب فالله منزه عنه .

٣٦ ـ تنزيه الله عن الولد والزوجة والشريك في الملك .

٣٧ ـ الرد على من نسب إلى الله الولد والزوجة .

٣٨ ـ الرد على من قال ان ما هناك فضاء لا سماء .

٣٩ ـ ان في السموات خلقاً لا يعلمهم إلا الله جل وعلا .

٤٠ ـ إثبات علو الله على خلقه وإن مِمّا هو ثابت لله وواجبٌ له جهة العلو اللّائقة بجلاله وعظمته من غير احاطة به .

٤١ ـ ان العباد لا يجرؤون على الشفاعة أو التكلم الا باذنه وذلك لعظمته وجلاله والسبب في سياق الآية لما تضمنته من النفي والاثبات لأن فيها شاهداً للضابط الذي ذكره المصنف من أنه سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات ولما احتوت عليه من المعاني الجليلة والأسماء الحسنى والصفات العلى . وروي في فضل آية الكرسي أحاديث منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : وكَّلَني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آتٍ فجعل يَحْثُو مِن الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فاني محتاج ولي عيال وبي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة قال قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : أما إنه قد كذبك وسيعود . فلما كان في الثالثة قلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود . فقال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها فقلت وما هي قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى ختم الآية ، فانه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إنه صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت : لا ، قال : ذلك شيطان » .

(« وقوله : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وقوله : (وتوكل على الحي الذي لا يموت) وقوله (وهو الحكيم الخبير) » .

قد فسر صلى الله عليه وسلم هذه الأسماء الأربعة بقوله « أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء » فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي تنقسم إلى قسمين زمانية ومكانية فأحاطت أوليته بالقبل وأحاطت آخريته بالبعد و أحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فما من ظاهر إلا والله فوقه وما من باطن إلا والله د ونه فالأول قدمه والآخر بقاؤه ودوامه والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه وفي قوله (وهو بكل شيء عليم) من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ومن العالم العلوي والسفلي ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات أوليته وسبقه لكل شيء .

٢ ـ إثبات دوامه وبقائه وأنه لا شيء بعده .

٣ ـ اثبات تعالي الله على مشابهة خلقه واثبات جهة العلو لله٠

وقف لله تعالى

٤ ـ إفادة قربه وإحاطته سبحانه .

٥ ـ سعة علمه وأنه أحاط بكل شيء علماً .

٦ ـ رد على المعتزلة ومن سلك طريقهم .

٧ ـ رد على من قال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات .

٨ ـ رد على من ينكر صفة العلم .

٩ ـ إثبات صفة الكلام لله .

١٠ ـ رد على من ينكر صفة العلو لله على خلقه .

١١ ـ الحث على مراقبة الله في السر والعلانية .

١٢ ـ الرد على الجهمية ونحوهم
١٣ ـ اثبات علو الله على خلقه .

وقوله : (وتوكل على الحي الذي لا يموت) التوكل اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وفعل الأسباب ، أي وتوكل على الرب الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه واجعله ملجأ وذخراً لك وفوض أمرك إليه واستسلم له واصبر على ما نابك فيه فانه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد .

قال ابن القيم : أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي الأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها والا فهو باطل وتوكل فاسد . وقال سهل بن عبد الله من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا

يتركن سنته . والتوكل ينقسم إلى قسمين القسم الأول التوكل على الله فهو من أشرف أعمال القلوب وأجلها والثاني التوكل على غيره سبحانه وينقسم إلى ثلاثة أقسام الأول : التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالتوكل على الأموات والطواغيت في جلب رزق أو دفع ضر أو نصر أو نحو ذلك فهذا شرك أكبر . الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك فهذا النوع شرك أصغر . الثالث : توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه فهذه الوكالة الجائزة لكن ليس له أن يعتمد عليه بل يتوكل على الله في تيسير أمره ، وذلك من جملة الأسباب الجائزة .

وقال الشيخ : إعراض القلب عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه واما على أهله وأصدقائه وإما على أمواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كمماليكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت .

قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت) وقال الشيخ : القلب لا يصلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه وبذلك

يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل إلا باعانة الله له ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة (إياك نعبد وإياك نستعين) فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبرد ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه فهو إلهه لا اله له غيره وهو ربه ولا رب له سواه ولا.تتم عبوديته إلا بهذين . ا هـ .

ما يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ـ إثبات صفة الحياة وهي من الصفات الذاتية فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها ويستلزم ثبوتها ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة وخصص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم فانهم اذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم .

٢ ـ الأمر بالتوكل على الله .

٣ ـ الرد على من أنكر صفة الحياة أو أولها بتأويل باطل .

٤ ـ إثبات البقاء لله فهو الآخر ليس بعده شيء .

٥ ـ إثبات صفة الكلام وأن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا جبريل ولا غيرهما .

وقوله : (وهو الحكيم الخبير) الحكيم مأخوذ من الحكمة وله معنيان أحدهما بمعنى القاضي العدل الحاكم بين خلقه بأمره

الديني الشرعي وأمره الكوني القدري وله الحكم في الدنيا والآخرة والمعنى الثاني أنه المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد .

قال ابن القيم : الحكمة حكمتان علمية وعملية ، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً وقدراً أو شرعاً والعملية وضع الشيء في موضعه اهـ .

وحكمته صفة قائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره ونحو ذلك وهي تنقسم إلى قسمين : إحداهما حكمة في خلقه وهي نوعان : الأول إحكام هذا الخلق وإيجاده في غاية الإحكام ، والاتقان ، الثاني صدوره لأجل حكمة محمودة أمر لأجلها وخلق لأجلها . الثانية الحكمة في شرعه وتنقسم إلى قسمين الأول كونها في غاية الاحسان والإتقان الثاني كونها صدرت لحكمة عظيمة يستحق عليها الحمد .

وأما الخبير فهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه الدقة فالعلم عندما يضاف إلى الخفايا الباطنية يسمى خبرة ويسمى صاحبها خبيراً والله سبحانه لا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة فما فوقها وما دونها ولا يسكن ولا يضطرب نفس ولا يطمئن إلا وعنده من ذلك خبرة ففي الآية :

١ – إثبات صفة الحكمة .

٢ – إثبات صفة الخبرة .

٣ ـ الحث على مقام المراقبة لله الذي يرى الدقيق والجليل .
٤ ـ الرد على من قال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات .
٥ ـ الرد على القدرية نفاة العلم عن الله .
٦ ـ الرد على الجهمية ومن تبعهم من معتزلة واشاعرته
٧ ـ إثبات صفة الكلام .
٨ ـ إثبات الحياة .
٩ ـ إحاطة علم الله بكل شيء .

صفة العلم

(« وقوله : (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها الآية) ، وقوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ، وقوله : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) ، وقوله : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ») .

في هذه الآيات دليل على إثبات صفة العلم وهي من الصفات الذاتية وعلمه سبحانه شامل لكل شيء ومحيط به فيعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، قال ابن القيم .

وهو العليم أحاط علماً بالذي في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدا وما قد كان والموجود في ذا الآن

في الآية الأولى إثبات علم الله فهو سبحانه يعلم ما يدخل في الأرض من المياه والكنوز والأموات والبذور والوحوش والأوادم في الكهوف وغير ذلك ويعلم ما يخرج منها من نبات ومعادن ومياه وأموات وأبخرة وغير ذلك ويعلم ما ينزل من السماء من ملائكة وأمطار ومصائب وحر وبرد وغير ذلك وما يعرج فيها من حفظة وأعمال ، وقد أنكر غلاة القدرية علم الله القديم وأنه يعلم الأشياء قبل وقوعها ؛ وقد اشتد إنكار السلف عليهم وقالوا ناظروهم بالعلم فان أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا ، وقال الامام أحمد في رده على الجهمية والزنادقة : فان قال الجهمي ليس له علم كفر وان قال لله علم محدث كفر حيث زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث له علماً فعلم ؛ فان قال لله علم وليس مخلوقاً ولا محدثاً رجع عن قوله كله وقال بقول أهل السنة .

والدليل العقلي على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ولأن إيجاده الأشياه بارادة ، والارادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد فكان الايجاد مستلزماً للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير

علم ولأن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً ، وهذا له طريقان : أحدهما أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن ونعلم أنا لو فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع . الثاني أن يقال كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ومن الممتنع أن يكون فاعل الكامل ومبدعه عارياً منه بل هو أحق به والله تعالى له المثل الأعلى ولا يستوي هو والمخلوق في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أولى به وأحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى .

وكمال من أعطى الكمال بنفسه	أولى وأجدر عند ذي العرفان
أيكون قد أعطى الكمال وماله	ذاك الكمال أذاك هو إمكان
أيكون إنسان سميعاً مبصراً	متكلماً بمشيئة وبيان
وله الحياة وقدرة وإرادة	والعلم بالكلي والأعيان
والله قد أعطاه ذاك وليس هـ	لذا وصفه فاعجب من البهتان

ما يؤخذ من الآية الكريمة :

١ – إثبات صفة العلم .

وقف لله تعالى

٢ ـ الرد على القدرية .

٣ ـ الرد على المعتزلة حيث قالوا عليم بلا علم .

٤ ـ إحاطة علمه بكل شيء فلا تخفى عليه خافية .

٥ ـ الرد على الجهمية والقدرية المنكرين لصفة العلم .

٦ ـ الرد على من زعم أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات .

٧ ـ دليل على علو الله على خلقه

٨ ـ إثبات صفة الكلام الله .

٩ ـ دليل على عظمته .

١٠ ـ دليل على قدرة الله .

١١ ـ الحث على مراقبة الله في السر والعلانية .

١٢ ـ دليل على المعية العامة .

١٣ ـ إثبات صفة البصر لله

١٤ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

١٥ ـ إثبات الألوهية لله .

١٦ ـ دليل على سعة علم الله .

١٧ ـ إثبات صفة الحياة لله .

الآية الثانية : هذه الآية من أعظم الآيات تفصيلا لعلم الله المحيط ، والمعنى أن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب أو مفاتحه فهو الذي يحيط بها علماً وسواه جاهل لا يعلم منها شيئاً إلا ما أعلمه الله فقوله (لا يعلمها إلا هو) جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى .

قال المناوي : فمن ادعى علم شيء منها كفر وخص علم ما في البر والبحر بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ولكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما ، والخلاصة : أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة والأحوال الظاهرة والباطنة والرطبة واليابسة .

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتح الغيب خمس (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) » .

ويؤخذ من الآية :

١ - إثبات صفة العلم .

٢ - رد على المعتزلة .

٣ - اثبات اللوح المحفوظ .

٤ ـ دليل على عظمة الله وسعته في وكمال صفاته .

٥ ـ أن اللوح المحفوظ محيط بالأشياء كلها .

٦ ـ الرد على من أنكر صفة العلم من جهمية ومعتزلة .

٧ ـ رد على القدرية الذين يزعمون ان الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها .

٨ ـ اثبات صفة الكلام لله والمأخذ من أن الله هو الذي تكلم به وقال وعنده مفاتح الغيب الآية .

٩ ـ ان الله يعلمُ المنظور والمحجوب والمعلوم والمجهول وجميع ما في الزمان والمكان على السواء فلا يخفى عليه شيء جل وعلا .

١٠ ـ الحث على خوف الله .

١١ ـ الرد على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب .

١٢ ـ الرد على القدرية الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها .

١٣ ـ إثبات الألوهية .

١٤ ـ إثبات خبرة الله بالأشياء كلها .

١٥ ـ دليل على علو الله على خلقه والمأخذ من قوله (وعنده مفاتح الغيب) .

١٦ ـ التعميم الشامل للموت والحياة والذبول والأزدهار .

١٧ ـ ان حركات البذور والنماء المنشقة من الغور إلى السطح ومن كمون إلى اندفاع يعلمها الله .

١٨ ـ فيها ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمالين ونحوهم من المدعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم .

١٩ ـ تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب .

٢٠ ـ ذكر البر لأن الانسان قد شاهد أحواله وكثرة ما فيه .

٢١ ـ الحث على المراقبة في السر والعلانية .

٢٢ ـ اثبات قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء .

٢٣ ـ ذكر البحر وكثرة ما فيه لان الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب .

٢٤ ـ دليل على ان الله يعلم الكليات والجزئيات فلا تخفى عليه خافية وان دقت وخفي محلها . فهو سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف

يكون . كما قال سبحانه (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ، وقال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وأخبر سبحانه عن أشياء لم تكن وستكون كاخباره عن محاجة أهل النار قال تعالى (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار) الآيات الثلاث وقال (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) الآيات السبع ، إلى غير ذلك من الآيات .

٢٥ ـ أنه يفهم من الآية أن معلومات ما في البر وما في البحر حقير في جنب ما دخل في عموم (وعنده مفاتيح الغيب) الآية الثالثة المعنى : لا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به سبحانه يعلم في أي يوم تحمل وفي أي يوم تضع فلم يخرج عن علمه وتدبيره ويعلم هل هو ذكر أو أنثى . ففي هذه الآية :

١ ـ إثبات صفة العلم .

٢ ـ انفراده سبحانه بعلم ما في الأرحام وعلم مدته فيها .

٣ ـ الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل .

٤ ـ صفة الكلام لله

الآية الرابعة : اللام متعلقة بخلق أو بيتنزل أو بمقدار أي فعل ذلك لتعلموا أنه بالغ القدرة لا يعجزه شيء فهذا عام يتناول أفعال العباد من الطاعات . وكل شيء . ومن كمال قدرته تعالى أنه إذا شاء فعل من غير ممانع ولا معارض فجميع الأشياء منقادة لقدرته تابعة لمشيئته ولا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان وانتصاب علماً على المصدرية أو صفة لمصدر محذوف . ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة العلم .

٢ ـ إثبات قدرة الله .

٣ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ عموم قدرته تعالى .

٥ ـ سعة علمه سبحانه .

٦ ـ إرشاد الخلق إلى التفكير والعلم النافع .

٧ ـ الخوف من الله القادر على كل شيء .

٨ ـ الحث على مراقبة الله سراً وعلانية .

٩ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين لعلمه المحيط بكل شيء .

١٠ ـ الرد على القدرية القائلين ان أفعال العباد غير داخلة في قدرة الله .

١١ ـ إثبات صفة الكلام لله لأن الله هو الذي تكلم بالآية .

١٢ - وفي أول الآية ما يدل على صفة الخلق .

١٣ - حلم الله على الكافر والعاصي والمنافق .

١٤ - أن العباد لا يقدرون الله حق قدره والا لما عصوه وهو قادر على اهلاكهم في لحظة ولكنه حليم يمهل ولا يهمل

صفة السمع والبصر

(« وقوله : (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) : وقوله : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، وقوله : (ان الله نعما يعظمكم به ان الله كان سميعاً بصيراً) » .

يخبر تعالى أنه المتفرد بالرزق لارزاق سواه ولا معطي غيره ، فما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها ، قال الله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية .

وهذه الآية تنادي بأنه تعالى هو منزل الأرزاق وميسر أسبابها ليخصه الناس بالعبادة ويفردوه بالدعاء إذ لا يسوغ عقلا ولا شرعاً أن يعبد الناس إلا من يملك رزقهم قال تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا الله أنداداً وأنتم تعلمون) وقال جل شأنه (وكأين من دابه لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم) فدل على أنه سبحانه مسخر الأرزاق

لجميع الخلق وعلى أنها لو تركت ونفسها ولم تشملها عناية الله ولطفه بتسخير رزقها لهلكت جوعاً وظمأً ولكن الرزاق سبحانه يسر لها أرزاقها وهداها سبلها . أنظر كيف أوصل سبحانه الأرزاق إلى الأجنة في ظلمات الأرحام بما أجراه في شرايينها في دماء أمهاتها وانظر كيف رزق الوليد من ثدي أمه وهداه إلى ارتضاعه لبناً فيه غذاؤه وبه حياته ونماؤه وانظر كيف جعل رزق الفرخ في حواصل والديه وسخرهما لايصاله إليه لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وهو سبحانه له القوة الكاملة والقدرة التامة فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يخرج عن سلطانه أحد ، ومن قوته أن أوصل رزقه إلى جميع العالم وأن السموات والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة . وأنه يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وأنه يبعث الأموات بعدما تمزقوا ، ومن قوته إيجاد الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ، ومن أسمائه المتين ، والمتانة تدل على القوة ، فالله تعالى بالغ القوة والقدرة قوي من حيث أنه شديد القوة والقدرة لا ينسب إليه عجز في حال من الأحوال .

قال الشيخ رحمه الله : ونحن نعلم أن الله خالق كل شيء ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به ، وأن القوة التي في العرش ، وفي حملة العرش هو خالقها بل نقول إنه خالق أفعال الملائكة الحاملين فاذا كان هو الخالق لهذا كله ولا حول ولا قوة إلا به امتنع أن يكون محتاجاً إلى غيره ، ولا قال أحد أنه محتاج إلى

شيء من مخلوقاته . فضلا عن أن يكون محتاجاً قوة شيء من مخلوقاته ولا يقول أحد إنه محتاج إلى العرش مع أنه خالق العرش والمخلوق مفتقر إلى الخالق ولا يفتقر الخالق إلى المخلوق وبقدرته قام العرش وسائر المخلوقات وهو الغني عن العرش وكل ما سواه فقير اليه اهـ .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ اثبات الألوهية وهي من الصفات الذاتية الفعلية ·
٢ ـ اثبات صفة الرزق وهي من الصفات الذاتية الفعلية ·
٣ ـ اثبات القوة لمن له القوة جميعا وهي من الصفات الذاتية
٤ ـ اثبات المتانة وهي من الصفات الذاتية ·

٥ ـ دليل على كثرة رزق الله وسعته والرزق رزقان الرزق المطلق وهو ما استمر نفعه في الدنيا والآخرة وهو رزق القلوب الذي هو العلم والايمان والرزق الحلال والثاني مطلق الرزق وهو الرزق العام لسائر الخلق برهم وفاجرهم والبهائم وغيرها وهو إيصال القوت إلى كل مخلوق وهذا يكون من الحلال والحرام والله رازقه .

قال ابن القيم :

وكذلك الرزاق من أسمائه والرزق من أفعاله نوعان
زرق القلوب العلم والايمان والرزق المعد لهذه الأبدان

والثان سوق القوت للأعضاءِ في تلك المجاري سوقها بوزان
رزق على يد عبده ورسولـــه نوعان أيضاً ذان معروفـــان
هذا هو الرزق الحلال وربنـــا رزاقــه والفضـــل للمنـــان
هذا يكون من الحلال كما يكــو ن من الحرام كلاهما رزقان
والله رازقــه بهذا الاعتبـــــا ر وليس بالاطلاق دون بيـــان

٦ ـ اثبات قدرة الله وهي من الصفات الذاتية ٠

٧ ـ اثبات عظمة الله وهي من الصفات الذاتية ٠

٨ ـ رد على اليهود لقولهم ان الله فقير ونحن أغنياء تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

٩ ـ إثبات الاسماء لله .

١٠ ـ دليل على غناه سبحانه وفقر الخلائق إليه .

١١ ـ في الآية ما يوجب محبة العبد لربه لان النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها والله المحسن على جميع الخلائق .

١٢ ـ في الآية ما يبعث القلوب الطيبة الكريمة على شكر الله خالق الخلق ورازقهم جل وعلا .

١٣ ـ في الآية دليل على لطف الله حيث أوصل الرزق إلى جميع الخلائق .

١٤ ـ إثبات حكمة الله الذي قسم معيشة الخلق وأعطى كلا ما يناسب حاله .

١٥ ـ الخوف من الله .

١٦ ـ ان الرزق لا يطلب إلا من الله جل وعلا .

١٧ ـ اثبات علم الله واحاطته بالخلائق .

١٨ ـ اثبات المتانة .

١٩ ـ الحث على التوكل .

٢٠ ـ دليل على رحمة الله بخلقه ورأفته .

٢١ ـ دليل على حلم الله حيث يرزق الكافر والعاصي .

٢٢ ـ اثبات وحدانية الله وهي من الصفات الذاتية .

٢٣ ـ رد على من أنكر شيئاً من الصفات أو أولها بتأويل باطل .

أما قوله (ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) فقد تقدم الكلام عليها سبق في ص ٧٥ .

الآية الثالثة : (نعم) من ألفاظ المدح ، و (ما) قيل نكرة موصوفة كأنه قيل نعم شيئاً يعظكم به ، أو موصولة ، أي نعم الشيء الذي يعظكم به فقوله (يعظكم به) أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل أنه لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدارين .

(إن الله كان سميعاً بصيراً) من صفات الله تعالى الذاتية السمع والبصر والسميع والبصير اسمان من أسمائه تعالى وهو تعالى له سمع يسمع به وبصر يبصر به حقيقة على ما يليق بجلاله

وعظمته ، ومعنى اسمه السميع أي الذي لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفي فيسمع « دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء » فأحاط سمعه بجميع المسموعات سرها وعلنها وقريبها وبعيدها فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد .

وسمعه تعالى نوعان : أحدهما : سمعه جميع الأصوات كما تقدم ، والثاني : سمع اجابة منه للسائلين والداعين والعابدين ، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم (ان ربي لسميع الدعاء) .

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو السميع يرى ويسمع مـــا ... في الكون من سر ومن إعلان

ولكل صوت منه سمع حــاضر ... فالسر والإعلان مستويـــان

والسمع منه واسع الأصــوات لا ... يخفى عليه بعيدهــا والداني

وأما معنى اسمه تعالى (البصير) أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات فهو سبحانه يشاهدها ، ويرى كل شيء وان خفي ، قريباً أو بعيداً فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار فيرى « دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء » .. أي فعليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه ، فانه السميع لجميع الأصوات ، البصير بجميع المبصرات ، فاذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم وان أديتم الأمانة فهو بصير بذلك ففي الآية :

١ ـ الأمر بحفظ الأمانة لأنه لا يحصل أداؤها الا بذلك ·

٢ ـ الأمر بأدائها الى أهلها ·

٣ ـ وعد عظيم للمطيع .

٤ ـ وعيد شديد للعاصي .

٥ ـ الاهتمام بحكم القضاة والولاة لأنه فوض النظر في مصالح العباد لهم .

٦ ـ الأمر بالعدل وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض القليل والكثير على القريب والبعيد ، والبر والفاجر ، والعدو والصديق .

٧ ـ وجوب العدل على الحكام والولاة حتى تصل الحقوق إلى أربابها كاملة غير منقوصة .

٨ ـ مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما .

٩ ـ اثبات السمع وهو من الصفات الذاتية ·

١٠ ـ إثبات الألوهية .

١١ ـ اثبات البصر وصفة البصر من الصفات الذاتية ·

١٢ ـ أن أداء الأمانة يشمل أساس الاعتقاد .

١٣ ـ انه يشمل أساس العبادة .

١٤ ـ انه يشمل أساس التعامل بين الناس وأساس العلاقات

كلها بين الناس وأول أمانة ترد إلى أهلها أمانة الايمان .

١٥ ـ إثبات صفة الكلام .

١٦ ـ ان صفة السمع غير صفة البصر اذ العطف يقتضي المغايرة .

١٧ ـ وجوب أداء الأمانة إلى البر والفاجر .

١٨ ـ اثبات البعث بعد الموت.

١٩ ـ اثبات الحشر .

٢٠ ـ إثبات الجزاء على الأعمال .

٢١ ـ إثبات الجنة والنار .

٢٢ ـ فيها رد على المعطلة من جهمية ومن معتزلة ونحوهم .

٢٣ ـ التنبيه على مقام الاحسان .

٢٤ ـ الحث على ما هو سبب التآلف .

٢٥ ـ النهي عن الظلم والجور والحيف .

٢٦ ـ الرد على المعتزلة القائلين سميع بلا سمع بصير بلا بصر . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

٢٧ ـ دليل على إثبات صفة الكلام لله .

٢٨ ـ لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في أمر دينهم .

٢٩ ـ الخوف من الله والمأخذ من قوله سميعاً بصيراً .

٣٠ ـ الرد على من أنكر صفة الكلام لله أو قال ان كلام الله الكلام النفسي لأن الكلام النفسي لا يسمع ولا يفهم

الارادة والمشيئة

(« وقوله : (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وقوله : (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) وقوله : (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ان الله يحكم ما يريد) وقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ») .

في هذه الآيات وما ماثلها لمشيئة الله التامة وارادته الكونية القدرية والدينية الشرعية ، وقد أجمع العلماء من المسلمين وسلف الأمة وأئمتها وأهل السنة قاطبة على إثبات مشيئة الله وارادته .

الآية الأولى : أي وهلا اذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ، وقلت الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز وبأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وان شاء أفناها وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوتك وقدرتك ففي الآية :

١ ـ إثبات مشيئة الله .

٢ ـ ان الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله .

٣ ـ الحث على حمد الله والاعتراف بنعمه .

٤ ـ أنه لا تحول من حال إلى حال إلا بمعونة الله .

٥ ـ وصفه سبحانه بالألوهية .

٦ ـ النصح والتوبيخ لمن قال مقالة تنافي الشرع .

الآية الثانية : فيها أولا إخبار عما وقع بين أتباع الرسول ومن بعدهم من التنازع والتعادي وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عز وجل ولو شاء الله عدم الاقتتال لم يقتتلوا إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه ففي هذه الآية :

١ ـ إثبات لمشيئة الله وأنه لا بد من وقوع ما أراد وقوعه .

٢ ـ إثبات الفعل حقيقة .

٣ ـ إثبات صنة الحياة .

٤ ـ اثبات صفة القدرة وهي من الصفات الذاتية .

٥ ـ في الآية دليل على أن أفعاله قائمة به ولولا ذاك لم يكن فعالا ولا موصوفاً بصفات الكمال والفعل من لوازم الحياة والرب لم يزل فعالا ولا يزال موصوفاً بصفات الألوهية

٥ ـ رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات .
(الإرادة المذكورة في الآية كونية قدرية) .

الآية الثالثة : وهي قوله : (أحلت لكم بهيمة الانعام) الارادة المذكورة فيها دينية شرعية ، أي أبيحت لكم بهيمة الأنعام أي الإبل والبقر والغنم (إلا ما يتلى عليكم) أي إلا ما يتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال وقوله (غير محلي الصيد وأنتم حرم) قال بعضهم : هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر الوحشية فاستثنى من الأنسي ما تقدم واستثنى من الوحشي الصيد حال الإحرام ، وقيل المراد أحللنا الأنعام الا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام لقوله : (فمن اضطر غير باغ) الآية .

وقوله : (ان الله يحكم ما يريد) أي يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه في الحكم فله الحكم سبحانه ، وهو الحكيم لا حاكم غيره فكل حكم سوى حكمه فهو باطل مردود وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله .

قال الله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وهذا عام شامل فما من قضية إلا ولله فيها حكم ، قال الله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقال تعال : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) فهذه الآية الجليلة القدر عظيمة الموقع كبيرة الفائدة حسنة المغزى اختارها الرب سبحانه وتعالى ليختم بها كتابه الكريم ووحيه المعجز وأحكام شريعته السمحة ودينه الحنيف .

ومن مزايا هذه الآية الكريمة التي إنفردت بها عما بقي من السور، والآيات أن الله أكمل بها الدين بمعرفة الأحكام الشرعية من الفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض وأتم بها النعمة على عباده المؤمنين بهدايتهم لاحكامه وتوفيقهم لمعرفة أمره ونهيه وحلاله وحرامه وانجازه سبحانه ما وعدهم به في قوله « ولاتم نعمتي عليكم » .

فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين وأنه سبحانه اختار لهذه الأمة دين الاسلام وملة ابراهيم عليه السلام عن الأديان كلها بياناً لشرف هذا الدين وإعتناء بأمة محمد صلى الله عليه وسلم وحسبنا من ذلك قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » وقوله تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

وهذا ما دعا كعب الأحبار وذلك قبل أن يسلم وكان معه نفر من اليهود أن يقول لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤنها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذناها عيداً وأقمنا لها محتفلا في كل عام نجدد ذكراها ونتدارس فضائلها الكثيرة وذكرياتها العطرة .

فيبتدر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلا أي آية هي ؟ قال كعب « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي

ورضيت لكم الاسلام ديناً » فيجيبه أمير المؤمنين بكل تؤدة وسكينة قائلا قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة وفي رواية إسحاق بن قبيصة نزلت يوم جمعة يوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد . ا هـ .

ومن الأدلة على وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة عند التحاكم ما يلي :

وقال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهذه النصوص واضحة الدلالة على كمال الشريعة وشمولها .

وقال (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله) الآية .

وقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية .

وقال تعالى (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) .

وقال صلى الله عليه وسلم « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » وقال فيما صح عنه « ما بعث من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » وقال أبو ذر : لقد

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما .

ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنهما بالقوانين الوضعية أنه كافر كفراً ناقلا عن الملة الاسلامية وكذا من استهزأ بالقرآن أو طلب تناقضه أو دعوى أنه مختلف أو مختلق أو مقدور على مثله أو اسقاط لحرمته أو استخف به أو جحد شيئاً منه أو كذب به أو بشيء منه أو أثبت شيئاً نفاه القرآن أو نفا ما أثبته القرآن فقد كفر قال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية . وقال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً). ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفاً متفقاً عليه أنه كافر وقال علي من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وكذا من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى . أو زعم أن هدى غير محمد أفضل من هديه صلى الله عليه وسلم أو أحسن ، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة ، وأنها كانت كافية في الزمان الأول فقط ، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ولا بد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن ، فلا شك أن هذا الاعتقاد إذا صدر من إنسان فانه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتنقصهما ، ولا شك في كفره وخروجه

من الدين الاسلامي بالكلية .

وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الباطن فقط أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة أو أن الانسان حر في التدين وفي أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك ، أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد ، أو استهان بدين الاسلام ، أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه أو بمن جاء به وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لاجل حمله فهذه الأمور كلها كفر . قال الله تعالى : (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) .

وقال في تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن بعد سياقه لقول الله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) الآيتين : ثم لو لم يكن في القرآن المجيد في الزجر عن اتباع القوانين البشرية غير هذه الآية الكريمة لكفت العاقل اللبيب الذي أوتي رشده وأهمه صلاح قلبه عن تطلب غيرها فكيف والقرآن كله يدعو إلى تحكيم ما أنزل الله وعدم تحكيم ما عداه إما تصريحاً وإما تلويحاً وله جاهد من جاهد ويجاهد من يجاهد من عباد الله المتقين من لدن بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم تقوم الساعة وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال .

لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم .

ولا خلاف من خالفهم حتى يأتي أمر الله) .

وأنه قال :

« لا تجتمع أمتي على ضلالة » فعلمنا بذلك أن من الممتنع بالسمع أن يتمالأ العالم كلهم شرقاً وغرباً من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على اتباع القوانين البشرية وعدم المبالاة بالحكم الشرعي بل لا بد أن يكون فيهم ولو واحد ينكر على هؤلاء الكل إما بلسانه إن أمكنه ذلك ولم يفتكوا به وإما بقلبه وظن الفتك به كما قد كان أيام الاستبداد والغرض بيان أن طائفة على الحق لا تزال تقاتل وتجاهد على تحكيم ما أنزل الله باللسان والبيان والبدن والسنان والمال وكل ممكن لنوع الإنسان وأن به يتم نظام العدل والملك والدين والدنيا وبه يستقيم أمر المعاش والمعاد وتكمل لهم الراحة والأمن والحرية التامة والسياسة العامة لجميع الملل والرعايا المختلفة الأصناف والألسنة والأمزجة ومن شك في هذا فلينظر الفرق بين حال الاسلام في هذه القرون المتأخرة التي عطلت فيها حدود الشريعة وأحكامها وحاله في القرون المتقدمة التي ما كانت على شيء أحفظ منها على أحكام الشريعة وأرعى لها يجد الفرق كما بين الثرى والثريا وكما بين السماء والأرض وكما قال الشاعر :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

ألا ترى أن الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة نبيهم صلى الله عليه وسلم فتحوا ما فتحوا من أقاليم البلدان ونشروا

الاسلام والايمان والقرآن في مدة نحو مائة سنة مع قلة عدد المسلمين وعددهم وضيق ذات يدهم ونحن مع كثرة عددنا ووفرة عددنا وهائل ثروتنا وطائل قوتنا لا نزداد إلا ضعفاً وتقهقراً إلى الوراء وذلا وحقارة في عيون الأعداء وذلك لأن من لا ينصر دين الله لا ينصره الله قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فرتب نصرهم على نصره باقامة طاعته وطاعة رسوله .

وقال الشيخ رحمه الله على قوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم سبحانه بنفسه أن لا يؤمنوا . وأما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله ظاهراً وباطناً لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة فمن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية والعملية فالأمور المشتركة بين الأمة لا يحكم فيها إلا بالكتاب والسنة ليس لأحد أن يلزم الناس بقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك وحكام المسلمين في الأمور المعينة لا يحكمون في الأمور الكلية وإذا حكموا في المعينات فعليهم أن يحكموا بما في كتاب الله فان لم يكن فبما في سنة رسول الله فان لم يجدوا اجتهد الحاكم برأيه انتهى .

لأنه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال بم تحكم قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي قال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عروة .

كتبت إلي تسألني عن القضاء بين الناس وإن رأس القضاء إتباع ما في كتاب الله ثم القضاء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بحكم أئمة الهدى ثم استشارة ذوي العلم والرأي وذكر عن سفيان بن عيينة قال كان بن شبر مة يقول :

ما في القضاءِ شفاعة لمخاصم عند اللبيب ولا الفقيه العالم
هَوِّنْ عليَّ إذا قضيت بسنة أو بالكتاب برغم أنف الراغم
وقَضيتُ فيما لم أجد أثراً به بِنظائر معروفة ومعالم

وعن بن وهب قال : قال مالك الحكم حكمان حكم جاء به كتاب الله وحكم أحكمته السنة قال ومجتهد رأيه فلعله يوفق .

وقال ابن القيم رحمه الله على قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون الآية .

فأقسم سبحانه بأجل مقسم به وهو نفسه عز وجل على أنه لا يثبت لهم إيمان ولا يكونون من أهله حتى يحكموا الرسول

صلى الله عليه وسلم في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين لفظة (ما) من صيغ العموم فانها موصولة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه إنشراح صدورهم بحكمه حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً وهو الضيق والحصر من حكمه بل يقبلوا حكمه بالإنشراح ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض ويشربون على قذى فان هذا مناف للايمان بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله ويطالعه في قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد وكم من حرارة في أكبادهم منها وكم من شجي في حلوقهم منها ومن موردها ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى (ويسلموا تسليماً) فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين وهو الخضوع له والإنقياد لما حكم به طوعاً ورضا وتسليماً لا قهراً ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ويعلم بأنه أولى به من نفسه وأبر به منها وأرحم به منها وأنصح له منها وأعلم بمصالحه منها وأقدر على تخليصها ، وتأمل تأكيده لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد أولها تصديرها يتضمن المقسم عليه وهو قوله لا يؤمنون وثانيها تأكيده بنفس

القسم وثالثها تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشي من مخلوقاته ورابعها تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم وخامسها تأكيد الفعل بالمصدر وما هذا إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم وأن مما يعتني به ويقرر في نفوس العباد .

وقال رحمه الله :

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الأراء والقياس والاستحسان وأقوال أهل الأراء عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم فعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير فلم يروها منكراً .

فجاءتهم دولة أخرى أقامت فيها البدع مقام السنن والهوى مقام الرشد والضلال مقام الهداية والمنكر مقام المعروف والجهل مقام العلم والرياء مقام النصيحة والظلم مقام العدل فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور وأهلها هم المشار إليهم .

فاذا رأيت هذه الأمور قد أقبلت وراياتها قد نصبت وجيوشها قد ركبت فبطن الأرض والله خير من ظهرها وقنان الجبال خير من السهول ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس .

اقشعرت الأرض واظلمت السماء وظهر الفساد في البر

والبحر من ظلم الفجرة وذهبت البركات وقلت الخيرات وهزلت الوحش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الجيشة والأفعال الفظيعة وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح .

وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه ومؤذن بليل قد أدلهم ظلامه فاعزلوا عن طريق هذه السيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوحاً وكأنكم بالباب وقد أغلق وبالرهن وقد غلق وبالجناح وقد علق وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

وقال :

والله ما خوفي الذنوب فإنها ... لعلى سبيل العفو والغفران

لكنما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآن

ورضاً بآراء الرجال وخرصها ... لا كان ذاك بمنة المنان

فبأي وجه ألتقي ربي إذا ... أعرضت عن ذا الوحي طول زمان

وعزلته عما أريد لأجله ... عزلاً حقيقياً بلا كتمان

وقال الشيخ محمد بن ابراهيم في رده على محكمي القوانين : ان من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون

من المنذرين بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين والرد إليه عند تنازع المتنازعين مناقضة ومعاندة لقول الله عز وجل « فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » وقد نفى الله سبحانه وتعالى الايمان عن من لم يحكم النبي صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم نفياً مؤكداً بتكرر أداة النفي وبالقسم قال تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

قال وتأمل ما في الآية الأولى وهي قوله تعالى « فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» الآية كيف ذكر النكرة وهي قوله شيء في سياق الشرط وهو قوله جل شأنه «فان تنازعتم» المفيد العموم فيما يتصور التنازع فيه جنساً وقدراً .

ثم تأمل كيف جعل ذلك شرطاً في حصول الايمان بالله واليوم الآخر بقوله « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ثم قال جل شأنه ذلك خير فشيء يطلق الله عليه أنه خير لا يتطرق إليه شر أبداً، بل هو خير محض عاجلا وآجلا .

ثم قال « وأحسن تأويلا » أي عاقبة في الدنيا والآخرة فيفيد أن الرد إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم عند التنازع شر محض وأسوأ عاقبة في الدنيا والآخرة عكس ما يقوله المنافقون « إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » وقولهم « إنما نحن مصلحون » .

ولهذا رد الله عليهم قائلا « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا

يشعرون » وعكس ما يقوله القانونيون من حكمهم على القانون بحاجة العالم بل ضرورتهم إلى التحاكم إليه وهذا سوء ظن صرف بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومحض استنقاص لبيان الله ورسوله والحكم عليه بعدم الكفاية للناس عند التنازع وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة إن هذا لازم لهم .

قال وقد نفى الله الايمان عن من أراد التحاكم إلى غير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من المنافقين كما قال تعالى : « ألم ترى إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلا لا بعيداً » .

فان قول « يزعمون » تكذيب لهم فيما أدعوه من الايمان فانه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مع الايمان في قلب عبد أصلا بل أحدهما ينافي الآخر والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد فكل من حكم بغير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أو حاكم إلى غير ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه وذلك أنه من حق كل أحد أن يكون حاكماً بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فمن حكم بخلافه أو حاكم إلى خلافه فقد طغى وجاوز حده حكماً أو تحكيماً فصار بذلك طاغوتاً لتجاوزه حده .

قال وتأمل قوله عز وجل « وقد أمروا أن يكفروا به »

تعرف منه معاندة القانونيين وإرادتهم خلاف أمر الله لهم حول هذا الصدد فالمراد منهم شرعاً والذي تعبدوا به هو الكفر بالطاغوت لا تحكيمه « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم » .

ثم تأمل قوله « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » كيف دل على أن ذلك ضلال وهولاء القانونيون يرونه من الهدى كما دلت الآية على أنه من إرادة الشيطان عكس ما يتصوره القانونيون فتكون على زعمهم مرادات الشيطان هي صلاح الانسان وأمر الرحمن وما بعث به سيد ولد عدنان معزولا من هذا الوصف ومنحى عن هذا الشأن .

وقد قال تعالى منكراً على هذا الضرب من الناس ومقرراً ابتغاءهم أحكام الجاهلية وموضحاً أنه لا حكم أحسن من حكمه « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

فتأمل هذه الآية الكريمة وكيف دلت على أن قسمة الحكم ثنائية وأنه ليس بعد حكم الله تعالى إلا حكم الجاهلية الموضح أن القانونيين في زمرة أهل الجاهلية شاءوا أم أبوا بل هم أسوأ حالا منهم وأكذب منهم مقالا ذلك أن أهل الجاهلية لا تناقض لديهم حول هذا الصدد .

وأما القانونيون فمتناقضون حيث يزعمون الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ويناقضون ويريدون أن يتخذوا

بين ذلك سبيلا وقد قال الله في أمثال هؤلاء (أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) .

ثم أنظر كيف ردت هذه الآية الكريمة على القانونيين ما زعموه من حسن زبالة أذهانهم ونحاتة أفكارهم بقوله عز وجل « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

قال الحافظ بن كثير في تفسير هذه الآية : ينكر تعالى على من خرج من حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الأراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونه بارائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية التي يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير قال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون) وعن حكم الله يعدلون (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يقولون » أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل من الله شرعاً وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم من الوالدة بولدها فانه تعالى العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء .

وقال تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون».

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

« ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الفاسقون » .

فانظر كيف سجل تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً بل هو كافر مطلقاً إما كفر عمل وإما كفر إعتقاد .

وما جاء عن ابن عباس في تفسير هذه الآية يدل على أن الحاكم بغير ما أنزل لله كافر إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة .

قال وهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الاسلام مهيأة مفتوحة الأبواب والناس إليها اسراب إثر أسراب يحكم حكامها بينهم فيما يخالف حكم الكتاب والسنة من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتحتمه عليهم فأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة نسأل الله العصمة عن جميع المعاصي وأن يثبتنا على قوله الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . اهـ

ما يؤخذ من الآية المتقدمة ص ١٢٧ .

١ ــ إثبات صفة الحكم .

٢ ــ حل بهيمة الأنعام .

٣ ـ رحمته سبحانه بخلقه حيث أحل لهم بهيمة الأنعام .

٤ ـ تحريم صيد الوحش من بهيمة الانعام في حال الإحرام .

٥ ـ إثبات صفة الارادة .

٦ ـ إثبات الألوهية لله .

٧ ـ الرد على من أنكر شيئاً من ذلك أو أوله بتأويل باطل .

٨ ـ إثبات قدرة الله .

٩ ـ لطف الله رأفته بخلقه .

١٠ ـ إثبات صفة الكلام .

الآية الرابعة : يقول تعالى فيمن كان أهلا بارادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة والهادي إلى طريق الرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما ألقي إليه فيتأمله ، وتظهر له عجائبه ، وتتضح له دلائله فتتوجه إليه إرادته . ويدعو له قلبه ، بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه . وباهر البرهان الذي يتملك نفسه . وقال الشيخ فالايمان إذا باشر القلب وخالط بشاشته لا يسخطه القلب بل يحبه ويرضاه فان له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة والبر ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخطه . قال تعالى «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا

هو خير مما يجمعون » وقال تعالى « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك » .

ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ .

قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها قال ؟ الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت». قال ابن القيم رحمه الله لأسباب شرح الصدر أمور ، قوة التوحيد والهدي والنور الذي يقذفه الله بقلب العبد والعلوم النافعة والإنابة إلى الله تعالى ودوام ذكر الله والاحسان إلى الخلق والشجاعة وإخراج دغل القلب وترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم وأضداد هذه الصفات سبب الهم والغم والضيق والحصر ولنبينا صلى الله عليه وسلم من هذه الصفات الكاملة وغيرها أعلاها وأكملها ولأتباعه منها بحسب اتباعهم له انتهى .

وقوله : (من يرد أن يضله الخ) . . أي من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في صدره ضيقاً أيما ضيق اذا طلب اليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الأكثر من الناس وتضعف ارادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته للداعي إلى الأكثر من الناس وتضعف ارادته عن ترك ما هو عليه فتكون

إجابته للداعي إلى دين الإسلام والتمسك به ثقيلة ويشعر بالعجز عن احتمالها ، ويكون مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء اذ يشعر بضيق شديد في النفس ، وكلما صعد في الجو أكثر شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع البقاء ، فان هو قد بقي فيها مات .

وقيل : كأنه من ضيقه وشدته يصعدفي السماء ، أي يتكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة فيه .

والخلاصة : أن هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقه عن وصول الايمان اليه بقبوله فمثله في امتناعه من قبول الايمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه وطاقته الوصول إليه .

قال شيخ الاسلام : جعل الله القلوب ثلاثة أقسام : قاسية . وذات مرض. ومؤمنة مخبتة . وذلك إنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً ، أو لا تكون يابسة جامدة . فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الايمان ولا يرتسم فيه العلم لأن ذلك يستدعي محلا ليناً قابلا ، والثاني لا يخلو إما أن يكون ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه أو يكون لينه مع ضعف وانحلال فالثاني هو الذي فيه المرض والأول هو القوي اللين . قال ابن القيم :

والعلم يدخل قلب كل موفـــق من غير بواب ولا استئذان
ويرده المحـــروم من خذلانـــه لا تشقنا اللّهم بالخـــذلان

يؤخذ من هذه الآية :

١ ـ إثبات الارادة .

٢ ـ ان الهداية والإضلال بيد الله .

٣ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ ان العبد مفتقر إلى الله في كل شيء .

٥ ـ إن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

٦ ـ إن من تفرد بالخلق والرزق فهو المستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال وسائر أنواع العبادة وأنه ليس عند أحد من هداية القلوب وتفريج الكروب شيء لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم .

٧ ـ في الآية رد على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يملك شيئاً من ذلك فضلا عن غيره .

٨ ـ إثبات العلة والحكمة في أفعال الله إذ لا يعقل مريد إلا إذا كان المريد قد فعل الحكمة يقصدها بالفعل .

٩ ـ الرد على الجهمية الذين ينفون الحكمة عن الله في خلقه وأمره .

١٠ ـ إثبات صفة الإرادة الكونية القدرية المرادفة للمشيئة .

١١ ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

١٢ ـ أن من انشرح صدره للاسلام بأن اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان حتى يصفو اليقين فاطمأنت بذلك نفسه فان هذا علامة على أن الله قد هداه ومن عليه بالتوفيق .

١٣ ـ إن علامة من يرد الله أن يضله أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً .

١٤ ـ إثبات قدرة الله .

١٥ ـ إن قلوب العباد يصرفها الله كيف يشاء .

١٦ ـ إثبات علم الله .

١٧ ـ إثبات صفة الكلام لله .

١٨ ـ أن لسعادة العبد علامة ولشقاوته وضلالته علامة .

١٩ ـ إن على من شرح صدره للاسلام وارتاح لتعاليمه وقبلته نفسه وأحبه أن يشكر الله ويحمده ويسأل الله الثبات عليه حتى الممات .

تنبيه : الإرادة تنقسم إلى قسمين إرادة كونية قدرية وإرادة دينية شرعية .

قال الشيخ رحمه الله : الإرادة في كتاب الله على نوعين أحدهما : الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن والثاني

الإرادة الدينية الشرعية وهي محبة المراد رضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاؤهم الحسنى ولهذا كانت الأقسام أربعة ما اجتمعت فيه الإرادتان وهو ما وقع من الإيمان والطاعات كلها وما انتفت عنه الإرادتان وهو ما لم يكن من المباحات والمعاصي فان الله لم يردها ديناً لأنه لا يحبها ولم يردها كوناً لأنه لم يقدرها وما تعلقت به الإرادة الدينية وحدها وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار فان الله أرادها محبة ولكن ما يقضها ويقدرها ، وما تعلقت به الإرادة الكونية القدرية وحدها وهو ما قدر من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي وهذا واضح ا هـ .

بين الإرادتين عموم وخصوص ، فالكونية القدرية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق ، والإرادة الدينية الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور ، واقعاً كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية القدرية قد يكون غير مأمور به ، وليس بين الإرادتين تلازم بل قد تتعلق كل منها بما لا تتعلق به الأخرى ، وبينهما فروق أربعة :

١ ـ أن الكونية القدرية مستلزمة لوجود المراد ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وقوع مرادها .

٢ ـ أن الكونية القدرية شاملة للحوادث كلها وهي المتعلقة

بالخالق بأن يريد ما يفعل هو ، قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فالكافر والمسلم والبر والفاجر والطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها تحتها .

٣ - أن الارادة الدينية لا تستلزم وجود المراد إلا أن يتعلق به الأول ، وهو الكوني القدري ، فيجتمعان في حق المطيع وتنفرد الكونية في حق العاصي .

٤ - أن الإرادة الدينية الشرعية تتعلق بالأمر ، بأن يريد من العبد فعل ما أمره به ، والله سبحانه يحبها وقعت أو لم تقع وهي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به شرعاً وديناً ، وهي مختصة بالإيمان والعمل الصالح .

صفة المودة والمحبة

((وقوله : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (وهو الغفور الودود))) .

في هذه الآيات الكريمات دليل على إثبات صفة المحبة لله وهي من الصفات الفعلية ، وقد دل عليها الكتاب والسنة

إجماع سلف الأمة . محبة تليق بجلاله كما يقال ذلك في سائر الصفات . والحب اشتقاقه في الأصل من الملازمة والثبوت من قولهم : أحب البعير فهو محب ، إذا برك فلم يثر ، فالمحب ملازم لذكر محبوبه ثابت القلب على حبه مقيم عليه ولا يروم عنه انتقالا ولا يبغي عنه تحولا ولا زوالا ، قد اتخذ له في سويداء قلبه وطناً وجعله له سكناً والحب بالضم والكسر والضم أولى . والمحبة مراتب أولها العلاقة وهي تعلق القلب بالمحبوب والثانية الإرادة وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه الثالثة الصبابة وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه الرابعة الغرام وهي الحب اللازم للقلب الخامسة المودة وهي صفو المحبة وخالصها ولبها السادسة الشغف وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب السابعة العشق وهو الحب المفرط الذي ينخاف على صاحبه منه ولكن لا يوصف به الرب ولا العبد في محبة ربه الثامنة التتيم وهي بمعنى التعبد العاشرة الخلة التي تخللت روح المحب وقلبه وقيل في ترتيبها غير ذلك .

ومن السنة مما يدل على صفة المحبة ما ورد عن عبد الله بن مسعود يرفعه قال : « ثلاثة يحبهم الله رجل قام من الليل يتلو كتاب الله . . الحديث » رواه الترمذي . وعن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم لقرابة بينه وبينهم فتخلف رجل بأعيانهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه » الحديث رواه الترمذي والنسائي .

قال الشيخ : فأهل السنة والجماعة يقولون إن الله يحب ويرضى كما دل على ذلك الكتاب والسنة ويقولون إن المحبة والرضا أخص من الإرادة فيقولون إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه وإن كان داخلا في مراده كما دخلت سائر المخلوقات اهـ .

الآية الأولى ـ الإحسان ضد الإساءة وهو نوعان إحسان في عبادة الله فسره صلى الله عليه وسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إما أن يكون بايصال النفع الديني والدنيوي ويدخل في ذلك إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه البر والخيرات والعبادات وإما أن يكون بدفع الضرر عنهم حسب الاستطاعة أو بهما جميعاً .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة المحبة لله على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات صفة الكلام لله

٣ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل .

٥ ـ أن الإحسان سبب لمحبة الله للعبد .

٦ ـ الرد على الجبرية .

٧ ـ إثبات فعل العبد وكسبه .

٨ ـ أن العبد يثاب على عمله الحسن ويعاقب على عمله السيء .
٩ ـ إثبات الحكمة .
١٠ ـ أن الله يحب مقتضى أسمائه ، الحث على الإحسان .
١١ ـ لطف الله بخلقه حيث حث على الإحسان إلى الخلق .

الآية الثانية ـ القسط العدل في المعاملات والأحكام مع كل أحد ، قريب أو بعيد ، عدو أو صديق . والعدل في حقوق الله أن تصرف نعمه في طاعته ولا يستعان بها ولا بشيء منها على معصية الله أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون . إن الله يحب العادلين في أهليهم وما ولوا ، وفي جميع أعمالهم ، وفي حكمهم بين الناس ، وفي جميع الولايات التي تولوها ، حتى أنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا » .

قال الشيخ رحمه الله : العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال والظلم محرم مطلقاً لا يباح قط بحال ، والعدل محبوب باتفاق أهل الأرض ، مركوز حبه في القلوب ، وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب وتحبه والظلم من المنكر الذي

تنكره القلوب فتبغضه وتذمه ، والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلا بل حكم الله أحسن الأحكام ، والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج .

وقال : أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه اشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر. ولا تدوم مع الظلم والإسلام ، وذلك أن العدل نظام كل شيء فاذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة ا هـ . وقال : ومعلوم أن الناس تحت أمر الله ورسوله فليس لأحد أن يضر نفسه وماله ضرراً نهاه الله عنه زمن دفع ذلك الضرر عنه بما هو أخف منه فقد أحسن إليه وفي فطر الناس جميعهم أن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهو معتد وما عده المسلمون ظلماً فهو ظلم . وقال رحمه الله والظلم لا يباح بحال حتى ان الله تعالى قد أوجب على المؤمنين أن يعدلوا على الكفار في قوله « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنئان قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى » والمؤمنون كانوا يعادون الكفار بأمر الله فقال تعالى لا يحملنكم بغضكم للكفار على أن

لا تعدلوا بل اعدلوا عليهم فانه أقرب للتقوى وحينئذ فهؤلاء المشركون ليس لبعضهم أن يفعل ما به يظلم غيره بل إما أن يؤدي قسطه فيكون محسناً وليس له أن يمتنع عن أداء قسطه من ذلك المال امتناعاً يؤخذ به قسط من سائر الشركاء فتضاعف الظلم عليهم فان المال إذا كان يؤخذ لا محالة وامتنع بجاه أو رشوة أو غيرهما كان قد ظلم من يؤخذ منه القسط الذي يخصه وليس هذا بمنزلة أن يدفع عن نفسه الظلم من غير ظلم لغيره فان هذا جائز مثل أن يمتنع عن أداء ما يخصه فلا يؤخذ ذلك منه ولا من غيره وهذا كالوظائف السلطانية التي توضع على القرى مثل أن يوضع عليهم عشرة آلاف درهم فيطلب من له جاه بأمر أو مشيخة أو رشوة أو غير ذلك أن لا يؤخذ منه شيء وهم لا بد لهم من أخذ جميع المال وإذا فعل ذلك أخذ ما يخصه من الشركاء فيمتنع من أخذ ما ينوبه ويؤخذ من سائر الشركاء فان هذا ظلم منه لشركائه لأن هذا لم يدفع الظلم عن نفسه إلا بظلم شركائه وهذا لا يجوز . وليس له أن يقول أنا لم أظلمهم بل ظلمهم من أخذ منهم الحصتين لأنه يقال أولا هذا الطالب قد يكون مأموراً ممن فوقه أن يأخذ ذلك المال فلا يسقط عن بعضهم نصيبه إلا إذا أخذه من نصيب الآخر فيكون أمره بأن لا يأخذ أمراً بالظلم . الثاني أنه لو فرض أن الآمر الأعلى فعليه أن يعدل بينهم فيما يطلبه منهم وإن كان أصل الطلب ظلماً فعليه أن يعدل في هذا الظلم ولا يظلم فيه ظلماً ثانياً فيبقى ظلماً مكرراً فان الواحد منهم إذا كان قسطه مائة فطولب بمأتين كان قد ظلم ظلماً مكرراً بخلاف ما إذا أخذ من كل

قسطه ولأن النفوس ترضى بالعدل بينها بالحرمان وفيما يؤخذ منها ظلماً ولا ترضى بأن يخص بعضها بالعطاء أو الاعفاء الثالث أنه إذا طلب من القاهر أن لا يأخذ منه وهو يعلم أنه يضع قسطه على غيره فقد أمره بما يعلم أنه يظلم فيه غيره وليس للانسان أن يطلب من غيره ما يظلم فيه غيره وإن كان هو لم يأمره بالظلم كمن يولي شخصاً ويأمره ان لا يظلم وهو يعلم أنه يظلم فليس له أن يوليه وكذلك من وكل وكيلا وأمره أن لا يظلم وهو يعلم أنه يظلم ومن طلب من غيره أن يوفيه دينه من ماله الحلال وهو يعلم أنه لا يوفيه إلا مما ظلمه من الناس وكذلك اذا طلب منه أن يعفيه من الظلم وهو يعلم أنه لا يعفيه إلا بظلم غيره فليس له أن يطلب منه ذلك .

يؤخذ من الآية :

١ ـ الأمر بالعدل .

٢ ـ فضل العدل .

٣ ـ أن العدل سبب لمحبة الله للعبد .

٤ ـ إثبات صفة المحبة لله .

٥ ـ إثبات الألوهية .

٦ ـ إثبات صفة الكلام .

٧ ـ إثبات الحكمة .

٨ ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات كالجهمية ونحوهم .

٩ ـ إثبات فعل العبد وكسبه وأنه يثاب على حسنه ويعاقب على سيئه .

١٠ ـ أن الجزاء من جنس العمل .

١١ ـ الحث على الإحسان .

١٢ ـ لطف الله بخلقه حيث أمر بالإحسان إلى الخلق .

١٣ ـ أن المحسن كما أنه محبوب عند الله فهو أيضاً محبوب عند الناس .

١٤ ـ الرد على من قال بالقوانين الوضعية .

قال بعضهم :

أحسن إلى الخلق كي تظفر بودهم   فالمحسنون أحباء لدى البشر

وقال المتنبي :

وأحسن وجه في الورى وجه محسن   وأيمن كف فيهم كف منعم

الآية الثالثة ـ التواب : كثير التوبة الذي كلما أذنب تاب ورجع عن المعصية . والطهارة : النظافة والنزاهة عن الأقذار . والطهارة تنقسم إلى قسمين :

(١) حسية . وتكون عن الأحداث والأنجاس .

(٢) ومعنوية ، وتكون عن الذنوب والآثام والمعاصي .

والمعنى أن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين غير مصرين على شيء من أفعالهم ويحب كل من نزه نفسه عن الأقذار وابتعد عن ارتكاب المحرمات ، وللتوبة ثلاثة شروط ، إذا كانت لا تتعلق بادمي: الأول الإقلاع عن المعصية، والثاني الندم على فعلها ، والثالث العزم على أن لا يعود إلى المعصية أبداً ، فان فقد أحد هذه الشروط لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بادمي فشروطها أربعة ، الثلاثة المذكورة ، والرابع : أن يبرأ من حق صاحبها فان كانت مالا أو نحوه رده ؛ وإن كانت حد قذف أو نحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلا حليماً يغلب على الظن أنه إذا جاء معتذراً متنصلا من ذنبه تائباً نادماً عفا عنه وسامحه ، وإلا فيستغفر له لحديث « إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : اللهم أغفر لنا وله » .

وقد حث الله على التوبة وبين ما للتائبين في آيات القرآن الكريم ، وقد نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلي رحمه الله في ثلاثة أبيات وسماها شروطاً ، فقال :

شروط توبتهـــم إن شئت عدتها	ثلاثة عرفت فاحفظ على مهل
إقلاعه ، ندم ، وعزمه أبـــداً	أن لا يعود لما منه جرى وقل
إن كان توبته من ظلم صاحبـــه	لا بد من رده الحق على عجل

يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ إثبات المحبة على ما يليق بجلاله وعظمته .

٣ ـ الحث على التوبة .

٤ ـ إثبات صفة الكلام .

٥ ـ أن التوبة سبب لمحبة الله للعبد .

٦ ـ أن التطهر سبب لمحبة الله .

٧ ـ الحث على الطهارة . الحسية والمعنوية .

٨ ـ لطف الله بخلقه حيث حثهم على ما هو سبب لمحبته لهم .

٩ ـ الرد على من أنكر صفة المحبة أو أولها بتأويل باطل من جهمية أو معتزلة أو نحوهم .

١٠ ـ الابتعاد عن النجاسات والأقذار .

الآية الرابعة ـ الاستقامة ضد الاعوجاج ، ومعناها لغة الاستواء في جهة الانتصاب . وأما اصطلاحاً فهي اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم .

وقوله : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم عليه من ترك الحرب

بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم الخ . . وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون ، واستمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوهم معهم في الحرب أيضاً ، فعند ذلك غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنـــة .

وقوله : (إن الله يحب المتقين) التقوى : التحرز بطاعة الله عن معصية الله فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات ، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال الشاعر :

خـل الذنـــوب صغيرهـــا وكبيرهـــا فهـــو التقـــى
واصنــع كمـــاش فـــوق أر ض الشوك يحذر ما يـــرى
لا تحقـــــرن صغـــيرة إن الجبـــال من الحصى

يؤخذ من الآية :

١ ـ الحث على الاستقامة .

٢ ـ إثبات صفة المحبة .

٣ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ الحث على التقوى .

٥ ـ أن التقوى سبب لمحبة الله للعبد .

٦ ـ الحث على الوفاء بالعهد .

٧ ـ استباحة نبذ العهد عند عدم الاستقامة كما يفيده مفهوم الآية .

٨ ـ إثبات صفة الكلام لله والرد على من أنكرها .

٩ ـ الرد على من أنكر صفة المحبة أو أولها بتأويل باطل .

١٠ ـ سماحة الدين الإسلامي حيث أمر المسلمين بالوفاء مع من وفى معهم .

١١ ـ لطف الله بخلقه .

١٢ ـ الحث على مكارم الأخلاق .

١٣ ـ الحث على العدل والإنصاف .

الآية الخامسة ـ الحب والمحبة : ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه يقال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب . قال الأزهري : محبة العبد لله ولرسوله طاعته لأمرهما واتباعه لهما . ومحبة الله للعبد محبة تليق بجلاله وعظمته أثرها رحمته وإحسانه وإعطاؤه . والمعنى قل يا محمد إن كنتم تحبون الله حقيقة فاتبعوني فان ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأمره ونهيه . والمحب الصادق حريص على معرفة المحبوب ومعرفة أمره ونهيه ليقترب إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه ؛ فان

اتبعتموني يحببكم الله الخ . . وهذا حجة على من يدعي محبة الله في كل زمان ومكان وأعماله تكذب ما يقول ، إذ كيف يجتمع حب مع الجهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه فهو كما قال الوراق :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين» وفيهما «ثلاث من كن فيه وجدبهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء الذي لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » فالواجب على كل أحد آمن بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله المحبة الصحيحة الصادقة المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات قال بعض العلماء ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده فمن ادعى أنه يحب الله ورسوله فيفترض عليه أن يبذل وسعه ويسعى جهده في إقامة حدود الله ونصرة دينه بالقول والفعل والمال وكل ممكن فان علامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوبات محبوبه ويبذل جهده وطاقته فيها اهـ .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ إثبات صفة الكلام .

٣ ـ إثبات صفة المحبة لله .

٤ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة .

٥ ـ الحث على محبة الله بالسعي في أسبابها .

٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام جبريل أو كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

٧ ـ إثبات صفة المغفرة . ومن أسمائه تعالى الغفور والغفار قال تعالى : (وإني لغفار لمن تاب) آلآية . قال ابن القيم رحمه الله

وهو الغفور فلو أتى بقرابهـــا من غير شرك بل من العصيـــان

لاقاه بالغفـــران مـــلء قرابهـــا سبحانه هو واسع الغفـــران

فهو سبحانه الذي أظهر الجميل وستر القبيح . والذنوب من جملة القبائح قال تعالى : (إن ربك واسع المغفرة) وفي الحديث « إن الله يقول يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة . . »

ومما يؤخذ من الآية أيضاً :

٨ ـ الحث على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

٩ ـ أن هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة فعلامة محبة الله اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ رحمه الله : وكلما كان الرجل أتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فاذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول . اهـ .

الآية السادسة ـ الارتداد : الخروج عن الإسلام والدخول في الكفر أذلة : جمع ذليل بمعنى عاطفين عليهم ، أعزة : جمع عزيز بمعنى متعالين عليهم أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين بمعنى قوله (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، ففي قوله تعالى (أعزة على الكافرين) بعد قوله (أذلة على المؤمنين) احتراس فيه تتميم للمعنى وتكميل للمدح . فانه سبحانه لو اقتصر على وصفهم بالذل لإخوانهم المؤمنين لاحتمل أن يتوهم أن ذلهم عن عجز وضعف ، فنفى ذلك بذكر عزتهم على الكافرين ليعلم أن ذلهم للمؤمنين عن تواضع . لومة لائم : أي عذل عاذل في نصرهم ، يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه . وأن لله عباداً مخلصين ورجالا صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم ، وأنهم من أكمل الخلق أوصافاً

وأقواهم نفوساً وأحسنهم أخلاقاً ، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ، فجمعوا بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين . متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الدين الإسلامي وما يفعله حزب الشيطان من إزراء بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوىء ومناقبهم مثالب حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله ، والإشارة في قوله ذلك إلى ما اختصهم الله به من الصفات الحميدة التي نالوا بها محبة الله التي هي الغاية المطلوبة .

يؤخذ من الآية :

١ - إثبات صفة المحبة لله .

٢ - الرد على من أنكرها من جهمية أو نحوهم .

٣ - التحذير عن معصية الله .

٤ - أن الكافر والعاصي لا يضر إلا نفسه .

٥ - أن الله غني عن العالمين .

٦ - عظيم قدرة الله في أن من تولى عن دينه فان الله يستبدل به غيره . وقد وصف الله المؤمنين بست صفات :

(١) أنه تعالى يحبهم .
(٢) انهم يحبونه .
(٣و٤) أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .
(٥) الجهاد في سبيل الله ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الله ورسوله .

(٦) كونهم لا تأخذهم في الله لومة لائم .

ومما يؤخذ :

٧ ـ إثبات فعل العبد حقيقة .

٨ ـ أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة .

٩ ـ إفراد الله بالمحبة .

١٠ ـ التعريض بالمنافقين الذين يخافون لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين .

١١ ـ إثبات صفة الكلام لله .

١٢ ـ الرد على من أنكر صفة المحبة أو صفة الكلام .

١٣ ـ الخطاب على وجه الوعيد والتحذير والتخويف .

١٤ ـ إعلام بارتداد بعض المؤمنين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه ثم وقع فارتد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بنو حنيفه قوم مسيلمة الكذاب ، وبنو مدلج قوم الأسود العنسي ، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، الذي ادعى النبوة ثم أسلم وجـاهد ، ثم كر المرتدون وفشا أمرهم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى كفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

١٥ ـ الحث على التمسك بدين الإسلام ، ثبتنا الله عليه وجميع المسلمين .

١٦ ـ الحث على التواضع والعطف على المؤمنين

١٧ ـ الحث على الشدة والغلظة على الكفار .

١٨ ـ الرد على الجهمية المنكرين لعلم الله .

١٩ ـ الرد على القدرية .

٢٠ ـ أن الله إذا أحب عبداً يسر له الأسباب ، وهون كل عسير ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات . وأقبل بقلوب العباد إليه بالمحبة والوداد ، قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً)

ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله كما قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) كما أن من لوازم محبة الله للعبد أن يكثر العبد التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن الله « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه » .

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى والإكثار من ذكره فان المحبة بدون معرفة الله ناقصة جداً ، بل غير موجودة ، وإن

وجدت دعواها ، ومن أحب الله أكثر من ذكره وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل ، وغفر له الكثير من الزلل . وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم وليس في الوجود ما يستحق ان يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه فان الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله كما في الآية .

اللهم ارزقنا حبك ، وألهمنا ذكرك ، وشكرك ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

الآية السادسة ـ يخبر فيها جل وعلا وتقدس أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله أن يصفوا أنفسهم حين القتال بنظام ودقة وحكمة ، ولا يكون بينهم فرج كأنهم البنيان المرصوص المتلاحم الأجزاء الذي كأنه قطعة واحدة ، والسر في ذلك أنهم إذا كانوا كذلك نشط بعضهم بعضاً زادت قوتهم المعنوية وتنافسوا في الطعان والنزال ، والكر والفر وأدخلوا الروع والفزع والذعر في نفوس الأعداء .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ إثبات صفة المحبة لله .

٣ ـ الحث على الجهاد في سبيل الله .

٤ ـ تعليم المجاهدين ما يعود عليهم بالمصلحة .

٥ ـ إثبات صفة الكلام .

٦ ـ أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال .

٧ ـ الحث على اجتماع الكلمة .

٨ ـ الحث على إخلاص العمل لله وحده .

٩ ـ الحث على تكاتف المسلمين وتعاضدهم وكونهم يداً واحدة .

١٠ ـ الرد على من أنكر صفة المحبة .

١١ ـ الحث على الثبات والجد في القتال .

١٢ ـ الندب إلى الصفوف في القتال .

تنبيه :

أنكرت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبة الله وقالوا : المحبة لا تكون إلا بين متناسبين وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات الله الثابتة له . قال الإمام أحمد : لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين . والمناسبة لفظ مجمل . فانه قد يراد بها التوالد والقرابة ، فيقال هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة إلى الولادة والآدمية ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ويراد بها المماثلة ، فيقال : هذا يناسب هذا أي يماثله والله سبحانه وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد

ولم يكن له كفواً أحد ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني وضدها المخالفة ، والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة فان أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه وفيما يحبه فيحبونه وفيما نهى عنه فيتركونه وفيما يعطيه فيصيبونه والله وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة محسن يحب المحسنين مقسط يحب المقسطين إلى غير ذلك من المعاني ، فاذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال أو لا يحب صفات الكمال ، وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك لا يحب هذا ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا ا هـ . (من مجموع الرسائل لشيخ الإسلام) .

الآية الثامنة ـ قوله تعالى : (وهو الغفور الودود) فالغفور من أبنية المبالغة أي كثير المغفرة وأصل الغفر الستر ، ومنه المغفر فهو سبحانه وتعـالى يغفر لمن تاب إليه أي يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه .

قال ابن رجب : المغفرة محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى لا كما ظنه بعضهم الستر فالعمامة لا تسمى مغفراً مع سترها فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية ا هـ .

وقوله : (الودود) من الود وهو خالص الحب وألطفه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة والرحمة قال الجوهري وددت الرجل أوده وداً إذا أحببته والود المودة . والودود المحب . والودود من صفاته أصله من المودة . واختلف فيه على قولين : فقيل هو ودود بمعنى واد كضروب بمعنى ضارب وقتول بمعنى قاتل ونؤوم بمعنى نائم . ويشهد لهذا القول أن فعولا في صفات الله فاعل كغفور بمعنى غافر وشكور بمعى شاكر وصبور بمعنى صابر وقيل بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب وبذلك فسره البخاري في صحيحه فقال الودود الحبيب والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله (وهو الغفور الودود) وبالرحيم في قوله (إن ربي رحيم ودود) وفيه سر لطيف وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال تعالى (إن الله ب التوابين ويحب المتطهرين) فالتائب حبيب الله فالود أصفى لحب وألطفه . اهـ (من كلام ابن القيم) .

وقال رحمه الله :

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان

وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحب ثان

هذا هو الإحسان حقاً لامعا ... وضة ولا لتوقع الشكران

والخلاصة : أنه سبحانه المحب لأهل طاعته من أنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه وعباده المؤمنين المحسنين وهو سبحانه محبوبهم ولا تعادل محبة الله عند أصفيائه محبة أخرى . وهذا هو الواجب

ويتعين أن تكون المحاب تبعاً لها ، لأن محبة الله هي روح الأعمال و جميع الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة تبع لها ومحبة العبد لربه فضل من ربه وإحسان ليست بحول العبد وقوته فهو الذي أحب عبده فوفقه وجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه جازاه بحب آخر . قال بعض العارفين مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل وما أطيب ما فيها قال محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ، وقال آخر إنه ليمر بالقلب أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب ، وقال آخر ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته ، وقال أبو الحسين الوراق حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لا غير .

وقال ابن القيم :

وحياةُ قلبِ المرءِ في شيئين مَــنْ	يُرْزقْهما يَحْيَى مَدَى الأزمان
في هذه الدنيا وفي الأخــرى يكــو	ن الحيَّ ذا الرضوان والإحسان
ذكــرُ الإلــه وحبهُ من غيرإشـ	ـراك به وهمـا فممتنعـان
من صاحب التعطيل حقاً كامتنـا	ع الطائر المقصوص من طيران
أيحبـه من كان ينكــر وصفـه	وعلـوه وكلامـه بقران ؟
لا والذي حقاً على العرش استوى	متكلماً بالوحي والفرقــان !

صفة الرحمة والمغفرة

« وقوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) (وكان بالمؤمنين رحيماً) (ورحمتي وسعت كل شيء) (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (وهو الغفور الرحيم) (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) » .

في هذه الآيات إثبات صفة الرحمة والمغفرة .

الآية الأولى : الباء في بسم الله للاستعانة ، وهي متعلقة بمحذوف ، والتقدير ابتدىء ، والاسم مشتق من السمو والعلو ، ومن السمة وهي العلامة ، ولفظ الجلالة مشتق من أله ، ومعنى كونه مشتقاً أنه دال على صفة هي الألوهية كسائر الأسماء الحسنى ، وقوله (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس : الرحمن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أوسع رحمة اهـ . وهما من أبنية المبالغة ، والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، والرحمن خاص بالله سبحانه لا يسمى به غيره ولا يوصف ، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره ، فيقال رجل رحيم ، وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة .

قال ابن القيم : وأسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فانها دالة على صفات كماله فلا تنافي بين العلمية والوصفية .

فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته ، فمن حيث هي صفة جرى تابعاً على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم ، ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمة كاسم الله فانه دال على صفة الألوهية ، ولم يجيء قط تابعاً بل متبوعاً ، وهذا بخلاف العليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير ، ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً .

وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول على أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم حلقه برحمته ، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله (وكان بالمؤمنين رحيماً) (إنه بهم رؤوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها .

وقال ابن القيم : تضمنت بسم الله الرحمن الرحيم إثبات النبوات من جهات عديدة : الأول من اسم الله وهو المألوه المعبود ولا سبيل إلى معرفة عبوديته إلا من طريق رسله . الثاني

من اسمه الرحمن فان رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة . فمن أعطى هذا الاسم حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح ا هـ .

يؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات صفة الرحمة .
٢ ــ إثبات الألوهية .
٣ ــ إثبات صفة الكلام لله .
٤ ــ إثبات الأسماء لله .
٥ ــ الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهما .

الآية الثانية : أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فما من مسلم ولا كافر إلا وهو يتقلب في نعمته . ففي الآية :

١ ــ إثبات صفة الرحمة .
٢ ــ إثبات صفة العلم وسعتها وشمولها .
٣ ــ الرد على الجهمية ونحوهم .
٤ ــ الرد على القدرية .
٥ ــ إثبات الربوبية .

الآية الثالثة : يخبر تعالى أنه بالمؤمنين رحيم أما في الدنيا فانه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر والبدع وأتباعهم من الطغام وأما رحمته في الآخرة التي قال عنها (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) الآية ، فانه أمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار قال تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) . وقال جل وعلا (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الرحمة .
٢ ـ الحث على الإيمان .
٣ ـ إثبات صفة الكلام .
٤ ـ الرد على من أنكر صفة الرحمة أو أولها بتأويل باطل .

الآية الرابعة : يخبر تعالى أن رحمته عمت كل شيء في العالم العلوي والسفلي البر والفاجر والمؤمن والكافر فلا يخلو مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمته وغمره فضله وإحسانه ولكن

الرحمة الخاصة ليست لكل أحد ولهذا قال عنها (فسأكتبها) أي الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة (للذين يتقون ويؤتون الزكاة) الآيتين . ففي الآية أولا إثبات صفة الرحمة ٢ : إثبات سعة رحمة الله ٣ : الرد على من أنكرها أو أولها بتأويل باطل كالأشاعرة ٤ : إثبات صفة الكلام ٥ : الرد على من أنكرها ٦ : أن الرحمة العامة يشترك فيها البر والفاجر .

الآية الخامسة : في الآية احتجاج أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مقرراً وملزماً لهم بالتوحيد ؟ لمن ما في السموات والأرض : فان أجابوك والا فقل إن الله هو الخالق لهذا الكون المالك المتصرف فيه وقوله (كتب ربكم الخ) هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عن الإقبال عليه وإخبار منه بأنه رحيم بالعباد قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ولكنه كتب على نفسه الرحمة ووعد بها فضلا منه وإحساناً ولم يوجبها عليه أحد .

والكتابة تكون شرعية وتكون كونية فالكتابة الشرعية الأمرية كقوله تعالى (كتب عليكم الصيام) ، (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) ، والكونية القدرية كقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) وقوله : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) ، (كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) والكتابة في قوله (كتب ربكم) كونية قدرية فقد كتب على نفسه الرحمة تفضلا منه وإحساناً من غير أن يوجبها عليه أحد كما قيل :

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وإذا كان معقولا من الإنسان أن يوجب على نفسه ويحرم ، ويأمرها وينهاها ، مع كونه تحت أمر غيره ونهيه ، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه ، وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ورضاه وتحريمه على نفسه يستلزم بغضه لما حرمه وكراهته له إرادة أن لا يفعله فان محبته للفعل تقتضي وقوعه منه وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه ، وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه فان محبته ذلك منهم لا تستلزم وقوعه ، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ، فرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له ويتخلف مع محبته له ورضاه به بخلاف فعله هو سبحانه ، فهذا نوع وذاك نوع ، فتدبر هذا الموضع .

وقال : واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف :

فطائفة منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بايجابه وتحريمه ، وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل . وأن يكون العبد فاعلا أو مختاراً .

الطائفة الثانية : بازاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير

أن يوحيها هو على نفسه ولا حرمها ، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب على العباد وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم ، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال ، والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين : تعطيل صفاته ، وجحد نعوت كماله ، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه ، فشبهوا في أفعاله وعطلو في صفات كماله ، فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيداً وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلا ، وقالوا : نحن أهل العدل والتوحيد فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها . وتوحيدهم إلحاد في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه ، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلا وعدلهم شركاً والمقصود أن هذه الطائفة مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات

وهدى الله الأمة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فلم يقيسوه بخلقه ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك ، ولم يوجبوا عليه شيئاً ولم يحرموا عليه شيئاً ، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه ، وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء فان العباد لا يحصون ثناء عليه أبداً بل هو كما أثنى على نفسه .

وهذا بين بحمد الله عند أهل العلم والإيمان مستقر في فطرهم ثابت في قلوبهم يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين

وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل هم إلى الله ورسوله متحيزون وإلى محض سنته منتسبون يدينون دين الحق أين توجهت ركائبه ويستقرون معه حيث استقرت مضاربه ا هـ . (من كلام ابن القيم) .

ما يؤخذ من الآية :

١ – إثبات صفة الرحمة .

٢ – إثبات صفة الربوبية .

٣ – تربيته لخلقه نوعان عامة وخاصة ، فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم ، والخاصة تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر .

٤ – إثبات النفس على الوجه اللائق بجلاله وعظمته .

٥ – إثبات صفة الكلام .

٦ – الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما .

٧ – الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين لصفة الرحمة القائلين الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم .

وهذا الزعم باطل من وجوه : أما أولا فلأن الضعف والخور

مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة . قال تعالى (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن فقال (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وندبهم إلى الرحمة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » ، وقال : « من لا يرحم لا يرحم » ، وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، وقال « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ومحال أن يقول لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي ، ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة النساء ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً .

وأيضاً فلو قدر أنها حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق الله تعالى مستلزمة لذلك ، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه .

وأيضاً فنحن نعلم بالاضطرار أنا اذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة والآخر قد استوى عنده هذا وهذا ، وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة كان الأول أكمل ا هـ (من مجموع الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام) .

وبعضهم تأول الرحمة بمعنى إرادة الإحسان والحق إثبات صفة الرحمة حقيقة على ما يليق بجلاله ، كما يقال في سائر

الصفات ، والرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للاحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام ، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته .

ومنهم من تأول الرحمة بمعنى الثواب ، والله سبحانه فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المنفصل ، فقال تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) الآية ، فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه ، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثواباً منفصلاً مخلوقاً ، وقول من قال هي ارادة الإحسان ، فان إرادته الإحسان هي من لوازم رحمته فانه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم ، فاذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان وكذلك لفظ اللعنة والغضب والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة فاذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها فان ثبوت لازم الحقيقة مع انتفائها ممتنع ، فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها .

الآية السادسة : قوله (وهو الغفور الرحيم) قد تقدم الكلام على هذين الاسمين وما في معناهما .

الآية السابعة : قال بعض المفسرين : لعل هنا إضمار ، والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم وقال (فالله خير حافظاً) ، والمعنى : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم فأنا أتوكل على الله في حفظ بنيامين لا حفظكم وهو أرحم الراحمين الذي يعلم حالي وكبري وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو منه أن

يحفظه ويرده علي ويجمع شملي به وأن لا يجمع علي مصيبتين ، قيل : لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه ، ولما قال في يوسف (وأخاف أن يأكله الذئب) وقع له من الامتحان ما وقع .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الرحمة .

٢ ـ إثبات الألوهية .

ومن أسمائه تعالى الحفيظ وهو مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة ، وللحفيظ معنيان : أحدهما أنه قد حفظ على عباده ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علمه بأحوال عباده كلها ، والمعنى الثاني أنه الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون . وحفظه لعباده نوعان عـام وخاص ، فالعام حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيها ويحفظ بنيتها وتمشي إلى هدايته العامة ، قال الله تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) النوع الثاني حفظ خاص لأوليائه عما يضر إيمانهم ويزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات قال تعالى (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وهذا عام في جميع ما يضرهم في دنياهم ودينهم ، وفي الحديث « احفظ الله يحفظك » .

تنقسم الرحمة إلى قسمين : قسم مشترك عام بين المسلم

والكافر والبر والفاجر والبهائم وسائر الخلق ، ودليل هذا القسم قوله تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) ، وقوله (وسعت كل شيء رحمة) وقسم خاص بأنبيائه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين ودليلها قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً) وقوله (انه بهم رؤوف رحيم) .

والرحمة المضافة إلى الله نوعان : أحدهما مضاف من إضافة المفعول إلى فاعله ومنه ما في الحديث « احتجب الجنة والنار فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء » فهذه مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى خالقه ، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة لأن من يدخلها الرحماء ، ومنه خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، ومنه قوله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا) وقوله (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) ومنه تسمية المطر رحمة كقوله (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) والنوع الثاني مضاف إليه إضافة صفة إلى موصوف ، وذلك مثل ما في قوله تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) وكما في الحديث « ياحي يا قيوم برحمتك أستغيث » ومن النوع الأول قوله صلى الله عليه وسلم « أنزل رحمة من رحمتك » .

وقال الشيخ رحمه الله : المضاف إلى الله نوعان : أعيان وصفات ، فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت على أنها إضافة وصف

له قائم به ليست مخلوقة لأن الصفة لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من موصوف تقوم به فاذا أضيفت إليه علم أنها صفة له ، وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى فاما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة ومقدورة ونحو ذلك فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله (هذا خلق الله) وقد تضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، وروح الله ، فهذه تقتضي التشريف والعناية وأنها امتازت عن غيرها من الأعيان بما يناسب السياق ، وقال ابن القيم :

والله أخبر في الكتـــاب بأنـــه	منه ومجرور بمـــن نوعان
عين ووصف قائم بالعين فالأع	يـــان خلق الخالق الرحمن
والوصف بالمجـــرور قام لأنه	أولى به في عرف كل لسان
ونظير ذا أيضاً سواء ما يضا	ف إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابتة لمـــن	قامت به كإرادة الرحمـــن
وإضافة الأعيـــان ثابتة لـــه	ملكاً وخلقاً ما هما سيـــان
فانظر إلى بيت الإله وعلمـــه	لما أضيفا كيف يفترقـــان
وكلامـــه كحياته وكعلمـــــه	في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لكن ناقتـــه وبيـــت إلهنـــا	فكعبده أيضا هما وصفان
فانظر إلى الجهمي لما فاته الـــ	حق المبين الواضح التبيـــان
كان الجميع لديه باباً واحـــداً	والصبح لاح لمن له عينـــان

(« قوله (رضي الله عنهم ورضوا عنه) ، وقوله (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) ، وقوله (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) ، وقوله (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ، وقوله (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) ، وقوله (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ») .

في هذه الآيات الكريمات يصف الله جل وعلا نفسه بالرضا والغضب واللعن والكراهة والأسف والسخط والمقت والانتقام وهي من صفات الأفعال التي يفعلها متى شاء إذا شاء .

قال الشيخ رحمه الله : وقد ثبت بالسمع اتصاف الباري بالأفعال الاختيارية القائمة به كالاستواء على العرش والقبض والبسط والنزول والخلق والرزق المتعلقة بنفسه والمتعدية إلى الخلق ، والفعل المتعدي واللازم لا بد أن يقوم بالفاعل ويمتنع عقلا وشرعاً أن يقوم بغيره في الحالين وهذه الأفعال الاختيارية تبع لقدرته ومشيئته فما شاء قاله وتكلم به ، وما شاء فعله في الحال والماضي والمستقبل ، هذا أصل متفق عليه بين السلف وعليه دل الكتاب والسنة .

الآية الأولى : لما ذكر سبحانه أعمالهم الصالحة ذكر أنه أثابهم عليها رضاه الذي هو أعظم وأجل من كل نعيم ، قال

تعالى (ورضوان من الله أكبر) وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون ومالنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » أخرجاه من حديث مالك .

قال ابن القيم رحمه الله :

أوما علمت بأنـــه سبحانه حقاً يكلم حزبه بجنان
فيقول جل جلالـــه هل أنتم راضون قالوا نحن ذو رضوان
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم ينله قط من إنســان
هل ثم شيء غير ذا فيكون أفـــضل منه نسأله من المنــان
فيقول أفضل منه رضواني فـــلا يغشاكم سخط من الرحمن

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة الرضا لله .
٢ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله .
٣ ـ الرد على من أنكر صفة الرضا أو أوله بتأويل باطل
٤ ـ إثبات فعل العبد وأن له فعلا اختيارياً .

٥ ـ إثبات الألوهية لله .

قال ابن القيم رحمه الله : الرضا ينقسم إلى ثلاثة أقسام الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله فالرضا بالله فرض والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم وأوجبه بعضهم . وأما الرضا بكل مقضي فلا يجب بل المقضي ينقسم إلى ما يجب الرضا به وهو الديني ، قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية . ومقضي كوني قدري ، فان كان فقراً أو مرضاً ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب ، وأوجبه بعضهم ، وإن كان كفراً أو معصية حرم الرضاء به فان الرضاء به مخالفة لربه فانه سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه قال تعالى : (ولا يرضى لعباده الكفر) الآية ، وأما القضاء الذي هو صفة الله وفعله فالرضاء به واجب ا هـ .

قال الشيخ رحمه الله :

وأما رضانا بالقضـاء فإنمـا	أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة
كسقم وفقر ثم ذل وغربـة	وما كان من مؤذ بدون جريمة
فأما الأفاعيل التي كرهت لنـا	فلا نص يأتي في رضاها بطاعة
وقد قال قوم من أولي العلم لارضا	بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة
فإن إله الخلق لم يرضها لنـا	فلا نرتضي مسخوطة لمشيئة
وقال فريـق نرتضي بقضائه	ولا نرتضي المقضي أقبح خصلة

وقال فريق نرتضي بإضافـــة إليه وما فينا فنلقى بسخطـة
كما أنها للرب خلق وأنهـــا لمخلوقه كسب كفعل الغريزة
فنرضى من الوجه الذي هو خلقه ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

الآية الثانية : في هذه الآية وعيد شديد على من يقتل مؤمناً متعمداً بأن عقابه جهنم خالداً فيها أي مقيماً والخلود المكث الطويل وغضب الله عليه ولعنه أي طرده عن رحمته ، واللعن البعد عن مظان الرحمة ومواطنها ، قيل : واللعين من حقت عليه اللعنة ، والملعون من حقت غليه اللعنة أو دعي عليه بها .

قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ؛ ومن الخلق السب والدعاء .

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلي على من استحق الصلاة من عباده . قال تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ، تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقال (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً) وقال (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) وهيأ له عذاباً عظيماً لا يدرك كنهه إلا العزيز الجبار لعظم ذنبه ، وهذا وعيد عظيم ترجف منه القلوب وتتصدع له الأفئدة وينزعج منه أولوا العقول .

وقد اختلف العلماء هـــل للقاتل من توبة ؟ فروى

البخاري عن سعيد بن جبير قال : اختلف علماء الكوفة فيها فرحلت إلى ابن عباس رضي الله عنهما فسألته عنها ، فقال : نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) الآية ، وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء ، وقد روى النسائي عنه نحو هذا . وأتى رجل إلى ابن عباس بعدما كف بصره فناداه يا عبد الله بن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً فقال جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً قال أفرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى قال ابن عباس ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول « ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمداً جاء يوم أخذه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه يقول يا رب سل هذا فيما قتلني» ويم الذي نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وممن ذهب إلى أنه لا توبة لقاتل المؤمن متعمداً أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبو سلمة وعبيد بن عمير والحسن والضحاك ابن مزاحم نقله ابنُ أبي حاتم عنهم ؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » رواه أحمد والنسائي داود من حديث أبي الدرداء كذلك .

وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ؛ ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في قتل مؤمن لأدخلهم الله تعالى في النار » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار ، وأن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به » وعن جندب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سمع سمع الله بـــه يوم القيامة قال ومن يشاقق يشق الله عليه يوم القيامة » فقالوا أوصنا فقال «إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة ، بملء كف من دم إهراقه فليفعل » رواه البخاري . وأخرج الطبراني في الكبير والضياء في المختارة عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبى الله أن يجعل لقاتل لقاتل المؤمن توبة .

وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قتل مؤمناً فاعتبط بقتله

لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » رواه البخاري .

وقال عبد الملك بن مروان كنت أجالس بريرة بالمدينة فكانت تقول لي يا عبد الملك إني أرى فيك خصالا وإنك لخليق أن تلي الأمر فان وليته فاحذر الدنيا فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر اليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم لغير حق » انتهى .

وذهب الجمهور إلى أن التوبة من القاتل مقبولة واستدلوا بمثل قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) وقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لما يشاء) وقوله (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وبقوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقالوا أيضاً : والجمع ممكن بين آية النساء وآية الفرقان

فيكون معناها فجزاؤه جهنم إلا من تاب لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل ، والموجب وهو التوعد بالعقاب ، واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » ثم قال : « فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه » وبحديث أبي هريرة في الذي قتل مائة نفس وهو في صحيح مسلم ، قلت : ويؤيد هذا القول حديث « يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذي وحديث « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته . . الحديث» متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم . وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه والشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب .

قال ابن القيم : والتحقيق في المسألة آن القتل يتعلق به ثلاثة ثلاثة حقوق حق الله وحق المقتول وحق الولي فاذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً ندماً على ما فعله وخوفاً من الله وتوبة نصوحاً سقط حق الله بالتوبة وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح

أو العفو وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا ، انتهى .

وبتقدير دخوله فليس بمخلد في النار خلافاً للخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة :

ويغفر دون الشرك ربي لمن يشـا ... ولا مؤمناً إلا له كافر فدا

ولم يبق في نار الجحيم موحـــد ... ولو قتل النفس الحرام تعمدا

يؤخذ من الآية الكريمة :

١ ـ الوعيد الشديد لمن يقتل مؤمناً متعمداً .

٢ ـ إثبات صفة الغضب .

٣ ـ إثبات صفة اللعن .

٤ ـ إثبات الألوهية .

٦ ـ تحريم قتل المؤمن عمداً وعدواناً .

٦ ـ أن جهنم حق أعدها الله للكافرين والعاصين ممن أراد الله تعذيبهم عقوبتهم .

٧ ـ دليل على عدل الله بين عباده .

٩ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من المنكرين للصفات أو المؤولين بتأويل باطل .

١٠ ـ دليل على تحريم الاستهانة بأمر الله وحكمه وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته .

١١ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجنة والنار والجزاء على الأعمال .

١٢ ـ تعظيم حق المؤمن .

١٣ ـ لطف الله بخلقه حيث بين لهم عظم هذا الذنب ليجتنبوه .

١٤ ـ تخليد القاتل عمداً في جهنم .

١٥ ـ إثبات الأفعال الاختيارية .

١٦ ـ بيان حكم القتل العمد .

١٧ ـ عظم شأن الإيمان بالله .

١٨ ـ التباعد عن أذية المؤمن .

١٩ ـ أن العقوبات تتفاوت .

٢٠ ـ أن هذا الوعيد خاص بقتل العمد .

الآية الثالثة : الإشارة في قوله تعالى ذلك بأنهم إلى التوفي المذكور على هذه الصفة المذكورة من الهول الذي يرونه من أجل أنهم انهمكوا في المعاصي وزينت لهم الشهوات وكرهوا ما يرضيه من الإيمان والتوحيد والطاعة فأحبط ما عملوا من الخير

قبل الردة أو الأعمال التي صورتها صورة طاعة من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف ومساعدة البائس الفقير وإغاثة الملهوف إلى نحو ذلك من أنواع الإحسان .

يؤخذ من الآية :

١ ـ صفة السخط على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ الرد على الجهمية ونحوهم من منكري الصفات .

٥ ـ إثبات العلل والأسباب .

٦ ـ أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة .

٧ ـ أن الأعمال السيئة سبب للشقاء وإحباط الأعمال .

٨ ـ الرد على من زعم أن لا ارتباط بين العمل والجزاء .

٩ ـ ذم من أحب ما كره الله .

١٠ ـ ذم من كره ما أحبه الله .

١١ ـ أن النفع والضر بيد الله جل وعلا .

١٢ ـ لطف الله بخلقه حيث بين لهم ما هو سبب سعادتهم وما هو سبب لحبوط الأعمال .

١٣ ـ إثبات الكلام لله .

الآية الرابعة : الأسف : محرك ، يستعمل بمعنى شدة الحزن

وبمعنى شدة الغضب وهو المراد في الآية والانتقام المكافأة بالعقوبة وانتقامه تعالى مبالغته في العقوبة لمن يشاء ، والمنتقم : مفتعل من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط ، والمقت : أشد البغض . المعنى فلما آسفونا وأسخطونا بـ ـ ـ ـ السيئة التي لم يرتدعوا عنها رغم التنبيه وتوالي النذر انتقمنا منهم أي عاقبهم ، ومن أسمائه تعالى المنتقم كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الترمذي في جامعه في عدد الأسماء الحسنى الثابتة .

وقال شيخ الاسلام : المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما جاء في القرآن مقيداً كقوله (إنا من المجرمين منتقمون) .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة الأسف .

٢ ـ صفة الانتقام ممن عصاه وخالف أمره .

٣ ـ فيها التحذير من مخالفة أمر الله وما هو سبب لغضبه .

٤ ـ الرد على من أنكر صفة الأسف والانتقام أو أولهما بتأويل باطل .

٥ ـ صفة القدرة لله .

٦ ـ إثبات القوة لله وأنه لا يعجزه شيء .

٧ ـ أن من الخلق من لا يقدر الله حق قدره .

الآية الخامسة : الانبعاث : توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشيء بقوة كبعث الرسل وبعث الموتى ، والتثبيط : التكسيل والتعويق عن الأمر ، كره : أبغض خروجهم معكم إلى الغزو فثبطهم قضاء وقدراً وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه ولكن ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم لما في خروجهم من المفاسد التي تترتب عليه والتي شرع الله في بيانها في الآية التي بعدها بقوله : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم) الآية .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الكره لله على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات صفة الألوهية .

٣ ـ إثبات الحكمة .

٤ ـ إثبات صفة العلم .

٥ ـ لطف الله بالمؤمنين حيث أبعد عنهم المنافقين المفسدين .

٦ ـ في الآية رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من منكري الصفات .

٧ ـ رد على القدرية المنكرين لعلم الله .

٨ ـ أن الله يعلم ما تكنه الصدور وتضمره القلوب .

٩ ـ بيان الحكمة في تثبيطهم عن الخروج

١٠ ـ أن المنافقين حريصون على إلقاء العداوة بين المؤمنين وفتنتهم .

١١ ـ أن خروج المنافقين مع المؤمنين في الغزو نقص وضرر عليهم ومن حكمة الله أن ثبطهم عن الخروج قضاء وقدراً .

الآية السادسة : كبر : عظم ، مقتاً : المقت أشد البغض أي عظم ذلك المقت والبغض عند الله أن تعدوا من أنفسكم ثم لم تفوا به وذلك أن الوفاء بالوعد دليل كرم الشيم وجميل الخصال وبه تكون الثقة بين الجماعة فترتبط برباط المودة والمحبة والعكس فاذا فشا في أمة خلف الوعد قلت الثقة بين أفرادها وانحلت عرى الروابط بينهم وأصبحوا عقداً منتشراً لا ينتفع به ولا يخشى منهم عدو إذا اشتدت الأزمات وعظمت الخطوب لما يكون بينهم من التواكل وعدم ائتمان بعضهم بعضاً .

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة المقت .

٢ ـ أن مقته سبحانه يتفاوت .

٣ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ الحث على الوفاء بالعهد .

٥ ـ النهي الأكيد عن الخلف في الوعد وبها استدل بعض العلماء على أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا واحتجوا بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » .

٦ ـ أن الشخص قد يكون عدواً لله ثم يصير ولياً وقد يبغضه الله ثم يحبه .

٧ ـ إثبات صفة الكلام .

٨ ـ الرد على من أنكر صفة الكلام .

كلام نفيس حول ما مر آنفاً من الصفات :

قال في شرح الطحاوية : ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات .

قال : ولا يقال إن الرضا إرادة الإحسان والغضب إرادة الانتقام فان هذا نفي للصفة ، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه وينهي عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يحب ـ عندهم ـ ويرضى ما لا يريده ويكره

ويسخط ويغضب لما أراده ، ويقال لمن تأول الغضب والرضا بارادة الإحسان لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول لأن الغضب غليان دم القلب والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ويقال أيضاً وكذلك الإرادة والمشيئة فيناهي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه فان الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء فان جاز هذا جاز هذا وإن امتنع هذا امتنع ذاك ، فان قالوا الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للارادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة قيل له : فقل إن الغضب والرضاء الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة ، فاذا كان كل ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب ترْكه لأنك تسلم من التناقض وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب فان صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه عقله إذ العقول مختلفة فكل يقول إن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر .

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع ذلك في المخلوق فانه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود فان وجود العبد كما

يليق به ووجود الباري كما يليق به

فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير أو سمى به بعض صفاته كالغضب والرضا وسمى به بعض صفات عباده فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى وأنه حق ثابت موجود ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركاً إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد إلا في الأذهان ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً فيثبت في كل منهما كما يليق به بل لو قيل غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب الآدميين لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه فغضب الله أولى ، وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك وقال إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصف في شيء من ذلك وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا ترضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله » اهـ .

« وقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر) ، (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) ، (كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً) ، (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) » .

في هذه الآيات إثبات صفة مجيء لله وإتيانه على ما يليق بجلاله وعظمته وهذه من أفعاله الاختيارية .

الآية الأولى : هل حرف استفهام ، ينظرون ينتظرون ، قال امرؤ القيس :

فإنكُما إنْ تُنظِراني ساعةً   مِن الدهرِ تنفعني لَدى ام جنْدب

فاذا كان النظر مقروناً بذكر الوجه أو معدىً بالى لم يكن إلا بمعنى الرؤية ، الظلل : جمع ظلة وهي ما يظلك ، الغمام : السحاب الرقيق الأبيض ، سمي بذلك لأنه يغم أي يستر . قضي الأمر : أي فرغ منه يقول تعالى : هل ينتظر الكفار الساعون في الأرض فساداً التاركون للدخول في السلم المتبعون لخطوات الشيطان النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي قد ملىء من الأهوال والشدائد والفظائع التي تقلقل القلوب الظالمة . وذلك أن الله تعالى يطوي السموات وتنتشر الكواكب . وتكور الشمس وتنزل الملائكة فتحيط بالخلائق وينزل الجبار في ظلل

من الغمام للفصل بالقضاء بين العباد بالعدل .

ففي الآية :

١ - دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية .

٢ - إثبات الصفات على ما يليق بجلاله وعظمته .

٣ - فيها تخويف ووعيد وتهديد لمن كفر بالله وعصاه .

٤ - إثبات صفة الكلام لله .

٥ - إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٦ - إثبات الألوهية لله .

٧ - دليل على علو الله على خلقه .

٨ - الرد على من أنكر صفة الإتيان أو أولها بتأويل باطل .

٩ - إتيان الملائكة .

١٠ - في الآية عبرة للمؤمن ترغبه في المبادرة إلى التوبة لئلا يفاجئه وعد الله وهو غافل فاذا لم يفاجئه قيام الساعة وهلاك هذا العالم كله فاجأه قيام قيامته بموته بغتة فاذا لم يجئه بغتة جاءه المرض بغتة فلا يقدر على العمل وتدارك الزلل .

الآية الثانية : يقول تعالى : هل ينظر الذين استمروا في ظلمهم وعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وعند

ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، أو يأتي ربك لفصل القضاء بين العباد لمجازات المحسنين والمسيئين .

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب السلف أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية كالاستواء والنزول والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر تعالى بها عن نفسه أو أخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فيثبتونها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل خلافاً للمعطلة من جهمية أو معتزلة أو أشاعرة ونحوهم من نفات الصفات أو يتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ولا عقلي .

أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ظاهرها بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة وأنها لا تحتاج لدلالتها على مذهب المبتدعة الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص وهذا ـ أعني مذهب المبتدعة الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص وهذا ـ أعني مذهب المبتدعة ـ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما العقلي فليس في العقل ما يدل على نفي الصفات بل دل العقل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال فان زعموا أن

إثباتها يدل على التشبيه بخلقه قيل لهم الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات فصفاته تبع لذاته وصفات خلقه تبع لذواتهم فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً أو أثبت الأسماء دون الصفات إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض ففرق بين ما أثبته وما نفيته ولن تجد إلى الفرق سبيلا .

فان قلت : ما أثبته لا يقتضي تشبيهاً ، قال لك أهل السنة : والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيهاً .

فان قلت : لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه ، قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه ، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة .

والحاصل : أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي بل قد خالف المعقول والمنقول .

وقوله (أو يأتي بعض آيات ربك) أي الدالة على قرب قيام الساعة وهو طلوع الشمس من مغربها ، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار . وأمارات الساعة ثلاثة

أقسام : قسم ظهر وانقضى . كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ووقعه الجمل ، وصفين ، ونحوهما ، وملك بني أمية والعباسية ، ونار الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى . وخروج الكذابين المدعين النبوة . وكثرة المال والزلزال . وقسم متوسط ككون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع وإماتة الصلاة وإضاعة الأمانة والتباهي في المساجد وأكل الربا ونحو ذلك ، وكرفع العلم وكثرة الجهل ، وكثرة الزنا وشرب الخمر ، وقلة الرجال وكثرة النساء وتوسيد الأمور إلى غير أهلها ولحوق حي من الأمة بالمشركين وعبادة فئات من الأمة الأوثان وغير ذلك . والقسم الثالث العلامات العظام التي تعقبها الساعة وهي عشر . نظمها السفاريني بقوله :

وما أتى بالنص من أشراط	فكله حق بلا شطاط
منها الإمام الخاتم الفصيح	محمد المهدي والمسيح
وأنه يقتل للدجال	بباب (لُدٍّ) خلِّ عن جدال
وأمر يأجوج ومأجوج اثبت	فإنه حق كهدم الكعبة
وإن منها آية الدخان	وأنه يذهب بالقرآن
طلوع شمس الأفق من دبور	كذات أجياد على المشهور
وآخر الآيات حشر النار	كما أتى في محكم الأخبار
فكلها صحت بها الأخبار	وسطرت آثارها الأخيار

ففي الآية :

١ ــ دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات والافعال الاختيارية .

٢ ـ إتيان الملائكة .

٣ ـ إتيان الرب جل وعلا على ما يليق بجلاله وعظمته .

٤ ـ التخويف والوعيد والتهديد لمن كفر بالله وعصاه .

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٦ ـ إثبات الربوبية .

٧ ـ دليل على علو الله على خلقه

٨ ـ الرد على من أنكر إتيان الرب أو أوله بتأويل باطل .

٩ ـ الحث على التوبة خوف مفاجأة القيامة العامة أو الخاصة .

١٠ ـ الحث على مراقبة الله .

١١ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال .

١٢ ـ أن الله قسم ونوع ، ففرق بين إتيان الرب وإتيان الملائكة .

الآية الثالثة : الدك : حط المرتفع بالبسط والتسوية ، ومنه اندكاك سنام البعير إذا انغرس في ظهره ، وناقة دكاً : إذا كانت كذلك قال الشاعر :

ليت الجبال تداعت عند مصرعها … دكاً فلم يبق من أحجارها حجر

وقوله : (وجاء ربك) أي لفصل القضاء ، (والملك) أي جنس الملائكة (صفاً صفاً) أي صف بعد صف .

وقف لله تعالى

يؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات المجيء على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ دليل على إتيان الملائكة .

٣ ـ حث على التقلل من الدنيا والعمل للآخرة .

٤ ـ إثبات الربوبية .

٥ ـ الرد على من أنكر صفة المجيء أو أولها بتأويل باطل .

٦ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٧ ـ الحث على محاسبة النفس والاستعداد لذلك اليوم .

٨ ـ أن ما على الأرض من جبال وقصور وأبنية يزول وتكون قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا .

٩ ـ دليل على هول ذلك اليوم الذي ترجف له القلوب وتخشع له الأبصار .

١٠ ـ أن الله هو الذي يتولى الحكم والفصل في ذلك اليوم .

١١ ـ أن الملائكة يأتون صفوفاً .

١٢ ـ دليل على قدرة الله .

١٣ ـ اثبات علو الله على خلقه .

الآية الرابعة : يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدائد والأهوال والكروب ومزعجات القلوب . فقال واذكر

يوم تشقق السماء بالغمام وتنفتح عنه وذلك الغمام ينزل فيه من فوق سمواته الملائكة ويحيطون بالخلائق في مقام الحشر .

ففي الآية :

١ ـ إثبات مجيء الله ونزوله ونفس الدليل من الآية على نزول الله لفصل القضاء بين عباده هو أن تشقق السماء مقدمة لنزول الله والنزول والمجيء بذاته سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته كما هو المتبادر من النصوص وأفعاله سبحانه قائمة به فيجب إثباتها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته قال القحطاني :

والله يومئذ يجيءُ لعرضنا مع أنه في كل وقت دان
والأشعري يقول يأتي أمره ويعيب وصف الله بالإتيان

ويؤخذ من الآية :

٢ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال .

٣ ـ الحث على الاستعداد لذلك اليوم .

٤ ـ دليل على نزول الملائكة .

٥ ـ الرد على من أنكر المجيء .

٦ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٧ ـ دليل على علو الله على خلقه وأن مما هو ثابت لله وواجب له جهة العلو اللائقة بجلاله وعظمته من غير احاطة .

٨ ـ رد على من أنكر وجود السماء وقال ما فيه إلا فضاء .

٩ ـ أن السماء تتغير عن حالتها لعظم ذلك اليوم .

أنواع الاتيان والمجيء :

وبيان الرد على من أول النزول والمجيء بمجيء الأمر ونحو ذلك .

الإتيان والمجيء المضاف إلى الله نوعان مطلق ومقيد فاذا كان مجيء رحمته وعذابه ونحو ذلك قيد بذلك كما جاء في الحديث « حتى جاء الله بالرحمة والخير » وكقوله (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) والنوع الثاني الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه كقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) وقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) .

أما الرد على من أول النزول والمجيء بمجيء الأمر وأنه من مجاز الحذف فهذا باطل من وجوه : إحداها أنه اضمار ما لا يدل عليه اللفظ لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام وإدعاء حذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب وبطريق كل مبطل على إدعاء إضمار ما يصحح باطله . الثاني أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار فاضماره مجرد خلاف الأصل فلا يجوز . الثالث : أنه اذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولا على المتكلم بلا علم وإخبار عنه بارادة ما لم

يقم دليل على إرادته وذلك كذب عليه . الرابع : في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله تعالى : (وجاء ربك والملك) فعطف مجيء الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين وان مجيئه حقيقة كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك وكذلك قوله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك) فقسم ونوع ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً فتأمله ا هـ . (من كلام ابن القيم) .

قال : وأما من قال : يأتي أمره وينزل رحمته وأمره فان أراد أنه سبحانه إذا نزل وأتى حلت رحمته وأمره فهذا حق وإن أراد أن النزول والمجيء والإتيان للرحمة والأمر ليس إلا ذلك فهو باطل من وجوه عديدة قد تقدمت ونزيدها وجوهاً أخر منها : أن يقال أتريدون برحمته وأمره صفته القائمة بذاته أم مخلوقاً منفصلا سميتموه رحمة ؟ فان أردتم الأول فنزوله يستلزم نزول الذات ومجيئها قطعاً ، وإن أردتم الثاني كان الذي ينزل لفصل القضاء مخلوقاً محدثاً لا رب العالمين وهذا معلوم البطلان قطعاً وهو تكذيب صريح فانه يصح معه أن يقال لا ينزل إلى السماء الدنيا ويأتي لفصل القضاء وإنما ينزل ويأتي غيره ، ومنها : كيف يصح أن يقول ذلك المخلوق لا أسأل عن عبادي غيري ويقول من يستغفرني فأغفر له ؟ ونزول رحمته وأمره مستلزم لنزوله سبحانه ومجيئه وإثبات ذلك للمخلوق مستلزم للباطل الذي لا يجوز نسبته إليه سبحانه مع رد خبره صريحاً ومنها أن نزول رحمته وأمره لا يختص بالثلث الأخير

ولا بوقت دون وقت . ففي كل وقت ينزل أمره ورحمته فلا تنقطع رحمته ولا أمره عن العالم العلوي والسفلي طرفة عين اهـ (من مختصر الصواعق) .

إثبات الوجه واليدين

وقوله (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، (كل شيء هالك إلا وجهه) وقوله ، (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) ، (قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) .

الآية الأولى : يخبر تعالى أن كل من في الأرض يعدم ويبقى وجهه سبحانه والضمير في عليها يعود على الأرض وإن لم يتقدم لها ذكر لكن يدل على ذلك السياق مثل قوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة) المراد على ظهر الأرض ، وقال (فلولا إذا بلغت الحلقوم) أي بلغت النفس الحلقوم وقال (إنها ترمي بشرر كالقصر) ولم يتقدم للنار ذكر وكقوله (حتى توارت بالحجاب) (عليها) من بني آدم وغيرهم من الحيوان ولكنه غلب للعقلاء وقوله (ذو الجلال) أي ذو العظمة والكبرياء وقوله (والإكرام) يحتمل أن يكون بمعنى أنه يكرم أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين كما قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) وقيل المستحق لأن يجل ويكرم بتوحيده وتسبيحه

وعبادته ، والإجلال والإكرام الأول يتضمن التعظيم والثاني يتضمن الحمد والمحبة وقد دل الكتاب والسنة على إثبات هذه الصفة ، أما الكتاب فهذه الآية والتي بعدها فيها إثبات الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، وأما السنة فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بوجه الله وكان يقول في دعائه « أسألك لذة النظر إلى وجهك » وقد أنكرت الجهمية ونحوهم أن يوصف الله بأن له وجهاً وتأولوا ما ورد في ذلك تأويلات فاسدة فمنهم من قال : الوجه صلة والتقدير ويبقى ربك ، ودعوى المجاز في ذلك باطلة ، فان المجاز لا يمتنع نفيه فعلى هذا لا يمتنع أن يقال ليس لله وجه ولا حقيقة لوجهه وهذا تكذيب لما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ولو ساغ دعوى الزيادة في ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في صفات أخرى .

وأيضاً فقد ذكر الخطابي والبيهقي وغيرهما أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة وأن قوله ذو الجلال والإكرام صفة للوجه وأن الوجه صفة للذات فتأمل قوله (ذو الجلال والإكرام) وأيضاً فانه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه والوجه في اللغة مستقبل كل شيء لأنه أول ما يواجه منه ووجه الرأي والأمر ما يظهر أنه صوابه وهو في كل محل بحسب ما يضاف إليه فان أضيف إلى زمن كان الوجه زمناً وان أضيف إلى

حيوان كان بحسبه وإن أضيف إلى ثوب أو حائط كان بحسبه ، وإن أضيف إلى من ليس كمثله شيء كان وجهه تعالى كذلك ، وأما حمله على الثواب المنفصل فهو من أبطل الباطل فان اللغة لا تحتمل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهاً للمجازي ثم إن الثواب مخلوق وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بوجه الله ، فقال « أعوذ بوجهك الكريم أن تضلني ، لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » رواه أبو داود وغيره ، ومن دعائه يوم الطائف « أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » ولا يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ بمخلوق ولا يعرف تسمية الثواب وجهاً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ، وقوله صلى الله عليه وسلم « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فاضافة السبحات التي هي الجلال والنور إلى الوجه وإضافة البصر اليه تبطل كل مجاز وتبين أن المراد وجهه .

وقال عبد الله بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه . فهل يصح أن يحمل الوجه في هذا على مخلوق أو يكون صلة لا معنى له أو يكون بمعنى القبلة والجهة ؟ ! وهذا مطابق لقوله عليه السلام « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » فأضاف النور إلى الوجه والوجه إلى الذات واستعاذ بنور الوجه الكريم فعلم أن نوره صفة له كما أن الوجه صفة ذاتية .

وهذا الذي قال ابن مسعود تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) وقد اتفق أهل الحق على رؤية المؤمنين لله في الجنة فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة ولا سيما إذا أنكر الوجه وللعلو فيعود النظر عنده إلى خيال مجرد وحيث ورد الوجه مضافاً إلى الذات في جميع ما ورد .

ففي الآية :

١ – إثبات الربوبية .

٢ – أن الله هو المستحق لأن يجل ويكرم .

٣ – الرد على من أنكر صفة الوجه أو أولها بتأويل باطل .

٤ – الحث على تعظيم الله وإجلاله ومراقبته .

٥ – إثبات صفة الوجه لله وأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت .

٦ – إثبات قدرته .

الآية الثانية : المعنى أن جميع أهل الأرض وأهل السموات سيموتون ويذهبون إلا ما شاء الله ولا يبقى إلا وجهه سبحانه وتعالى ، والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية نظمها السيوطي بقوله :

ثمـــانية حكـــم البقاء يعمهـا   من الخلق والباقون في حيِّزِ العَدَمْ
هي العرشُ والكرسيُ ، نـــارٌ وجنةٌ   وعَجْبٌ وأرواحٌ كذا اللوحُ والقَلَمْ

قال ابن القيم :

والعرشُ والكرسيُ لا يُفنيهما أيضاً وإنهما لمَخلُوقان
والحورُ لا تَفنَى كذلك جنّةُ المأوى وما فيها مِن الوِلدان
والأنبياءُ فإنهم تحت الثرى أجسامُهم حُفِظَت مِن الدِّيدان
ما لِلبِلى بلُحومِهم وجُسُومِهم أبداً وهُمْ تَحتَ التُراب بِدان
وكذاك عَجْبُ الظَّهرِ لايَبْلَى بَلَى منه تُركَّبُ خِلقَةُ الإنسان
وكذلك الأرواحُ لا تَبْلَى كَمَا تَبْلَى الجُسُومُ ولا بَلَى اللُّحمان

وأما قوله (كل شيء هالك) فان المراد كل شيء كتب عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء وكذلك العرش فانه سقف الجنة والكرسي إلى آخرها فان عموم كل في كل مقام بحسبه وتعرف ذلك بالقرائن كقوله تعالى (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وكقوله عن بلقيس (وأوتيت من كل شيء) فان المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك .

وتقول صاحب هذا المعرض كل شيء عنده وأنت تريد الأشياء المناسبة لذلك المعرض وتقول صاحب هذه المكتبة كل شيء عنده وأنت تريد الكثير من الكتب .

ففي الآية :

١ ـ إثبات الوجه لله وأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي يموت الخلائق ولا يموت .

٢ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٣ ـ رد على منكري صفة الوجه من جهمية أو معتزلة أو نحوهم .

٤ ـ الحث على تعظيم الله وإجلاله ومراقبته .

٥ ـ ان كل شيء مما كتب الله عليه الهلاك والفناء انه يفنى ويهلك .

٦ ـ إثبات قدرة الله .

المضاف إلى الله نوعان

النوع الأول : أعيان قائمة بنفسها كبيت الله ، وعبد الله ، وروح الله ، فهذه إضافتها إلى الله تقتضي الاختصـــاص والتشريف ؛ وهي من جملة المخلوقات لله .

النوع الثاني : صفات لا تقوم بنفسها كعلم الله وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره ويده وإرادته وكلامه ووجهه ونفسه فهذه اذا وردت مضافة إليه فهي من باب اضافة الصفة إلى الموصوف وكذلك ما أخبر انه منه فان كان اعياناً كروح

منه قال تعالى « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » فهذه منه خلقاً وتقديراً وان كان ذلك أوصافاً كقوله (تنزيل الكتاب من الله) دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى صراط مستقيم .

قال ابن القيم :

والله أخبر في الكتاب بأنه ... منه ومجرور بمن نوعان

عينٌ ووصفٌ قائمٌ بالعين فالـ ... أعيانُ خَلْقُ الخالق الرحمان

والوصفُ بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عُرفِ كل لسان

ونظيرُ ذا أيضاً سواءٌ ما يُضا ... فُ إليه من صفةٍ ومن أعيان

فاضافةُ الأوصافِ ثابتةٌ لمن ... قامتْ به كارادة الرحمن

وإضافة الأعيانِ ثابتةٌ له ... مُلْكاً وخَلْقاً ما هما سِيَّان

فانظُر إلى بَيْتِ الإله وعلمه ... لَمَّا أضيفا كَيف يَفْتَرِقان

وكلامُه كحياتِه وكعلمِه ... في ذي الإضافة إذ هما وصْفان

لَكِنْ ناقته وبَيت إلهنا ... فكعبدِه أيضاً هُما ذاتان

فانظر إلى الجهمي لَمَّا فاته الـ ... حَقُّ المبين الواضح التبيان

كان الجميع لديه باباً واحداً ... والصبحُ لاح لمَن له عَينان

الآية الثالثة : قال الله تعالى على سبيل الإنكار والتوبيخ والتقريع (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أي : أي شيء منعك وصرفك وصدك عن السجود ، لما توليت خلقه بيدي من غير واسطة ؟ وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً وتشريفاً مع أنه سبحانه خالق كل شيء كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمسجد ، وفي تثنية اليد أعظم دلالة على أنها ليست بمعنى القدرة أو القوة أو النعمة بل للدلالة على أنهما صفتان من صفاته جل وعلا خلافاً للمبتدعة من جهمية أو معتزلة أو أشاعرة أو من حذا حذوهم .

وخلافاً للمشبهة الذين يشبهون صفات الله بصفات خلقه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

يؤخذ من الآية :

١ - إثبات صفة اليدين .

٢ - فيها صفة الخلق .

٣ - إثبات صفة الكلام .

٤ - الرد على من أنكر هذه الصفات ، أو شيئاً منها ، أو أولها بتأويل باطل .

٥ - إثبات قدرته التي لا يعجزها شيء .

٦ ـ فيها ما يدل على فضل آدم .

٧ ـ دليل على خساسة إبليس ولؤمه حيث عصى رب العالمين .

٨ ـ معاتبة العاصي .

الآية الرابعة : يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة أنهم وصفوه تعالى بالبخل كما وصفوه بأنه فقير وعبروا عن البخل بأن قالوا يد الله مغلولة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وقوله (غلت أيديهم) هذا دعاء عليهم ويحتمل أن يكون خبراً ، ويحتمل أن يكون في الدنيا ويحتمل أن يكون في الآخره ، وان كان في الدنيا فيحتمل أن يراد به البخل ويقوي هذا المحمل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهودياً وإن كان ماله في غاية الكثرة إلا وهو من أبخل خلق الله ، ويحتمل غل أيديهم في الأسر ، وإن كان في الآخرة فهو جعل الأغلال فيهم في جهنم وقوله (ولعنوا) أي أبعدوا وطردوا من رحمته بسبب قولهم .

ففي الآية :

١ ـ إثبات اليدين لله وهما من الصفات الذاتية .

٢ ـ إثبات الألوهية .

٣ ـ الرد على من أنكر صفة اليدين أو أولها بتأويل باطل .

٤ ـ دليل على كرم الله وجوده وغناه وفقر الخلائق إليه .

٥ ـ ذم اليهود لعنهم الله على جراءتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته .

٦ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٧ ـ أن اليهود متقدم خبثهم وخستهم ولؤمهم .

٨ ـ النهي عن التشبه باليهود والبعد عنهم وبغضهم ، لأجل الله جل وعلا .

٩ ـ إثبات قدرته .

١٠ ـ أن اللسان يجني على الإنسان ما يكون سبباً لهلاكه وعذابه وقال صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » وقال الشاعر :

واحفظ لسانك واحترز من لفظه   فالمرء يسلم باللسان ويعطب

١١ ـ وصف الله بالصفات الحميدة التي وردت بالكتاب والسنة ، وقد قال بعض المنحرفين إن المراد باليدين النعمة أو القدرة ؛ ويرد على هؤلاء المتأولين المنحرفين بما ذكره الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق من وجوه تبطل تحريف الجهمية ومن نحا نحوهم فنذكر بعضها :

(١) أن الأصل في الكلام الحقيقية فدعوى المجاز مخالف للأصل .

(٢) أن ذلك خلاف الظاهر فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلا ن هذه الدعوى .

(٣) أن اطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز ، ألا ترى إلى قوله (خلقت بيدي) وقوله (يداه مبسوطتان) وقوله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فلو كان مجازاً في القدرة أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين وقوله في الحديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » فلا يقال هذه يد النعمة أو القدرة وقوله : « يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك » فهنا هز وقبض وذكر يدين ، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم جعل يقبض يديه ويبسطهما تحقيقاً للصفة لا تشبيهاً لها .

(٤) أن مثل هذا المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية ولا يستعمل إلا مفرداً أو مجموعاً كقولك : عندي يد يجزيه الله بها ، وله عندي أيادي ، وأما إذا جاء بلفظ التثنية لم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية .

(٥) أن ليس في المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة كقوله تعالى : (ان القوة لله جميعاً) وكقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وقد يجمع الله النعم كقوله (واسبغ عليكم نعمه

ظاهرة وباطنة) وأما أن يقول خلقتك بقدرتين وبنعمتين فهذا لم يقع في كلامه ولا كلام رسوله .

(٦) أنه لو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد هنا القدرة فانه يبطل تخصيص آدم فانه وجميع المخلوقات - حتى إبليس - مخلوق بقدرة الله .

(٧) أن هذا التركيب المذكور في قوله (خلقت بيدي) يأبى حمل الكلام على القدرة لأنه نسب الخلق إلى نفسه سبحانه ثم عدى الفعل إلى اليد ثم ثناها ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك كتبت بالقلم ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه .

قال بعدما ذكر عشرين وجهاً : ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع وروداً متنوعاً متصرفاً مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة والحثيات والنضح باليد والخلق باليدين والمباشرة بها ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم بيده ، ووقوف العبد بين يديه : وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة عن يمينه وتخيير آدم بين ما في يديه ، فقال اخترت يمين ربي وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها وكتابته على نفسه أن رحمته تغلب غضبه وأنه مسح ظهر آدم بيده . . . الـــخ .

قال القحطاني :

ولـــه يـدانِ كما يقولُ إلهنا ‏ وبَمينُه جلَّت عن الأيمــانِ

كلتا يَدَيْ ربي يمينٌ وصْفُهـا ‏ فهما على الثقلانِ مُنْفِقتَــانِ

إثبات العين للرحمن جل وعلا

وقوله (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) ، وقوله(وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا) ، (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) .

الآية الأولى : الصبر لغة : الحبس والمنع ، واصطلاحاً حبس النفس على ما تكره تقرباً إلى الله ، الحكم لغة : القضاء ، وحكم الله ينقسم إلى قسمين حكم كوني قدري وحكم شرعي ديني فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه وهو سبحانه له الخلق والأمر ، وحكمه الديني الطلبي نوعا بحسب المطلوب فان المطلوب أن كان محبوباً له فالمطلوب فعله أما وجوباً وأما استحباباً وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة ، وذلك أيضاً موقوف على الصبر ، فهذا حكمه الديني الشرعي ، وأما حكمه الكوني وهو ما يقضيه وما يقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ففرضه الصبر عليها ، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء أصحهما أنه مستحب فرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، انتهى (من كلام ابن القيم) .

الرب : الملك المتصرف ، وتربيته الناس نوعان خلقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد ، وتنمية قواهم عليها النفسية والعقلية ، وتربية دينية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا الناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحلل شيئاً ويحرم آخر الا باذن منه : ـ يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن أصبر على أذاهم ولا تبال بهم وامض لأمر الله وبلغ ما أرسلت به فانك بمرأى منا ومنظر ، نراك ونرى أعمالك ونحوطك ونحفظك فلا يصل اليك منهم أذى .

ففي الآية :

١ ـ الحث على الصبر .

٢ ـ إثبات صفة الحكم لله .

٣ ـ إثبات صفة الربوبية .

٤ ـ إثبات العين لله بدون تشبيه .

٥ ـ إثبات المعية .

٦ ـ إثبات فعل العبد حقيقة .

٧ ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل .

٨ ـ أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا غيره .

٩ ـ الحث على مراقبة الله .

١٠ ـ النهي عن الجزع .

١١ ـ إثبات قدرة الله الذي نواصي الدواب بيده .

١٢ ـ لطف الله برسوله وحفظه له .

١٣ ـ إثبات صفة الكلام لله .

١٤ ـ الحث على الأقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من الصبر .

١٥ ـ ان الرسول يعاني مشاقاً من الخلق حيث أمر بالصبر .

الآية الثانية : الألواح : خشب السفينة . الدسر : المسامير . يخبر تعالى عن نبية ورسوله نوح عليه السلام أنه سبحانه حمله على سفينة ذات خشب ومسامير . وأصحاب السفينة وأنها تجري بمنظر منه ومرأى وحفظ لها عن الغرق جزاء لهم على كفرهم وانتصاراً لنوح حيث كذبه قومه وكفروا فصبر على دعوتهم واستمر على أمر الله فلم يرده راد ولا صده صاد كما قال تعالى في الآية الأخرى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) الآية . ويحتمل أن المراد أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي جزاء لهم على كفرهم وعنادهم .

ففي الآية :

١ ـ إثبات العين لله وهي من الصفات الذاتية على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات قدرة الله .

٣ ـ التحذير عن معصية الله .

٤ ـ عناية الله بعبده نوح عليه السلام .

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٦ ـ الرد على الجهمية ونحوهم .

٧ ـ في هذه الآية إيماء إلى أن الله جل وعلا يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب السنن التي وضعها في الخليفة

٨ ـ ان المعاصي سبب للعقوبات والانتقام من العصاة .

٩ ـ أنه سبحانه يمهل الظالمين ولا يهملهم .

١٠ ـ ان الله يهدي من أطاعه إلى طريق النجاة وينصره .

١١ ـ إن العاقبة للمتقين .

الآية الثالثة : لما ذكر سبحانه منته على عبده ورسوله موسى

ابن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤاله ذكر نعمته عليه وقت التربية فقال (ولتصنع على عيني) أي ولتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي .

ويؤخذ من الآية :

١ ــ إثبات العين لله على ما يليق بجلاله وهي من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله فيجب إثباتها لله على الوجه اللائق بجلاله وعظمته لثبوتهما بالكتاب والسنة . أما الكتاب فقد تقدم ، وأما السنة ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ليس بأعور ألا إن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى كأنها عنبة طافية » وفي الحديث الآخر « إذا قام العبد في الصلاة قام بين عيني الرحمن » .

٢ ــ عناية الله بعبده ورسوله موسى عليه السلام ولا حجة للمبتدعة على نفي العين في إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر لأن لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه فان أضافوا الواحد المتصل إلى مفرده أفردوه وإن أضافوا اسم جمع ظاهر أو مضمر فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كقوله (تجري باعيننا) وإن أضيف إلى ضمير جمع جمعت كقوله تعالى (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون) وإن أضيف

إلى مثنى فالأصح في لغتهم جمعه كقوله (فقد صغت قلوبكما)
وإنما هما قلبان وقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)
وكقول : العرب إضرب أعناقهما ، وهذا أفصح استعمالهم
وتارة يفردون المضاف فيقولون لسانهما وقلبهما ، وتارة يثنون
فيقولون ظهراهما مثل ظهور الترسين ، وإذا كان من لغتهم
وضع الجمع موضع التثنية لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين
تثنيتين ولا لبس هناك ، فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما
إذا كان المضاف إليه تثنية أولى بالجواز يدل عليه أنك لا تكاد
تجد في كلامهم عينان ويدان ونحو ذلك . ولا يلتبس على السامع
قول المتكلم : نراك باعيننا ونأخذ بأيدينا . ولا يفهم منه بشر
على وجه الأرض عيوناً كثيرة على وجه واحد .

إثبات السمع والبصر

« وقوله : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي
إلى لله والله يسمع تحاور كما إن الله سميع بصير) ، (لقد
سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) (أم يحسبون
أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) » .

في هذه الآيات وصف الله بالسمع والبصر وأنه تعالى يسمع
ويبصر ببصر حقيقة منزه عن صفات المخلوقين ومماثلتهم
هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها وعلى نحو ذلك دل الكتاب
والسنة .

الآية الأولى : المعنى قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك في شأن زوجها وهي خولة بنت ثعلبة والحال أنها تشتكي إلى الله ضعفها وقلة حيلتها . وذلك حين ظاهر منها زوجها بعد الصحبة الطويلة والأولاد قالت عائشة رضي الله عنها « تبارك الذي الذي وسع سمعه الأصوات كلها ، إن المرأة لتحاور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفي علي بعض إذ أنزل الله (قد سمع الله) الآيات فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه صريح لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه في إثبات صفة السمع لله حقيقة وأنه يسمع بنفسه .

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ إثبات صفة السمع ، ومن أسمائه تعالى السميع ومعناه الذي لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي فيسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء فأحاط سمعه بجميع المسموعات سرها وعلنها قريبها وبعيدها فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد ، وفعل السمع يراد به أربعة معان : أحدها سمع إدراك ومتعلقه الأصوات ، الثاني : سمع فهم وعقل ومتعلقه المعاني . الثالث : سمع إجابة وعطاء ما سئل . الرابع : قبول وانقياد . فمن الأول (قد سمع الله قول

التي تجادلك في زوجها) و (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) . ومن الثاني قوله (لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا) ليس المراد سمع مجرد الكلام بل سمع الفهم والعقل ومنه (سمعنا وأطعنا) ومن الثالث : سمع الله لمن حمده وفي الدعاء المأثور « اللهم اسمع - أي أجب - وأعطني ما سألتك » ومن الرابع : قوله تعالى (سماعون للكذب) أي قابلون له منقادون غير منكرين له ، ومنه على أصح القولين (وفيكم سماعون لهم) أي قابلون ومنقادون . وقيل عيون وجواسيس وليس بشيء ؛ إذا عرف هذا فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام تارة وبمن أخرى ، وهذا بحسب المعنى فان كان السياق يقتضي القبول عدي بمن وإن كان يقتضي الانقياد عدي باللام . وأما سمع الإجابة فيتعدى باللام نحو : سمع الله لمن حمده ، لتضمنه معنى استجاب له . ولا حذف هناك وإنما هو مضمن وأما سمع الفهم فيتعدى بنفسه لأن مضمونه يتعدى بنفسه ، فله تعالى سمع يدرك به المسموعات وبصر يدرك به المرئيات بلا تكييف ، ا هـ (من كلام ابن القيم) .

وفي الآية :

٣ - إشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها ولهذا ذكر حكمها وحكم غيرها على وجه العموم .

٤ - أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر

٥ ـ إثبات الأفعال الاختيارية .

٦ ـ إثبات قدرة الله .

٧ ـ لطف الله بخلقه حيث جعل لهم فرجاً ومخرجاً مما يقعون فيه .

٨ ـ إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

٩ ـ إثبات صفة الكلام .

١٠ ـ الرد على من أنكر صفة السمع أو البصر أو أولهما بتأويل باطل .

١١ ـ الرجوع إلى الحاكم في القضايا والفتاوى .

١٢ ـ تواضع النبي صلى الله عليه وسلم وحلمه .

١٣ ـ إحاطة سمع الله بالأصوات .

١٤ ـ إثبات صفة العلم لله وأنه يعلم الدقيق والجليل .

١٦ الحث على خوف الله ومراقبته .

١٧ ـ مزية لخولة حيث نزل بسبب قضيتها قرآن وحكم من الأحكام .

الآية الثانية : سبب نزولها ما ورد عن سعيد بن جبير عن عباس لما أنزل الله تعالى قوله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) قالت اليهود يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله (لقد سمع الله قول الذين

قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) المعنى : يخبر تعالى عن هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح مقالة وأشنعها فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهي قتلهم الأنبياء بغير حق وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ، ولا غرابة فهم اليهود الذين مردوا على النفاق ومردوا على السوآت ، فهم الذين قتلوا الأنبياء قديماً بغير حق ولا ذنب إلا أنهم يقولون ربنا الله ، وأنهم يرشدونهم إلى مصالح الدين والدنيا ، ونسبة القتل إلى اليهود الأحياء مع أنهم لم يباشروه لأنهم راضون عنهم وهم سلفهم ومن أمتهم والأمة تؤخذ بذنب أفرادها ولأنهم بين فاعل القبيح وتارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون مشتركاً بالقوة لا بالفعل ، وهؤلاء اليهود حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وما حادثة أكلته في خيبر ببعيدة وجزاء هؤلاء أن الله سينتقم منهم ويقول لهم تعالى إهانة وتنكيلا بهم وتعذيباً (ذوقوا عذاب الحريق) كما أذاقوا أولياء الله ما يكرهونه .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات صفة السمع لله على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات حلم الله .

٣ ـ إثبات صفة الألوهية .

٤ ـ إثبات قدرة الله .

٥ ـ إثبات البعث .

٦ ـ إثبات الجزاء .

٧ ـ إثبات الجنة لمن أطاع الله والنار لمن عصاه .

٨ ـ أن الله يمهل وأن كل شيء محصي .

٩ ـ إثبات صفة الكلام .

١٠ ـ يجب على أفراد الأمة الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره والنهي عنه لئلا يفشو فيها فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها فتستحق العقوبة في الدنيا بالضيق والفقر والعقوبة في الآخرة .

١١ ـ أن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما تستحسنه ويستهجن ما تستهجنه عد شريكاً له في إثمه ومستحقاً لمثل عقوبته .

١٢ ـ أن الجزاء من جنس العمل فكما أذاقوا أولياء الله ألواناً من العذاب قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) .

١٣ ـ إثبات القول لله .

١٤ ـ هذا الأسلوب يتضمن التهديد والوعيد وليس المراد مجرد الإخبار بالسمع والكتب لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب على ذلك من المجازاة بالعدل .

١٥ ـ وجود الحفظة .

١٦ ـ دليل خساسة اليهود ولآمتهم حيث وصفوا الله بالفقر تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

١٧ ـ الرد على المعطلة المنكرين لصفة السمع ، والمعتزلة القائلين سميع بلا سمع ، والمنكرين لصفة الكلام .

الآية الثالثة : السر : حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية ، والنجوى : هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره ، بلى : كلمة تذكر لإثبات نفي سابق ، أي بل أيظنون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك ولا ما يتكلمون به فيما بينهم بطريق التناجي ، بلى إنا نسمع سرهم ونجواهم ، والحفظة الكرام يكتبون ما يصدر منهم من قول أو فعل صغير أو كبير حتى يردوا يوم القيامة فيجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

قال صاحب الزنيبية :

واحذر مناقشة الحساب فإنه	لا بد يحصي ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نسيته	بل أثبتاه وأنت لاه تلعب

يؤخذ من الآية :

١ ـ صفة السمع على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ أن السر والعلانية مستويان عند الله .

٣ ـ فيها تحذير وتخويف فان طريقة القرآن يذكر العلم والقدرة تهديداً وتخويفاً لترتيب الجزاء .

٤ ـ دليل على وجود الحفظة .

٥ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٦ ـ فيها رد على من أنكر صفة السمع أو أولها بتأويل باطل .

٧ ـ التنبيه على مقام الإحسان .

٨ ـ إثبات صفة الكلام .

٩ ـ إحاطة سمع الله بالسر والعلانية .

١٠ ـ إثبات قدرة الله وعلمه .

إثبات الرؤية والسمع والمعية والعلم

« وقوله (إنني معكما أسمع وأرى) ، (ألم يعلم بأن الله يرى) ، (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم) ، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

في الآية الأولى : خطاب لموسى وهارون أن لا يخافا بطش فرعون بهما ومعاجلته لهما بالعقوبة قبل إتمام الدعوة وإظهار المعجزة ، وقوله (أسمع وأرى) أي أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من أمركم شيء ،

واعلما أنْ ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولايبطش إلا اذني وارادتي وأنــا معكما بحفظي ونصري وتأييدي فلا تهتما .

ففي الآية :

١ ـ إثبات المعية الخاصة . اي بالحفظ والنصر والتأييد .

٢ ـ الحث على الاعتماد على الله جل وعلا .

٣ ـ إثبات صفة السمع .

٤ ـ إثبات صفة البصر .

٥ ـ إثبات قدرة الله .

٦ ـ الرد على من أنكر صفة السمع .

٧ ـ الرد على من أنكر الرؤية أو أولها بتأويل باطل .

٨ ـ إثبات علم الله .

٩ ـ إثبات قدرة الله .

١٠ ـ إثبات صفة الكلام لله .

١١ ـ مزية وشرف لموسى وهارون لما حصل لهما من المعية الخاصة .

الآية الثانية : أي أما علم هذا الناهي عن الهدى بأن الله يراه ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء ، وهذا

وعيد شديد ، قيل إن هذه الآية نزلت في أبي جهل حين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند البيت ، ففي الآية إثبات الألوهية وأن الله يرى .

الآية الثالثة : أي الذي يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قيامك فيها وتقلبك راكعاً وساجداً وخصها بالذكر لفضلها وشرفها ، ولأن من استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره ، إنه هو السميع لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها ، العليم الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة ، فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله وسمعه لكل ما ينطق به وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والثبات مما يعينه على منزلة الإحسان .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات صفة البصر .

٢ ـ إثبات صفة السمع .

٣ ـ إثبات علمه المحيط .

٤ ـ الحث على استحضار قرب الله .

٥ ـ متمسك لمن فضل السمع على البصر .

٦ ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل .

٧ – إثبات صفة الكلام .

٨ – الرد على من قال إن القرآن كلام محمد .

الآية الرابعة : أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين اعملوا ما شئتم من الأعمال واستمروا على باطلكم فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى فلا بد أن يتبين عملكم ويتضح ، قال مجاهد : هذا وعيد ؛ يعني من الله للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال تعالى (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد مرفوعاً « لو أن أحدكم يعمل في صخرة ليس لها باب ولا منفذ لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان » .

قال زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما روى أبو داود الطيالسي حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم فان كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » وقال

البخاري قالت عائشة رضي الله عنها « إذا أعجبك حسن عمل امريء مسلم فقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له فان العامل يعمل زمناً من عمره أو برهة من دهره ، بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملا سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحاً وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته ، قالوا : يا رسول الله : وكيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه .

ففي الآية :

١ ــ إثبات الألوهية .

٢ ــ أن الله يرى .

٣ ــ إثبات البعث .

٤ ــ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال .

٥ ــ صفة العلم .

٦ ــ أن الله لا يضل ولا ينسى .

٧ ــ إثبات صفة الكلام .

٨ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد .

٩ ـ إن الله يعلم الغيب والشهادة .

١٠ ـ الرد على من أنكر هذه الصفات أو شيئاً منها أو أولها بتأويل باطل .

المكر والكيد

« وقوله (وهو شديد المحال) وقوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقوله (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقوله (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) » .

في هذه الآيات إثبات وصف الله بالمكر والكيد والمماحلة ، وهذه صفات فعلية تثبت لله كما يليق بجلاله وعظمته ، قال علي رضي الله عنه : شديد الأخذ ، وقال ابن عباس : شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة ، وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة ، وقيل : شديد المكر ، والمماحلة والمحال المماكرة والمغالبة ، وقال أحد المفسرين في تفسيره : والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون .

والفرق بين أسماء الله التي بلفظ الاسم المضاف أن ما جاء على وجه التسمي به مثل الرحمن الرحيم الحكيم السميع العليم ونحو ذلك ، فهذه أسماء يدل كل واحد منها على صفة من صفات الله ويشتق منها الفعل ، وما جاء بلفظ الاسم المضاف

كقوله (يخادعون الله وهو خادعهم) (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقوله (وهو شديد المحال) فهذا الاسم يطلق على الله بلفظ الإضافة كما ورد ، وبلفظ الفعل ، فيقال : خادع المنافقين ويخادع من خادعه ، إن أخذ الله شديد ويأخذ من عصاه ويأخذ الظالمين ولا يشتق منها اسم فلا يقال من أسمائه المخادع ولا الخادع ولا الشديد ولا الآخذ .

وأما ما ورد بلفظ الفعل كقوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقوله (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) فهذا يطلق على الله كما ورد ولا يجوز أن يشتق لله منه اسم فلا يقال من أسمائه الماكر ولا الكائد . لأنه لم يرد . وأما تسميته مكراً وكيداً فقيل من باب المقابلة نحو (وجزاء سيئة مثلها) ونحو (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقيل : إنه على بابه ، فان المكر إظهار أمر وإخفاء خلافه . ليتوصل به إلى مراده : وهو ينقسم إلى قسمين : محمود ومذموم ، فالقبيح إيصاله إلى من لا يستحقه ، وأما الحسن فايصاله إلى من يستحقه عقوبة له ، فالأول وهو المحمود منه نسبته إلى الله لا نقص فيها . وأما الثاني وهو المذموم فلا ينسب إلى الله ، فمن المحمود مكره سبحانه بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاء لهم من جنس عملهم ، وكذا يقال في الكيد كما يقال في المكر ، والله إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة .

وفي المدارج قال : والمكر الأخذ في غفلة كما قال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) فنسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى ، والفعل أوسع من الاسم ، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث، ولم يسم بالمريدوالشائيوالمحدث ، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن ، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق الله أفعالها على نفسه ، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء ، وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل أسماً وبلغ بأسمائه زيادة على الألف ، فسماه الماكر والمخادع والفاتن ونحو ذلك ، وكذا باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به فانه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد ولا يسمى بذلك اهـ .

وهكذا ما أطلقه على نفسه من صفات العلى أكمل معنى ولفظاً مما لم يطلقه فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف ، والكريم الجواد أكمل من السخي ، والخالق البارىء المصور أكمل من الصانع الفاعل . ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنى ، والرحيم والرؤوف أكمل من الشفيق ، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ ولا سيما إذا كان مجملا أو منقسماً إلى ما يمدح به غيره فانه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً وهذا كلفظ الصانع والفاعل فانه لا يطلق عليه

في اسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مقيداً أطلقه على نفسه كقوله تعالى (فعال لما يريد) (يفعل ما يشاء) وقوله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) فان اسم الفاعل والصانع منقسم في المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم ، ولهذا المعنى والله أعلم لم تجيء في الأسماء الحسنى المريد كما جاء فيها السميع البصير ، ولا المتكلم ولا الآمر الناهي لانقسام مسمى هذه الأسماء بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً فأدخله في أسمائه الحسنى فاشتق له اسم الماكر والخادع والفاتن والمضل والكاتب ونحوها من قوله (ويمكر الله) ومن قوله (وهو خادعهم) ومن قوله (لنفتنهم فيه) ومن قوله (يضل من يشاء) وقوله (كتب الله لأغلبن) ، وهذا خطأ فانه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء فاطلاقها عليه لا يجوز ، فقد أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الاطلاق ثم إن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي تسمى الله بها سبحانه فلا يجوز أن يسمى بها ، ولو أن هذا القائل سمي بهذه الأسماء وقيل له هذه مدحتك وثناء عليك فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل الملاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى إطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة ، ولله المثل الأعلى ، ويلزم القائل أن يجعل من أسمائه اللاعن والجاني والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر وأضعاف ذلك فيشتق له اسماً من كل فعل أخبر به عن نفسه ، وإلا تناقض تناقضاً بيناً ولا أحد من

العقلاء طرد ذلك فعلم بطلان قوله والحمد لله رب العالمين ا هـ . (من كلام ابن القيم) .

إثبات صفة العفو والمغفرة والقدرة والعزة

(وقوله (إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً) ، (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله (ولله العزة ولرسوله) وقوله عن إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)) .

في هذه الآيات إثبات وصف الله بالعفو والمغفرة والقدرة والعزة .

الآية الأولى : يخبر تعالى أن فاعِلي الخير سراً وجهراً والعافين عن الناس ممن يسيء إليهم يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا فيعفو عن سيئاتهم والله من شأنه العفو وهو القدير الذي يعطي الثواب الكثير على العمل القليل .

يؤخذ من الآية :

١ - إثبات علم الله .

٢ - إثبات الألوهية

٣ - إثبات قدرة الله .

٤ ـ إثبات صفة العفو .

٥ ـ دليل على كرم الله وجوده .

٦ ـ إرشاد إلى التفقد في أسماء الله وصفاته .

٧ ـ أن كلا من الخلق والأمر صادر عنها وهي مقتضية له ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى كما في هذه الآية لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب ذلك بأن أحالنا على معرفة أسمائه تعالى ومن أسمائه تعالى العفو ومعناه المتجاوز عن سيئات عباده إذا تابوا وأنابوا ، قال ابن القيم رحمه الله :

وهو العفـــو فعفوه وسع الـــورى لولاه غاض الأرض بالسكـــان

وهو قريب من اسمه تعالى الغفور ، ولكنه أبلغ منه فان الغفران ينبيء عن الستر ، والعفو ينبيء عن المحو والمحو أبلغ من الستر ، ولما كان أكمل العفو ما كان عن مقدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة ، قرن الله بين اسمه تعالى العفو واسمه القدير كما في هذه الآية الكريمة ، فالقدير هو الذي لا يعجزه شيء .

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو القدير وليس يعجـــزه إذا ما رام شيئاً قط ذو السلطـــان

وقال الشاعر :

وأفضل الزهد زهد كان عـــن جدة وأفضل العفو عفو عند مقـــدرة

٨ ـ الحث على العفو ومكارم الأخلاق والإحسان .

٩ ـ أن العفو والصفح عن الخلق سبب لعفو الله عن العافي .

١٠ ـ أن الجزاء من جنس العمل .

١١ ـ لطف الله بعباده مع ظلمهم لأنفسهم .

١٢ ـ الرد على الجبرية الذين يزعمون أن العبد لا فعل له وإنما ينسب إليه على جهة المجاز .

١٣ ـ أن السر والعلانية على السواء عند الله .

١٤ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال

الآية الثانية : العفو : الستر والتجاوز والصفح الإعراض فأصبح معنى الآية : ليعفوا عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم وجنايتهم التي اقترفوها ، وليصفحوا بالإغضاء عن الجاني والإغماض عن جنايته ، ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح فقال : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أي بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للاساءة عليكم وبسبب إحسانكم إليهم (والله غفور رحيم) أي كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم وتقدم الكلام على اسمه تعالى الغفور واسمه الرحيم .

ويؤخذ من الآية :

١ ـ الأمر بالعفو ومكارم الأخلاق .

٢ ـ الأمر بالصفح عمن أساء .

٣ ـ أن العفو سبب لمغفرة الله .

٤ ـ إثبات صفة المغفرة .

٥ ـ إثبات صفة الرحمة .

٦ ـ في الآية دليل على أن الجزاء من جنس العمل .

٧ ـ فيها دليل على حلم الله ولطفه بعباده مع ظلمهم لأنفسهم .

٨ ـ أن الصفح سبب لمغفرة الله للعبد .

٩ ـ إثبات فعل العبد وأنه فاعل حقيقة .

١٠ ـ الرد على الجبرية .

١١ ـ النفقة على القريب .

١٢ ـ أن النفقة لا تترك بسبب معصية الإنسان .

١٣ ـ النهي عن الحلف على ترك العمل الصالح .

قال بعضهم : إن هذه الآية أرجى آية في القرآن لأن الله أوصى بالإحسان إلى القاذف .

١٤ ـ ختم الآية بهذين الاسمين إشارة إلى أن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره .

١٥ ـ فيها دليل على أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعان قامت به سبحانه فهي أسماء وأوصاف وبذلك كانت حسنى .

قال ابن القيم رحمه الله :

أسماؤه دلت على أوصافه   مشتقة منها اشتقاق معان

وصفاتـه دلت على أسمـائـه والفعـل مرتبـط به الأمران
والحكـم نسبتهـا إلى متعلقـا ت تقتضي آثارهـا ببيـان

الآية الثالثة : الجملة حالية أي قالوا ما ذكر والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده ، وعزة الله قهره وغلبته لأعدائه ، وعزة رسوله صلى الله عليه وسلم إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ، فالمؤمن له من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه ، فاذا فاته حظه من العلو والعزة ، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علماً وعملاً ظاهراً وباطناً فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أينما كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها إذا قام بحقائق الإيمان وواجباته فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بحسب ما نقص من إيمانه .

ويؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة العزة وهي من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله وهي ثلاثة أقسام : عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين ، وعزة الامتناع فانه الغني فلا يحتاج إلى أحد ولن يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه ، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات وكل هذه المعاني لله سبحانه وتعالى ثابتة بمقتضى اسمه العزيز . قال ابن القيم :

وهو العزيز فلـن يرام جنـابه أنى يرام جناب ذو السلطـان

وهـو العزيز القاهر الغـــلاب لم يغلبه شيء هـــذه صفتـان
وهو العزيز بقوة هــــي وصفـه فالعز حينئذ ثــلاث معـــان
وهي التي كملت لـــه سبحانـه من كل وجه عادم النقصـــان

الآية الرابعة : يخبر تعالى عن إبليس ـ لعنه الله ـ أنه أقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم بتزيين الشهوات والمعاصي لهم ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال : إلا عبادك منهم المخلصين .

ويؤخذ من الآية :

١ ـ إثبات صفة العزة .

٢ ـ جواز الحلف بها .

٣ ـ أن صفات الله غير مخلوقة إذ الحلف بالمخلوق شرك ، والعزة المضافة إلى الله قسمان الأول قسم يضاف إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبيائه وعباده الصالحين ، وقسم يضاف إليه من باب إضافة الصفة إلى موصوف بها كما في هذه الآية وكما في الحديث « أعوذ بعزة الله وقدرته » .

ومما يؤخذ من الآية : الرد على منكري الصفات ومؤوليها بتأويل باطل .

٤ ـ أن الجن يتكلمون

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله .

الرد على منكري الجن

٦ ـ الرد على من أنكر الجن وقد كثر المنكرون لهم في زمننا وغالبهم يستندون في إنكارهم ان طريق معرفة وجود الجن هي النظر أو السمع وأنهم لم يروا جناً ولم يسمعوهم ولكن عدم النظر أو عدم السمع أو عدم وصول أحد الحواس الإنسانية إلى وجود الجن لا يقوم دليلا على عدم الوجود لا نقلا ولا عقلا .

أما العقل فانه يجوز وجود كائن حي غير مرئي بالعين بدون واسطة المجهر المكتشف أخيراً فان المكروب كائن حي خلقه الله وهو كثير في طبقات الجو لا يمكن رؤيته . ومن لم يقر ويعتقد وجود ما غاب عن نظره وبصره لزمه إنكار الروح أيضاً لأنها ليست مرئية ، وهي حقيقة موجودة بها حياة الانسان ومع ذلك لم يرها أحد ، قال تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي الآية » . وكذا أيضاً يلزمه إنكار العقل مع أنه حقيقي موجود لا يرى ولا يسمع ولا يلمس ولا يذاق ولا يشم وكل يعترف به ولا ينكره إلا معتوه .

وأما النقل فكثير : فمن الأدلة الدالة على وجودهم قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وقال تعالى آمراً

رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه ان الجن استمعوا لقراثة القرآن فامنوا به وصدقوا لما قال وتلى وانقادوا له كما في قوله تعالى « قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » الآيات . وقال تعالى « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين » .

وقال تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » الآية . وقال تعالى « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » الآية . وقال « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي » الآية . وقال تعالى « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » . وهذا من حكمة الله ولطفه بعباده البشر فلو كشف لنا عن حقيقتهم وسلط نظرنا المحدود على ذواتهم لما أمكن والله أعلم أن يعيش الإنسان معهم ، وقال تعالى « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس » . وقال « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » . وقال في من سخر لسليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه » الآيات . وقال تعالى الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . قال ابن عباس آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً

يخنق رواه ابن أبي حاتم قال وروي عن عوف بن مالك وسعيد ابن جبير والسدي والربيع بن أنس وقتاده ومقاتل بن حيان نحو ذلك إلى غير ذلك من الآيات .

وأما السنة فورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (ان عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه فذكرت قول أخي سليمان رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) . وورد أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم جاءت تزوره وهو معتكف فقام معها مودعاً حتى بلغت باب المسجد فرآه رجلان من الأنصار فسلما عليه فقال على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يبلغ من الانسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً . وهذا صريح واضح في أن الشيطان يخترق الجسم البشري ويسري فيه كما يسري الدم ومع خفائه فقد التزم الشيطان لعنه الله في عداوته سبعة أمور أربعة في قوله تعالى « ولأ ضلهم ولأ منينهم ولآ مرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » وثلاثة منها في قوله تعالى « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ». وهذا الالتزام يبين أنه عدو متظاهر بالعداوة ولذلك فصل الله عداوته باشتمالها على ثلاثة أشياء : (السوء) وهو متناول جميع

المعاصي من القلب والجوارح ، (والفحشاء) وهي ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر التي بلغت الغاية في الفحش وذلك كالزنا واللواط . والثالث القول على الله بلا علم .

وروى مسلم ان فتى من الأنصار قتل حية في بيته فمات في الحال فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ان في المدينة جناً قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان » .

وهكذا تكرر الروايات الصحيحة أن الجن كانوا بالمدينة وقد أسلم بعضهم . وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان إلا ابن مريم وأمه) . وروى مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن) فرأى الصحابة ان قوله صلى الله عليه وسلم عـــام فقالوا يا رسول وإياك أي حتى أنت فقال صلى الله عليه وسلم (وإياي لكن الله قد أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير) .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فاني محتاج ولي عيال وبي حاجة شديدة . قال فخليت عنه فأصبحت فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة) قال قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول أما أنه قد كذبك وسيعود فلما كان في الثالثة قلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود فقال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها فقلت وما هي قال اذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى ختم الآية فانه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة قلت لا قال ذلك شيطان) .

عن أبي السائب أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته قال فوجدته يصلي فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته فسمعت تحريكاً في عراجين في ناحية البيت فالتفت فاذا حية فوثبت لأقتلها فأشار إلي أن اجلس فجلست فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال أترى هذا البيت فقلت نعم فقال كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله فاستأذنه يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ عليك سلاحك فاني أخشى عليك قريظة فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فاذا امرأته بين البابين

قائمة فأهوى اليها الرمح ليطعنها به فأصابته فقالت اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني فدخل فاذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما يدري أيهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى قال فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له وقلنا أدع الله يحييه لنا فقال استغفروا لصاحبكم ثم قال « إن بالمدينة جناً قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان» وفي رواية عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم شيئاً منها فحرجوا عليها ثلاثاً فان ذهب والا فاقتلوه فانه كافر وقال لهم اذهبوا فادفنوا صاحبكم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فاذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا واذكر كذا – لما لم يذكر من قبل – حتى يظل الرجل ما يدري كم صلى » متفق عليه « التثويب » : الإقامة يخطر : يوسوس .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح قال « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال أذنه » متفق عليه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يعقد

الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فان استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة فان توضأ انحلت عقدة فان صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس والا أصبح خبيث النفس كسلان » متفق عليه . قافية الرأس : آخره . وروى مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فانه زاد اخوانكم من الجن » .

وورد في السنة الصحيحة باللفظ الصريح أكل الشيطان وشربه فقد ورد إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويعطي بشماله ويأخذ بشماله . وهذا لا يحتاج إلى شرح ولا تأويل واضح .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : والجن يتصورون في صور الإنس والبهائم فيتصورون في صور الحيات والعقارب وغيرها وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وفي صور الطير وفي صور بني آدم كما أتى الشيطان قريشاً في صورة سراقة بن مالك بن جشعم لما أرادوا الخروج إلى بدر قال تعالى : وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم إلى قوله والله شديد العقاب وكما روى أنه تصور في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة ا هـ .

وبالتالي فلا ينكر الجن إلا إنسان لا عقل له منسلخ من

الدين الاسلامي بالكلية لأنه مكذب لله ولرسوله ولما أجمع عليه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها والله سبحانه وتعالى أعلم).

النفي والاثبات :

(وقوله تعالى : (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) وقوله : (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ، (ولم يكن له كفواً أحد) ، (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ، (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) .

الآية الأولى : المعنى : تعالت أسماؤه وتعظمت صفاته وتقدست والجلال والعظمة صفتان لله جل جلاله وأما ذكره تباركه سبحانه ففي المواضع التي أثنى فيها على نفسه بالجلال والعظمة والأفعال الدالة على الربوبية والإلهية والحكمة وسائر صفات الكمال من إنزال القرآن وخلق العالمين وجعله في السماء بروجاً وإنفراده بالملك وكمال القدرة وتباركه سبحانه من الصفات الذاتية ، والدليل على ذلك أنه يسند التبارك إلى اسمه . والبركة نوعان بركة هي فعله سبحانه والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة وبأداة « في » تارة والمفعول منها مبارك وهو كذلك فكان مباركاً كما يجعله الله تعالى والنوع الثاني بركة هي صفته تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك ولهذا لا يقال لغيره كذلك ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح (وجعلني مباركاً) فمن بارك الله فيه فهو المبارك وأما صفته فمختصة به كما أطلق

على نفسه بقوله (تبارك الله رب العالمين) .

الآية الثانية : العبادة لغة الذل . وعرفها شيخ الإسلام بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وقيل : إن العبادة غاية الذل مع غاية الخضوع . قال ابن القيم رحمه الله :

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فقيام دين الله بالإخلاص والا ... حسان إنهما له أصلان

لم ينج من غضب الإله وناره ... إلا الذي قامت به الأصلان

والله لا يرضى بكثرة فعلنا ... لكن بأحسنه مع الإيمان

فالعارفون مرادهم إحسانه ... والجاهلون عموا عن الإحسان

وقوله (واصطبر) أي اصبر ، قال الشاعر :

لولا اصطبار لأودى كل ذي مقة ... لما استقلت مطاياهن للظعن

أي لولا ذلك الصبر ، سمياً : شبيهاً مثيلا ، الفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعبد وعدي فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات . والمعنى : إذا علمت أنه المسيطر على ما في السموات والأرض ، وما بينهما القابض على أعنتهما ، فاعبده واصطبر على مشاق العبادة

وشدائدها والاستفهام هنا بمعنى النفي أي لا تعلم له شبيهاً ولا مثيلا يقتضي العبادة لكونه منعماً متفضلا بجليل النعم وصغيرها ، ومن ثم يجب تعظيمه سبحانه غاية التعظيم بالاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له ، وليس المعنى هل تجد من يتسمى باسمه إذ بعض اسمائه قد يطلق على غيره ، لكن ليس معناه إذا استعمل فيه كما كان معناه إذا استعمل في غيره .

ففي الآية :

١ ـ إثبات وحدانية الله .

٢ ـ الأمر بعبادة الله .

٣ ـ إثبات الربوبية .

٤ ـ الأمر بالثبات على العبادة .

٥ ـ الأمر بالصبر .

٦ ـ نفي الشبيه والمثيل .

٧ ـ إثبات صفة الكلام .

٨ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما .

٩ ـ الرد على من قال ان كلام الله هو الكلام النفسي أو أن القرآن عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشاعرة ونحوهم من أهل البدع .

١٠ ـ الرد على المشبهة .

١١ - الحث على تعظيم الله والاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه .

١٢ - الأمر بإخلاص العبادة لله وحده .

١٣ - الحث على المراقبة .

١٤ - إقامة البراهين والأدلة على وجوب إفراد الله بالعبادة .

١٥ - وجوب إفراد الله بالعبادة .

١٦ - النهي عن عبادة غير الله .

١٧ - أن الله لطيف بالعباد حيث دلهم وحثهم على عبادته وحده .

الآية الثالثة : قوله (ولم يكن له كفواً أحد) أي لا كفو له في ذاته ولا أسمائه ولا في صفاته .

ففي الآية :

١ - نفي الشبيه والمثيل .

٢ - الرد على من جعل لله مكافياً في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله .

- الرد على من جعل لله صاحبة أو ولداً .

الآية الرابعة : قوله تعالى (فلا تجعلوا الله أنداداً وأنتم علمون) الأنداد : الأمثال والنظراء .

هذه الآية ضمنت الدعوة إلى عبادة الله وحده بطريقتين : إحداهما البراهين بخلقهم وخلق السموات والأرض والمطر ، والثانية : ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام . فذكر سبحانه أولا الربوبية لهم ، ثم ذكر خلقه لهم وآبائهم لأن الخالق يستحق أن يعبد ، ثم ذكر ما أنعم به عليهم من جعل الأرض فراشاً والسماء بناء ، وإنزال المطر وإخراج الثمرات لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر ، وانظر قوله تعالى (رزقا لكم) يدلك على ذلك لتخصيصه ذلك بهم في ملاطفة وخطاب بديع . الثاني المقصود الأعظم من هذه الآية وهو الأمر بالتوحيد لله جل وعلا . . وترك ما عبد من دونه لقوله في آخرها (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

وفي الآية :

١ ـ دليل أن الخلق مفطورون على معرفة الله والإقرار به .

٢ ـ فيها رد على المشبهة الذين يشبهون خلقه به .

٣ ـ فيها رد على الذين يشبهونه بخلقه .

٤ ـ فيها رد على القدرية ونحوهم .

٥ ـ النهي عن الشرك .

٦ ـ إثبات الألوهية .

٧ ـ إثبات صفة الخلق لله .

٨ ـ لطف الله بخلقه .

٩ ـ الرد على المعطلة .

الآية الخامسة : بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم من ظواهر الكون ما يدل على توحيده ورحمته وحكمته، أخبر أنه مع هذا الدليل الظاهر قد وجد في الناس من لا يعقل تلك الآيات التي أقامها برهاناً على وحدانيته . فاتخذ معه نداً يعبده من الأصنام كعبادة الله ويساويه في المحبة والتعظيم ، والمحبة المذكورة هي المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس وهذه صرفها لغير الله شرك أكبر ينافي التوحيد بالكلية .

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين : وفي معنى الآية قولان ، أحدهما : والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله ، والثاني : والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد فان محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) ، فان فيها قولين أحدهما يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً ، والثاني أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الانداد لأندادهم وكان شيخ الإسلام يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم

وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة في العذاب (تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ٣٦ ـ ٩٧ ، ٩٨) ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعـدلون) أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم وهو أصح القولين ا هـ .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكاً لله واتخذه نداً لله وأن ذلك شرك أكبر .

٣ ـ أنه سبحانه يحتج على المشركين باقرارهم بتوحيد الربوبية .

٤ ـ الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود الله سبحانه .

٥ ـ أن فيها دليلا وآية على توحيد الله وإثبات أسمائه وصفاته وكماله وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام .

٦ ـ دليل على سخافة عقولهم حيث أحبوا من لا يسمع ولا يبصر .

٧ ـ أن المشركين يحبون أندادهم كما يحبون الله .

٨ ـ دليل على إثبات صفة الكلام .

٩ ـ دليل على إثبات صفة العلم لله .

١٠ ـ أن محبة الخوف والتعظيم والإجلال يجب صرفها لله وحده .

أقسام المحبة :

أقسام المحبة خمسة : الأول محبة الله ، ولا تكفي وحدها للنجاة من النار والفوز بالجنة ، فان المشركين يحبون الله . والثاني : محبة ما يحبه الله وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة . الثالث : محبة في الله ولله ، وهي فرض ، كمحبة أوليائه وبغض أعدائه ، وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها ، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته ؛ ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ويحب أولياءه .

قال الشيخ رحمه الله على قوله تعالى (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية : فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فان نفس الإيمان ينفي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فاذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله فاذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب .

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى (ترى كثيراً منهم

يتولون الذين كفروا) الآيتين ، فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف لو التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل إليه .

ومثله قوله تعالى : (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم) فانه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمناً وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ا هـ .

وقال ابن القيم :

أتحبُّ أعداءَ الحبيب وتدَّعي	حباً له ما ذاك في إمكان
وكذا تُعادي جاهداً أحبابَه	أينَ المحبةُ يا أخا الشيطان
ليس العبادةُ غيرَ توحيدِ المحبةِ	مع خضوعِ القلبِ والأركان
والحُبُّ نَفْسُ وِفاقِه فيما يُحِـ	بُّ وبُغْضُ ما لا يَرْتَضِي بِجَنَانِ

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال فهذه لا تصلح إلا لله ، ومتى أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر .

الخامس : المحبة الطبيعية ، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة المال والولد ونحو ذلك ، فهذه لا تذم إلا إذا أشغلت وألهت عن طاعة الله .

قال الشيخ : حب الإنسان للأمور الدنيوية لا يلام العبد عليه ، ولا يعاقب إلا إذا دعا إلى معصية الله ، أو تضمن ترك واجب ، وجامع المال إذا قام فيه بالواجبات ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه ، لكن إخراج الفضل والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم وأفرغ للقلب ، وأجمع للهم ، وأنفع للدنيا والآخرة .

وقال الشيخ : ومطالب النفوس وأغراضها نوعان ، منها : ما هو محتاج إليه كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه ، فيكون المال عنده يستعمله في حوائجه بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي حاجته فيه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، ومنها : ما لا يحتاج إليه العبد فهذا لا ينبغي أن يعلق قلبه بها ، فاذا تعلق قلبه بها كان مستبعداً لها وربما صار معتمداً على غير الله فيها فلا يبقى معه حقيقة العبادة ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله ، اهـ .

النفي والاثبات :

« وقوله : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) . (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) ، (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً) » .

الآية الأولى : وتسمى آية العز : لما أثبت سبحانه في الآية الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص ، فقال : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) كما يقول اليهود والنصارى ومن قال من المشركين إن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، (ولم يكن له شريك في الملك) أي مشارك له في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعم الثانوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ، (ولم يكن له ولي من الذل) أي لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير ، وقوله (وكبره) أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وتكبيره سبحانه :

١ ـ يكون بذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل موجود .

٢ ـ بتكبيره في صفاته بأن يعتقد أن كل صفة من صفاته سبحانه ، فهي صفة جلال وكمال وعظمة وعز ، وأنه منزه عن كل عيب ونقص .

٣ ـ بتكبيره في أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجري في ملكه شيء ، إلا وفق حكمته وإرادته .

٤ ـ بتكبيره في أحكامه بأن يعتقد أنه ملك مطاع له الأمر والنهي والخفض والرفع ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء قال تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

٥ ـ بتكبيره في أسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

ويستنبط من الآية :

١ ـ الحث على حمده سبحانه لأنه المستحق لأن يحمد لما اتصف به من صفات الكمال .

٢ ـ تنزيهه عن الولد لكمال صمديته ، وغناه ، وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك .

٣ ـ تنزيهه عن الشريك في الملك المتضمن تفرده بالألوهية والربوبية وسائر صفات الكمال .

٤ ـ نفي الولاية من الذل التي تحميه وتؤيده وتحفظه لأنه قوي عزيز غني عمن سواه . أما الولاية التي على وجه المحبة

والكرامة لمن يشاء من عباده فلم ينفها وهي المذكورة في قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فهذه موالاة رحمة وإحسان ، وأما المنفية فهي موالاة الحاجة والذل .

قال ابن القيم رحمه الله :

يَا مَـن يُريدُ ولايةَ الرحمـن دُوْ	نَ ولاية الشيطان والأوثـان
فارِقْ جميعَ الخلق في إشراكهـم	حتى تنَالَ ولايةَ الرحمـن
يَكفيكَ مَن وَسِعَ الخلائقَ رحمةً	وكِفَايةً ذُو الفضل والإحسـان
يكفيكَ مَن لم تَخلُ من إحسانِـهِ	في طَرفةٍ بتَقَلُّبِ الأجفَـان
يكفيكَ رَبٌ لم تزلْ ألطَافُـهُ	تأتي إليك برَحْمَةٍ وحنَـان
يَكفيكَ ربٌ لم تزلْ في سِتْـرهِ	ويرَاكَ حينَ تجيءُ بالعِصْيانِ
يكفيك ربٌ لم تزَلْ في حِفْظِـهِ	ووَقايةٍ منه مَدَى الأزمـان
يكفيك رب لم تزل في فضله	متقلبـاً في السر والإعلان

٥ ـ الرد على من زعم أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

٦ ـ الرد على الثانوية ونحوهم ممن قال بتعدد الآلهة .

٧ ـ الرد على القدرية .

٨ ـ إثبات الألوهية لله تعالى .

٩ ـ إثبات الملك لله تعالى .

١٠ ـ الحث على مقام الإحسان وتعظيم الله واجلاله .

الآية الثانية : يخبر تعالى أنه يسبح له جميع المخلوقات التي في السموات والتي في الأرض أي تنزهه وتقدسه عما لا يليق بجلاله وعظمته ، وقد اختلف في كيفية هذا التسبيح فقيل هو تسبيح على حقيقته بلسان المقال ويدل على ذلك بقوله تعالى : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن بالعشي والإشراق) والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين وكذلك وله (يا جبال أوبي معه) والدلالة لا تختص معيته وحده فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة وثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديث حنين الجذع وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك من الأدلة . وقيل انه بلسان الحال أي بما تدل عليه صنعتها من قدرة وحكمة فهي تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجود الله وتفرده بالربوبية ووحدانيته ، قال الشاعر :

تأمل في نبـات الأرض وانظـر إلى آثار ما صنع المليـك
عيـون من لجـين شاخصـات بأحداق هي الذهـب السبيك
على قصب الزبرجـد شاهـدات بأن الله ليس لـه شريك

وقوله (له الملك وله الحمد) أي يختصان به ليس لغيره

منهما شيء وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه فهو المالك وحده لجميع المخلوقات النافذ فيها أمره ، يتصرف فيها كيف يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، فلا يعجزه شيء .

يستنبط من الآية :

١ ـ تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات الملك لله وحده .

٣ ـ إثبات الألوهية لله تعالى .

٤ ـ اختصاصه سبحانه بالملك والحمد كما يفيده تقديم الظرف فهو سبحانه المختص به من حيث الحقيقة لأنه مبدىء كل شيء ومبدعه فالملك له بالحقيقة دون غيره ولأن أصول النعم وفروعها منه تعالى فالحمد له بالحقيقة وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال وجريان النعم على يديه .

٥ ـ إثبات قدرة الله .

٦ ـ الرد على القدرية .

٧ ـ إثبات جميع صفات الكمال ونفي النقائص والعيوب لأن التسبيح يقتضي ذلك .

٨ ـ الرد على المعطلة المنكرين لصفات الله .

الآية الثالثة : تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ثم في النبوة لأنها الواسطة ثم في المعاد لأنه الخاتم فقال (تبارك) مأخوذ من البركة وهي النماء والزيادة وهو فعل مختص بالله لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له أي تعاظم وكملت أوصافه ، وكثرت خيراته (الفرقان) أي القرآن الفارق بين الحلال والحرام ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة والتعبير بنزل بالتشديد لإفادة التدريج في النزول وأنه لم ينزل جملة واحدة وقوله (على عبده) المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وإيراده بهذا العنوان ، ولم يقل بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفاً له وإيذاناً بكونه عليه السلام في أقصى مراتب العبودية ، ولذلك وصفه بها في أشرف مقام : مقام الإرسال ومقام الإسراء . وهذه العبودية تختص بمن تعبده الله بامتثال أوامره واجتناب نهيه وأما العبودية العامة فهي الخضوع للأمر الكوني القدري وتشمل جميع الخلق ودليلها قوله تعالى « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ».

قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله به في مقام الإسراء والضمير في قوله ليكون يعود على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل على القرآن والمراد بالعالمين الثقلان الجن والإنس . والإنذار الإعلام بسبب المخاوف وهذا الإنذار عام كقوله (لينذر بأساً شديداً من لدنه) والإنذار الخاص كقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) . وقوله (له ملك السموات والأرض) أي له التصرف فيهما وحده وجميع من

فيهما مماليك له وعبيد له مذعنون لعظمته خاضعون لربوبيته فقراء إلى رحمته قال تعالى : (إن كل من في السموات والأرض الا آت الرحمن عبدا) ، وقوله (الذي لم يتخذ ولدا) لكمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة كل شيء وافتقاره إليه سبحانه وقوله (ولم يكن له شريك في الملك) أي لم يكن له مشارك في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثانوية والقدرية ونحوهم وقوله : (وخلق كل شيء فقدره) أي : أوجد وأنشأ كل شيء مخلوق . فيدخل في ذلك كل ما في العالم العلوي والسفلي من حيوان وجماد ونبات ويدخل في ذلك أفعال العباد ولا يدخل في ذلك أسماء الله وصفاته لأن الأسماء والصفات تابعة للذات يحتذى بها حذوها ، وعموم كل في كل مقام بحسبه كقوله سبحانه (تدمر كل شيء بأمر ربها) أي كل شيء أمرت بتدميره وكقوله (وأوتيت من كل شيء) أي من كل شيء يصلح للملوك فلا يدخل في قوله تعالى (خالق كل شيء) القرآن ، لأن القرآن كلامه وهو صفة من صفاته والله سبحانه وتعالى بصفاته غير مخلوق كما في الصحيح من حديث خولة « من نزل منزلا وقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » فاستعاذ بكلمات الله والاستعاذة بالمخلوق شرك فدل على أن كلامه سبحانه غير مخلوق كما استدل بذلك أحمد وغيره .

قال ابن القيم رحمه الله : استدل الجهمية على خلق القرآن بهذه الآية فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه سبحانه وكلامه من

صفاته و صفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه فليس لله سبحانه وتعالى أسماء لذات لا نعت لها ولا صفة ولا فعل فان ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لا وجود له كالاه الجهمية الذي فرضوه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ولا محايد ولا مباين ، أما إله العالمين الحق فهو الذي دعت اليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب فتجريد الذات عن الصفات ، والصفات عن الذات ، فرض وخيال ذهني لا حقيقة له ، انتهى .

قال في شرح الطحاوية وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفى في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة وفيه إجمال فان أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة أو لا يحدث، له وصف متجدد لم يكن فهذا نفي صحيح ، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية من أن لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفي باطل وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي الحوادث فيسلم السني للمتكلم ذلك على أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله فاذا سلم له هذا النفي الزمه نفي الصفات الإختيارية وصفات الفعل وهو غير لازم له وإنما أتي السني من تسليم هذا النفي المجمل وإلا فلو

استفسر واستفصل لم ينقطع معه وكذلك مسألة الصفة هل هي زائدة على الذات أم لا . لفظها مجمل وكذلك لفظ الغير فيه إجمال فقد يراد به ما ليس هو إياه قد يراد به ما جاز مفارقته له ولهذا كان أئمة السنة لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ولا أنه ليس غيره لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو إذا كان لفظ الغير فيه إجمال فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل فان أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها وإنما يفرض الذهن ذاتاً وصفة كلا وحده ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة فان هذا محال، وقد يقول بعضهم الصفة لا عين الموصوف ولا غيره هذا له معنى صحيح وهو ان الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها وليست غير الموصوف بل الموصوف بصفاته شيء واحد غير متعدد فاذا قلت أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه وإذا قلت أعوذ بعزة الله فقد عذت بصفة من صفات الله تعالى ولم أعذ بغير الله وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات فان «ذات» في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة أي ذات وجود ذات قدرة ذات عز ذات علم ذات كرم إلى غير ذلك من الصفات فعلم أن الذات لا يتصور

إنفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه وإن الذهن قد يفرض ذاتاً مجرّدة عن الصفات كما يفرض المحال وقد قال صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعزة الله وقدرته من شرما أجد وأحاذر» وقال صلى الله عليه وسلم «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» ولا يعوذ صلى الله عليه وسلم بغير الله. وكذا قال صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك» وقال صلى الله عليه وسلم «ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا» وقال صلى الله عليه وسلم «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» وكذلك قولهم الاسم عين المسمى أو غيره وطالما غلط الكثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى فاذا قلت قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه وإذا قلت الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك فالاسم ها هنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره لما في لفظ الغير من الاجمال فان أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والالحاد في أسماء الله تعالى . انتهى بتصرف قليل جداً .

وقوله : (فقدره تقديراً) أي فسواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت . وقيل : قدر لكل شيء تقديراً من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق .

ويستنبط من الآيات :

١ - رد على اليهود لقولهم : عزير ابن الله .

٢ - رد على النصارى لقولهم المسيح ابن الله .

٣ - رد على المشركين القائلين إن الملائكة بنات الله .

٤ - الرد على الثانوية ونحوهم ممن يقول بتعدد الآلهة .

٥ - الرد على المشركين القائلين في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك .

٦ - أن الآية تتضمن تنزيه الله عن كل عيب ونقص .

٧ - دليل على أن الله هو الموجد المبدع .

٨ - خلق أفعال العباد فهي خلق الله ، وفعل العبد .

٩ - إثبات القدر .

١٠ - فيها دلالة على التوكل لأن من وقر في قلبه أن الملك لله ، وأنه المتصرف النافع الضار لم يبال بأحد من الخلق .

١١ - أن العباد لا يملكون الأعيان ملكاً مطلقاً ، إنما يملكون التصرف فيها على مقتضى الشرع .

١٢ - تحريم الإفتاء والحكم بغير علم .

١٣ - إثبات صفة العلم .

١٤ - الرد على القدرية الذين نفوا علمه سبحانه ، هم الغلاة ، فكفرهم السلف .

١٥ - الرد على القدرية القائلين ان العباد يخلقون أفعالهم .

١٦ - الرد على الجبرية القائلين أن العبد لا فعل له .

١٧ - الرد على من قال : إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

١٨ - الرد على الدهرية القائلين ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا .

١٩ - إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته .

٢٠ - الرد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم .

٢١ - التعليل لأفعال الله تعالى وأنه لا يفعل شيئاً إلا لحكمة .

٢٢ - الدلالة على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

٢٣ - الدلالة على أن الجن مكلفون ، وتتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات ، ويجازون على السيئات .

٢٤ - أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة لقوله (وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) .

٢٥ - إثبات ملك السموات والأرض لله تعالى .

٢٦ - إثبات صفة الخلق .

وقف لله تعالى

٢٧ ـ الرد على الذين رفعوه صلى الله عليه وسلم فوق منزلته .

٢٨ ـ الرد على الذين نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم .

٢٩ ـ الرد على من زعم أن كلام الله وكلام رسوله لا يفيد اليقين ، فلو كان الأمر كما زعم المبتدعة لم يقم بالقرآن حجة على المكلفين .

٣٠ ـ الحكمة في إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

٣١ ـ كمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة الخلائق إليه .

٣٢ ـ أن القرآن منزل غير مخلوق .

٣٣ ـ لطف الله بخلقه حيث أرسل إليهم مبشرين ومنذرين .

٣٤ ـ فيها دليل على عظمة الله وكمال صفاته .

٣٥ ـ فيها دليل على كثرة خيرات الله ونعمه ومن أعظمها إنزال القرآن الكريم .

٣٦ ـ أن القرآن نزل منجماً مفرقاً .

٣٧ ـ إعتناء الله بكتابه القرآن الكريم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

٣٨ ـ تسمية القرآن « الفرقان » لانه فرق بين الحلال والحرام والهدى والضلال .

٣٩ ـ إثبات قدرة الله .

٤٠ ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٤١ ـ اثبات علو الله على خلقه .

الدليل على امتناع وجود إله ثاني :

(وقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) ، (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

الآية الأولى : ينزه سبحانه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة ثم إنه سبحانه لما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله ثان أوضح ذلك بالبرهان والحجة الباهرة فقال (إذاً) أي : لو كان معه آلهة كما يقول المشركون (لذهب كل إله بما خلق) أي تفرد بما خلق فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ومنع الآخر من الاستيلاء على ما خلق وهذا ممتنع لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم .

والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

وقوله : (ولعلا بعضهم على بعض) أي ولغلب القوي الضعيف وقهره ، وأخذ ملكه كما هي عادة ملوك الدنيا ،

وإذا تقرر عدم إمكان المشارك له في ذلك تعين ان يكون هذا الواحد هو الله سبحانه وتعالى والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فان لم يحصل مراد كل منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً .

وقال الشيخ رحمه الله : فأي شيء اعتبرته من العالم وجدته مفتقراً إلى شيء آخر من العالم فيدلك مع كونه ممكناً مفتقراً ليس بواجب بنفسه إلى أنه مفتقر إلى فاعل ذلك الآخر حتى ينتهي الأمر إلى الرب الخالق لكل شيء ويمتنع أن يكون فاعلان مفعول كل منهما مستغن عن مفعول الآخر ، كما قال تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) ويمتنع أن يكونا مستقلين لأنه جمع بين النقيضين ويمتنع أن يكونا متعاونين متشاركين كما يوجد ذلك في المخلوقين لاستلزام ذلك العجز والحاجة إلى الآخر :

وقال ابن القيم رحمه الله : فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين فان الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى شركة الاله الآخر معه

بل ان قدر على قهره وتفرده بالألوهية دون غيره فعل وإن لم يقدر على ذلك إنفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد أمور ثلاثة إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه وإما أن يعلو بعضهم على بعض وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه فيكون وحده هو الاله وهم العبيد المربوبون المقهورون وانتظام امر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا اله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب غيره فذاك تمانع في الفعل والايجاد وهذا تمانع في العبادة والألوهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان، فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانها فكذا تبطل الهية اثنين اهـ.

فالآية الكريمة موافقة لما ثبت في الفطرة من توحيد الربوبية دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الألوهية.

وقال رحمه الله:

وشواهد الإحداثِ ظاهرةٌ على ذا العالمِ المخلوقِ بالبرهان

وادلـةُ التوحيد تَشهدُ كلُّها بحدوثِ كُلٍّ ما سوى الرحمن

لـو كان غـير الله جل جلالـه ... معه قديمـاً كان ربـاً ثان

إذ كـان عن رب العلى مستغنيـاً ... فيكون حينئـذ لنـا ربـان

والـرب باستقلالـه متوحـد ... أفَمُمكنٌ أن يَستَقِلَّ اثنان ؟

لو كان ذاك تنافيَـا وتَسَاقَطَـا ... فإذا همـا عَدَمَـانِ ممتنعان

والقهـرُ والتوحيدُ يشهـد منهما ... كُلٌ لِصَاحِبه همـا عِدلان

ولذلك اقترنـا جميعـاً في صفـا ... ت الله فانظر ذاك في القـرآن

فالواحد القهـار حقـاً ليس في الـ ... إمكان أن تُحْظَى به ذاتـان

وقوله (سبحان الله عما يصفون) . . ختم سبحانه الآية بتنزيهه نفسه عن الولد والشريك ، وعما يصفه به المخالفون للرسل ، وقوله : (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) في هذه الآية تنبيه على عظمة صفته بأنموذج من صفات الكمال فأخبر أنه هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء وما شاهدوه ، فعلمه سبحانه محيط بكل شيء بالواجبات والممكنات والمستحيلات وبالماضي والحال والمستقبل . والمراد به أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا فانهم يقولون من غير علم ، وأنه الذي يعلم الأشياء شاهدها وغائبها ، ولا تخفى عليه خافية من أمرها وقد نفى ذلك فخبره هو الحق دون خبرهم وقوله (فتعالى عما يشركون) أي علا وتنزه وتقدس عما يقول الجاحدون الظالمون ، فهو سبحانه أعظم وأجل من أن يوصف بهذا الوصف .

ويفهم من الآية :

١ ـ تنزيه الله عن الولد .

٢ ـ تنزيهه عن وجود إله ثان .

٣ ـ إثبات الألوهية .

٤ ـ اثبات توحيد الربوبية .

٥ ـ الرد على النصارى لقولهم المسيح ابن الله .

٦ ـ الرد على اليهود لقولهم عزيز ابن الله .

٧ ـ الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله .

٨ ـ الرد على الثانوية ونحوهم ممن قال بتعدد الآلهة .

٩ ـ إثبات وحدانيته .

١٠ ـ إثبات صفة العلم .

١١ ـ اختصاصه سبحانه بعلم الغيب .

١٢ ـ الرد على القدرية النافين لعلم الله .

١٣ ـ أن الله هو المنفرد بالخلق والرزق .

١٤ ـ إثبات كماله وعظمته وغناه .

١٥ ـ فيها دليل على قدرة الله .

١٦ ـ إثبات جميع صفات الكمال لله جل وعلا ونفي كل عيب ونقص لأن التسبيح يقتضي ذلك .

والغيب : ينقسم إلى قسمين : غيب لا يعلمه إلا الله وهو ما غاب عن الخلق قال تعالى : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) ، والقسم الثاني غيب مقيد وهو ما علمه بعض المخلوقات من الجن والإنس فهو غيب عمن غاب عنه وليس هو غيباً عمن شهده فهذا يكون غيباً مقيداً .

الآية الثانية : ينهى سبحانه عباده عن أن يجعلوا له نداً أو شريكاً أو مثيلا فانه واحد لا مثيل له لا في ذاته ولا في صفاته (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) تعليل للنهي المذكور ووعيد على المنهي عنه ، أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره وتقدم فيما سبق على شرح قول المصنف « ولا يقاس بخلقه . . إلخ » زيادة لهذا البحث .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ إثبات صفة النهي .

٣ ـ النهي عن ضرب الأمثال .

٤ ـ في الآية رد على المشبهة .

٥ ـ الرد على المعطلة .

٦ ـ في الآية تهديد ووعيد لمن جعل لله مثلا أو شبهه بخلقه .

٧ ـ الرد على من أنكر صفة العلم .

الاية الثالثة : الفواحش : جمع فاحشة ، وهي ما عظم جرمه وذنبه ، كالكبائر التي بلغت الغاية في الفحش وذلك كالزنا ، واللواط ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والنفاق . والإثم : أي ما يوجب الإثم والذل ، فيتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم . والبغي بغير الحق : التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم من غير أن يكون على جهة القصاص والمماثلة ، والشرك : دعوة الله ودعوة غيره معه ، والسلطان : الحجة والبرهان .

ففي هذه الآيات المحرمات الخمس التي اتفق على تحريمها الرسل والشرائع والكتب ، وهي محرمات على كل أحد وفي كل حال لا تباح قط . . والمراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي لا الكوني القدري وقوله (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) أي وحرم الشرك به بأن تجعلوا لله شريكاً ما لم ينزل به سلطاناً ، وحرم سبحانه القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وشرعه . وأصل الشرك والكفر القول على الله بلا علم فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس إذ القول على الله بلا علم ، قد يتضمن التعطيل والابتداع في الدين فهو أعم من الشرك والشرك فرد من أفراده ، ورتب هذه المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول على الله بلا علم .

وقال بعض المفسرين : الجنايات محصورة في خمسة أنواع :

١ ـ الجنايات على الأنساب وهي المرادة بالفواحش .

٢ ـ الجنايات على العقول وهي المشار إليها بالإثم .

٣ ـ الجنايات على النفوس ، والأموال ، والأعراض ، وإليها الإشارة بالبغي .

٤ ـ الجنايات على الأديان وهي من وجهين إما طعن في توحيد الله وإليه الإشارة بقوله (وأن تشركوا بالله) .

٥ ـ وإما القول في دين الله من غير معرفة وإليه الإشارة بقوله : (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

وهذه الخمسة أصول الجنايات ، وأما غيرها فهي كالفروع ومناسبة ذكرها هنا ما فيها من تحريم القول على الله بلا علم ، ومنه القول على الله في أسمائه وصفاته بلا علم ، لأن القول على الله بلا علم أشد تحريماً من الشرك ، لأن الله رتبها في الآية من الأدنى إلى الأعلى .

وقال ابن القيم رحمه الله : أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة : تعلق القلب بغير الله وطاعة القوة الغضبية والقوة الشهوانية وهي الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله الشرك وغاية القوة الغضبية القتل وغاية القوة الشهوانية الزنا ، ولهذا جمع الله الثلاثة في قوله : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) .

وقال الشيخ رحمه الله : ظلم العبد نفسه يكون بترك ما ينفعها وهي محتاجة إليه وذلك فعل ما أمر الله به ،وبفعل ما يضرها وذلك المعاصي كلها كما أن ظلم الغير كذلك إما بمنع حقه أو التعدي عليه فان الله أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم وجاء القرآن بالأمر بالإصلاح والنهي عن الفساد والصلاح كله طاعة والفساد كله معصية وقد لا يعلم كثير من الناس ذلك على حقيقته فعلى المؤمن أن يعلم أن الله يأمر بكل مصلحة وينهى عن كل مفسدة وكل ما أمر الله راجع إلى العدل وكل ما نهى عنه راجع إلى الظلم ، والظلم الذي حرمه الله على نفسه أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها أو يعاقب البريء على ما لم يفعله من السيئات أو يعاقب هذا بذنب غيره أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك وذلك لكمال عدله وحمده ، اهـ .

ما يؤخذ من الآية :

١ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام مخلوق .

٢ ـ إثبات الربوبية .

٣ ـ تحريم الفواحش عامة .

٤ ـ أن الفواحش قسمان ظاهرة وباطنة .

٥ ـ تحريم الإثم .

٦ ـ تحريم الزنا لأنه فاحشة .

٧ ـ تحريم اللواط لأنه فاحشة .

٨ ـ تحريم البغي بغير حق .

٩ ـ أن القصاص بحق يجوز .

١٠ ـ تحريم الشرك بالله .

١١ ـ أن العلة في ذلك أنه لم ينزل به سلطاناً .

١٢ ـ تحريم القول على الله بلا علم .

١٣ ـ في الآية رد على الجهمية المنكرين لصفة العلم .

١٤ ـ في الآية رد على المعتزلة القائلين عليم بلا علم .

١٥ ـ في الآية رد على الأشاعرة المنكرين لبعض الصفات

١٦ ـ أن التحريم والتحليل إنما يكون من عند الله .

١٧ ـ شمول الشريعة لكل الأحكام .

١٨ ـ الرد على من يقول بعدم كمال الشريعة الإسلامية .

١٩ ـ الرد على من يطالب بالقوانين الوضعية . والأنظمة المخالفة للشرع .

٢٠ ـ الرد على المشركين القائلين بأن لأصنامهم ومعبوديهم شفاعة .

٢١ ـ ضرر الشرك على الخلق .

٢٢ ـ الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل .

٢٣ ـ إثبات صفة العلم .

٢٤ ـ اثبات صفة الكلام والرد على من أنكرها أو أولها بتأويل باطل .

٢٥ ـ قيام الحجة على الخلق .

٢٦ ـ تحريم السرقة لأنها من الفواحش .

٢٧ ـ تحريم أكل الربا لأنه من الفواحش .

٢٨ ـ تحريم أكل مال اليتيم لأنه من الفواحش .

٢٩ ـ تحريم السحر لأنه من الفواحش .

٣٠ ـ تحريم القذف بالزنا أو اللواط لأنه فاحشة .

٣١ ـ تحريم شهادة الزور لأنها فاحشة .

٣٢ ـ تحريم القتل لأنه فاحشة .

٣٣ ـ تحريم التولي يوم الزحف لأنه فاحشة .

٣٤ ـ تحريم اتيان المرأة في دبرُها لأنه فاحشة .

٣٥ ـ تحريم اتيان من حاضت لأنه فاحشة .

٣٦ ـ تحريم سوء الظن بالله لأنه فاحشة .

٣٧ ـ تحريم الطعن في الدين لأنه فاحشة .

٣٨ ـ تحريم سب الرسل لأنه فاحشة .

٣٩ ـ أن الشرك جناية على الدين .

٤٠ ـ ترتيب المحرمات الخمس .

٤١ ـ أنها حرام في كل زمان ومكان اي المحرمات الخمس .

٤٢ ـ ان البغي ينقسم قسمين محرم وهو ما كان بغير الحق . وجائز وهو ما كان بحق .

٤٣ ـ تعظيم حرمة المسلم .

٤٤ ـ ان الفواحش تنقسم إلى قسمين ظاهرة وباطنة : ظاهرة كالزنا وباطنة كالكبر والعجب والحسد وسوء الظن .

٤٥ ـ تحريم التعدي على الناس في أبدانهم وأموالهم لأنه من البغي بغير الحق .

٤٦ ـ ان الجنايات على الأنساب تعتبر من الفواحش .

٤٧ ـ ان الشرك بالله جناية على الدين .

٤٨ ـ ان هذه الآية على ايجازها حوت أحكاماً كثيرة .

٤٩ ـ في الآية ناحية اقتصادية : ترك اللواط والزنا والقتل .

٥٠ ـ في الآية ناحية صحية ترك الزنا واللواط والقتل والفواحش التي تبعث على الهموم وضعف الجسم أو هلاكه .

٥١ ـ في الآية ناحية صحية واقتصادية ترك الخمر .

٥٢ ـ دليل على عظمة الله وانه أحاط بكل شيء علماً .

٥٣ ـ الحث على فعل الأوامر وترك النواهي .

٥٤ ـ ان القول على الله بلا علم من الشرك لأن المحرمات في الآية مرتبة .

٥٥ ـ في الآية مناسبة لذكرها في كتاب التوحيد لأن الله حرم القول عليه بلا علم ومن ذلك القول عليه بأسمائه وصفاته .

٥٦ ـ ان القرآن شامل لجميع الأديان وناسخ لها .

٥٧ ـ في القرآن معجزة من المعجزات لتحقق مضار هذه التي نهى عنها .

٥٨ ـ إن الدليل على ذلك ان من لم يحرم هذه المحرمات الخمس تجد الفساد منتشراً في جميع أرجائه وانظر ما حولك من البلدان المبيحة لذلك .

٥٩ ـ لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم وأبدانهم .

٦٠ ـ قيام الحجة على الخلق .

٦١ ـ الحث على الخوف من الله ومراقبته .

٦٢ ـ أن أوامر الله ونواهيه في غاية الحسن فلا يأمر إلا بخير ولا ينهي إلا عن شر .

٦٣ ـ ناحية اجتماعية ترك البغي .

٦٤ ـ دليل على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

٦٥ ـ الرد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم .

٦٦ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٦٧ ـ عظم حرمة المسلم وأن البغي عليه بغير حق انتهاك لما حرم الله .

٦٨ ـ ان الخلق لم يقدروا الله حق قدره وإلا لما عصوه واقترفوا هذه المحرمات .

٦٩ ـ ان علم الباطن والظاهر عند الله سواء كله يعلمه الله .

٧٠ ـ ان النبي صلى الله عليه وسلم بلغ الأمة ما أمر به .

٧١ ـ دليل لأهل السنة أن القرآن غير مخلوق وأنه منزل .

٧٢ ـ جواز القول بالشرع عن علم .

٧٣ ـ الحث على طلب العلم .

٧٤ ـ أن ما لم يكن فاحشة فليس يدخل في المنهي عنه في الآية هذه .

٧٥ ـ ذم الجهل . والمأخذ من قوله وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون .

٧٦ ـ اتفاق التحريم الديني الشرعي والتحريم الكوني القدري .

٧٧ ـ دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى وما أتى به فهو وحي من الله .

٧٨ ـ اعتناء الله سبحانه وتعالى ولطفه برسوله صلى الله عليه وسلم .

وقف لله تعالى

٧٩ ـ أن الخلق لم يتركوا بدون أوامر ونواهي .

٨٠ ـ رد على الجبرية . القائلين إن أفعال العباد مجاز .

٨١ ـ أن أفعال العباد تصدر عنهم باختيارهم وإلا لما كان للأمر فائدة .

٨٢ ـ أن في القرآن تربية عالية وتوجيهات دينية .

٨٣ ـ أن القرآن نزل بالتدريج شيئاً فشيئاً والدلالة من قوله ينزل .

٨٤ ـ الرد على من قال إنه نزل دفعة واحدة .

٨٥ ـ بلاغة القرآن وفصاحته حيث أن الآية الواحدة القصيرة تحتوي على أحكام كثيرة .

٨٦ ـ أن في القرآن حكماً وأسراراً لا يفهمها إلا من وفقه الله لذلك .

٨٧ ـ بيان عجز الخلق وضعفهم وضيق علمهم وسعة علم الله.

٧٩ ـ **دليل على علو الله على خلقه** ·

أقسام الشرك :

ينقسم الشرك إلى قسمين : أكبر وأصغر . .

القسم الأول : اتخاذ الند ، بأن يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كمحبة الله أو يذبح له أو ينذر . قال ابن القيم رحمه الله .

والشركَ فاحْذَرْهُ فشِرْكٌ ظَاهِرٌ   ذا القسم ليس بقابِلِ الغُفْرانِ
وهو اتخاذ النـد للرحمن أيـــ   ـاً كان مِن حَجَرٍ ومِن انسان
يَدعوه أو يَرجُوه ثم يَخَافُـه   ويُحِبُه كَمَحبةِ الدَيَّـانِ

والقسم الثاني : شرك أصغر ، وحده بعضهم بأنه كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الأكبر . وذلك كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، وكالحلف بغير الله .

قال ابن القيم رحمه الله : وأما الشرك الأصغر فكثير : الريــاء والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كـذا وكذا ، وقد يكون شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده ، اهـ .

أقسام الشرك الأكبر :

ينقسم إلى نوعين : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته ، وقسم يتعلق بمعاملته .

فالنوع الأول ينقسم إلى قسمين : شرك تعطيل ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : وتقدمت أقسامه فيما سبق ص ٧١ ، والثاني شرك تمثيل وينقسم إلى قسمين وتقدما أيضاً فيما سبق ص ٧٣ .

النوع الثاني : وهو ما يتعلق بمعاملته . وينقسم إلى أقسام ،

الأول : شرك الدعوة المشار إليه بقوله تعالى : (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) ، الثاني : شرك في المحبة كما ذكر الله عن بعض الناس بقوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) ، الثالث : شرك في الطاعة المذكورة في قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) الرابع : شرك الإرادة والقصد قال الله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) الآية .

والفرق بين الشرك الأكبر والأصغر :

(أولا) أن الأكبر لا يغفر لصاحبه ، وأما الأصغر فتحت المشيئة .

(ثانياً) الأكبر محبط لجميع الأعمال ، وأما الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه .

(ثالثاً) ان الأكبر مخرج عن الملة الإسلامية ، وأما الأصغر فلا يخرج منها .

(رابعاً) أن الشرك الأكبر صاحبه خالد في النار وأما الأصغر فكغيره من الذنوب ، وقيل إنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة كالأكبر وهذا أقرب ، والله أعلم .

والكفر كفران : كفر يخرج عن الملة وهو خمسة أنواع : لنوع الأول كفر التكذيب والدليل قوله تعالى (ومن أظلم ممن

افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه) الآية النوع الثاني كفر الإباء والاستكبار مع التصديق والدليل قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) النوع الثالث كفر الشك وهو كفر الظن والدليل قوله تعالى (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) الآيات الثلاث : النوع الرابع كفر الإعراض والدليل قوله تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) النوع الخامس كفر النفاق والدليل قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وكفر أصغر لا يخرج عن الملة وهو كفر النعمة والدليل قوله (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنه يأتيها رزقها من كل مكان فكفرت بأنعم الله) الآية .

والظلم نوعان ظلم ينقل عن الملة الإسلامية وظلم لا ينقل قال الله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وقال (إن الشرك لظلم عظيم) وفي حديث ابن مسعود المتفق عليه قال لما نزلت « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بذلك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح « ان الشرك لظلم عظيم » إنما هو الشرك» وعن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فدخل ذات يوم فقرأ فأتى على هذه الآية : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الخ فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى إلى أبي بن كعب فقال : يا أبا المنذر أتيت قبل على هذه

الآية الذين آمنوا (الآية) وقد ترى أنا نظلم ونفعل فقال يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذلك يقول الله (إن الشرك لظلم عظيم) والفسق فسقان فسق ينقل عن الملة وفسق لا ينقل قال تعالى في حق ابليس (ففسق عن أمر ربه) وكان ذلك الفسق منه كفراً وقال (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) يريد الكفار دل عليــه قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) الآية وسمي الفاسق من المسلمين فاسقاً ولم يخرجه من الاسلام قال تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) الآية وقال (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق) قال العلماء في تفسير الفسوق هنا هي المعاصي .

استواء الله على عرشه :

(وقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) في سبعة مواضع : في سورة الأعراف قوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال في سورة يونس : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) ، وقال في سورة الرعد : (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) ، وقال في سورة طه (الرحمن على العرش استوى) وقال في سورة الفرقان (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال في سورة السجدة (الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال في سورة الحديد (هو

الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) .

في هذه الآيات إثبات صفة الاستواء لله وهو من الصفات الفعلية ، ومعنى الإيمان بالاستواء : الاعتقاد الجازم بأن الله فوق سمواته مستوي على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته علي على خلقه بائن منهم وعلمه محيط بكل شيء . ومعنى الاستواء العلو والارتفاع والاستقرار والصعود .

قال ابن القيم :

ولهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وقد ار ... تفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيبان

يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

والأشعري يقول تفسير استوى ... بحقيقة استولى على الأكوان

فهذه الأربعة هي التي تدور عليها تفاسير السلف رحمهم الله ، قال البخاري رحمه الله في صحيحه : قال مجاهد : استوى على العرش ، علا . وقال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون (الرحمن على العرش استوى) أي ارتفع ، وقال محمد بن جرير في قوله (الرحمن على العرش استوى) : أي علا وارتفع ، وأنكر الجهمية والمعتزلة علو الله على خلقه واستواءه على عرشه وحرفوا معاني النصوص ففسروا

الاستواء بالاستيلاء أو الإقبال على خلق العرش إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة ، فانه لا يقال استولى على الشيء إلا لمن له مضاد ، فيقال لمن غلب من المتضادين : استولى عليه ، والله تعالى لا مضاد له ، والذين أولوا الاستواء بالاستيلاء متأخرو النحاة ممن سلك طريق الجهمية والمعتزلة ، والذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلا وإنما قالوه استنباطاً وحملا منهم للفظة استوى على استولى ، واستدلوا بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت محرف وإنما هو هكذا :

* قد استولى بشر على العراق *

على أنه لا يصح ولا يعرف قائله ولو صح لم يكن فيه حجة لهم بل هو حجة عليهم وهو على حقيقة الاستواء ، فان بشراً هذا كان أخا عبد الملك بن مروان وكان أميراً على العراق فاستوى على سريرها كما هي عادة الملوك ونوابها أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة .

وأيضاً فاستواء الشيء على غيره يتضمن استقراره وثباته وتمكنه عليه ، واستواء بشر على العراق يتضمن استقراره وثباته عليها ودخوله دخول مستقر ثابت غير مزلزل ، وهذا يستلزم الاستيلاء أو يتضمنه فالاستيلاء لازم معنى الاستواء لا في كل

موضع بل في الموضع الذي يقتضيه ولا يصلح الاستيلاء في كل موضع يصلح فيه الاستواء بل هذا له موضع وهذا له موضع ولهذا لا يصح أن يقال : استولت السنبلة على ساقها ، ولا استولت السفينة على الجبل ، ولا استولى الرجل على السطح ، إذا ارتفع فوقه ، ولو كان المراد بالبيت استيلاء القهر والملك لكان المستوي على العراق عبد الملك بن مروان لا أخوه بشر لأنه نائب له بخلاف الاستواء الحقيقي وهو الاستقرار فيها ، والجلوس على سريرها ، فان نواب الملك تفعل هذا باذنهم ، ومما يبطل دعوى المجاز تجريد الاستواء من اللام واقترانه بحرف على وعطف فعله بثم على خلق السموات والأرض وكونه سابقاً في الخلق على السموات والأرض وذكر تدبير أمر الخلق معه الدال على كمال الملك فان العرش سرير المملكة فأخبر أن له سريراً كما قال أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجــد أهــل ربنا في السمـاء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الخلــ ـق وسوى فوق السماء سريرا

شرجعـا ما ينالـه بصر العـين ترى حولـه الملائك صوراً

وصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستشهده الأسود ابن سريع ، فقد استوى على سرير ملكه يدير أمر الممالك ، وهذا حقيقة الملك فمن أنكر عرشه وأنكر استواءه عليه أو انكر تدبيره ، فقد قدح في ملكه ، فهذه القرائن تفيد القطع بأن الاستواء على حقيقته ، ولو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر والدوام لجاز أن يقال استوى على ابن آدم وعلى الجبل وعلى

الشمس وعلى القمر وعلى البحر وعلى الشجر وعلى الدواب وهذا لا يقوله مسلم ، وقد أطلق أعلم الخلق بربه عليه أنه فوق العرش كما في حديث ابن عباس « والعرش فوق الماء والله فوق العرش » وهذه الفوقية- هي تفسير الاستواء المذكور القرآن والسنة .

ومن الوجوه التي يرد بها على من أول الاستواء بالاستيلاء أن الاستواء خاص بالعرش والاستيلاء عام على جميع المخلوقات، ومنها أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأخبر أن عرشه على الماء قبل خلقهما ، والاستواء متأخر على خلقهن ، والله مستول على العرش قبل خلق السموات وبعده فعلم أن الاستواء على العرش الخاص غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره ، ومنها أن معنى الكلمة مشهور كما قال بعض السلف ، وأنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً لم يحتج الإمام مالك رحمه الله أن يقول والكيف مجهول ، لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي ما قد علم أصله ومنها أنه يلزم من تفسير الاستواء بالاستيلاء أن الله مستوى على الأرض ، ومنها أن إحداث القول في كتاب الله الذي كان السلف والائمة على خلافه يستلزم أحد أمرين إما أن يكون خطأ في نفسه أو تكون أقوال السلف المخالفة له خطأ ولا يشك عاقل أنه أولى بالغلط والخطأ من أقوال السلف ، ومنها أن هذا اللفظ قد أطرد في القرآن والسنة حيث ورد لفظ الاستواء دون الاستيلاء ولو كان معناه استولى لكان استعماله في أكثر موارده كذلك ، قال رحمه الله :

وكذلك اطردت بـــلا لام ولـــو كانت بمعنى اللام في الأذهـــان
لأتت بها في موضع كي يحمل البـا قي عليهـا في المحـل الثـاني

فاذا جاء في موضع أو موضعين بلفظ استوى حملا على معنى استولى لأنه المألوف المعهود وأما أن يأتي لفظ قد أطرد استعماله في جميع موارده على معنى واحد فيدعى صرفه في الجميع إلى معنى لم يعهد استعماله ففي غاية الفساد ولم يقصده ويفعله من قصد البيان ، ا هـ . (من كلام ابن القيم بتصرف) .

أنواع الاستواء :

وأنواع الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم اثنان مطلق ما لم يقيد بحرف كقوله تعالى (ولما بلغ أشده واستوى) ومعناه كمل وتم .

وأما المقيد فثلاثة أقسام مقيد بالى كقوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) ومعناه العلو والارتفاع باجماع السلف ، والثاني مقيد بعلى (كقوله لتستووا على ظهوره) وقوله (واستوت على الجودى) وقوله تعالى (فاستوى على سوقه) فهذا معناه العلو والارتفاع والاعتدال باجماع أهل اللغة ، والثالث المقرون بواو المعية كقولهم : استوى الماء والخشبة ومعناه ساواها ، فهذه معاني الاستواء المعقولة .

الآية الأولى من أدلة الاستواء : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) لما بسط

القول فيما سلف في أمر المعاد وبين فئات الناس في ذلك اليوم وما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين وبيان مقدوراته و عظيم مصنوعاته لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لا معبود سواه فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوي والسفلي أي السموات والأرض وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة : هو يوم الأحد والاثنين خلق فيهما الأرض ، قال تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) والثلاثاء والأربعاء دحاها فيهما بأن جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها قال تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) ، والخميس والجمعة خلق فيهما السموات قال تعالى (فقضاهن سبع سموات في يومين) فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام مع أنه قادر على خلقهما في لحظة ، ولكنه مع أنه على كل شيء قدير كما قال تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فهو حكيم رفيق يحب الرفق ، فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقهما في هذه المدة المقدرة ليعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور ، والمتبادر أن الأيام الستة كهذه وقوله (ثم استوى على العرش) أي استواء يليق بجلاله وعظمته لا نكيفه ولا نمثله ولا يعلم كيف هو إلا هو ، وقد روي عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل (الرحمن على العرش استوى) قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر ، وقد أسنده

مسلم بن الحجاج عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الإمام مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، ومعنى ذلك أي أن الاستواء في لغة العرب معلوم والكيف مجهول ، أي كيفية استوائه جل وعلا لا يعلمها إلا هو والإيمان بالاستواء واجب لتكاثر الأدلة في إثباته والسؤال عن الكيفية بدعة إذ لا يعلم كيفية استوائه إلا هو ، فان الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات فاثباتنا للصفات إثبات بلا تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل . إثبات وجود .

وأما العرش في اللغة فهو السرير قال تعالى عن يوسف (ورفع أبويه على العرش) وقال عن ملكة سبأ (ولها عرش عظيم) وأما عرش الرحمن الذي استوى عليه فهو عرش عظيم كما قال تعالى (وهو رب العرش العظيم) وهو محيط بالمخلوقات وهو أعلاها وأكبرها كما في حديث أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » . وروى أبو داود وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) ورواه ابن أبي حاتم ولفظه تخفق الطير سبعمائة عام .

قال الشيخ رحمه الله : معنى الاستواء معلوم وهو التأويل والتفسير الذي يعرفه الراسخون في العلم والكيفية هي التأويل المجهول لبني آدم وغيرهم لا يعلمه إلا الله وكذلك ما وعدنا به في الجنة تعلم العباد تفسير ما أخبر الله به ، وأما كيفيته فقد قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) فاذا كان هذا في المخلوقات فالخلق أعظم فان مباينة الله لخلقه وعظمته وكبريائه وفضله أعظم وأكثر مما بين مخلوق ومخلوق . وقال أبو حنيفة وقد سئل عمن قالا لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض قد كفر لأن الله يقول (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سمواته قيل له فان قال إنه على العرش ولكنه يقول لا أدري العرش في السماء أم في الأرض قال هو كافر لأنه أنكر أن يكون في السماء لأنه تعالى في أعلى عليين وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وقال إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر .

قال ابن القيم رحمه الله

وكذلك النعمـــان قال وبعده ... يعقوب والألفاظ للنعمـــان
من لم يقر بأنــــه سبحـــانه ... فوق السماء وفوق كل مكان
ويقر أن الله فوق العـــرش لا ... يخفى عليه هواجس الأذهان
فهو الذي لا شك في تكفـــيره ... لله درك من إمـــام زمـــان
هذا الذي في الفقه الاكبر عندهم ... وله شروح عدة لبيـــان

وقال : والله تعالى لا يعلم عباده الحقائق التي أخبر عنها من

صفاته وصفات اليوم الآخر ولا يعلمون حقائق ما أراد الله بخلقه وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها .

ففي الآية الأولى :

١ - إثبات الربوبية .

٢ - إثبات قدرة الله .

٣ - إثبات الألوهية .

٤ - إثبات صفة الخلق لله .

٥ - دليل على استواء الله على عرشه .

٦ - إثبات علو الله على خلقه .

٧ - الرد على الفلاسفة القائلين بقدم المخلوقات .

٨ - إثبات أسماء الله وصفاته .

٩ - إثبات العرش .

١٠ - إثبات الأفعال الاختيارية المتعدية واللازمة .

١١ - أن الاستواء صفة فعل .

١٢ - أن الاستواء خاص بالعرش .

١٣ - أن الاستواء على العرش بعد خلق السموات والأرض .

١٤ ـ تحديد الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض .

١٥ ـ الإرشاد إلى التأني في الأمور والصبر والرفق لأن الله قادر على خلقها في لحظة قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

١٦ ـ الرد على الجهمية ومن نحا نحوهم من المؤولين للاستواء بالاستيلاء .

١٧ ـ أن هذه المخلوقات دليل على وجود خالقها ومدبرها .

١٨ ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل .

١٩ ـ وفيها إضافة الفعل والخلق إليه سبحانه على جهة الحقيقة لأنها الأصل وقد رد ابن القيم رحمه الله على من زعم أن خلقه وفعله مجاز من وجوه عديدة .

٢٠ ـ دليل على عظمة الله خالق هذه المخلوقات العظيمة .

٢١ ـ دليل على أولية الله وقدمه .

٢٢ ـ دليل على حكمة الله التي بها وضع هذه المخلوقات في مواضعها وأحكمها وجعلها متقنة في نظام معتدل متزن ، ذلك تقدير العزيز العليم .

٢٣ ـ رد على من قال أن السموات أفضية منسابة يؤيد الرد عليه قوله تعالى (والسماء ذات الحبك) وقوله (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) وإخباره صلى الله عليه وسلم

أنه عرج به إلى السماء فلم يدخل سماء منها هو وجبريل إلا بعد الاستفتاح وفتح الباب لهما .

الآية الثانية : قال في سورة يونس (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) هذه الآية مثل آية الأعراف حرفاً بحرف لفظها كلفظها فمعناها وما يؤخذ منها كالأولى سواء بالضبط فنكتفي بما ذكرنا عن الأولى صفحة سابقة وفيها من الرد على من قال أن السموات أفضية منسابة ما لا يخفى على ذوي النهى .

الآية الثالثة : آية سورة الرعد وهي قوله (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) في هذه باذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل باذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء .

وقوله : (بغير عمد ترونها) روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا لها عمد ولكن لا ترى ، وقال إياس بن معاوية السماء على الأرض مثل القبة ، بمعنى بلا عمد ، وكذا روي عن قتادة ، وهو اللائق بالسياق من قوله (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه) فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك أي مرفوعة بغير عمد

كما ترونها وهذا هو الأكمل في القدرة وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه ، كما ورد في الحديث ، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه :

وأنت الذي من فضل مَنّ ورحمة بعثت إلى موسى رسولاً مناديــــاً
فقلت له فاذهب وهــارون فادعــوا إلى الله فرعون الذي كان طاغيــا
وقولا له هل أنــت سويت هــذه بلا وتد حتى استقلت كما هيــا
وقولا له آأنت رفعــــت هــذه بلا عمد أرفق بذاتك بانيــــا
وقولا له آأنت سويت وسطهــا منيراً إذا ما جنك الليل هاديــا
وقولا له من يرسل الشمس غــدوة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الـثرى فيصبح منه العشب يهتز رابيــــا
يخــرج منه حــبه في رؤوســه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

ففي الآية :

١ ـ إثبات الألوهية .

٢ ـ إثبات قدرة الله التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء .

٣ ـ إثبات صفة الاستواء .

٤ ـ إثبات صفة العلو لله .

٥ ـ دليل على إثبات العرش ، والعرش لغة هو السرير الذي للملك كما قال تعالى عن بلقيس (ولها عرش عظيم)

فالعرش سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات قال البيهقي اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم خلقه وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق بيتاً في الأرض وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله .

٦ ـ في الآية دليل على استواء الله على العرش بعد رفع السموات .

٧ ـ في الآية رد على الجهمية ومن سلك سبيلهم ممن فسر الاستواء بالاستيلاء لأنه تحريف وزيادة في كتاب الله وحمل له على غير ما يحتمل .

٨ ـ الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود خالقها ومدبرها وأنه وحده المدبر والمسخر لهذه المحلوقات وهي مستلزمة للعلم بصفات كماله وتضمن ذلك بأنه المعبود الحق وأن عبادة غيره باطلة إذ ما سواه عاجز والعاجز لا يصلح للالهية .

٩ ـ الرد على من نفى وجود السماء وقال إنما هو فضاء يؤيد ذلك ما ذكر حول الآية الأولى .

١٠ ـ اثبات علو الله على خلقه .

١١ ـ ارشاد الخلق الى التفكر والتدبر في مخلوقات الله .

الآية الرابعة آية سورة طه :

١ ـ فيها دلالة واضحة على إثبات استواء الله على عرشه .

٢ - فيها رد على من زعم أن ذلك مجاز عن القهر أو الاستيلاء .

٣ - دليل على إثبات العرش وأنه مخلوق .

٤ - الرد على من زعم أن معنى العرش الملك .

٥ - إثبات قدرة الله التي لا يعجزها شيء .

٦ - إثبات صفة الرحمة لله جل وعلا وفي الآية الحث على محبة الله الذي شملت رحمته كل شيء .

الآية الخامسة : آية سورة الفرقان وفيها :

١ - إثبات صفة الرحمة .

٢ - إثبات صفة الاستواء .

٣ - إثبات قدرة الله .

٤ - إثبات العرش .

٥ - الرد على من زعم أن معنى العرش الملك .

٦ - دليل على علو الله على خلقه وأدلة الاستواء كلها ادلة على علو الله على خلقه

الآية السادسة : آية ألم السجدة : وهي مثل آية الاعراف وآية يونس إلا أنهما افتتحا بقوله تعالى (إن ربكم) وهذه

وقف لله تعالى

افتتحت بلفظ الجلالة فالمعنى وما يؤخذ منها متقارب إلا أنهما فيهما إثبات الربوبية .

الآية السابعة : آية سورة الحديد : وهي مثل آية الأعراف ويونس والسجدة ، إلا أن لفظ الجلالة ليس فيها ، وقد ذكرها ابن عدوان في نظمه لهذه العقيدة مرتبة فقال :

وذكر استواء الرب جل جلالـــه	على العرش في سبع المواضع فاعدد
ففي سورة الأعراف ثمة يـــونس	وفي الرعد مع طه فللعد أكـــد
وفي سورة الفرقـــان ثمة سجـــدة	كذا في الحديد افهمه فهم مؤيـــد

علو الله على خلقه

(وقوله تعالى : (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي) ، (بل رفعه الله إليه) ، (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ، (يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً) ، (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) .

الآية الأولى : للعلماء فيها قولان : أحدهما أنه من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلي ومتوفيك أي إني رافعك الآن ومميتك بعد النزول من السماء في الحين الذي قدر لك وعلى هذا فهو قد رفع حياً بجسمه وروحه ، وأنه سينزل آخر

الزمان حكماً عدلا : يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) والضمير في قوله (قبل موته) يعود إلى عيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض ، ونزوله ثابت وهو أحد أشراط الساعة الكبار ، ففي الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلا مقسطاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » .

قال ابن القيم :

وكذاك رفع الروح عيسى المرتضى	حقاً كما قد جاء في القرآن
وكذا دعا المضطر أيضاً صاعد	أبداً إليه عند كل أوان
وكذا دعا المظلوم أيضاً صاعد	حقاً إليه قاطع الأكوان

وقال شيخ الإسلام : والصواب الذي عليه المحققون أن عيسى لم يمت بحيث فارقت روحه بدنه بل هو حي مع كونه توفي ، انتهى .

والقول الثاني أن الآية على ظاهرها وأن التوفي هو الإماتة العادية التي كتبها الله على الخلق .

ففي الآية :

١ - إثبات صفة الكلام لله .

وقف لله تعالى

٢ ـ إثبات علو الله على خلقه

٣ ـ إثبات قدرة الله .

٤ ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي .

٥ ـ أن عيسى رفعه الله إلى السماء وقبضه إليه .

٦ ـ في الآية رد على اليهود الذين تنقصوا عيسى وجعلوه ابن زنا .

٧ ـ الرد على النصارى الذين غلوا فيه ورفعوه فوق منزلته إلى مقام الربوبية ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً

الآية الثانية :

١ ـ فيها دليل على علو الله على خلقه

٢ ـ إثبات قدرة الله .

٣ ـ فيها رد على اليهود والنصارى .

٤ ـ فيها إثبات صفة الكلام لله والرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي .

٥ ـ فضل عيسى حيث رفعه الله إليه .

٦ ـ عناية الله برسله وأوليائه ولطفه بهم .

الآية الثالثة : قوله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) : أي أنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتوحيد

وقف لله تعالى

والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والعمل الصالح يرفعه : صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله وأثاب عليه ورفعه الله إليه كالكلم الطيب وقيل العمل الصالح يرفع الكلم الطيب فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي ترفع كلمة الطيب فاذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلى الله . وعن الحسن لا يقبل الله قولاً إلا بعمل فمن قال وأحسن قبل الله منه .

قال ابن القيم :

هذا وخامسها صعود كلامنا	بالطيبات إليه والإحسان
وكذا صعود تصدق من طيب	أيضاً إليه عند كل أوان
وكذا صعود الباقيات الصالحا	ت إليه من أعمال ذي الإيمان
وكذا عروج ملائك قد وكلوا	منا بأعمال وهم بدلان

والخلاصة : أن القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل ، قال تعالى (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ، وقال بعضهم في هذا المعنى :

لا ترض من رجل حلاوة قوله	حتى يُزَيِّنَ ما يقول فِعَالُ
وإذا وَزَنْتَ فِعَالَه بِمقَالِه	فتَوازَنَا فإخاءُ ذاكَ جَمَالُ

ففي الآية :

١ - إثبات لله على خلقه

وقف لله تعالى

٢ ـ صعود أقوال العباد وأعمالهم .

٣ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينكر صفة العلو .

٤ ـ ان الله يقبل طيب الكلام ويرفعه إليه .

٥ ـ ان الاخلاص شرط لقبول العمل . قال ابن القيم : العمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة .

٦ ـ ٦ ـ إثبات قدرة الله .

٧ ـ أن الأعمال محفوظة ومحصاة على العباد .

٨ ـ الحث على الأعمال الصالحة .

٩ ـ الحث على الاستكثار من الكلم الطيب .

١٠ ـ الحث على الإخلاص .

الآية الرابعة : قوله (يا هامان ابن لي صرحاً) الآية .

مفردات الآية : فرعون : ملك القبط في الديار المصرية ، وفرعون لقب لكل من ملك مصر . هامان : وزير فرعون ، الصرح : القصر الشامخ المنيف الأسباب : واحدها سبب ، وهو ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو سلم أو طريق ، والمراد هنا الأبواب . قال زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـه ... ولو رام أسباب السماء بسلـم

فأطلع : فانظر إليه نظر مشرف عليه بالنصب على جواب الترجي عند الكوفيين فانهم يجوزون النصب بعد الفاء في جواب

الترجي كالتنمي ، ومنع ذلك البصريون وخرجوا النصب هنا على أنه في جواب الأمر وهو ابن ، كما في قوله :

يا ناق سيري عنقـــاً فسيحـــاً   إلى سليمـــان فنستريحـــا

وجوزوا أن يكون بالعطف على خبر لعلي بتوهم أن فيه لأنه كثيراً ما جاء مقروناً بها أو على الأسباب على حد :

« ولبس عباءة وتقر عيني »

المعنى : بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف تكبر فرعون وجبروته أبان هنا أنه بلغ من عتوه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى أن أمر وزيره هامان أن يبني له قصراً شامخاً منيفاً من الآجر ليصعد به إلى السماء ليطلع إلى إله موسى ثم قال وإني لأظنه كاذباً ، أي فيما ادعاه من أن له إلهاً غيري وأنه أرسله ، وأراد بذلك التمويه والتلبيس على قومه توصلا بذلك إلى بقائهم على الكفر .

ففي الآية :

١ - دليل على علو الله على خلقه ووجه الدلالة من الآية الكريمة هو أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة ربه بأنه فوق السماء فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح ورام الاطلاع عليه في أقطار الأرض .

٢ - الرد على الجهمية ونحوهم من نفاة العلو مع أن علو الله

وقف لله تعالى

سبحانه مما تواطأ عليه العقل والنقل وفطر الله عليه الخلق فان الصبيان إذا تَضَرَّعُوا إلى الله رَفَعُوا وُجُوهَهُمْ وأيديهم إلى السماء

٣ ـ دليل حماية الله لرسله .

٤ ـ أن نواصي الخلق بيد الله جل وعلا .

٥ ـ تمكن العتو والتمرد في فرعون لعنه الله .

٦ ـ شجاعة موسى عليه السلام حيث أبلغ هذا العاتي الطاغي .

٧ ـ ثقة موسى بربه وقوة توكله عليه .

٨ ـ أن الله يقيم حجة على خلقه يؤيد ذلك قوله عز من قائل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

٩ ـ الرد على من أنكر رسالة موسى .

١٠ ـ ان فرعون مع تعمقه بالكفر لم يكن ينكر وجود السموات .

١١ ـ ان التلبيس والتمويه سجية متقدمة لاسيما عند الطغاة .

١٢ ـ في الآية دليل على أن فرعون كان بمكان عظيم من الجهل وبمنزلة سافلة من فهم الحقائق .

١٣ ـ أن القصور الشامخة كانت في قديم الزمان .

الآيتان الخامسة والسادسة : المفردات : يخسف بكم : يغيبكم فيها ، تمور : تضطرب ، حاصباً : ريحاً شديدة فيها

حصباء . نذير : أي إنذاري وتخويفي والأمن ضد الخوف ، إي أأمنتم عقاب من في السماء وهو الله إن عصيتموه وهذا عند أهل السنة على وجهين إما أن يراد بالسماء العلو وإما أن تكون في بمعنى على كما في قوله (فامشوا في مناكبها) وقوله (ولأصلبنكم في جذوع النخل) لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

(ولأصلبنكم في جذوع النخل) لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

والمعنى : بعد أن ذكر جل ذكره ما أعد للكافرين وما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والأجر الكبير ، ثم ذكرهم بنعمه كصلاحية الأرض للمعيشة ، ثم حذرهم عاقبة التمادي في الباطل وأن من الحكمة أن لا يأمنوا زوال النعم ، فان الله قادر على سلبهم إياها فبعد أن تكون ذلولا ترجف وتضطرب وينالهم خسف وهلاك ، حتى تبتلعهم ، كما خسفها بقارون ، ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على علو الله على خلقه ، وقد تواترت في ذلك الأدلة واتفقت على إثبات — العلو له سبحانه على خلقه

فمن أدلة علو الله مع ما سبق التصريح بالفوقية مقروناً بأداة من المعية للفوقية بالذات كقوله (يخافون ربهم من فوقهم) .

الأول أدلة استواء الله على عرشه كلها تدل على علو الله بذاته على خلقه .

الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة كقوله (وهو القاهر فوق عباده) .

قال ابن القيم :

هذا وثالثها صريح الفوق مصحوباً بمن وبدونها نوعان .
الثالث : التصريح بالعروج نحو (تعرج الملائكة والروح إليه) .

الرابع : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وشرفاً وقدراً كقوله تعالى (وهو العلي العظيم) ، (وهو العلي الكبير) ، (سبح اسم ربك الأعلى) .

الخامس : التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، (تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته) ، (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) .

السادس : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله (إن الذين عند ربك) ، (وله من في السموات والأرض ومن عنده) ففرق بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكة وعبيد خصوصاً وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه أنه عنده فوق العرش .

السابع : التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصاً

بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات مصاحباً في الأكثر لأداة ثم الدالة على الترتيب والمهلة .

الثامن : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى كقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً » .

التاسع : التصريح بنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة .

العاشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم قال لهم إنكم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون قالوا نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلا اللهم أشهد .

الحادي عشر : التصريح بلفظ الأين كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه أين الله في غير موضع .

الثاني عشر : شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال إن ربه في السماء بالإيمان .

الثالث عشر : إخباره صلى الله عليه وسلم أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة .

الرابع عشر : النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وإخباره صلى الله عليه وسلم أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فلا يرونه إلا من فوقهم ، وعلوه سبحانه كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة . أما ثبوته بالعقل فمن وجوه : أحدها العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر .

الثاني : أنه لما خلق العالم فاما أن يكون خلقهم في ذاته او خارجاً عن ذاته والأول باطل بالاتفاق لأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . والثاني يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته فيكون منفصلا فتعيبت المباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول .

الثالث : كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية لأنه غير معقول فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة وأما ثبوته بالفطرة فان الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله ، قال بعضهم :

وقد فطر الله العظيم عباده ... على أنه من فوقهم فلهم سلو
لهذا تراهم رافعين أكفهم ... إذا اجتهدوا عند الدعاء إلى العلوا

وقف لله تعالى

أقروا بهذا الاعتقاد جبلة ودانوا به ما لم يصدوا ويخذلوا

وقال ابن القيم مشيراً إلى بعض أدلة العلو :

وإليه يصعد كل قول طيب وإليه يرفع سعي ذي الشكران
والروح والأملاك منه تنزلت وإليه تعرج عند كل أوان
وإليه أيدي السائلين توجهت نحو العلو بفطرة الرحمن
وإليه قد عرج الرسول فقدرت من قربه من ربه قوسان
وإليه قد رفع المسيح حقيقة ولسوف ينزل كي يرى بعيان
وإليه يصعد روح كل مصدق عند الممات فتنثني بأمان
وإليه آمال العباد توجهت نحو العلا بلا تواصي اثنان
بل فطرة الله التي لم يفطروا إلا عليها الخلق والثقلان
ونظير هذا أنهم فطروا على إقرارهم لا شك بالديان

قال شيخ الإسلام : إذا عرفت تنزيه الرب عن صفة النقص فلا يوصف بالسفول ولا علو شيء عليه بوجه من الوجوه بل هو العلي الأعلى الذي لا يكون إلا أعلى وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء وأنه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من الأفعال اللازمة والمتعدية لا النزول ولا الاستواء ولا غير ذلك فيجب مع ذلك إثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله والأدلة العقلية توافق ذلك ولا تناقضه ولكن السمع والعقل يناقضان البدع المخالفة للكتاب والسنة والسلف من الصحابة والتابعين يقرون أفعاله كالاستواء والنزول وغيرهما على ما هي عليه .

وقال : فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له كما أن عظمته وكبرياءه كذلك فأما الاستواء فهو فعل يفعله تعالى بمشيئته وقدرته ، ولهذا قال (ثم استوى على العرش) ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية والعلو من الصفات السمعية العقلية اهـ .

وقد نفت الجهمية المعطلة علو الله على خلقه وقالوا إنه في كل مكان بذاته وأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا محايثه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وتأولوا فوقيته بقولهم إن هذا مثل قول الناس في الذهب وأنه فوق الفضة أي فوقية القدر والأمير فوق الوزير وهذا مما تنفر منه العقول السليمة .

قال ابن القيم رحمه الله :

وأصغ لفائدة عظيم قدرها	تهديك للتحقيق طول زمان
إن الكلام إذا أتى بسياقة	يبدي المراد لمن له أذنان
أضحى كنص قاطع لا يقبل التأو	يل يعرف ذا أولو الأذهان
فسياقة الألفاظ مثل شواهد الـ	أحوال إنهما لنا صنوان
إحداهما للعين مشهود بها	لكن ذاك لمسمع الإنسان
فاذا أتى التأويل بعد سياقة	تبدى المراد أتى على استهجان
وإذا أتى الكتمان بعد شواهد الـ	أحوال كان كأقبح الكتمان
فتأمل الألفاظ وانظر ما الذي	سيقت له إن كنت ذا عرفان
والفوق وصف ثابت بالذات من	كل الوجوه لفاطر الأكوان

لكن نفاة الفـوق ما وفـوا بـه   جحدوا كمال الفوق للديـان
بل فسروه بـأن قدر الله أعـ   لى لا بفوق الذات للرحمن
قالوا وهذا مثل قول النـاس في   ذهب يرى من خالص العقيـان
هو فوق جنس الفضة البيضـاء لا   بالذات بل في مقتضى الأثمـان
والفـوق أنـواع ثـلاث كلهـا   لله ثابتـة بلا نكـران
هذا الذي قالـوا وفوق القهـر   والفوقية العليـا على الأكـوان

المعية العامة والخاصة

(وقوله : (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) وقوله : (لا تحزن إن الله معنا) ، (إنني معكما أسمع وأرى) (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، (واصبروا إن الله مع الصابرين) (كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين).

في هذه الآيات إثبات معيته لخلقه والمعية الواردة في الكتاب والسنة نوعان : معية عامة ومن مقتضاها العلم والإحاطة والاطلاع . قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره في آية المجادلة :

ابتدأها بالعلم وختمها به حيث قال (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) ثم قال آخرها (إن الله بكل شيء عليم) .

والنوع الثاني من المعية : المعية الخاصة ومن مقتضاها الحفظ والنصر والتأييد والتوفيق . والحماية عن المهالك .

الآية الأولى : يخبر تعالى عن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن وتقدم الكلام على أول هذه الآية في أدلة صفة العلم وقوله (وهو معكم الخ ..) أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، فهذه معية العلم والاطلاع والإحاطة .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات صفة الخلق .

٢ ـ إثبات الأفعال الاختيارية .

٣ ـ إثبات السموات .

٤ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى .

٥ ـ إثبات ـ العلو لله على خلقه .

٦ ـ الرد على من أنكر صفة العلو أو صفة الخلق .

٧ ـ المعية العامة .

٨ ـ تحديد الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض .

٩ ـ إرشاد الخلق إلى التأني في الأمور .

١٠ ـ إثبات القوة .

١١ ـ إثبات البصر .

١٢ ـ إثبات سعة علمه سبحانه .

١٣ ـ الرد على الجهمية ومن نحا نحوهم من المؤولين للاستواء بالاستيلاء .

١٤ ـ أن هذه المخلوقات دليل على وجود خالقها ومدبرها .

١٥ ـ إثبات قدرة الله .

١٦ ـ دليل على سعة علم الله .

١٧ ـ إثبات صفة الكلام .

١٨ ـ أن الله غني عن العرش وغيره وإنما خلقه لحكمة .

١٩ ـ إثبات صفة الاستواء على العرش على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢٠ ـ إن استواء الله على عرشه بعد خلق السموات والأرض .

٢١ ـ في الآية رد على من أول الاستواء بالاستيلاء ووجه الدلالة على جميع الخلق متقدم واستواؤه على العرش بعد خلق السموات والأرض .

٢٢ ـ في الآية ما يدع الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة من الله .

٢٣ ـ في الآية ما يبعث على الحذر من المعاصي والمأخذ من قوله وهو معكم ... الخ .

٢٤ ـ دليل على سعة رحمة الله وحلمه على الكافر والعاصي حيث لم يعاجلهم في العقوبة وهو الذي خلقهم ورزقهم وجعل لهم أرضه قراراً التي عصوه فيها .

٢٥ ـ أن العباد لم يقدروا الله حق قدره وإلا لما عصوه واستعانوا بنعمه على المعصية .

٢٦ ـ دليل على أن العباد لم يهملوا ويتركوا سدى .

٢٧ ـ أن الله يعلم كل ما دخل في الأرض من مياه وكنوز ووحوش الخ .

٢٨ ـ أن الله يعلم ما يخرج من الأرض من نبات ومعادن ومياه وغير ذلك .

٢٩ ـ أن الله يعلم ما ينزل من السماء من ملائكة وأرزاق ومصائب وحر وبرد الخ .

٣٠ ـ أن الله يعلم ما يعرج في السماء من حفظة وأعمال وغير ذلك مما يعلمه الله .

٣١ ـ في الآية رد على القدرية المنكرين لعلم الله وكل من سلك سبيلهم .

٣٢ - في الآية رد على من قال إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات .

٣٣ - في الآية ما يدل على عظمة الله لأن عظمة المخلوق دالة على عظمة الخالق .

٣٤ - فيالآية رد على من أنكر السموات وقال ما فيه إلا فضاء منسابة .

٣٥ - دليل على إحاطة الله بالخلق القريب منهم والبعيد والدقيق والجليل .

٣٦ - في الآية دليل على البعث والنشور والمأخذ من قوله بما تعملون بصير .

٣٧ - في الآية دليل على الحشر والجزاء على الأعمال والجنة والنار .

٣٨ - لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى أنهم غير مهملين .

٤٩ - أن القريب والبعيد في علم الله على السواء .

٤٠ - دليل على أن الله غني عن العالمين لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

٤١ - دليل على إثبات العرش وأنه مخلوق لله جل وعلا .

٤٢ - الحث على مراقبة الله .

٤٢ - أن تقدير الأيام متقدم على خلق السموات والأرض .

٤٤ - أن سمع الله جلا وعلا لا تحول دونه الاستاروالحجب .

الآية الثانية : النجوى : التنــاجي والمسارة ، أدنى : أقل ، فينبئهم : يخبرهم يقول تعالى : «ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض» ، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون ، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منهم إلا وهو عليم بنجواهم وعليم بزمانها ومكانها ، لا يخفى عليه شيء من أمرها ثم ينبئهم أي يخبرهم أي المتناجين بما عملوا من خير وشر ، وقال ابن القيم رحمه الله : وتأمل كيف جعل نفسه رابع ثلاثة وسادس الخمسة إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل وقال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) فانهم ساووا بينهم وبين الاثنين في الألوهية . والعرب تقول رابع أربعة وخامس خمسة وثالث ثلاثة ، لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف كمال تعالى : (ثاني اثنين إذ هما في الغار) رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه فان كان من غير جنسه قالوا رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة .

ويفهم من الآية :

١ ـ أنها دليل على المعية العامة .

٢ ـ إثبات صفة العلم .

٣ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال ، والبعث .

٤ ـ الحث على مراقبة الله .

٥ ـ الرد على من قال ان القرآن من كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

٦ ـ إثبات صفة الكلام .

٧ ـ الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات ، أو أولها بتأويل باطل .

٨ ـ الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي .

٩ ـ إثبات الألوهية .

١٠ ـ شمول علمه وإحاطته بكل شيء .

الآية الثالثة : وهي من أدلة المعية الخاصة ففيها حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وهما في الغار ، وقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا في طلبه عليه السلام فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحزن إن الله معنا » .

ففي الآية :

١ ـ دليل على المعية الخاصة .

٢ ـ الحث على التوكل على الله .

٣ ـ ما كان النبي صلى الله عليه وسلم عليه من ثقته بربه .

٤ ـ إثبات الألوهية لله .

٥ ـ مزية لأبي بكر رضي الله عنه ، ولذلك قال العلماء من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فهو كافر لإنكاره كلام الله .

الآيات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة : هذه الآيات كلها من أدلة المعية الخاصة .

في الآية الرابعة : خطاب لموسى وهارون أن لا يخافا بطش فرعون بهما ومعاجلته لهما بالعقوبة قبل اتمام الدعوة وإظهار المعجزة ، وقوله : (إنني معكما) تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما ، وقوله : (أسمع وأرى) أي أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من أمركم شيء ، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ، ولا يبطش إلا باذني وإرادتي ، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي . فلا تهتما .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات المعية الخاصة .

٢ ـ الحث على الاعتماد على الله .

٣ ـ إثبات السمع .

٤ ـ إثبات البصر .

٥ ـ إثبات قدرة الله تعالى .

الآية الخامسة : تقدم الكلام على تعريف التقوى والإحسان في صفة المحبة وأما ما يؤخذ منها :

١ - إثبات الألوهية .

٢ - معيته الخاصة للمتقين والمحسنين .

٣ - أن التقوى والإحسان سبب لحفظ الله ونصره وتأييده للعبد القائم بهما .

٤ - الحث على التقوى والإحسان .

الآية السادسة : الصبر : حبس النفس على ما تكره تقرباً إلى الله تعالى ، وهو ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معاصي الله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة .

قال الشيخ رحمه الله : والله تعالى مدح الصبر والشكر في كتابه فقال (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) فالصبر والشكر على ما يقدره الرب بعبده من السراء والضراء ، من النعم والمصائب التي يبلوه بها والسيئات فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر والنعم بالشكر ومن النعم ما ييسره له من أفعال الخير ومنها ما هي خارجة عن أفعاله فيشهد القدر عند فعله الطاعات وعند إنعام الله عليه فيشكره ويشهده عند المصاب فيصبر ، وأما عند الذنوب فيكون مستغفراً تائباً وأما من عكس شهد القدر عند ذنوبه وشهد فعله عند الحسنات فهو من أعظم المجرمين ومن شهد فعله فهو قدري ومن شهد القدر فيهما ولم يعترف بالذنب ويستغفر فهو من جنس المشركين وأما المؤمن فيقول أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي

وقال ابن القيم أساس كل خير ان تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك وأن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات المعية الخاصة .

٢ ـ الحث على الصبر وإثبات الألوهية .

٣ ـ أن الصبر سبب لحفظ الله ونصره وتأييده لمن صبر ، ووثق بالله وتوكل عليه .

الآية السابعة : الفئة : الجماعة : باذن الله : أي بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته ، ويفهم من الآية :

١ ـ المعية الخاصة .

٢ ـ الحث على الصبر المؤدي إلى التوكل والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث ، والرجوع إليه إذا فدح الخطب وعظم الأمر ، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له .

٣ ـ إثبات قضاء الله وقدره وإرادته .

٤ ـ أن النصر من عند الله لا عن كثرة عدد ولا عدد ، وإنما تلك أسباب .

٥ ـ أن الصبر من أعظم الأسباب في تحصيل المقصود .

٦ ـ إثبات الألوهية .

الفروق بين المعيتين

١ ـ العامة من مقتضاها العلم والإحاطة والإطلاع على جميع الخلق .

٢ ـ المعية العامة من الصفات الذاتية ، وأما الخاصة فمن الصفات الفعلية .

٣ ـ العامة تكون في سياق التخويف والمحاسبة على الأعمال ، والحث على المراقبة .

٤ ـ الخاصة من مقتضاها الحفظ والعناية والنصرة والتوفيق والتسديد ، والحماية من المهالك واللطف بأنبيائه ورسله وأوليائه .

٥ ـ أن الخاصة مرتبة على الاتصاف بالأوصاف الجميلة والأخلاق الحميدة .

إثبات صفة الكلام لله :

(وقوله : (ومن أصدق من الله قيلا) ، (ومن أصدق من الله حديثاً) ، (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم) ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) ، (وكلم الله موسى تكليما) ، (منهم من كلم الله) ، (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) ،

(وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) ، (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) ، (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) ، (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) ، (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) ، (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) ، (يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) ، (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) ، (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) ، (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) ، (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) ، (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) ، (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) ، (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) .

في هذه الآيات الكريمات إثبات صفة الكلام لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته وحقيقة الإيمان بصفة الكلام لله أنه الاعتقاد الجازم بأن الله متكلم بكلام قديم النوع ، حادث الآحاد ، وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء ، وأنه يتكلم بكلام يسمعه من شاء من خلقه سمعه منه موسى والأبوان بلا واسطة ، ومن أذن له من ملائكته

ورسله ، وأنه يكلم المؤمنين ويكلمونه في الآخرة ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة .

وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أنه سبحانه يتكلم بمشيئته ، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته وهو صفة ذات وفعل .

وقد دلت النصوص على أن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلام الله حقاً لا تأليف ملك ولا بشر ، وأنه سبحانه الذي قال بنفسه (المص) و (حمعسق) و (كهيعص) .

الآيتان الأولى والثانية : من : لفظة استفهام ، ومعناه ، لا أحد أصدق من الله في حديثه ولا أحد أصدق من الله قولا ولا خبراً وهذا إخبار منه تعالى بأن حديثه وإخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق ، بل هي أعلاها ، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق .

ففي الآيتين :

إثبات صفة الكلام .

٢ - أنها صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته .

٣ - الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي .

٤ - إثبات الألوهية .

٥ ـ أنه لا أحد أصدق من الله قولا ولا خبراً .

الآية الثالثة : هذا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله (يا عيسى . الخ) .

وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد ، وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى بن مريم عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الظالمين .

ففي الآية :

١ ـ إثبات القول لله سبحانه وأنه يقول متى شاء إذا شاء وأن الكلام والقول المضاف إلى الله سبحانه قديم النوع حادث الآحاد ، وفيه دليل على أنه سبحانه يتكلم كما يليق بجلاله.

٢ ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي إذ المعنى المجرد لا يسمع .

الآية الرابعة : قد تطلق الكلمة على الجملة والطائفة من القول في غرض واحد فاذا كتب أحد أو خطب في موضوع ما ، قيل كتب أو قال كلمة ، وكانوا يسمون القصيدة كلمة ، وقالوا كلمة التوحيد يعنون (لا إله إلا الله) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد » : يريد قوله :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

والمعنى : وتمت كلمة ربك ، صدقاً فيما قال ، وعدلا فيما حكم ، فهو صدقاً في الإخبار وعدلا في الطلب فكل ما أخبر به فهو حق لا مرية فيه ولا شك وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه وكل ما نهى عنه فباطل فانه لا ينهى إلا عن مفسدة كما قال (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) والمراد بكلمة ربك : أمره ونهيه ووعده ووعيده فما وعد به رسوله من النصر وما أوعد به المستهزئين من الخذلان والهلاك ، تم كما تم في الرسل وأعدائهم من قبل كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم لغالبون) فتمامها صدقاً هو حصولها على الوجه الذي أخبر به ، وتمامها عدلا باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون ، وللمؤمنين بما يستحقون أيضاً ، وقد يزادون على ذلك فضلا من الله ورحمة وقوله (لا مبدل لكلماته) قال ابن عباس : لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ولا خلف لوعده .

والخلاصة : أنه لا يستطيع أحد من الخلق أن يزيل كلمات الله بكلمات أخرى تخالفها أو تمنع صدقها ، ولا يستطيع أن يصرفها عما أراده الله بها قال تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه) وقال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال (لا

وكلمات الله نوعان :

النوع الأول : كونية قدرية وهي التي استعاذ بها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » وكقوله (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) .

قال ابن القيم :

والله ربي لم يــزل متكلمــاً	وكلامه المسمــوع بالآذان
صدقاً وعدلاً أحكمت كلماته	طلباً وإخباراً بلا نقصــان
ورسوله قد عاذ بالكلمات مــن	لدغ ومن عين ومن شيطــان
أيعاذ بالمخلوق حاشاه من الإ	شراك وهو معلم الإيمــان
بل عاذ بالكلمات وهي صفاتــه	سبحانه ليست من الأكــوان

النوع الثاني الكلمات الدينية وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي أمره ونهيه ، وقوله (وهو السميع العليم) أي السميع لأقوال العباد العليم بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازى كل عامل بعمله ، وتقدم الكلام على اسمه تعالى السميع واسمه العليم .

ففي الاية :

١ - إثبات الربوبية .

٢ - إثبات صفة الكلام لله .

٣ - أنه ليس لكلمات الله مبدل ولا معقب في الدنيا ولا في الآخرة .

٤ ـ أنه لا أحد أصدق ولا أعدل من الله عز وجل .

٥ ـ إثبات صفة السمع .

٦ ـ إثبات صفة البصر .

٧ ـ الحث على مراقبة الله .

٨ ـ حفظ كلمات الله وأحكامها .

٩ ـ الرد على من قال بالقوانين الوضعية .

١٠ ـ أنه لا أحسن من كلمات الله ولا أبلغ ولا أصدق منها .

١١ ـ الحث على العدل .

١٢ ـ النهي عن الكذب .

١٣ ـ النهي عن الجور .

١٤ ـ أن أحكام الله نافذة على كل الخلق .

١٥ ـ أن الله لا يخلف الميعاد .

١٦ ـ التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

١٧ ـ الوعيد لمن خالف الرسل .

١٨ ـ الرد على من أنكر صفة الكلام .

١٩ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما .

٢٠ ـ في الآية معجزة لأن الله أخبر أنه لا مبدل لكلماته ووقع كما أخبر .

٢١ ـ إثبات قدرة الله .

٢٢ ـ الرد على من أنكر صفة العلم كالجهمية والقدرية .

٢٣ ـ الرد على من أنكر صفة السمع كالجهمية ونحوهم .

الآيات الخامسة ، والسادسة ، والسابعة : خصص الله موسى عليه السلام بهذه الصفة تشريفاً له ولذا يقال له الكليم ، وهذا دليل على أن التكليم الذي حصل له عليه السلام أخص من مطلق الوحي ثم أكده بالمصدر الحقيقي رفعاً لما توهمه المعطلة من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام .

٢ ـ إثبات الألوهية .

٣ ـ إثبات الربوبية .

٤ ـ تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفاً له .

٥ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي .

٦ ـ دليل على أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء متى شاء كيف شاء .

٧ ـ دليل على أن نوع الكلام قديم فكلام الله سبحانه قديم

النوع حادث الآحاد وهو نوعان قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وكقوله (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وهذا النوع يقال له الكوني القدري .

والنوع الثاني : الديني الشرعي ، وذلك قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) الآية ، وكقوله (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) والشرعي هو الذي منه الكتب المنزلة على رسله وكلامه سبحانه نوعان بلا واسطة وذلك ككلام الله لموسى وككلامه للأبوين آدم وحواء وكلامه لجبريل ، والنوع الثاني ما كان بواسطة إما بالوحي للأنبياء وإما بارساله اليهم رسولا يكلمهم من أمره بما يشاء قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم) .

الآية الثامنة : النداء : الصوت الرفيع ، والنجاء : الصوت الخفي ، الطور : اسم جبل بين مصر ومدين ، الأيمن : من موسى في وقت مسيره أو الأيمن أي الأبرك من اليمن والبركة ، وفي تفسير القرطبي : وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر قاله الطبري وغيره ، فان الجبال لا يمين لها ولا شمال وقوله (وقربناه نجيا) أي مناجيا .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام لله وأنه يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله إذ لا يعقل النداء إلا ما كان حرفاً وصوتاً وقد استفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين من أئمة السنة بذلك . قال ابن القيم :

والله قــد نادى الكليم وقبلـه	سمع الندا في الجنة الأبــوان
وأتى الندا في تسع آيات لـــه	وصفاً فراجعها من القرآن
أيصح في عقل وفي نقل نـدا	ء ليس مسموعاً لنا بأذان
أم أجمع العلماء والعقلاء مـن	أهل اللسان وأهل كل لسان
أن النداء الصوت الرفيع وضده	فهو النجاء كلاهما صوتان

وفي الآية :

١ ـ إثبات النداء .

٢ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي إذ المعنى المجرد لا يسمع .

٣ ـ تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفاً له .

الآية التاسعة : أي اذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله حين كلمه ونبأه وأرسله فقال أن ائت القوم الظالمين يعني الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية والكفر والتكبر في الأرض والعلو على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية وظلموا بني اسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب .

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٢ ـ إثبات الربوبية .

٣ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي .

٤ ـ أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت إذ لا يعقل النداء إلا ما كان حرفاً وصوتاً .

٥ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو غيره .

الآية العاشرة : قال الله تعالى معاتباً وموبخاً لآدم وحواء على ترك التحفظ والحيطة والتدبر في العواقب وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين أي ظاهر العداوة لكما فان أطعتماه أخرجكما من الجنة ؟

ففي الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام .

٢ ـ إثبات الربوبية .

٣ ـ الأمر بالتحفظ والحيطة والتدبر في الأمور .

الآية الحادية عشرة : قال ابن كثير على هذه الآية : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم إليهم وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسأل

العبد في قبره من ربك ومن نبيك وما هو دينك فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، واما الكافر فيقول هاه هاه لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى .. اهـ .

أفادت هذه الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٢ ـ أنه يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله .

٣ ـ إثبات البعث والرسالة والحشر والجزاء على الأعمال .

٤ ـ إثبات النداء .

٥ ـ إثبات القول .

٦ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي إذ المعنى المجرد لا يسمع .

قال بعض العلماء : من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي زعم أن الله لم يرسل رسولا ولم ينزل كتاباً . وقال آخر : من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي فقد زعم أن الله أخرس . وقال ابن حجر في شرح البخاري : ومن نفى الصوت فقد زعم أن الله لم يسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلاماً بل ألهمهم إياه إلهاماً .

قال ابن القيم : ولفظ النداء الإلهي قد تكرر في الكتاب

والسنة تكراراً مطرداً في محاله متنوعاً تنوعاً يمتنع حمله على المجاز فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة ونادى كليمه وأنه ينادي عباده يوم القيامة وقد ذكر الله النداء في تسعة مواضع من القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت فانه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة فاذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعاً كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كانه سلسلة على صفوان ، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » ، وروى أبو داود عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفاة فيصعقون ولا يزالون حتى يأتيهم جبرائيل فاذا جاءهم جبرائيل فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك قال الحق فينادون الحق الحق » وإسناده ثقاة ، وقد فسر الصحابة الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو يعلى الموصلي عن عبد الله ابن أنيس قال : « فينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان » وفي تفسير شيبان عن قتادة (فلما أتاها نودي أن بورك من في النار) قال : صوت رب العالمين ، ذكره ابن خزيمة والأحاديث والآثار عن السلف كثيرة في ذلك جداً ، وتقدم حديث أبي سعيد في الصحيح الذي بلغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم وسائر الأمة تلقته

بالقبول وتقييده بالصوت إيضاحاً وتأكيداً كما قيد التكلم بالمصدر في قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله قد أحب فلاناً فأحبه » الحديث ، والذي تعقله الأمم من النداء انما هو الصوت المسموع كما قال تعالى (واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب) وقال : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهى الله عنه المؤمنين وأثنى عليهم بغضها في قوله (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية ، وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دال على أنه تكلم حقيقة لا مجازاً ، وكذا نصوص الوحي الخاص كقوله (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) وقد نوع الله هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعاً يستحيل معه نفي حقائقها بل ليس في الصفات الإلهية من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى وإذا انتفت منه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة ، والرب تبارك وتعالى يخلق بكلامه وقوله كما قال تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فاذا انتفت حقيقة الكلام انتفى الخلق وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلم عابديها . ولا ترجع إليهم قولا . والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالى بصفة هذه الآلهة . وقد ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام فيفنى المداد والأقلام ولا تنفد كلماته

أفهذه صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام ؟ فاذا كان كلامه وتكليمه وخطابه ونداؤه وقوله وأمره ونهيه ووصيته وعهده وإذنه وحكمه وإخباره وشهادته كل ذلك مجاز لا حقيقة له بطلت الحقائق كلها فان الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينية ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون ، فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله ، وقال في النونية :

والله عز وجل موص آمـــرٌ	ناهٍ مُنبٌ مُرْسِلٌ لبيــان
ومخــاطب ومحــاسب ومنبىء	ومحدث ومخــبر بالشـــان
ومكلم متكلــم بــل قائــل	ومحــذر ومبشر بأمـــان
هاد يقول الحق يرشد خلقــه	بكلامــه للحــق والإيمــان
فإذا انتفت صفة الكلام فكل هـ	ـذا منتف متحقق البطــلان
وإذا انتفت صفة الكلام كذلك الإ	رسال منفي بلا فرقـــان
فرسالة المبعــوث تبليغ كــلا	م المرسل الداعي بلا نقصان

ومما يؤخذ من الآية المتقدمة :

٧ ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو معنى قائم بذاته لا يتجزأ ولا يتبعض فان الأمر لو كان كما زعموا لكان موسى سمع جميع كلام الله .

٨ ـ الرد على من زعم أن كلام الله مخلوق فان صفاته داخلة في مسمى اسمه فليس الله اسماً لذات لا سمع ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها فكلامه وحياته وقدرته

داخلة في مسمى اسمه فهو سبحانه بصفاته الخالق وما سواه المخلوق .

الآية الثانية عشرة : استجارك : طلب جوارك أي حمايتك وأمانك ، فأجره : أي فأمنه ، ومأمنه : أي مسكنه الذي يأمن فيه وهو دار قومه .

المعنى : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره ، أي كن جاراً له ، مؤمنا محامياً حتى يسمع كلام الله ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو إليه .

ويستنبط من الآية :

١ ـ دليل على أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن وجب تأمينه ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة .

٢ ـ إثبات الألوهية .

٣ ـ أن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئا لا من قال مبلغاً مؤدياً .

٤ ـ أن في الآية حجة صريحة لمذهب السلف أن القرآن منزل غير مخلوق لأن الله تعالى هو المتكلم به وإنما أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها .

٥ ـ دليل على بطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم الباطل أن القرآن مخلوق مستدلين على بدعتهم بقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) فيدخل في عموم (كل) فيكون

مخلوقاً ، وهذا من أعجب العجب فان أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وإنما يخلقها العباد جميعها فأخرجوها من عموم كل شيء وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمره تكون المخلوقات قال تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر إلى ما لا نهاية له فيلزم التسلسل وهو باطل وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرها وذلك صريح الكفر وكيف يصح أن يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه وكذلك أيضا ما خلقه في الحيوان بل يلزم أن يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره زورا كان أو كذباً أو كفراً وهذياناً ، تعالى الله عن ذلك ، وقد طرد هذا الاتحادية فقال ابن عربي :

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير أعمى وللأعمى بصير ، لأن البصير قد قام وصف بغيره والأعمى قد قام وصف البصر بغيره ، ولصح أن يوصف الله بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك . وقال الإمام عبد العزيز

المكي في مناظرته لبشر بن غياث المريسي : إن قال بشر إنه خلق كلامه في نفسه فهذا محال لأن الله لا يكون محلا للحوادث المخلوقة ولا يكون منه شيء مخلوق وإن قال خلقه في غيره فهو كلام ذلك الغير وإن قال خلقه قائما بنفسه وذاته فهو محال ، لا يكون الكلام إلا من متكلم كما لا تكون الإرادة الا من مريد ولا العلم إلا من ، عالم ، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته ، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً علم انه صفة الله .. اه .

قال ابن القيم : احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى (خالق كل شيء) ونحو ذلك من الآيات فأجاب الأكثرون أنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه . قال ابن عقيل في الإرشاد : ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله . قال لأنه به حصل عقد الإعلام بكونه خالقاً لكل شيء وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر . قالوا : ولو أن شخصا قال لا أتكلم اليوم كلاماً إلا كان كذباً لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به ، قلت : ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله تعالى في قصة مريم (فاما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا) وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها ، فقولها فلن أكلم اليوم إنسيا به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس ، ولم يكن ما أخبرت به داخلا تحت الخبر وإلا كان قولها مخالفا لنذرها .. اه .

وأما استدلالهم بقوله (إنا جعلناه قرآنا عربياً) فما أفسده من استدلال فان جعل اذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وكذلك قوله (وجعلناه قرآناً عربيا) وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى (نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة) على أن الكلام خلقه الله في الشجرة فسمعه موسى وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فان الله تعالى قال (فلما أتاها نودي من شاطيء الوادي الأيمن) والنداء هو الكلام من بعد فسمع موسى النداء من حافة الوادي . ثم قال : (في البقعة المباركة من الشجرة) أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، ومن لابتداء الغاية ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون أنا ربكم الأعلى صدقاً ، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة أن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله .. اه .. (من شرح الطحاوية) .

أما قوله تعالى في عيسى عليه السلام (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالمعنى أنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها

جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها الروح فعيسى ناشيء عن الكلمة وليس هو نفس الكلمة . وقوله تعالى (وروح منه) يعني أنه كائن منه تعالى أي هو موجده وخالقه فهو روح من الأرواح التي خلقها الله . كما قال تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) أي مخلوق بأمره .

الآية الثالثة عشر : الفريق : الجماعة من الناس ولا واحد له من لفظه ، يحرفون : يغيرون ، وتقدم معنى التحريف وبيان أقسامه وضابط كل قسم وأمثلته ، من بعد ما عقلوه : أي عرفوه وفهموه وضبطوه ، أعني كلام الله التوراة .

والمعنى لهذه الآية الكريمة : أنسيتم أفعالهم وأعمالهم فتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء اليهود وقد كان جماعة منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ، أي يأولونه على غير تأويله من بعدما عقلوه ، أي فهموه على الجلية ، ومع هذا فهم يخالفونه وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريف .

ويستنبط من الآية :

١ ـ إثبات صفة الكلام .

٢ ـ إثبات الألوهية .

٣ ـ الذم لمن يحرف كلام الله .

٤ ـ أن التحريف من صفات اليهود .

٥ ـ قطع لأطماع المؤمنين من إيمان هؤلاء .

٦ ـ فيها دليل على تعمدهم وسوء قصدهم .

٧ ـ إبطال لما عساه أن يتعذر لهم من سوء الفهم .

٨ ـ في الآية دليل على تعمق الفسق والعصيان في اليهود .

٩ ـ الرد على من زعم أن الله لا يتكلم .

١٠ ـ الرد على من قال إن القرآن مخلوق أو أنه عبارة عن كلام الله .

١١ ـ أن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا مؤديا .

١٢ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو غيره من الخلق

الآية الرابعة عشرة : المعنى : يريدون أن يبدلوا كلام الله أي وعد الله لأهل الحديبية وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة مكة غنيمة خيبر وفتحها وأن يكون ذلك مختصاً بهم دون غيرهم وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك . ثم قال قل يا محمد لهم لن تتبعونا أي إلى خيبر وهذا خبر بمعنى النهي ، وقوله تعالى (كذلكم قال الله من قبل) أي من قبل عودتنا إليكم ، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب .

ويفهم من الآية : ١ ـ اثبات القول لله سبحانه .

٢ ـ إثبات صفة الكلام لله والرد على الأشاعرة القائلين إنه عبارة عن كلام الله والرد على الكلابية القائلين إنه حكاية عن كلام الله .

٣ ـ إثبات الألوهية لله سبحانه وحده .

٤ ـ أن الكلام إنما ينسب إلى من قال مبتدأ .

٥ ـ الرد على من قال إن الله لا يتكلم .

٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم أو كلام ملك أو بشر .

٧ ـ فيها دليل على بطلان قول المعتزلة ومن أخذ بقولهم أن القرآن مخلوق أو أنه حكاية عن كلام الله كقول الكلابية

الآية الخامسة عشرة : اتل : اتبع ما أوحي أي اتبع ما أوحي إليك ، الوحي لغة : الإعلام بخفاء ، وفي الاصطلاح : إعلام الله أنبياءه بالشيء إما بكتاب أو رسالة أو ملك أو منام أو إلهام ، من كتاب ربك : أي القرآن ، لا مبدل لكلماته : له : أي لا مغير ولا محرف ولا مزيل لها ، ملتحدا : ملتجأ تلجأ إليه .

المعنى : يقول تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم واتل الكتاب الذي أوحي إليك والزم العمل به واتبع ما فيه من أمر ونهي فانه الكتاب الجليل المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل فان أنت لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه .

ويستنبط من الآية :

١ ـ تعظيم القرآن .

٢ ـ الحث على الإقبال على القرآن وتدبره وتفهمه والعمل به .

٣ ـ إثبات الربوبية لله .

٤ ـ أن القرآن لا يستطيع أحد أن يغير ما فيه .

٥ ـ أن الكتاب هو القرآن خلافاً للكلابية فانه سبحانه سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً .

٦ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو ملك أو بشر أو غير ذلك .

٧ ـ الحث على الالتجاء الى الله في كل الأمور لأنه الملجأ وحده .

٨ ـ إثبات قدرة الله وأنها محيطة بجميع خلقه فلا يقدر على الهرب من أمر أراده به .

الآية السادسة عشرة : يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل أكثر الذي هم فيه يختلفون كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه فاليهود افتروا والنصارى غلوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه ورسله الكرام .

يفهم من الآية :

١ ـ دليل عظمة هدا الكتاب وهيمنته على الكتب وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه واختلاف .

٢ ـ أنه جاء حكماً على بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه فأبان لهم الحق .

٣ ـ الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي .

٤ ـ وجوب الرجوع إلى القرآن واتباعه .

٥ ـ أن الاختلاف متقدم في الأمم .

٦ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٧ ـ الرد على من أنكر صفة الكلام أو أولها بتأويل باطل .

الآية السابعة عشرة : يقول جل شأنه مخبرا عن عظمة هذا الكتاب وهذا كتاب: أي القرآن أنزلناه : يعني على محمد صلى الله عليه وسلم مبارك : أي كثير الخير والمنافع دائم البركة يبشر بالثواب والمغفرة والرحمة ويزجر عن الأفعال القبيحة والمعصية .

ففي هذه الآية :

١ ـ دليل على إثبات صفة الكلام .

٢ ـ الحث على تدبر القرآن والاعتناء بما فيه من أحكام وإرشادات .

٣ ـ لطف الله بخلقه حيث أنزل إليهم هذا الكتاب العظيم .

٤ ـ إثبات قدرة الله .

٥ ـ الرد على الجهمية القائلين إن القرآن مخلوق .

٦ ـ دليل لقول أهل السنة إن القرآن منزل غير مخلوق .

٧ ـ فيه رد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو بشر أو غير ذلك .

٨ ـ رد على من قال إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ومن أخذ بقولهم .

٩ ـ أن القرآن كثير الخير دائم المنفعة والبركة .

١٠ ـ وفيه رد على من قال إن كلام الله المعنى النفسي .

١١ ـ دليل على علو الله خلقه

الآية الثامنة عشر : يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبينا علو شأنه وقدره وأنه حقيقق بأن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة معانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال لرأيته مع كونه في غاية الصلابة وضخامة الجرم وشدة القسوة خاشعاً متصدعاً أي منقاداً متذللا متشققاً من خوف الله .

قال ابن القيم رحمه الله

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فانه

كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبهة والشكوك ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئاً وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها فهم لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينقل وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرا وأحسن تفسيرا فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعـــت كتب التناظر لا المُغْنِي ولا العُمَدُ
يُحَلِّلونَ بزَعْـمٍ منهم عُقَـدا وبالذي وَضَعُوه زادَتِ العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والعلم والهدى واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحميرين المشككين الشاكين الخ .

ويستنبط من الآية :

١ ـ علو شأن القرآن وقوة تأثيره لما فيه من المواعظ والزواجر .

٢ ـ توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه حين قراءته للقرآن وتدبر ما فيه من القوارع التي تذل لها الجبال الراسيات .

٣ ـ فيه دليل لمذهب السلف من أن القرآن منزل غير مخلوق .

٤ ـ الرد على من قال إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ونحوهم .

٥ ـ أنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكا بحيث تخشع وهذا حقيقة كما دلت على ذلك الأدلة ولا يعلم كيفية ذلك إلا الله .

٦ ـ الحث على الخوف من الله والخشوع عند سماعه لكلام الله .

٧ ـ فيها رد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي .

٨ ـ الرد على من قال إنه كلام جبريل أو بشر أو غير ذلك .

٩ ـ إثبات الألوهية .

١٠ ـ دليل على علو الله خلقه

الآيات الأخيرة : قوله (وإذا بدلنا آية) الخ .. التبديل : رفع شيء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية نسخها بأخرى ، بالصدق والعدل ، ليثبت : أي ليزيدهم يقينا وإيمانا ، البشرى والبشارة هو أول خبر سار بشر به إنسان ، سمي بذلك لبدو بشرته ، والمراد جبر الرومي غلام ابن الحضرمي ، كان قد قرأ التوراة والإنجيل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم

يجلس عنده إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل ، أي يميلون ويشيرون ، لسان : أي لغته وكلامه ، وأطلق اللسان على القرآن لأن العرب تطلق اللسان وتريد به الكلام فتؤنثها وتذكرها .

ومنه قول أعشى باهلة :

إني أتتني لسان لا أسر بهـــــا من علو لا عجب فيها ولا سخر

وقول الآخر :

لسان الشر تهديهـــا إلينـــا وخنت وما حسبتك أن تخونـــا

ومنه قوله تعالى : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي ثناء باقياً ، ومن إطلاق اللسان بمعنى الكلام مذكرا قول الحطيئة :

ندمت على لسان فات مـــــني فليت بأنه في جوف عكـــم

أعجمي : العجمة في لسان العرب الإخفاء وضد البيان ، فالأعجمي المراد به الذي لا يفصح وإن كان ينزل البادية .

المعنى : هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفعها ، أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى والله أعلم بالذي هو أصلح فيما ينزل ، قال المشركون لرسوله إنما أنت متقول على الله ، تأمر بشيء ثم تنهى عنه وأكثرهم لا يعلمون ما في التبديل من حكم بالغة ، ثم قال

تعالى مبيناً لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن الرسول افتراه (قل نزله روح القدس) الآية ، أي قل لهم يا محمد قد جاء جبريل بما أتلوه عليهم من عند ربي على مقتضى حكمته البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وحدانية خالق الكون وباهر قدرتــه وواسع علمه وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله . ثم قال تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) أي يعلم محمدا القرآن بشر من بني آدم غير ملك ، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فرد عليهم وكذبهم في قيلهم فقال : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) أي ان لسان الذي تميلون وتشيرون إليه بأنه يعلم محمدا أعجمي أي لا يتكلم بالعربية ، والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون الذي يقوله أعجميا ، فهذا القول لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل وفي التشبث بمثل هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز :

فدعهم يزعمــون الصبح ليـــلا أيعمى العالمون عن الضيـــاء .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين وبيان حقيقة أنباء الانبياء والمرسلين ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين كما قال تعالى : «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن» الآية فان الحق إذا جحد وعورض بالشبهات أقام الله له مما يحقق الحق ويبطل

الباطل من الآيات البينات مما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة وهذه كالمحنة التي تميز الخبيث والطيب والفتنة هي الامتحان والاختبار فالحق كالذهب الخالص كلما امتحن زاد جودة والباطل كالمغشوش إذا امتحن ظهر فساده .

١ ـ إثبات النسخ .

٢ ـ أنه لحكمة ومصلحة .

٣ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى .

٤ ـ إثبات الألوهية .

٥ ـ إثبات ـــ العلو لله تعالى على خلقه

٦ ـ دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن منزل غير مخلوق .

٧ ـ الرد على من زعم أنه مخلوق . أو أنه قديم بل هو قديم النوع حادث الآحاد .

٨ ـ الرد على من قال إنه كلام ملك أو بشر أو عير ذلك .

٩ ـ الرد على من قال إنه خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية .

١٠ ـ الردعلى من قال إنه فاض على النبي صلى الله عليه وسلم كما يقوله طوائف من الفلاسفة .

١١ ـ ان السفير بين الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام .

١٢ ـ الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي فان جبريل سمعه من الله والمعنى المجرد لا يسمع .

١٣ ـ الدليل على أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلم الله بالقرآن بها كما يليق بذاته تعالى .

١٤ ـ التوبيخ للمعترضين والإيماء إلى أنّ التبديل لم يكن للهوى بل للحكمة التي اقتضت ذلك .

١٥ ـ إبطال شبه المعترضين .

١٦ ـ إثبات صفة الربوبية .

١٧ ـ أن القرآن نزل بالصدق والعدل .

١٨ ـ أن القرآن نافع للخلق كل النفع في دينهم ودنياهم ، فيه تثبت العقائد وتطمئن القلوب .

١٩ ـ أن فيه الهداية من الزيغ والضلالات ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ويرد الظالم عن ظلمه ويدفع عدوان الناس بعضهم عن بعض .

٢٠ ـ أن فيه بشارة للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار .

٢١ ـ أن قدح الجاهل لا عبرة به لأن القدح في الشيء فرع عن العلم به وقدح هؤلاء عن جهل وعناد وهذه

عادة الغبي إذا سمع شيئاً لم يفهمه ولم يعلمه قدح فيه فاذا عاب إنسان قولا صحيحاً فذلك لأنه لم يفهمه وإنما أتى من قبل قريحته وهذا معنى رائع بديع قال تعالى (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) ، وقال المتنبي أخذا من هذه الآية :

وكَمْ مِن عائبٍ قولاً صَحيحاً ... وآفتُهُ مِن الفَهْمِ السَّقِيمِ
ولكن تأخذُ الأذهانُ منه ... على قدرِ القريحةِ والعُلُومِ

أخذه الآخر فقال :

والنجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيتَهُ ... والذنبُ للطرفِ لا للنجمِ في الصِغرِ

وقال الآخر :

وكَم مِن كلامٍ قد تَضَمَّنَ حِكْمَةً ... نالَ الكسادَ بسُوقِ مَن لا يَفْهَمُ

ومما يؤخذ من الآية الكريمة والآية التي بعدها

٢٢ ـ أن القرآن نزل بالتدريج كما تشعر به صيغة التفعيل في الموضعين :

٢٣ ـ التنويه بروح القدس وهو جبريل عليه السلام المنزه عن الخيانة والكذب .

٢٤ ـ الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل .

٢٥ ـ الرد على من قال إن محمداً سمعه من الله ولم يسمعه من جبريل .

٢٦ ـ الرد على القدرية النافين لعلم الله .

٢٧ ـ التهديد، والمأخذ من قوله ولقد نعلم الخ .

٢٨ ـ حكمة الله ولطفه بعباده حيث لم ينسخ آية إلا أتى بخير منها أو مثلها .

٢٩ ـ أن القرآن كلام الله وحروفه ومعانيه خلافاً للمعتزلة .

٣٠ ـ نفي العلم عن الكفار .

٣١ ـ أن بعضهم يعلم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به لكنه مستكبر ..

٣٢ ـ أن الذين يعلمون ويصدون ويعارضون فيهم شبه من اليهود حيث ضلوا على علم وربما كان عذابهم أشد لأن رسولهم أشرف .

٣٣ ـ أن المشركين وصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بالإفتراء :

٣٤ ـ ما كان عليه الرسول من الصبر على ما يناله من الأذى في الله .

٣٥ ـ الحث على الصبر كما هو مقام أولو العزم والثبات عليه .

٣٦ ـ عدم تدبر وتفكر المشركين في كلام الله .

٣٧ ـ فيه حث للمشركين واستحقار لهم حيث وصفوا بعدم العلم لأنه يثبت ضده وهو الجهل .

٣٨ ـ أن في القرآن حكماً وأسراراً لا يفهمها ويعمل بها إلا الموفق .

٣٩ ـ وجوب الإيمان بالقرآن سواء فهمنا الحكمة أم لا .

٤٠ ـ في الآية دلالة على صدق الرسول وتبرئته من الإفتراء .

٤١ ـ إثبات إرادة الله ومشيئته .

٤٢ ـ فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

٤٣ ـ أن القرآن آيات ...

٤٤ ـ أن القرآن نزل من الرب جل وعلا .

٤٥ ـ أن القرآن نزل منجماً كما تفيد صيغة « ينزل » .

٤٦ ـ دليل على أن الساكت الذي لا ينكر شريك لفاعل المنكر لأن القائل بلسان المقال بعضهم والبقية ساكتون راضون .

٤٧ ـ دليل على وقاحة المشركين وأن الشر كامن في نفوسهم .

٤٨ ـ الحكمة في خلق جهنم للمتمردين المتكبرين .

٤٩ ـ دليل واضح على نسخ القرآن بالقرآن .

٥٠ ـ إثبات أسماء الله .

٥١ ـ أن الإيمان والإسلام إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر .

٥٢ ـ استحباب البشارة على عمل الخير للحث على الازدياد منه .

٥٣ ـ احتقار الكفار حيث لم يوجه الخطاب لهم .

٥٤ ـ ان القرآن مبين للحق أوضح تبيين فلا يحتاج معه إلى قوانين .

٥٥ ـ الرد على من قال بالقوانين الوضعية والنظم الحالية المخالفة للشرع .

٥٦ ـ أن الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام .

٥٧ ـ ان استعمال البشارة هنا على بابها حيث يبشر بالخير والثواب الجزيل .

٥٨ ـ بلاغة القرآن حيث شمل بكلمة واحدة ما لا يحصى وهي قوله وهدى .

٥٩ ـ أن العباد مفتقرون إلى الله بجميع شئونهم .

٦٠ ـ أنهم بأمس الحاجة والافتقار إلى التثبيت .

٦١ ـ أن القرآن يحث النفس المطمئنة على طلب الخير حيث يبشر به .

٦٢ ـ ان البشارة المذكورة شاملة .

٦٣ ـ بيان عجز الخلق وضيق علمهم وسعة علم الله جلا وعلا .

٦٤ ـ رحمة الله ومنته على العباد وعلى العرب خاصة حيث نزل القرآن بلغتهم .

٦٥ ـ حكمة الله حيث جعل القرآن هداية وبشارة للمؤمنين فقط .

٦٦ ـ تدرج الشريعة الإسلامية شيئاً فشيئاً إذ القرآن ينزل شيئاً فشيئاً .

٦٧ ـ قوة حجج القرآن وبراهينه الدامغة للباطل .

٦٨ ـ أن كلام المشركين متناقض حيث قالوا يعلمه أعجمي والقرآن عربي مبين .

٦٩ ـ إن اللغة العربية أشرف اللغات لأنها التي اختارها الله ونزل القرآن بها .

٧٠ ـ أن الله لم يهمل خلقه ولم يتركهم سدى بل أرسل اليهم رسلا وأنزل كتباً .

٧١ ـ أن في القرآن تربية عالية وتوجيهات حكيمة شاملة .

٧٢ ـ أن في القرآن قصص الامم مع رسلهم .

٧٣ ـ أن القرآن نزل مفرقا بخلاف الكتب السماوية الأخرى

٧٤ ـ الواجب على الإنسان أن يسلم وينقاد لما قدره الله وقضاه .

٧٥ ـ أن اللغة تسمى لسان .

٧٦ ـ اثبات سمع الله .

٧٧ ـ أمانة جبريل .

مسألة الكلام

افترق الناس في مسألة الكلام على عدة أقوال : أحدها ـ مذهب الجهمية والمعتزلة : أن القرآن مخلوق .

الثاني ـ الكلابية وأتباعهم من الأشاعرة : أن القرآن نوعان ألفاظ ومعاني ، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة والمعاني قديمة قائمة بالنفس ، وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا .

الثالث ـ الكرامية : أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب وهو حروف وأصوات مسموعة وهو حادث بعد أن لم يكن وأخطأوا في قولهم إن له ابتداء في ذاته .

الرابع ـ الماتريدية : أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذات الله هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبي منصور .

الخامس : مذهب الاتحادية : أن الكل كلام الله نظمه ونثره حقه وباطله وسحره وكفره والسب والشتم والهجر والفحش وأضداده كله عين كلام الله تعالى القائم بذاته قال ابن القيم حاكياً كلام الاتحادية :

وأتت طوائف الاتحاد بملة	طمت على ما قال كل لسان
قالوا كلام الله كل كلام هـ	ـذا الخلق من جن ومن إنسان
نظماً ونثراً زوره وصحيحه	صدقاً وكذباً واضح البطلان
فالسب والشتم القبيح وقذفهم	للمحصنات وكل نوع أغان

والنـــوح والتعزير والسحر المبـــ ـين وسائر البهتان والهذيـــان
هو عين قول الله جل جلالـــه وكلامه حقاً بـــلا نكـــران
إذا أصلهـــم أن الإلـــه حقيقـــة عين الوجود وعين ذي الأكوان

السادس ـ مذهب السالمية : أنه صفة قائمة بذات الله لازمة له كلزوم الحياة ولا يتعلق بالمشيئة والقدرة ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات لا يسبق بعضها بعضاً بل مقترنة : الباء مع السين مع الميم في آن واحد لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم بل هي لم تزل قائمة بذات الله .

السابع ـ مذهب الصابئة والمتفلسفة أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني ، إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره .

قال ابن القيم رحمه الله في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب :

وأتى ابن سِيْنَا القِرْمِطِيُّ مُصَانِعاً للمسلمين بإفك ذي بهتـــان
فرآه فيضاً فاض من عقل هو الـــ فعال علة هذه الأكـــوان
حتى تلقـــاه زكي فاصـــلٌ حَسَنُ التخيلِ جيدُ التِّبْيَان
فأتى بـــه للعالمـــين خِطابـــة ومَوَاعِظاً عريَتْ عن البرهـــان
وخطابُ هذا الخلق والجمهور بالـــ ـحق الصريح فغير ذي إمكان
ما صَرَّحَتْ أخباره بالحـــق بَـــلْ رَمَزَتْ إليه إشارةٌ لِمَعَان
لا يقبلـــون حقائـــق المعقـــول إلـ ـلا في مثال الحس والأعيـــان

ومشارب العقلاء لا يردونها ... إلا إذا وضعت لهم بأواني

فأتوا بتشبيه وتمثيل وتجسيم ... وتخييل إلى الأذهان

لكن حقيقة قولها أن قد أتوا ... بالكذب عند مصالح الإنسان

والفيلسوف وذا الرسول لديهم ... متفاوتان وما هما عدلان

أما الرسول فَفَيلَسُوفُ عوامهم ... والفيلسوفُ نبي ذي البرهان

والحق عندهم ففيما قاله ... أتباع صاحب منطق اليونان

ومَضَى على هذي المقالة أمة ... خَلَفَ ابنِ سينا فاغتذوا بلبان

منهم نصيرُ الكفرِ في أصحابه ... الناصرينَ لملة الشيطان

فاسأل بهم ذا خبرة تلقاهم ... أعداء كل موحد رباني

واسأل بهم ذا خبرة تلقاهم ... أعداءَ رسل الله والقرآن

صوفيهم عَبَدَ الوجودَ المطلقَ المـ ... ـعدومَ عند العقل في الأعيان

أو ملحد بالاتحاد يدين لا التو ... حيد منسلخ عن الإيمان

الله أكبر كم على ذا المذهب المـ ... ـلعون بين الناس من شيخان

الثامن ــ أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

قال ابن القيم :

وإذا أردت مجامع الطرق التي ... فيها افتراق الناس في القرآن

فمدارها أصلان قام عليهما ... هذا الخلاف هما له ركنان

هل قوله بمشيئة أم لا وهل في ذاته أم خارج هذان
أصل اختلاف جميع أهل الأرض في القـ
رآن فاطلب مقتضى البرهان

رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة :

(وقوله : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ، (على الأرائك ينظرون) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)، (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) وهذا الباب في كتاب الله كثير ، من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق .) .

الإيمان برؤية الله في الآخرة هو الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عياناً بأبصارهم في عرصة القيامة وفي الجنة ، ويكلمهم ويكلمونه ومسألة الرؤية من المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة وغيرهم ، وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون ، والمخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة .

الآية الأولى : يخبر تعالى عن وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة أنها حسنة بهية مشرقة مسرورة ، مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح (إلى ربها ناظرة) أي تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، قال جمهور العلماء :

المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة « من أن العباد المؤمنين ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر » .

قال ابن القيم رحمه الله : وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديه بأداة « إلى » الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بالى خلاف حقيقته ، وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله فان « النظر » له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله تعالى (انظرونا نقتبس من نوركم) وإن عدي بفي فمعناه التفكر والاعتبار كقوله (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) وإن عدي بالى فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر ا هـ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ » قالوا لا يا رسول الله ، قال : « هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فانكم ترونه كذلك » وعن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه و سلم فنظر إلى القمر ليلة أربعة عشر ،

فقال : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وفي بعض ألفاظه « فستعاينون ربكم كما تعاينون هذا القمر » .

وسئل مالك عن قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فقال : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلى لأوليائه حتى رأوه ، وقال الشافعي رضي الله عنه : في الآية دلالة على أن أولياء الله يرونه عياناً ، قال بعضهم :

وقل يتجلى الله للخلــــق جهـرة ... كما البدر لا يخفى وربك أوضح
وقد ينكر الجهمي هذا وعندنـــا ... بمصداق ما قلنا حديث مصرح
رواه جرير عن مقـــال محمـد ... فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح

ففي هذه الآية :

١ ــ إثبات الربوبية .

٢ ــ إثبات الرؤية .

٣ ــ أنها خاصة بالمؤمنين .

٤ ــ أنها في الدار الآخرة دون الدنيا .

٥ ــ الرد على من أنكر الرؤية .

الآية الثانية : يخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا به

وصدقوا رسله وعملوا الخير في الحياة الدنيا أنهم في الجنة على الأسرة في حجالها ينظرون إلى وجهه الكريم وإلى ما أعد لأعدائه الكفار المذنبين .

ويفهم من الآية كالتي قبلها :

١ ـ إثبات الرؤية .

٢ ـ فيه ترغيب في الطاعة وحفز لعزائم المحسنين ليزدادوا إحسانا .

٣ ـ دليل على جود الله وكرمه .

٤ ـ فيها دليل على علو الله تعالى على خلقه

٥ ـ إن الرؤية في الآخرة دون الدنيا .

٦ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين للرؤية .

٧ ـ أنها خاصة بالأبرار .

٨ ـ أن الجنة حق .

٩ ـ فيها دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

الآية الثالثة · يخبر تعالى عن الأعمال الموصلة إلى دار السلام بقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أي الذين أحسنوا في عبادة الخالق فقاموا بما أوجبه الله عليهم من الأعمال وكفوا عما نهاهم عنه من المعاصي وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي ، لهم الحسنى وهي

الجنة ، وزيادة وهي النظر إلى وجه الله كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما عطف الزيادة على الحسنى دل على أنها جزاء آخر وراء الجنة وقدر زائد عليها . واختلف السلف والخلف هل حصلت الرؤية لنبينا صلى الله عليه وسلم ، فالأكثرون على أنه لم يره سبحانه وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي باجماع الصحابة ، قال ابن كثير على قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) اختلفوا في معنى الرؤية فقال بعضهم جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس ، وقال آخرون : هو الله عز وجل . وعن ابن عباس (ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى) قال رآه بفؤاده مرتين . وذهب جماعه إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمه قالوا : رأى محمد ربه .

وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمداً بالرؤية . وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه . وتحمل الآية على رؤية جبريل عليه السلام ، وورد عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » .

قال ابن القيم رحمه الله : والناس في إثبات الرؤية وعدمها طرفان ووسط فقسم غلوا في إثباتها حتى أثبتوها في الدنيا والآخرة وهم الصوفية وأحزابهم ، وقسم نفوها في الدنيا والآخرة وهم الجهمية والمعتزلة ، والوسط هم أهل السنة

الذين أثبتوها في الآخرة حسبما تواترت به الأدلة .

الآية الرابعة : أي لهم في الجنة ما يشاؤنه وما تشتهيه أنفسهم من أنواع النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقوله (ولدينا مزيد) أي وعندنا فوق ذلك وهو النظر إلى وجهه سبحانه وتعالى كما قال ذلك علي بن أبي طالب وأنس وجابر رضي الله عنهم وعن جميع الصحابة .

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . قال الله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدلهم أجراً كريماً) قال البغوي تحية المؤمنين يوم يلقونه أي يرون الله سلام أي يسلم عليهم . وقال أبو عبد الله بن بطة سمعت أبا أحمد بن عبد الواحد صاحب اللغة يقول سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلباً يقول في قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدلهم أجراً كريماً) أجمع أهل اللغة على أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظراً بالأبصار وحسبك بهذا الإسناد صحة واللقاء ثابت بنص القرآن كما تقدم ، وبالمتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وكل أحاديث اللقاء صحيحة كحديث أنس في قصة حديث بئر معونة « إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » وحديث عبادة وعائشة وأبي هريرة وابن مسعود « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وحديث أنس « فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » وفي حديث أبي ذر « لو لقيتني

بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » وحديث أبي موسى « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » اه .

وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم » وفي رواية « ولا ينظر إليهم ... الحديث » رواه مسلم . ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) فمفهوم الآية والحديث أنه تعالى ينظر إلى من عداهم من المؤمنين .

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة فسرها الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام وقال غير واحد من السلف في الآية ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد النظر إليه .

ففي الآية :

١ — الحث على السعي إلى ما يوصل إلى رضا الله للفوز بما ذكر.

٢ ــ دليل على صدق وعد الله .

٣ ــ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

٤ ــ دليل على وجود الله وكرمه ولطفه بخلقه حيث حثهم على ما يحفز هممهم إلى ما فيه رضاه وفوزهم ، قال ابن القيم رحمه الله :

ويرونــه سبحانــه من فوقهــم	نظر العيان كما يرى القمــران
هذا تواتر عــن رسول الله لم	ينكــره إلاّ فاسد الإيمــان
وأتى به القــرآن تصريحاً وتعر	يضاً هما بسياقــه نوعــان
وهي الزيادة قد أتت في يــونس	تفسير من قد جاءَ بالقــرآن
وهو المزيــد كــذاك فسره أبـو	بكر هو الصديق ذو الإيقان
وعليه أصحاب الرســول وتابعو	هم بعدهــم تبعية الإحســان
ولقد أتى ذكر اللقاء لربنــا الر	حمن في سور من الفرقــان
ولقاؤه إذ ذاك رؤيته حكــى الإ	جماع فيه جماعــة ببيــان
وعليه أصحاب الحديث جميعهــم	لغة وعرفــاً ليس يختلفــان
هذا ويكفــي أنــه سبحــانه	وصف الوجوه بنظرة بجنان
وأعاد أيضــاً وصفها نظــراً وذا	لا شك يفهم رؤية بعيــان
وأتت أداة إلى لرفع الوهم مــن	فكر كــذاك ترقب الإنســان
وإضــافة لمحــل رؤيتهم بــذ	كر الوجه إذا قامت به العينــان

وقد استدل نفاة الرؤية بقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) وبقوله تعالى لموسى (لن تراني) والآية حجة عليهم من وجوه:

(١) أن سؤال موسى الرؤية يدل على إمكانها لأن العاقل فضلا عن النبي لا يطلب المحال فكيف يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه بل هو عندهم من أعظم المحال .

(٢) أنه لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) .

(٣) أنه قال (لن تراني) ولم يقل إني لا أرى أو لا يجوز رؤيتي أو لست بمرئي .

(٤) قوله (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) فعلق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن في نفسه والمعلق على الممكن ممكن لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة .

(٥) قوله (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) فاذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته .

(٦) أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكليم والتكلم وأن يسمع مخاطبة كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ويرد عليهم أيضاً بما استدلوا به على نفيها وهو قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) وذلك من وجه حسن لطيف

وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به وإنما يمدح تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً كمدحه بنفي النسيان وعزوب شيء عن عمله المتضمن كمال علمه وإحاطته ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ، فقوله (لا تدركه الأبصار) لعظمته وجلاله وكماله أي لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح به وبالنظر لوجهه الكريم فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية بل يثبتها بالمفهوم فانه إذا نفي الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية دل على أن الرؤية ثابتة فانه لو أراد نفي الرؤية لقال لا تراه الأبصار ونحو ذلك فعلم أنه ليس للمعطلة في الآية حجة ، وتمسكوا أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل عن الإسلام ، وفيه « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » وتعقب بأن المنفي فيه رؤيته في الدنيا لأن العبادة خاصة بها فلو قال قائل إن فيه إشارة إلى جواز الرؤية في الآخرة لما أبعد .

وقال البيهقي : إذا أثبت أن ناظرة هنا بمعنى رائية انقطع قول من زعم أن المعنى ناظرة إلى ثواب ربها لأن الأصل عدم التقدير وأيد منطوق الآية في حق المؤمنين بمفهوم الآية الأخرى في حق الكافرين أنهم عن ربهم لمحجوبون وقيدها بالقيامة إشارة إلى أن الرؤية تحصل للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا وقد أخرج أبو العباس السراج عن مالك بن أنس وقيل له

يا أبا عبد الله قول الله تعالى (إلى ربها ناظرة) يقول قوم إلى ثوابه فقال كذبوا فأين هم عن قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

ومن حيث النظر أن كل موجود يصح أن يرى وهذا على سبيل التنزل وإلا فصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين وتعقب ابن التين من زعم أن الرؤية بمعنى العلم بأن الرؤية بمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين تقول رأيت زيداً فقيهاً أي علمته فان قلت رأيت زيدا منطلقاً لم يفهم منه إلا رؤية البصر ويزيد تحقيقاً قوله في الخبر « إنكم سترون ربكم عياناً » لأن اقتران الرؤية بالعيان لا يحتمل أن يكون بمعنى العلم .

وقال ابن بطال ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة ومنع الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وتمسكوا بأن الرؤية توجب كون المرئي محدثاً وحالا في مكان وأولوا قوله ناظرة بمنتظرة وهو خطأ لأنه لا يتعدى بالى ، وما تمسكوا به فاسد لقيام الأدلة على أن الله موجود والرؤية في تعلقها بالمرئي بمنزلة العلم في تعلقه بالمعلوم فاذا كان تعلق العلم بالمعلوم لا يوجب حدوثه فكذلك المرئي ا هـ .

وأما ما روي عمن تأول ذلك بأن المراد بالى مفرد الآلاء وهي النعم فقد أبعد النجعة وأخطأ فيما ذهب اليه ، وأين هو من قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

وقال الشافعي رحمه الله : ما حجب الفجار إلا وقد علم أن المؤمنين يرونه عز وجل ، ثم قوله : تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة (وهي قوله إلى ربها ناظرة) اهـ .

وقوله : وهذا الباب في كتاب الله كثير من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق ، يريد باب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وما يستحقه سبحانه من إفراده بالعبادة وترك عبادة ما سواه فقد أفصح القرآن عنه كل الإفصاح ، وأغلب سور القرآن متضمنة لذلك بل كل سورة من القرآن فان القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العملي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دون الله ، وهو التوحيد الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته . وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج من توحيده ، والقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي الشرك وأهله وجزائهم .

وقوله : من تدبر القرآن : التدبر التفكر وهو إعمال النظر في الشيء طالباً الهدى أي الرشاد اتضح له الطريق واستبان .

قال ابن القيم رحمه الله : إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من يتكلم به إليه فانه خطاب منه لك على لسان رسوله قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وذلك أن كمال التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك بأوجز لفظ وأبينه على المراد .

وقال في النونية رحمه الله مشيراً إلى ما جناه التأويل على الشريعة من البلايا والمحن والشرور والفتن والمصائب والرزايا المتنوعة على الإسلام وأهله :

هذا وأصـل بلية الإسلام مـن	تأويل ذي التحريف والبطلان
وهو الذي قد فـرق السبعين بـل	زادت ثلاثاً قول ذي البرهان
وهو الذي قتل الخليفة جامع القرآ	ن ذي النـورين والاحسـان
وهو الذي قتـل الخليفـة بعـده	أعني علياً قاتـل الأقـران
وهو الذي قتل الحسين وأهلـه	فغدوا عليـه ممـزق اللحمان
وهو الذي في يوم حربهم أبـا	ح حمى المدينة معقل الايمـان
حتى جرت تلك الدمـاء كأنها	في يوم عيد سنة القربـان
وغدا له الحَجّاجُ يسفكها ويقتـ	ل صاحب الإيمـان والقرآن
وجرى بمكة ما جرى من أجلـه	من عسكر الحجاج ذي العدوان
وهو الذي أنشا الخوارج مثل إنـ	شاء الروافض أخبث الحيـوان

ولأجله شتموا خيار الخلق بعـ ... ـد الرسل بالعدوان والبهتان
ولأجله سل البغاة سيوفهم ... ظنّاً بأنَّهُمُ ذوو إحسان
ولأجله قد قال أهل الإعتزا ... ل مقالة هدت قوى الإيمان
ولأجله قالوا بأن كلامه ... سبحانه خلق من الأكوان
ولأجله قد كذبت بقضائه ... شبه المجوس العابدي النيران
ولأجله قد خلدوا أهل الكبا ... ئر في الجحيم كعابدي الأوثان
ولأجله قد أنكروا لشفاعة المخ ... تار فيهم غاية النكران
ولأجله ضرب الإمام بسوطهم ... صديق أهل السنة الشيبان
ولأجله قد قال جهم ليس رب ... العرش خارج هذه الأكوان
كلا ولا فوق السموات العلى ... والعرش من رب ولا رحمن
ما فوقها رب يطاع جباهنا ... تهوي له بسجود ذي خضعان
ولأجله جحدوا صفات كماله ... والعرش أخلوه من الرحمن
ولأجله أفنى الجحيم وجنة الـ ... ـمأوى مقالة كاذب فتان
ولأجله قالوا الإله معطل ... أزلاً بغير نهاية وزمان
ولأجله قد قال ليس لفعله ... من غاية هي حكمة الديان
ولأجله قد كذبوا بنزوله ... نحو السماء بنصف ليل ثان
ولأجله زعموا الكتاب عبارة ... وحكاية عن ذلك القرآن
ولأجله قتل ابن نصر أحمد ... ذاك الخزاعي العظيم الشان
إذ قال ذا القرآن نفس كلامه ... ما ذاك مخلوق من الأكوان
وهو الذي جرَّ ابن سينا والأولى ... قالوا مقالته على الكفران
فتأولوا خلق السموات العلى ... وحدوثها بحقيقة الامكان

وتأولوا علـم الالــه وقولــه ... وصفاتِه بالسَّلْبِ والبطــلان
وتأولوا البعثَ الذي جاءَت بــه ... رسلُ الإلهِ لِهذه الأبــدان
بفراقهـــا لِعَناصر قدْ رُكبت ... حتى تعودَ بسيطة الأركـان
وهو الذي جرَّ القرامطـــة الأولى ... يَتَأوَّلونَ شرايعَ الإيمــان
وهـــو الذي جرَّ النصير وحزبَـه ... حتى أتوا بعساكر الكفـران
فجرى على الإسلام أعظم محنـــة ... وخمارها فينـــا الى ذا الآن
وجَميعُ ما في الكون مـــن بدع ... وإحداث تخالفُ موجبَ القرآن
فأساسها التأويلُ ذُو البطـــلان لا ... تأويلُ أهلِ العلم والإيمـان
إذْ ذَاكَ تفسـيرُ المرادِ وكشفُـه ... وبيان مَعْنَاهُ إلى الأذهــان
قد كان أعلـم خلقه بكلامـــه ... صلى عليه الله كـــل أوان
يتأوَّلُ القرآن عنـــد ركوعـــه ... وسجوده تأويلَ ذي برهــان
هـــذا الذي قالتـــه أمُّ المؤمـ ... نين حكاية عنه لهـــا بلسان
فانظرْ إلى التأويل مــــا تعني بــه ... خيرُ النساءِ وأفْقَــهُ النسوان
أتظنهـــا تعني به حَرْفاً عـــن الـ ... معنى القَويِّ لغير ذِي رُجْحَانِ
وانظر إلى التأويل حين يقول علـــ ... ـمه لعبد الله في القـــرآن
ماذا أراد بـــه سوى تفسـيره ... وظهـــور معنـــاه لـــه ببيـان
قول ابن عباس هو التأويـــل لا ... تأويل جهمي أخـــي بهتـان
وحقيقة معنـــــاه الرجـــو ... ع إلى الحقيقة لا إلى البطـلان
وكذاك تأويل المنـــا حقيقة المر ... ئي لا التحريف بالبهتـــان
وكذاك تأويل الذي قد أخــبرت ... رسل الإلـــه به من الإيمـان
نفس الحقيقة إذ تشاهدهـــا لدى ... يوم المعـــاد برؤية وعيـان

لا خلف بـين أئمـة التفسير في ... هذا وذلك واضح البرهـان

هذا كـلام الله ثم رسولـه ... وأئمـة التفسير للقـرآن

تأويلـه هو عندهـم تفسيره ... بالظاهـر المفهـوم للأذهان

مـا قال منهم قط شخص واحد ... تأويله صرف عن الرجحـان

كلا ولا نفـي الحقيقـة لا ولا ... عزل النصوص عن اليقين فهذان

تأويل أهل الباطل المردود عنـ ... ـد أئمـة العرفـان والايمان

وهو الذي لا شك في بطلانـه ... والله يقضي فيـه بالبطـلان

فجعلـتم للفظ معنًى غـير معنا ... ه لديهـم باصطلاح ثـان

وحملتم لفظ الكتاب عليـه حتـ ... ـى جاءكم من ذاك محذوران

كذب على الألفاظ مع كذب على ... من قالهـا كذبـان مقبوحان

وتلاهمـا أمران أقبـح منهمـا ... جحد الهدى وشهـادة البهتـان

إذ يشهـدون الـزور أن مـراده ... غير الحقيقة وهي ذو بطـلان



فوائــد

بين السابق واللاحق

١ ـ حد التوحيد: علم العبد واعترافه واعتقاده، وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال وتوحيده في ذلك . واعتقاده أنه لا شريك له في كماله وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . ومنزلة علم التوحيد من بين العلوم أنه أجلها وأشرفها وهو معرفة الله بأسمائه في صفاته وأفعاله .

٢ ـ أنواع التوحيد ثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية .

٣ ـ توحيد الربو بية : هو اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بأصناف النعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة .

٤ ـ توحيد الأسماء والصفات : هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال

والجمال وذلك باثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة ويقال لهذا النوع التوحيد القولي الاعتقادي .

٥ – توحيد الألوهية هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده ، ويقال لهذا النوع توحيد العبادة والتوحيد الفعلي وسمي فعلياً لتضمنه لأفعال القلوب والجوارح كالصلاة والزكاة والحج ، وهذا النوع هو الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب ، قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله) ، (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله) ، (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله) ٢ (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله) وقال يوسف (إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا أياه) ، (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) فكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه يقول يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره فهذه دعوة الرسل من أولهم نوح عليه السلام إلى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

وأكمل الناس توحيداً هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والمرسلون منهم أكمل في ذلك وأولوا العزم أكمل الرسل وأكمل أولو العزم الخليلان محمد وإبراهيم فانهما

قاما بما لم يقم به غيرهما علماً ومعرفة وحالا ودعوة للخلق وجهاداً فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه وجاهدوا الأمم عليه ولهذا أمر الله نبيه أن يقتدي فيه كما قال تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : عموم خلقه وربوبيته وعموم إحسانه وحكمته أصلان عظيمان في الكتاب والسنة والنصوص الدالة عليهما شيء كثير وجميع الكائنات آيات له شاهدة مظهرة لما هو مستحق من الأسماء الحسنى والصفات العليا وعن مقتضى أسمائه وخلقه الكائنات وكما علينا أن نشهد ربوبيته وتدبيره العام المحيط وحكمته ورحمته فعلينا أن نشهد ألوهيته العامة ، فانه (الذي في السماء إله وفي الأرض إله) إله في السماء وإله في الأرض ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه فانه باطل إلا وجهه الكريم وكما نشهد أنها كلها مفتقرة إليه في مبدئها نشهد أنها مفتقرة إليه في منتهاها وإلا كانت باطلة والكائنات ليس لها من نفسها شيء بل هي عدم محض ونفي صرف وما بها من وجود فمنه وبه ثم أنه إليه مصيرها ومرجعها وهو معبودها وربها لا يصلح أن يعبد إلا هو كما لم يخلقها إلا هو لما هو مستحقه في نفسه ومتفرد به من نعوت الإلهية التي لا شريك له فيها ولا سمي له وليس كمثله شيء وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء وهو الباطن الذي ليس دونه شيء وهو معنا أينما كنا ونعلم أن معيته مع عباده على أنواع وهم فيها درجات وكذلك ربوبيته

لهم وعبوديتهم التي هم بها متعبدون له وكذلك ألوهيتهم إياه وألوهيته لهم وعبادتهم التي هم بها عابدون وكذلك قربه منهم وقربهم منه .

٦ ـ أركان توحيد العبادة اثنان الإخلاص والصدق ، فالأول توحيد المراد فلا يزاحمه مراد والثاني توحيد الإرادة ببذل الجهد والطاقة في عبادة الله وحده لا شريك له .

قال ابن القيم رحمه الله :

هذا وثاني نوعـي التوحيد تـو	حيد العبـادة منك للرحمـن
أن لا تكون لغـيره عبـداً ولا	تعبد بغير شريعـة الإيمـان
والصدق والإخلاص ركنـا ذلك	التوحيد كالركنين للبنيـان
وحقيقة الإخلاص توحيـد المرا	د فلا يزاحمـه مراد ثـاني
والصدق توحيـد الإرادة وهو بذ	ل الجهد لا كسلاً ولا متـوان
والسنـة المثلى لسالكهـا فتـو	حيد الطريق الأعظم السلطـان
فلواحدكن واحـداً في واحـد	أعني طريق الحق والإيمـان

٧ ـ ضد توحيد الربوبية أن يجعل له شريك أو يجعل لغيره تدبير فالربوبية منه لعباده والتأله من عباده له .

٨ ـ ضد توحيد الأسماء والصفات أمران التعطيل والتشبيه ، فمن نفى صفاته تعالى وعطلها ناقض تعطيله توحيده وكذبه ومن شبهه بخلقه ناقض تشبهه توحيده وكذبه .

٩ - ضد توحيد الألوهية أمران اولا : الإعراض عن محبته تعالى والإنابة إليه والتوكل عليه ، ثانياً : الإشراك به واتخاذ أولياء شفعاء من دونه .

١٠ - بين أنواع التوحيد الثلاثة تلازم ، فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة فهو منه كالمقدمة من النتيجة ، فانه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له فانه لا يصلح أن يعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكا مدبرا وما دام ذلك له وجب أن يكون هو المعبود وحده الذي لا يجوز أن يكون لأحد معه شركة في شيء من صور العبادة كلها ولهذا جرت سنة القرآن على سوق آيات الربوبية ثم الخلوص منها إلى الدعوة إلى توحيد الألوهية فيجعل الأولى برهاناً على الثانية كما في قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) الآيتين وكما في قوله : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) الآيات الثلاث وأما توحيد الإلهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية ومعنى كونه متضمنا له أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الإلهية فان من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً لا بد أن يكون قد اعتقد أن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره ولا مالك له سواه فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه

وأن كل ما يدعى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وأما توحيد الأسماء والصفات وأنه شامل للنوعين فهو يقوم على إفراد الله سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له ومن جملتها كونه رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته وكونه إلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته فاسم الرب لا ينصرف إلا إليه عند الإطلاق فله وحده الربوبية المطلقة الشاملة لجميع خلقه وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق إلا عليه وحده فهو ذو الألوهية على جميع خلقه ليس لهم إله غيره فهذه الأنواع الثلاثة متكافلة متلازمة يكمل بعضها بعضا ، ولا ينفع أحدها بدون الآخرين ، فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الإلهية فكذلك لا يصح توحيد الإلهية بدون توحيد الربوبية ، فان من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً في عبادته ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغيره تأثيرا في شيء أو قدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله أو أنه يملك ضر العباد أو نفعهم ونحو ذلك ، فهذا لا تصح عبادته ، فان أساسها الإيمان بالله رباً له شئون الربوبية كلها وكذلك من وحد الله في ربوبيته وإلهيته ولكنه ألحد في أسمائه فلم يثبت له ما دلت عليه تلك الأسماء من صفات الكمال أو أثبت لغيره مثل صفته لم ينفعه توحيده في الربوبية والإلهية فلا يكمل لأحد توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة .

١١ ــ الكلام في باب التوحيد والصفات من باب الخبر

الدائر بين النفي والإثبات والكلام في الشرع والقدر من باب الطلب والإرادة الدائر بين الإرادة والمحبة وبين الكراهة والبغض نفياً وإثباتاً، قال الشيخ فلا بد للعبدأن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه مما يضاد هذه الحال ولا بد له في أحكامه أن يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيماناً خالياً من الزلل ، وهذا يتضمن التوحيد في عبادتهوحده لا شريك له وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول ا هـ.

١٢ ـ وما ينزه عنه الله ينقسم إلى قسمين : متصل ومنفصل نفي ما يناقض ما و صف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من كل ما يضاد الصفات الكاملة وضابط المنفصل تنزيه الله عن أن يشاركه أحد من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تكون لغيره ومما ينزه الله عنه جهة السفل أوجهةتحيطبه

١٣ ـ مثال المتصل مما ينزه عنه الله ، النوم والإعياء والتعب واللغوب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والسنة .

١٤ ـ مثال المنفصل مما ينزه عنه الله : الزوجة والولد الشريك والكفو والظهير والشفيع بغير إذن الله والولي من الذل .

١٥ ـ قال الشيخ : يجب أن يعلم أن الكمال ثابت لله بل الثابت له أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كما لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز وإن الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك .

١٦ ـ وقال : وثبوت معنى الكمال لله قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى فما في القرآن من إثبات الحمد له وتفصيل محامده وأنه له المثل الأعلى وإثبات معاني أسمائه ونحو ذلك دال على هذا المعنى وقد ثبت لفظه الكامل في تفسير ابن عباس للصمد أن الصمد المستحق للكمال وهو السيد الذي كمل في سؤدده والعليم الذي كمل في علمه والعظيم الذي كمل في عظمته وهكذا سائر أسمائه الحسنى على هذا المنوال وهذا المعنى هو المستقر في فطر الناس فكما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق فانهم مفطورون على أنه أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأكمل من كل شيء .

١٧ ـ أسماء الله جل جلاله وعلا كلها حسنى لدلالتها على أحسن مسمى ومثالها : الله الحي القيوم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .

١٨ ـ أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة : الإيمان بالاسم

وبما دل عليه من المعنى وبما تعلق به من الآثار ، مثال ذلك أن تؤمن بأنه رحيم هذا الاسم وذو رحمة هذا المعنى وأنه يرحم من يشاء هذا الأثر قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء عليم ذو علم يعلم كل شيء وهلم جرا .

قال ابن القيم رحمه الله :

١٩ ـ الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاؤها لآثارها من الخلق والتكوين فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجبات العلم بها والتحقيق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية فعلم العبد بتفرد الرب بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل ظاهراً وهكذا بقية الصفات علم العبد بها يثمر من أنواع العبودية ما يناسب ذلك وقال التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه ، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها وأما أولياؤه فيجنبهم من كرب الدنيا والآخرة وشدائدها فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد .

وقال رحمه الله : الرب يدعو عباده إلى معرفته من طريق تدبر آياته المتلوة فان القرآن قد حوى من تفاصيل معرفة الله بأسمائه وصفاته شيئا عظيما ويدعوهم إلى النظر في مفعولاته فانها دالة على أفعاله والأفعال دالة على الصفات فان المفعول

يدل على فاعل فعله وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دالة على إرادة الفاعل وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته وما فيها من البطش والعقوبة والانتقام دال على غضبه وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى نهايته وتمامه دال على وقوع المعاد وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على امكان المعاد وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة دليل على صحة النبوة وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبر به رسله عنه

وقال: آيات الله التي دعا العباد إلى النظر فيها دالة عليه بأول النظر دلالة يشترك فيها كل سليم العقل والحاسة وأما أدلة هؤلاء الفلاسفة ونحوهم فخيالات وهمية وشبه عسرة المدرك بعيدة التحصيل متناقضة الأصول غير مؤدية إلى معرفة الله ورسله والتصديق بها مستلزم للكفر بالله وجحد ما جاءت به رسله ولا يصدق بهذا إلا من عرف ما عند هؤلاء وما عند هؤلاء ووازن بين الأمرين .

٢٠ ـ أسماء الله من قبيل المحكم لأن معانيها واضحة في لغة العرب وإنما الكنه والكيف مما استأثر الله بعلمه .

٢١ ـ إن الوصفية فيها لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد وكل أسماء الله دالة على معانيها وكلها أوصاف مدح .

٢٢ ـ إن أسماء الله توقيفية ومعنى ذلك أنه لا يتجاوز بها الوارد في الكتاب والسنة فهي تتلقى من طريق السمع لا بالآراء فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يسمى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢٣ ـ أسماء الله من قبيل المترادف بالنظر إلى الذات لدلالتها على مسمى واحد وبالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين لأن كل صفة غير الأخرى .

٢٤ ـ إن أسماء الله ليست محصورة بعدد معروف وأما الحديث الوارد في أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة فلا يفيد أنها محصورة بذلك وإنما غايته أن هذه الأسماء موصوفة بأن من أحصاها دخل الجنة .

٢٥ ـ مراتب إحصاء الأسماء الحسنى ثلاث : حفظها وفهمها ودعاء الله بها دعاء مسألة ودعاء عبادة .

٢٦ ـ إحصاء أسماء الله الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم لأن المعلومات القدرية والشرعية صادرة عن

اسماء الله وصفاته ولهذا كانت في غاية الإحكام والإتقان والصلاح والنفع .

٢٧ ـ أنواع دلالة الأسماء الحسنى ثلاثة دلالة مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله ، ودلالة تضمن إذا فسرناه ببعض مدلوله ودلالة ، التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها ، مثال ذلك لفظة « الرحمن » دلالتها على الرحمة والذات دلالة مطابقة وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلة بالضمن ودلالتها على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام .

٢٨ ـ ينبغي لمن أراد أن يسأل الله أن يسأله بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى كأن الداعي يستشفع إليه متوسلا به مثال ذلك طالب المغفرة يا غفار اغفر لي وطالب الرحمة يقول يا رحمن ارحمني وطالب التوبة يقول يا تواب تب علي وهلم جرا .

٢٩ ـ إذا كان الاسم منقسماً إلى مدح وذم لا يدخل بمطلقه في أسماء الله وذلك كالمريد والصانع والفاعل فهذه ليست من الأسماء الحسنى لانقسامها إلى محمود ومذموم بل يطلق عليه منها كمالها .

٣٠ ـ لا يلزم من اتحاد الاسمين تماثل مسماهما فان الله

سمى نفسه بأسماء تسمى بها بعض خلقه فلا يلزم من ذلك التشبيه وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه فلا يلزم من ذلك التشبيه ، مثال ذلك أنه تعالى وصف بالسمع والبصر والعلم والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب ووصف بذلك بعض خلقه ولكن ليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير فصفات كل موصوف تناسب ذاته وتليق به ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق لأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

٣١ ـ الأسماء المزدوجة المتقابلة لها ميزة عن غيرها ، ذلك المانع المعطي الضار النافع المعز المذل القابض الباسط الخافض الرافع ، فهذه لا يطلق واحد منها بمفرده على الله ولكن يكون مقروناً مع الآخر والحكمة في ذلك أن فيُ إفرادها ما يوهم نوع نقص تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ولأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما .

٣٢ ـ صفات الله تنقسم إلى قسمين : صفات ذات ، وصفات فعل ، وضابط صفات الذات هي التي لا تنفك عن الله ، وضابط صفات الفعل هي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة .

٣٣ ـ مثال صفات الذات : النفس العلم الحياة القدرة السمع البصر الوجه اليد الرجل الملك العظمة الكبرياء العلو الأصبع العين الغنى القدم الرحمة الحكمة القوة العزة الخبرة الوحدانية الجلال ، وهي التي لا تنفك عن الله .

٣٤ ـ مثال صفات الفعل الاستواء النزول الضحك المجيء العجب الفرح الرضى الحب الكره السخط والإتيان والمقت والأسف وهذه يقال لها قديمة النوع حادثة الآحاد ويصلح أن تقول قبلها إذا شاء .

٣٥ ـ مثال آيات الصفات : قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) ، (بل يداه مبسوطتان) ، (ولتصنع على عيني) ، (الرحمن على العرش استوى) ، (يحبهم ويحبونه) ، (غضب الله عليهم) ، (كره الله انبعاثهم) .

٣٦ ـ مثال أحاديث الصفات : قوله صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » ، « لله أشد فرحاً بتوبة عبده » ، « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » ، « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » « عجب ربنا من قنوط عباده » .

٣٧ ـ القول في الصفات لا يخالف القول في الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات ؛ فالصفات فرع الذات يحذى بها حذوها . قال بعضهم : إذا قال لك السائل كيف ينزل أو كيف استوى أو كيف يعلم أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق فقل له كيف هو في نفسه فاذا قال أنا لا أعلم كيفية ذاته فقل له وأنا لا أعلم كيفية صفاته فان العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف . فاثباتنا للصفات إثبات بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل .

٣٨ ـ وقال الشيخ رحمه الله : لا نعرف ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه فنحن نعرف أشياء بحسب الظاهر أو الباطن وتلك معرفة معينة مخصوصة ثم إنا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد فيبقى في أذهاننا قضايا كلية عامة ثم إذا خوطبنا بو صف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا إلا بمعرفة المشهود لنا فلولا أنا نشهد من أنفسنا جوعاً وشبعاً ورياً وحباً وبغضاً ولذة وألما وسخطا ورضا لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا وكذلك لو لم نعلم في الشاهد حياة وقدرة وعلماً وكلاماً لم نفهم ما نخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك وكذلك لو لم نشاهد موجوداً لم نعرف وجود الغائب عنا فلا بد فيما شهدناه وغاب عنا من قدر مشترك لنفهم الغائب .

٣٩ ـ وقال في شرح الطحاوية .

واعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها ويكون بينهما قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين هذا قط .

وقال فالمخاطب إذا أراد بيان معان فلا يخلو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع باحساسه وشهوده أو بمعقوله وإما أن لا يكون كذلك فان كان من القسمين الأولين لم يحتج إلى معرفة اللغة بأن يكون قد عرف معاني الألفاظ المفردة ومعنى التركيب فاذا قيل له بعد ذلك (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) ونحو ذلك فهم المخاطب بما أدركه بحسه وإن كانت

المعاني التي يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه ولا بحيث صار معقول كل يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ بل هي مما لا يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة فلا بد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التي شاهدها من التشابه والتناسب وكلما كان التمثيل أقوى كان البيان أحسن والفهم أكمل .

فالرسول صلى الله عليه وسلم لما بين لنا أمورا لم تكن معروفة قبل ذلك وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعاني وجعلها أسماء لها فيكون بينهما قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصيام والإيمان والكفر وكذلك لما أخبر بأمور تتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني والمعاني المشهودية التي كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يتعلم به حقيقة المراد كتعليم الصبي كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن :

الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم .

٤٠ ــ الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة ، قسمان يقولون تجرى على ظاهرها فقسم قالوا تجرى على ظاهرها اللائق بالله من غير تشبيه وهؤلاء هم السلف الصالح .

والقسم الثاني المشبهة الذين غلوا في الإثبات وقالوا تجعل

كصفات المخلوقين ومذهبهم باطل أنكره السلف .

وقسمان ينفيان ظاهرها وهم الجهمية ومن تفرع عنهم فقسم منهم يؤولونها بمعان أخر .

وقسم يقولون الله أعلم بما أراد منها ...

وقسمان واقفان فقسم يقولون يجوز أن يكون المراد اللائق بالله ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقادير والصواب في آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة السلفية . وهذا أمر واضح لا يخفى الا على من عميت بصيرته .

كما قيل :

والحق شمس والعيون نــواظر لا تختفي إلا على العميــــان
والقلب يعمى عن هداه كمثـل مـا تعمى وأعظم هذه العينــــان

٤١ ــ الواجب في آيات الصفات وأحاديثها التصديق بها وإثباتها وإمرارها كما جاءت من غير تحريف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف .

٤٢ ــ الأشاعرة يثبتون من الصفات سبعاً وينفون ما عداها وهي المذكورة في بيت :

له الحياة والكلام والبصر سمع إرادة وعلم واقتدر

٤٣ - قال الشيخ رحمه الله : أهل البدع من الجهمية ونحوهم في تحريفهم لنصوص الصفات ارتكبوا أربع عظائم ردهم لنصوص الأنبياء وردهم لما يوافق ذلك من عقول العقلاء وجعل ما خالف ذلك من أقوالهم المجملة الباطلة أصول الدين أو تكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة للعقل والنقل ... وأما أهل العلم والإيمان فهم على نقيض هذه الحال يجعلون كلام الله و كلام رسوله هو الأصل الذي يعتمد عليه وإليه يرد ما تنازع الناس فيه فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلا ومن كان قصده متابعته من المؤمنين وأخطأ بعد اجتهاده الذي استفرغ فيه وسعه غفر الله له خطأه في المسائل العلمية الخبرية أو المسائل العملية اهـ .

٤٤ - مذهب الجهمية في التوحيد هو نفي جميع الأسماء والصفات ، والرد عليهم بأن يقال بأنه يلزم من نفي الأسماء والصفات العدم فكل موجود لا بد له من صفات فلا يوجد ذات مجردة عن الصفات .

ومذهب المعتزلة هو نفي جميع الصفات وإثبات الأسماء والرد عليهم أن يقال : القول في الصفات كالقول في الأسماء فاذا كان يمكن إثبات الأسماء لله بدون تشبيه فكذلك الصفات ، ومذهب الأشاعرة إثبات الأسماء مع بعض الصفات والرد

عليهم أن يقال : القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر فاذا كان يمكن إثبات بعض الصفات دون تشبيه فكذلك البعض الآخر .

٤٥ ـ النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب وأمراض القلب نوعان مرض شبهة ومرض شهوة وكلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » . فهذا مرض الشهوة وقال تعالى « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ». وقال «وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم » فهذا مرض الشبهة وهو أردأ من مرض الشهوة إذ مرض الشهوة يرجى له شفاء بقضاء الشهوة ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه فان شبهة النفي رد وتكذيب لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وتشبيه الله بخلقه كفر فان الله تعالى قال « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» وهذا أصل نوعي التشبيه فان التشبيه نوعان تشبيه الخالق بالمخلوق وهذا يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله وأهله في الناس أقل من النوع الثاني الذين هم أهل التشبيه أي تشبيه المخلوق بالخالق كعباد المشايخ وعزير والمسيح والشمس والقمر والأصنام وغير ذلك وهؤلاء هم الذين أرسلت إليهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . إنتهى شرح الطحاوية .

وقال الشيخ رحمه الله : ذم السلف والأئمة للكلام وأهله متناول لمن استدل بالأدلة الفاسدة أو استدل على المقالات الباطلة فأما من قال الحق الذي أذن الله فيه حكما ودليلا من أهل العلم والإيمان «والله يقول الحق ويهدي السبيل» وأما مخاطبة أهل الإصطلاح باصطلاحاتهم ولغتهم فليس بمكروه وإذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه .

٤٦ - قال بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهذا القول خطأ ومنشأ خطئه من أمرين أولا جهله بطريقة السلف وادعاؤه أن طريقتهم هي التفويض . ثانياً جهله وخطؤه في تصويب طريقة الخلف ، أما جهله بطريقة السلف فانه ظن أن طريقتهم هي الإيمان بمجرد ألفاظ نصوص الصفات بدون فهم لمعانيها وحقيقة طريقتهم هي العلم بمعانيها والتصديق بها تصديقاً لا يتطرقه الشك وعدم التعرض لها بالتحريف والتكييف والتشبيه : وأما جهله وخطؤه في تصويب طريقة الخلف فانه ظن أن الخلف هم الذين بحثوا وفهموا المعاني المجازية والغرائب والشواذ التي لا تقتضي التشبيه وصرفوا النصوص عن ظواهرها إلى تلك المعاني كقولهم استوى استولى ، واليدين القدرة ، والتكليم التجريح ، والرحمة إرادة الإنعام والغضب إرادة الانتقام ونحو ذلك من تأويلاتهم الفاسدة .

والحقيقة هي أن الخلف إنما بحثوا عن معان لم يردها الله ولا رسوله ولا تتفق مع لغة العرب وحرفوا من أجلها النصوص عن معانيها الحقيقية التي أرادها الله ورسوله منها والتي لا تقتضي تمثيل صفات الله بصفات خلقه بوجه من الوجوه ، وسبب خطئه في فهم مذهب السلف وتصويبه لمذهب الخلف هو اعتقاده أنه ليس في الواقع صفة دلت عليها النصوص بسبب شبهات عقلية عرضت له ولغيره من المعطلة وهي ترجع إلى أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه كما أن بعضهم يبقى مذبذباً بين الطريقتين على حسب فهمه عنهما .

٤٧ ـ أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم بألقاب افتروها فالروافض تسميهم نواصب والقدرية يسمونهم مجبرة والمرجئة تسميهم شكاكا والجهمية تسميهم مشبهة وأهل الكلام يسمونهم حشوية ونوابت وغثاء وغثراء إلى أمثال ذلك كما كانت قريش تسمي النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنونا وتارة شاعرا وتارة كاهنا وتارة مفتريا قالوا فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة قالوا فان السنة هي ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اعتقادا واقتصادا وقولا وعملا فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة فكذلك التابعون له على بصيرة الذين أولى الناس به في الحياة والممات باطنا وظاهراً . ا هـ.

قال ابن القيم رحمه الله :

فرموهمو بغياً بما الرامي به أولى ليدفع عنه فعل الجاني
يرمي البريء بما جناه مباهتا ولذاك عند الغر يشتبهان
سموهمو حشوية ونوابتا ومجسمين وعابدي أوثان
وكذاك أعداء الرسول وصحبه إن الروافض أخبث الحيوان
نصبوا العداوة للصحابة ثم سمـ ـموا بالنواصب شيعة الرحمن
وكذا المعطل شبه الرحمن بالمـ ـعدوم فاجتمعت له الوصفان
وكذاك شبه قوله بكلامنا حتى نفاه وذان تشبيهان

٤٨ ـ من الأدلة المبطلة للحكم بأن الخلف أعلم وأحكم في أسماء الله وصفاته وذاته وآياته ما يلي :

أولا : اضطراب الخلف في مباحث الإيمان بالله وإقرارهم على أنفسهم بالحيرة في ذلك وبالندم على ما اعتقدوه في الله لما تبين لهم تناقضه دليل على أنهم ليسوا أعلم من السلف أهل العلم واليقين والثبات وذلك واضح من أقوال أئمتهم وأذكيائهم .

ثانياً : إن السلف هم الذين ورثوا الرسول صلى الله عليه وسلم وقاموا بالدين علماً ودعوة وجهاداً والخلف إنما ورثوا الأوهام الفلسفية والمجوس والنصارى واليهود وخيالاتهم وشكوكهم .

ثالثاً : إن طريقة السلف يشهد لها العقل والنقل بخلاف طريقة الخلف فانما يشهدان عليها بالبطلان .

٤٩ : ـ سبب ظهور البدع والتحريف وكثرة التأويل والقيل والنزاع في الدين هو الإصغاء إلى شبه المبطلين والخوض في الكلام المذموم الذي عابه السلف ونهوا عنه وعن النظر فيه والإعراض عن الكتاب والسنة .

وتحكيم العقل والرأي واتباع الهوى ودعاة الباطل وعدم الرد عليهم وبث كتبهم المودعة من سمومهم القاتلة للأرواح .

٥٠ ـ وجه الشبه بين المنافقين الذين قال الله فيهم (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) الآيات وبين المتكلمين والمتفلسفة هو أن كلا منهم تحاكموا إلى غير الله فالمنافقون تحاكموا إلى طواغيتهم والمتكلمون حكموا عقولهم ، ثانياً أن كلا منهم يريد التوفيق فالمنافقون يريدون التوفيق بين الكافر والمسلم وأهل الفلسفة والمتكلمون يريدون التوفيق بين العقل والنقل ، ثالثاً أن كلا منهم يدعي أنه محسن في عمله . رابعا أن كلا منهم معرض عن الكتاب والسنة .

خامسا أن كلا منهم يظهر أنه مطيع لله ولرسوله وهو كاذب . سادساً اتفاقهم من حيث خطرهم على الدين وأهله ودسهم على الدين من حيث يأمن الناس . سادساً أن كلا منهم قصده سيء وهو القدح في الشريعة المطهرة . سابعا أن كلا منهم لم يغن عنه سمعه ولا بصره ولا فوآده شيئا ينفعه .

٥١ ـ قال الشيخ رحمه الله : والله خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة وهؤلاء الفلاسفة بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته خلقه وأمره وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم إدراكهم وحركاتهم قولهم وعملهم وأمروهم أن يتركوا الفطرة الربانية والعلوم النبوية ويمحوا من قلوبهم ذلك ويستبدلوا به العلوم الفلسفية المخالفة للعقل والنقل .

٥٢ ـ سبب ضلال من ضل في أصول الدين تفريطهم في اتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته فلما أعرضوا عن الكتاب والسنة ضلوا قال الله تعالى (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) . وقال الشيخ بعد أن ذكر نصوصاً كثيرة من القرآن في الأمر بالرجوع إلى القرآن في كل ثم قال فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان ما اختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ورد ما يتنازعون فيه إلى الكتاب والسنة وأن من لم يتبع ذلك كان منافقاً وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذلك حشر ضالا شقياً معذباً وان الذين فارقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم .

٥٣ ـ لا يحتاج المسلم إلى قواعد أهل الكلام واصطلاحاتهم

في الاستدلال بل يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها حيرة وضلال وريبة فان التوحيد إنما ينفع إذا سلم القلب من هذه الأمراض وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به .

٥٤ ـ قال ابن القيم : لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير فلم يروها منكراً الخ

٥٥ ـ قال في كتاب دعوة التوحيد :

يلجأ النفاة لصفات الله عز وجل إلى بعض الحجج التي يدعمون بها مذاهبهم في النفي ونحن نذكر هنا أقوى حججهم ونرد عليها :

قالوا : إن الدليل العقلي دل على استحالة تلك الظواهر فلو اعتقدناها كان ذلك مكابرة وإن أنكرناها كان ذلك تكذيباً بالشرع فوجب إزالة للتعارض تأويلها بما يوافق حكم العقل وما دامت اللغة العربية قد وردت بالحقيقة والمجاز واستحال حمل هذه الظواهر على معانيها الحقيقية عند العقل وجب صرفها إلى معان أخر بطريق المجاز .

والجواب : أن دعوى حكم العقل باستحالة هذه الظواهر إنما بنوه على استلزامها للمماثلة لأنهم لا يفهمون من هذه الظواهر عند إطلاقها على الله عز وجل إلا ما يفهم منها عند إطلاقها على المخلوق وقد بينا خطأ ذلك ، فان ظاهر لفظ اليد مثلا إذا أضيف إلى الله فهم منه معنى غير ما يفهم منه إذا أضيف إلى غيره ، وكذلك لفظ العين والوجه والاستواء والنزول وغيرها .

ولكن هؤلاء لما جعلوا اللفظ حقيقة في صفة المخلوق ولا يفهم منه عند الإطلاق غيرها أوجبوا تأويله وصرفه عن هذه الحقيقة عند إطلاقه على الله وقد قدمنا أن لكل لفظ من هذه الألفاظ معنى كلياً هو حقيقته التي يدل عليها عند الإطلاق وأن هذه الحقيقة تحتها أفراد وخصوصيات فاذا أضيف اللفظ تعين مسماه وكان دالا بالحقيقة على واحدة من هذه الخصوصيات فيقال يد زيد مثلا ويد الدابة ويد الإبريق ويد الله الخ فيكون اللفظ في كل منها دالا على معنى خاص هو صفة للمضاف إليه . على أن دعوى المجاز لا يمكن أن تسمع فان اللفظ المستعمل في معنى بطريق الحقيقة لا يجوز صرفه عن معناه إلى معنى آخر بطريق المجاز إلا إذا اجتمع له أربعة أشياء :

(الأول) أن يكون المعنى المجازي مما يصح أن يراد من اللفظ بأن يكون اللفظ مستعملا فيه في لغة العرب وإلا لأمكن لكل أحد أن يفسر أي لفظ بأي معنى وإن لم يكن له أصل في اللغة .

(الثاني) أن يكون مع اللفظ قرينة سمعية أو عقلية توجب صرفه عن حقيقته إلى مجازه .

(الثالث) أن لا يكون هناك معارض لتلك القرينة يقتضي إرادة الحقيقة وإلا وجب إرادتها من اللفظ وامتنع تركها .

(الرابع) أن المتكلم بكلام يريد به خلاف ظاهره لا بد أن يبين ذلك لاسيما في الخطابات العلمية التي يراد بها الاعتقاد ، ويتأكد ذلك إذا كان المتكلم هو أفصح الخلق وأقدرهم على البيان وأحرصهم على إفادة الحق والنصح للخلق لا يجوز أبداً أن يلقى القول على عواهنه دون أن يبين للناس ما عناه به ، وإلا كان ذلك قصوراً في البيان يجب أن يتنزه عنه أفصح الكلام . ولما ذكر ابن القيم رحمه الله أقوال النفاة للصفات قال بعد ذلك في النونية :

يا من يظن بأننا حفنـــا عليـــــــ	ـهم كتبهم تنبيك عن ذا الشان
فانظر ترى لكن نرى لك تَرْكَهَـــا	حذراً عليك مصائدَ الشيطـــان
فَشِبَاكُها والله لم يعلـــق بـــــه	مِن ذي جناح قاصر الطيران
إلا رأيتَ الطير في قفص الـــردى	يبكي له نوح على الأغصـــان
ويظــــل يخبـــط طالباً لخلاصـــه	فتضيق عنه فرجة العيـــــدان
والذنب ذنب الطير خلى أطيب الثـ	ـمرات في عال من الأفنـــــان
وأتى إلى تلك المزابل يبتغي الـــ	ـفضلات كالحشرات والديدان
يا قـــوم بالله العظـــيم نصيحـــة	من مشفق وأخ لكم معـــوان
جربت هذا كله ووقعت فـــي	تلك الشباك وكنت ذا طـيران

حتى أتاح ليَ الإلــــه بفضلـه	من ليس تجزيه يدي ولسـاني
حبراً أتى من أرض حـــران فيـا	أهلا بمن قد جاءَ من حران
فالله يجزيــه الذي هـــو أهلــه	من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يــرم	حتى أراني مطلع الإيمــان
ورأيت أعــلام المدينة حولهــا	نزل الهدى وعساكر القــرآن
ورأيت آثاراً عظيمــاً شأنهــا	محجوبة عن زمرة العميــان
ووردت رأس الماء أبيض صافيـاً	حصبــاؤه كلآلىءِ التيجــان
ورأيت أكوازاً هناك كثـيرة	مثل النجوم لوارد ظمآن
ورأيت حوض الكوثر الصافي الذي	لا زال يشخب فيه ميزابــان
ميزاب سنتـــه وقـــول إلهـــه	وهما مدى الأزمان لا ينيان
والناس لا يردونـــه إلا من الـ	آلاف أفراد ذوو إيمــان

نواقض الإسلام عشرة وهي ما يلي :

أولها : الشرك في عبادة الله قال تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به » فمن أشرك فقد كفر وانتقض إسلامه .

الثاني : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر .

الثالث : من لم يكفر المشركين أو يشك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر .

الرابع : من اعتقد أن هدي غير النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي

يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر .

الخامس : من أبغض شيئا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو عمل به فهو كافر .

السادس : من استهزأ بشيء من دين الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر والدليل قوله تعالى « قل أبالله ورسوله كنتم تستهزؤن » الآيتين .

السابع : السحر ومنه الصرف والعطف فمن فعله أو رضيه فقد كفر والدليل قوله تعالى « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

الثامن : مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى «ومن يتولهم منكم فانه منهم » .

التاسع : من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

العاشر: الاعراض عن دين الله لا يتعلم ولا يعمل به والدليل قوله تعالى «ومن أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها إن من المجرمين منتقمون » .

٥٥ ـ « فصل في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم »

(فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه وما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وحب الإيمان بها مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا إلى سماء

الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » متفق عليه) .

السنة تفسر القرآن وتبينه وتوضحه وتكشفه وتدل عليه وتعبر عنه وتفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه ، قال ابن عدوان :

وسنة خير المرسلـــين محمـد   تفسر آيات الكتاب الممجد
تبينـــه للطالبي سبـــل الهـــدى   تدل عليه بالدليـــل المؤكـــد

فعندما نريد معرفة شروط الصلاة وأركانها وواجباتها وشروط وجوب الزكاة وأنصبائها ومن يجب عليه الصوم والحج وشروط وجوبه وأركانه وواجباته نجدها موضحة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

ويرون أنها الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه والتعويل عليه ، فحكمها حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل ، قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وقال (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) وقال : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقال : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) .

وثبت في السنن عن المقدام بن معدى كرب قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكئاً على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » قال الترمذي حديث حسن .

وعن العرباض بن سارية قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيحسب أحدهم متكئاً على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر » الحديث ، رواه أبو داود وفيه أشعث بن شعبة المصيصي قد تكلم فيه .

وقال الأوزاعي عن حسان بن عطية : كان جبريل ينزل بالقرآن والسنة على النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن ، كما وصف الله بالصفات العلى في القرآن كذلك جاءت السنة بذلك وهي موافقة للقرآن لا تخالفه أصلا ، وأهل السنة يؤمنون بذلك ، فيجب الأيمان بما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم به ربه من الأحاديث الصحاح التي نقلها وتلقاها أهل المعرفة بالقبول كما يجب الإيمان بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف :

قال ابن عدوان :

وسلم لأخبار الصحيحين يا فتى ... ولكن عن التمثيل وفقت أبعد

ودع عنك تزويقات قوم فإنهـــا ... بجلتها التعطيل يا صاح مرتد

وأما أهل البدع فقد خالفوا في ذلك وردوا نصوص السنة وقالوا لا نقبل أخبار الآحاد في المسائل الاعتقادية ، ومنهم من ردها بالتأويلات المتعسفة ، وأهل السنة يؤمنون بما جاء في الكتاب والسنة جميعاً .

قال ابن القيم : فهذه الأحاديث تقرر نصوص القرآن وتكشف معانيها كشفاً مفصلا وتقرب المراد وتدفع عنه الاحتمالات وتفسر المجمل منه وتبينه وتوضحه لتقوم حجه الله به ويعلم أن الرسول بين ما أنزل إليه من ربه وأنه أبلغ ألفاظه ومعانيه بلاغاً مبيناً حصل به العلم اليقيني ، بلاغاً أقام به الحجة ، وقطع المعذرة ، وأوجب العلم وبينه أحسن البيان وأوضحه ، ولهذا كان أئمة السلف وأتباعهم يذكرون الآيات في هذا الباب ثم يتبعونها بالأحاديث الموافقة لها كما فعل البخاري ومن قبله ومن بعده من المصنفين في السنة .

ونحن نقول قولا كلياً يشهد الله تعالى عليه وملائكته أنه ليس في حديث رسول الله ما يخالف القرآن . ولا ما يخالف صريح العقل بل كلامه بيان للقرآن تفسير له وتفصيل لما أجمله ، وكل حديث رده من رد الحديث لزعمه أنه يخالف القرآن فهو موافق للقرآن مطابق له وغايته أن يكون زائداً على ما في القرآن وهذا الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبوله ونهى عن رده بقوله « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه » فهذا الذي وقع من وضع قاعدة له لرد

الأحاديث بها بقولهم في كل حديث زائد على ما في القرآن ، هذا زيادة على النص فيكون نسخاً ، والقرآن لا ينسخ بالسنة ، فهذا بعينه الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهاهم عنه وأخبرهم أن الله تعالى أوحى إليه بالكتاب ومثله معه فمن رد السنة الصحيحة بغير سنة تكون مقاومة لها متأخرة عنها ناسخة لها ، فقد رد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد وحي الله ، وقال الشيخ رحمه الله ينبغي للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله بل ليس لأحد أن يحمل كلام كل أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد فان كثيرا من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله يسلك مسلك من يجعل التأويل كأن ذكر ما يحتمله اللفظ وقصد به دفع ذلك المحتج بذلك عليه وهذا خطأ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الإيمان به فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض وليس الاعتناء في مراده في أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس فاذا كان النص الذي وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الله ورسوله فكذلك النص الآخر الذي تأوله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الله ورسوله بكلامه وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل .

وقال الشيخ رحمه الله : وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسله من صفاته ليس موقوفاً على أن يقوم دليل على تلك الصفة بعينها فانه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام

أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا . ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذي قال الله عنهم (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ، ولا متلقياً عنه الأخبار بشأن الربوبية ، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به فان ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه وما يخبر به إن علمه بعقله آمن به ولا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول وإخباره ، وبين عدم الرسول وعدم إخباره . وكان ما يذكره من القرآن والحديث والإجماع في هذا الباب عديم الأثر عنده ، وقد صرح به ائمة هذا الطريق . وقال : على الناس أن يجعلوا كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم هو الأصل الإمام المقتدى به سواء فهموا معناه أو لم يفهموه ، فيؤمنوا بلفظ النصوص وإن لم يعرفوا حقيقة معناها ، وأما ما سوى كلام الله و كلام رسوله فلا يجعل أصلا بحال .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه أكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل والقيـاس فالتأويل في الأدلة السمعية والقياس في الأدلة العقليـة ، وقال شيخ الإسلام وهو كما قـال والتأويل الخطأ إنما يكون في الألفاظ المتشابهة والقياس الخطأ إنما يكون في المعاني المتشابهة ، قال وقدوقع بنوآدم في عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضلالات حتى آل الأمر

بمن يدعي التحقيق والتوحيد والعرفان منهم إلى أن اشتبه عليهم وجود الرب بوجود كل موجود وهذا غاية الضلال .

وقال ما أخبر به الرسول عن ربه فانه يجب الإيمان به سواء عرفنا معناه أو لم نعرفه لأنه الصادق المصدق فما جاء بالكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه وكذا ما يثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصاً عليه في الكتاب والسنة متفق عليه بين سلف الأمة .

وما تنازع فيه المتأخرون نفياً وإثباتاً فليس لأحد بل ولا له أن يوافق على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده فان أراد حقاً قبل وإن أراد باطلا رد وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى اهـ .

حديث « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا .. »

يخبرنا صلى الله عليه وسلم بنزول ربه جل وعلا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر وأنه من لطفه بعباده وإحسانه إليهم يحثهم ويرغبهم في دعائه وسؤاله واستغفاره ويتكفل لهم جلا وعلا بالإجابة .

ما يؤخذ من حديث النزول من الفوائد :

(١) اثبات علو الله على خلقه وأن مِمَّا هو ثابت لله وَوَاجِبٌ له جهة العلو اللائقة بجلاله وعظمته من غير إحاطة به .

وقف لله تعالى

(٢) إثبات صفة النزول كما يليق بذاته تعالى ايضاً .

(٣) إثبات الربوبية .

(٤) إثبات القول لله .

(٥) إثبات صفة الكلام .

(٦) إثبات الأفعال الاختيارية .

(٧) أن ثلث الليل الآخر من أوقات إجابة الدعاء .

(٨) فيه رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من المنكرين لعلو الله على خلقه

(٩) الرد على من أنكر صفة النزول أو أولها بتأويل باطل .

(١٠) الرد على الحلولية الذين يزعمون أن الله حال في كل مكان .

(١١) الحث على الدعاء في ثلث الليل الآخر .

(١٢) أن الدعاء ينفع .

(١٣) الحث على الاستغفار .

(١٤) الرد على من قال ينزل ملك .

(١٥) إثبات صفة المغفرة .

(١٦) دليل على فضل الدعاء .

(١٧) أن الدعاء والاستغفار وغيرهما من أنواع العبادات يختلف فضلها بحسب الزمان والمكان .

(١٨) لطف الله بخلقه لحثه إياهم على دعائه .

(١٩) أن الله يجيب دعاء من دعاه ما لم يكن هناك مانع .

(٢٠) دليل على كرم الله وإحسانه .

(٢١) دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش استوى كما يليق بجلاله .

(٢٢) دليل على قدرة الله فان العاجز لا يدعى .

(٢٣) دليل على رحمة الله فان القاسي لا يدعى .

(٢٤) دليل على غناء الله .

(٢٥) دليل على السمع فان الأصم لا يدعى .

(٢٦) فيه تحريض على عمل الطاعة وإشارة إلى جزيل الثواب عليها.

(٢٧) تفضيل صلاة آخر الليل على أوله وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار يشهد له قوله (والمستغفرين بالأسحار) وأن الدعاء في ذلك الو قت مجاب ولا يعترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين لأن سبب التخلف وقوع الخلل في شرط من شروط الدعاء كالاحتراز في المطعم والمشرب أو لاستعجال الداعي أو بأن يكون الدعاء باثم أو قطيعة رحم أو تحصل الإجابة ويتأخر وجود المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله .

(٢٨) الرد على من أنكر وجود السماء وقال ما فيها إلا فضاء .

(٢٩) دليل على قرب الله من خلقه .

(٣٠) فقر الخلائق إلى الله .

(٣١) الحث على دعاء الله دعاء العبادة ودعاء المسألة فالأول هو سائر الطاعات والثاني هو دعاء المسألة وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر .

(٣٢) أن في الحديث ما يدعو إلى محبة الله لأن النفوس مجبولة على محبة من أحسن إليها أو عرض عليها ما ينفعها .

(٣٣) أن الإنسان يسأل الله ولا يستعظم ما يسأل ربه فانه لا يستعظم شيئاً أعطاه .

(٣٤) أن الله يحب من عباده أن يدعوه ويستغفروه ويسألوه .

(٣٥) أن الله لا يتبرم بالحاح الملحين .

(٣٦) الرد على الجبرية .

(٣٧) نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته .

(٣٨) أن من ترك الاستغفار فقد ظلم نفسه والضرر جاء من قبل نفسه وما ربك بظلام للعبيد .

ولا تسألن الناس مطلوب ملكهم وسل من له الملك الذي ليس يسلب

الله يغضب إن تركت سؤالـــه وبنيّ آدم حين يسأل يغضب

قال الشيخ رحمه الله في شرح حديث النزول : وأما النزول الذي لا يكون من جنس نزول أجسام العباد فهذا لا يمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثيرين ويكون قدره لبعض الناس أكثر أو أقل بل لا يمتنع أن يقرب إلى خلق من عباده دون بعض فيقرب إلى هذا الذي دعاه دون الذي لم يدعه ، وجميع ما وصف الرب به نفسه من القرب فليس فيه ما هو عام لجميع المخلوقات كما في المعية ، فان المعية وصف نفسه فيها بعموم وخصوص ، وأما قربه ما يقرب منه فهو خاص لمن يقرب كالداعي والعابد وكقربه عشية عرفه ودنوه إلى سماء الدنيا لأجل الحجاج وإن كانت تلك العشية قد تكون وسط النهار في بعض البلاد وتكون ليلا في بعض البلاد فان تلك البلاد لم يدن إليها ولا إلى سمائها الدنيا وإنما دنا إلى السماء التي على الحجاج وكذا نزوله بالليل وهذا كما أن حسابه لعباده كحسابهم كلهم في ساعة واحدة وكل منهم يخلو به كما يخلو العبد بالقمر ليلة البدر فيقرره بذنوبه وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره ، كذلك في حديث أبي رزين .

وكذلك في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم « إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي ... » إلى آخر الحديث ، فهذا يقوله سبحانه لكل مصل قرأ الفاتحة ممن لا يحصي عدده إلا الله كل واحد منهم يقول الله له كما يقول لهذا كما يحاسبهم كذلك فيقول لكل واحد ما يقول من القول في ساعة واحدة وكذلك سمعه لكلامهم يسمع كلامهم

كله مع اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم ، يسمع دعاءهم سمع إجابة ويسمع كل ما يقولون سمع علم وإحاطة لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ، فانه سبحانه هو الذي خلق هذا كله وهو الذي يوصل الغذاء إلى كل جزء من البدن على مقدار وصفته المناسبة له ، وكذلك من الزرع ، وكرسيه وسع السموات والأرض ولا يؤده حفظهما فاذا كان لا يؤوده خلقه ورزقه على هذه التفاصيل فكيف يؤوده العلم بذلك أو سمع كلامهم أو رؤية أفعالهم وإجابة دعائهم ، سبحانه وتعالى علوا كبيرا (وما قدروا الله حق قدره) الآية ، فمن كانت هذه عظمته كيف يحصره المخلوق سماء أو غير سماء ، حتى يقال إنه إذا نزل إلى سماء الدنيا صار العرش فوقه ويصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به سبحانه وهو قادر أن ينزل سبحانه وهو على عرشه فقوله إنه ينزل مع بقاء عظمته وعلوه على العرش أبلغ في القدرة والعظمة وهو الذي فيه موافقة للشرع والعقل اه .

قال ابن القيم :

وكذا نزول الرب جل جلالـه	في النصف من ليل وذاك الثان
فيقول لست بسائل غيري بأحـــ	وال العباد أنا العظيم الشان
من ذاك يسألني فيعطى سؤلـه	من ذا يتوب إلي من عصيان
من ذاك يسألني فأغفـر ذنبـه	فأنا الودود الواسع الغفـران
من ذا يريد شفاءه من سقمـه	فأنا القريب مجيب من ناداني
ذا شأنـه سبحانه وبحمـده	حتى يكون الفجر فجراً ثان

(وقوله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه ، وقوله صلى الله عليه وسلم « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخلان الجنة » متفق عليه ، وقوله : « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب » حديث حسن) .

في الأحاديث المذكورة إثبات صفة الفرح ، والضحك ، والعجب ، وهي من صفات الأفعال الاختيارية .

الحديث الأول :

المفردات : الفرح لغة السرور ، التوبة : الرجوع من المعصية إلى الطاعة ، الراحلة ، من الإبل ما كان صالحاً لأن يرحل ، اللام لام الابتداء .

هذا حديث جليل فيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين في توبتهم ، الخالعين ثياب الإصرار على المعاصي البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده الطالبين لعفوه الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم وحصول مطلوبهم . روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة ، والبراء بن عازب ، والنعمان بن بشير ، وأنس . ولفظ حديث

أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » متفق عليه ولمسلم « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له فهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه في ثبوت هذه الصفة ونفي الإجمال والاحتمال وفرحة تعالى بتوبة عبده لأن رحمته سبقت غضبه وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب فانه سبحانه رحيم ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك ، ليس كذلك غضبه فانه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضباناً دائماً غضباً لا يتصور انفكاكه ورحمته وسعت كل شيء وغضبه لم يسع كل شيء وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب ووسع كل شيء رحمة وعلماً ولم يسع كل شيء غضباً وانتقاما .

ففي الحديث :

(١) إثبات الألوهية .

(٢) صفة الفرح .

(٣) الحث على التوبة .

(٤) فضل التوبة .

(٥) أن الله يقبل توبة العبد إذا وقعت على الوجه المشروع .

(٦) متمسك لمن قال إن للقاتل توبة .

(٧) دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

(٨) فيه رد على من أنكر صفة الفرح أو أولها بتأويل باطل .

(٩) فيه دليل على أن الإنسان إذا جرى على لسانه كلمة كفر من شدة دهش ونحوه أنه لا يكفر بذلك ولا يؤاخذ به ، ولهذا لم يكفر بقوله : أنت عبدي وأنا ربك .

الحديث الثاني :

في هذا الحديث الجليل يخبرنا صلى الله عليه وسلم عن كرم الله وجوده وأنه متنوع . فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر جعل الله لكل منهما سبباً أوصله إلى الجنة ، فالأول قاتل في سبيل الله فأكرمه الله على يد الرجل الآخر الذي لم يسلم بعد بالشهادة التي هي أعلى المراتب بعد مرتبة الصديقين ، وأما الآخر فان الله جعل تاب التوبة مفتوحاً لكل من أراد التوبة بالإسلام فما دونه فلما ناب محا الله عنه الكفر وآثاره ثم من عليه بالشهادة فدخل الجنة كأخيه الذي قتله .

ويستنبط من الحديث :

(١) إثبات صفة الضحك لله ، وهي من الصفات الفعلية .

(٢) إثبات الألوهية .

(٣) الترغيب في الدخول في الإسلام .

(٤) فيه دليل على تنوع كرم الله .

(٥) أن القتل في سبيل الله يكفر الذنوب .

(٦) أن التوبة تأتي على جميع الذنوب حتى القتل .

(٧) الحث على الجهاد في سبيل الله .

(٨) إثبات الأسباب .

(٩) الرد على من أنكر صفة الضحك أو أولها بتأويل باطل .

(١٠) أن التوبة من أجل الطاعات .

(١١) في الحديث متمسك لمن قال أن للقاتل عمداً توبة

الحديث الثالث :

العجب : لغة استحسان الشيء ، القنوط : شدة اليأس ، وقرب غيره أي تغييره الحال من شدة إلى رخاء ، أزلين : الأزل : بمعنى الشدة والضيق .

المعنى : يخبرنا صلى الله عليه وسلم أن الله ـ جل وعلا ـ يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر ويأسهم من نزوله ،

وقد اقترب وقت الفرج ورحمته لعباده بانزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون . قال بعضهم :

إذا أشملت على اليأس القلوب ... وضاق بما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكـــاره واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تـــر لانكشاف الضروجهـا ... ولا أغنى بحيلتــه الأديــب
أتــاك على قنوط منك غوث ... يمن به اللطيف المستجيــب
وكــل الحادثات إذا تنــاهت ... فموصول بها فرج قريب

قال الشيخ : والسبب في أن فرج الله يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق هو تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ومن كمال نعمة الله على عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد ، وقال ابن عدوان :

ويعجب ربي من قنــوط عباده ... فألق لما بينت سمعك واهتد
وفي رقيــة المرضى مقال نبينـا ... ألا ارق به مرضاك يا ذا التسدد
رواه أبو داود يا ذا وغـــير ... ألا احفظ هداك الله سنة أحمد

ويفهم من الحديث :

(١) إثبات صفة العجب .

(٢) إثبات الربوبية .

(٣) إثبات نظره إلى عباده سبحانه وتعالى .

(٤) فيه دليل على أن الفرج مع الكرب .

(٥) لطف الله بخلقه .

(٦) الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينفون صفة الضحك والعجب .

(٧) إثبات صفة الضحك .

(٨) إثبات صفة العلم .

(٩) الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل

(١٠) أن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته .

(١١) أن نزول الغيث مما انفرد الله بعلمه .

(١٢) دليل على جود الله وكرمه .

(١٣) وجوب حسن الظن بالله والابتعاد عن القنوط من رحمة الله .

(١٤) إثبات قدرة الله .

(١٥) أن خير الله لا يستبعد انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول كن فيكون .

(١٦) أن لم يهمل عباده بل هو رقيب عليهم .

(١٧) الحث على مراقبة الله .

(١٨) دليل على غنى الله .

(١٩) في الحديث ما يدعو إلى محبة الله .

(٢٠) إثبات حكمة الله حيث ينزل الغيث في الأوقات اللائقة به .

(٢١) الرد على من أنكر حكمة الله كالجهمية .

(٢٢) اثبات صفة الحياة لله .

(٢٣) الحث على التوجه إلى الله .

(٢٤) أن تأخير المطر ليس عبثا بل لحكم منها توجه العباد بقلوبهم إلى الله وتوبتهم وانكفاف بعضهم عن المعاصي ونحو ذلك من الحكم والأسرار .

(٢٥) أن الله يبتلي العباد بالضراء والسراء .

(٢٦) الرد على من ادعى علم الغيب .

(٢٧) أن جميع العباد فقراء إلى الله .

(٢٨) حسن محادثة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه .

صفة الرجل والقدم والكلام

(قوله : وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها رجله وفي رواية عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول قط قط » متفق عليه وقوله « يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار » متفق عليه وقوله « ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ») .

الحديث الأول : « جهنم »علم على طبقة من طبقات النار ، « قط » حسبي ويكفيني « يلقي » يطرح ، « ينزوي » ينضم بعضها إلى بعض ، « الرب » المالك المتصرف المربي لجميع الخلق بأصناف النعم — .

قال بعضهم :

رب يربي العالمين ببره	ونواله أبداً إليهم واصل
تعصيه وهو يسوق نحوك دائماً	ما لا تكون لبعضه تستاهل

هل من مزيد : أي من زيادة ، تطلب الزيادة لسعتها وبعد قعرها ، العزة : القوة والغلبة والامتناع . هذا الحديث يتضمن الإنذار والتخويف مما أمامنا وذلك أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أخبر أن جهنم لا تزال يطرح فيها من أهلها المستحقين لها وهي تطلب الزيادة إلى أن يضع الرب جل وعلا عليها رجله فعند ذلك ينضم بعضها إلى بعض وتقول حسبي ويكفيني .

ففي الحديث :

(١) إثبات الرجل لله جل وعلا

(٢) إثبات القدم

(٣) إثبات الربوبية .

(٤) إثبات صفة العزة .

(٥) إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال .

(٦) الحث على الأعمال الصالحة .

(٧) الخوف من النار .

(٨) إثبات النار وأنها مخلوقة .

(٩) أن جهنم تتكلم

الحديث الثاني :

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال يا رب : وما بعث النار ؟ قال من كل ألف ـ أراه قال : تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قال النبي صلى الله عليه وسلم « من يأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا » .

المفردات : لبيك من ألب في المكان إذا أقام به أي أنا مقيم على طاعتك ، وسعديك : من المساعدة وهي المطاوعة ،

ومعناها إسعاد بعد إسعاد ، النداء : الصوت الرفيع ، البعث : يعني المبعوث ، ويقال بعث النار حزبها .

المعنى يخبرنا صلى الله عليه وسلم عما سيكون يوم القيامة من أن الله عز وجل يأمر أبانا آدم أن يخرج من ذريته بعثاً إلى النار .

ففي الحديث :

(١) إثبات القول لله .

(٢) إثبات الألوهية .

(٣) إثبات النداء .

(٤) إثبات الأفعال الاختيارية .

(٥) تخصيص آدم بذلك لكونه والد الجميع .

(٦) قال ابن القيم رحمه الله أن قوله لبيك يتضمن إجابة داع دعاك ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلم ولا يدعو من أجابه .

(٧) أنها تتضمن المحبة ، ولا يقال لبيك إلا لمن تحبه وتعظمه .

(٨) وأنها تتضمن التزام دوام العبودية .

(٩) وأنها تتضمن الخضوع والذل .

(١٠) أنها تتضمن الإخلاص .

(١١) أنها تتضمن الإقرار بسمع الرب إذ يستحيل أن يقول الرجل لمن لا يسمع دعاء لبيك .

(١٢) أنها تتضمن التقرب من الله تعالى .

(١٣) في الحديث دليل على عدد بعث النار وأنه من الألف (٩٩٩) .

(١٤) أن بعث الجنة من الألف واحد فقط .

(١٥) إثبات أمر الله .

(١٦) مزية لآدم وشرف .

قال ابن القيم رحمه الله :

يا سلعةَ الرحمنِ ليسَ ينالُها	بالألفِ إلاَّ واحد لا اثنانِ
يا سلعةَ الرحمنِ لستِ رخيصةً	بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعةَ الرحمنِ ماذا كفْؤُها	إلا أولُو التقوى معَ الإيمان
يا سلعةَ الرحمنِ سُوقُكِ كاسِد	بيَنَ الأراذِلِ سَفَلَةِ الحيوان
يا سلعةَ الرحمنِ أينَ المُشتَرِي	فلَقدْ عُرِضْتِ بأيسَرِ الأثمان
يا سلعةَ الرحمنِ هلْ مِن خاطبٍ	فالمهْرُ قبلَ الموتِ ذُو إمكان
يا سلعةَ الرحمنِ كيفَ تصبُّر	الخُطّابِ عنك وهُم ذَوُو إيمان
يا سلعةَ الرحمنِ لولا أنهَا	حُجِبتْ بِكل مكارهِ الإنسان
ما كان عنها قطُّ مِن مُتَخلِّفٍ	وتعطّلتْ دارُ الجزاءِ الثاني

لكنها حُجِبَتْ بكلِ مَكَرِيهةٍ ليُصَدَّ عنها المُبطِلُ المُتَواني
وتنالُها الهِمَمُ التي تَسمُو إلى ربِ العُلَى بمَشيئةِ الرحمن

الحديث الثالث :

الخطاب للصحابة رضوان عليهم ويلتحق بهم المؤمنون كلهم سابقهم ومقصرهم ، والترجمان المعبر عن لغة بلغة ، قال بعضهم « ومن يفسره لغة بلغة . مترجم عند أهيل اللغة » .

ففي الحديث :

(١) إثبات صفة الكلام لله .

(٢) إثبات الربوبية .

(٣) إثبات البعث .

(٤) إثبات الحشر .

(٥) إثبات الحساب .

(٦) إثبات الجزاء على الأعمال .

(٧) إثبات الجنة والنار .

(٨) الحث على الأعمال الصالحة .

(٩) الرد على من أنكر صفة الكلام لله .

(١٠) حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل السنة إلى الأمة.

(١١) إثبات قدرة الله .

(١٢) اثبات صفة الحياة لله .

صفة العلو لله :

(وقوله في رقية المريض : « ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك ، أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ » حديث حسن ، رواه أبو داود وغيره ، وقوله « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء » حديث صحيح ؛ وقوله « والعرش فوق الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه » حديث حسن رواه أبو داود وغيره ، وقوله للجارية : « أين الله ؟ قالت : في السماء قال : من أنا ... ؟؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فانها مؤمنة » رواه مسلم) .

الحديث الأول :

الرب : السيد المربي لجميع الخلق بأصناف النعم ، تقدس : تنزه ، الرقية القراءة على المريض ، حوبنا ، الحوب : الإثم ، الخطايا : هي الذنوب والآثام .

هذا وفي الحديث التوسل إلى الله بربوبيته وهي تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، فالعامة هي : خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا وأما الخاصة : فتربيته لأنبيائه وأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكلؤهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر ، ولعل

هذا هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فان مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة .

ويؤخذ من الحديث :

(١) إثبات الربوبية العامة .

(٢) إثبات الألوهية .

(٣) إثبات علو الله على خلقه والمأخذ من قوله : (في السماء) ، وفي تكون بمعنى على ، كقوله : (فامشوا في مناكبها) وقوله : (فسيحوا في الأرض) وقوله يتيهون في الأرض وكقوله : (فسيروا في الأرض) أي عليها وقوله (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل . الثاني : أن المراد بالسماء العلو ، وعلى الوجهين فهي نص في علو الله على خلقه

ويستنبط من الحديث :

(٤) أمر الله الكوني والقدري .

(٥) تنزيه الله عما لا يليق بجلاله وعظمته .

(٦) التوسل إلى الله برحمته .

(٧) التوسل إلى الله بسؤال المغفرة للحوب والخطايا .

(٨) التوسل إلى الله بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده .

(٩) إثبات أمر الله الديني الشرعي ، ودليله قوله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى)
ودليل الكوني (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

(١٠) عموم أمره الكوني القدري والديني الشرعي .

(١١) الإتيان من صفات الله في كل مقام بما يناسبه .

(١٢) إثبات الرقية وأنها مباحة ، قال العلماء بجوازها عند اجتماع ثلاثة شروط .

(أ) أن تكون بأسمائه أو بكلامه أو بصفاته .

(ب) أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه .

(جـ) أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله .

(١٣) الرد على الجهمية وأتباعهم من المنكرين لهذه الصفات .

(١٤) إثبات قدرة الله .

(١٥) إثبات صفة الرحمة . التي هي الصفة الذاتية .

(١٦) فيه دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

(١٧) إثبات الأسماء لله .

(١٨) الرد على من أنكر وجود السموات .

(١٩) اثبات الرحمة المخلوقة المطلوب إنزالها .

(٢٠) إثبات الربوبية الخاصة .

الحديث الثاني :

هذا الحديث أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : بعث علي من اليمن بذهبية في أديم مقروض ولم تحصل من ترابها ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة : زيد الخير والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، وعلقمه بن علاثـــة ـ أو عامر بن الطفيل ، شك عمـــارة ـ فوجد من ذلك بعض الصحابة من الأنصار وغيرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء » وقوله « ألا تأمنوني » ألا أداة استفتاح ، المعنى : ألا تأمنوني وأنا أمين الله سبحانه وتعالى الذي في السماء على تبليغ شرعه ودينه . قيل : إن القائل للنبي هو ذو الخويصرة التميمي فاستأذنه بعض الصحابة في قتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « دعه فانه يخرج من ضئضىء هذا ـ أي من جنسه ـ قوماً تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وقراءتكم مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم أجراً لمن قتلهم » الحديث .

فأول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ففاجئوه بهذه المقالة ، ثم كان ظهورهم في أيام علي بن أبي طالب فقتلهم في النهروان ، ثم شعبت منهم شعوب وآراء

وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة . ثم حديث بعدهم بدعة القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق بقوله : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » أخرجه الحاكم في مستدركه .

ويستنبط من الحديث :

١ ـ إثبات علو الله على خلقه

٢ ـ ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الحلم والصبر على ما يأتيه من الأذى و (في) التي في الحديث يقال فيها كما قيل في (في) التي في الحديث الذي قبل هذا .

٣ ـ الرضا والتسليم لأمر الله ورسوله وما صدر عنهما من الأحكام .

الحديث الثالث :

وهو قوله « والعرش فوق ذلك » الحديث رواه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده وغيرهما ، ولفظ أحمد في المسند عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما هذا ؟ قال قلنا : السحاب ،

قال والمزن ، قلنا والمزن ، قال والعنان ، قلنا والعنان ، قال : فسكت فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله تبارك وتعالى فوق ذلك ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء » .

والحديث دليل على :

١ ـ علو الله على خلقه واستواؤه على عرشه فان مما هو ثابت لله وواجب له جهة العلو اللائقة بجلاله وعظمته من غير احاطة به .

٢ ـ تفسير الاستواء بالعلو كما هو مذهب السلف .

٣ ـ الرد على من أنكر صفة العلو أو أولها بتأويل باطل كمن زعم أن الفوقية فوقية رتبة وشرف فان حقيقة الفوقية علو ذات الشيء على غيره .

٤ ـ الرد على من نفى العرش وزعم أن عرشه ملكه وقدرته .

٥ ـ إثبات الألوهية .

٦ ـ أن العرش فوق المخلوقات .

٧ ـ الجمع بين الإيمان بعلو الله واستوائه على عرشه .

٨ ـ الرد على من أول الاستواء بالاستيلاء .

٩ - إثبات صفة العلم .

١٠ - إحاطة علمه سبحانه بالموجودات كلها .

١١ - الرد على من أنكر صفة العلم أو قال عليم بلا علم كالمعتزلة .

١٢ - إثبات قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء .

الحديث الرابع :

وقوله للجارية « أين الله ؟ » هذا حديث صحيح روي من طرق متواترة عن معاوية بن الحكم السلمي قال : كانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لي فأطلعتها ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب بشاة منها فأسفت فصككتها فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك ، فعظم ذلك علي ، فقلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال ادعها فدعوتها ، فقال لها : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال اعتقها فانها مؤمنة » أخرجه مسلم في صحيحه ورواه أبو داود والنسائي ..

ويستنبط من الحديث :

١ - إثبات العلو لله على خلقه

٢ - الرد على الجهمية ونحوهم من المنكرين لهذه الصفة

٣ - جواز الاستفهام عن الله بأين ، قال ابن عدوان :

وقد جاءَ لَفْظُ الأين مِن قول صادقٍ رسولِ إلهِ العالمينَ مُحَمَّدِ
كما قد رواه مسلم في صحيحهِ كذاك أبُو دَاوُدَ والنَّسْئِي قَدِ

٤ ـ جواز الإشارة إلى العلو .

٥ ـ أن من شهد هذه الشهادة أنه مؤمن ، قال الصرصري :

لقد صَحَّ إسلام الجُوَيْرِية الـتي بإصْبُعها نَحوَ السماءِ تُشيرُ

٦ ـ أنه يشترط في صحة العتق الإيمان .

٧ ـ شهادته صلى الله عليه وسلم بالإيمان لهذه الجارية التي اعترفت بعلو الله على خلقه .

٨ ـ أن من شهد هذه الشهادة يكتفي بايمانه .

٩ ـ أن العباد مفطورون على أن الله عال عليهم .

١٠ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

١١ ـ اثبات السماء والرد على من أنكر ذلك وقال ما فيه الافضاء .

ومن الأدلة على علو الله غير ما ذكره الشيخ رحمه الله في هذه العقيدة ما ورد من أن سعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد حكمت حكما حكم الله به من فوق سبعة أرقعة وحديث المعراج في رجوع إلى ربه وسؤاله لأمته التخفيف وحديث يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا الحديث متفق عليه .

وعن ابن عمر قال لما قبض الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم دخل عليه أبو بكر فأكب عليه وقبل وجهه وقال بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيا وميتا وقال من كان يعبد محمداً فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي في السماء لا يموت رواه البخاري .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وتقول إن الله زوجني من السماء وفي لفظ زوجكن أهلوكن وزوجني الله من فوق سبع سموات أخرجه البخاري ، وفي حديث جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله فوق عرشه فوق سماواته وسماواته فوق أرضه مثل القبة » وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده مثل القبة وحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يرحم من في الأرض لم يرحمه من في السماء » .

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري به مرت به رائحة طيبة فقال يا جبريل ما هذه الرائحة فقال هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وكانت تمشطها فوقع المشط من يدها فقالت باسم الله فقالت ابنته أبي فقالت لا بل رب أبيك فأخبرت أباها فدعا بها فقال ألك رب غيري قالت ربي وربك الله الذي في السماء وأمر بنقرة نحاس فأحميت ثم دعا بها وبولدها فألقاهما فيها الحديث رواه الدارمي وغيره . وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « لما ألقي ابراهيم في النار قال اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك » وأما الآثار فكثيرة عن الصحابة رضي الله عنهم منها قول عمر رضي الله عنه عن خولة لما استوقفته فوقف لها فسئل عنها فقال هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، وابن عباس لما دخل على عائشة رضي الله عنها وهي في النزع فقال أنت أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن يحب إلا طيبا وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات .

المعية والاحاطة والقرب

الأدلة من السنة وقوله : (« أفضل الإيمان : أن نعلم أن الله معك حيثما كنت » حديث حسن .

وقوله : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه ، ولا عن يمينه ، فان الله قبل وجهه ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » متفق عليه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم رب السموات ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء . أنت الظاهر فليس

فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر » رواه مسلم .

وقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم . فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » متفق عليه) .

الحديث الأول :

في الحديث يبين لنا صلى الله عليه وسلم فضل الإيمان وأنه يتفاضل وأن بعض خصاله أفضل من بعض ، ويحثنا على استحضار قرب الله واطلاعه ومعيته .

ففي الحديث :

١ ـ دليل على المعية العامة وهي معية العلم والإحاطة والاطلاع .

٢ ـ أن الإيمان يتفاضل .

٣ ـ فضل عمل القلب .

٤ ـ أن أعمال القلوب داخلة في مسمى الايمان .

٥ ـ أن بعض خصال الإيمان أفضل من بعض .

٦ ـ الرد على من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

٧ ـ أن الإحسان أكمل مراتب الدين ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه .

٨ - الحث على ما يوجب خشية الله وتعظيمه وإخلاص العبادة له سبحانه ، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها .

الحديث الثاني :

يحث صلى الله عليه وسلم على لزوم الأدب مع الله خصوصاً إذا دخل الإنسان في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخضع ويخشع ويعلم أنه واقف بين يدي الله فيقلل من الحركات ولا يسيء الأدب معه بالبصاق أمامه أو عن يمينه ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه .

ويستنبط من الحديث :

١ - الحث على استحضار قرب الله ومعيته .

٢ - دليل على قرب الله .

٣ - فيه دليل على جواز العمل اليسير في الصلاة وأنه لا يبطلها.

٤ - أن البصاق يجوز والإنسان يصلي .

٥ - استحباب ازالة ما يتقذر وما يتنزه عنه في المسجد .

٦ - النهي عن البصاق قبل وجهه ، وعن يمينه تشريفاً لها .

٧ - جواز البصاق تحت القدم أو عن اليسار والمراد إذا كان خارجاً عن المسجد ، والا في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها كما في الحديث .

٨ - لزوم الأدب مع الله خصوصاً في الصلاة .

الحديث الثالث :

« اللهم » معناه يا الله ، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب ، فلذا لا يقال اللهم غفور رحيم ، بل يقال : اللهم اغفر لي وارحمني ، زيدت فيه الميم للتعظيم والتفخيم على الصحيح ، والميم تدل على الجمع وتقتضيه ومخرجها يقتضي ذلك لأنها حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه فوضعته العرب علماً على الجمع ، وإذا علم هذا من شأن الميم فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم « اللهم » الذي يسأل العبد ربه سبحانه في كل حاجة وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه تعالى وصفاته ، فاذا قال السائل : اللهم إني أسألك ، فكأنه قال أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته ، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها فالداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، كما في الاسم الأعظم « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم » وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى .

والدعاء ثلاثة أقسام : أحدها أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، الثاني : أن تسأل بحاجتك وفقرك ، وذلك بأن تقول أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك ، الثالث : أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين

فالأول أكمل من الثاني والثاني أكمل من الثالث فاذاجمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل .

وهذه عامة آدعية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول قد جاء عن غير واحد من السلف ، قال الحسن البصري : اللهم مجمع الدعاء ، وقال أبو رجاء العطاردي : إن الميم في قوله اللهم فيها تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله ، وقال النضر بن شميل من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه .

رب : تأتي بمعنى المربي والمالك ، والخالق : أي خالق العالم العلوي الذي هو السموات السبع ، ورب العرش العظيم أي مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع المخلوقات من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله ، علمه محيط بكل شيء وقدرته نافذة في كل شيء وهو على كل شيء وكيل . فالق الحب النوى : أي شاق ، والفلق الشق ، منزل التوراة والانجيل والقرآن : أي منزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . أعوذ . ألتجيء وأعتصم بجناب الله من شر كل ذي شر ، والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير ، قال أبو الطيب مادحاً لابن كيغل :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وهذان البيتان فيهما غلو عظيم ، نسأل الله العافية . قال بعض العلماء : ربما دعوت الله بمعنى هذين البيتين ، الدابة لغة ،اسم لما دب على وجه الأرض وأطلق عرفاً على ذوات الأربع ، وقوله آخذ بناصيتها أي تحت قهره وسلطانه فهو الذي يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء : أي أعوذ بك من شر كل شيء من المخلوقات لأنها كلها في سلطانه ، والناصية : قصاص الشعر في مقدم الرأس . وفي حديث ابن عباس قال للحسين لما أراد العراق : لولا أنني أكره لنصوتك ، أي أخذت بناصيتك ولم أدعك تخرج ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها « لم تكن واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب » أي تنازعني وهو أن يأخذ كل واحد من المتنازعين بناصية الآخر .

قوله « أنت الأول فليس قبلك شيء الخ .. » قد تقدم الكلام على قوله تعالى (هو الأول والآخر) الآية في ما سبق .

اشتمل هذا الحديث على التعليم الكامل لكيفية الثناء على الله عز وجل قبل سؤاله والاستعاذة به . إذ هو صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يثني على الله عز وجل بربوبيته التي عمت كل شيء ثم يعوذ ويعتصم به من شر نفسه ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها ثم يتوسل إليه بأسمائه أن يقضي عنه دينه ويغنيه من الفقر .

ففي الحديث :

١ ـ إثبات الربوبية .

٢ ـ إثبات ملكه .

٣ ـ الرد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعله فان الربوبية العامة تشمل أفعال خلقه .

٤ ـ إثبات أسماء الله .

٥ ـ أن الله هو المنعم الحقيقي على كل الخلق .

٦ ـ تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كيف تثني على الله قبل أن تسأل .

٧ ـ تقديم الثناء على الله .

٨ ـ فيه دليل على عظمة العرش .

٩ ـ أن العرش مخلوق لله .

١٠ ـ فيه دليل على عظمة الله .

١١ ـ إثبات قدرة الله .

١٢ ـ إثبات علو الله على خلقه .

١٣ ـ أن هذه الكتب منزلة من عند الله .

١٤ ـ الرد على من قال إن هذه الكتب مخلوقة .

١٥ ـ الالتجاء والاعتصام بالله .

١٦ ـ إثبات صفة الخلق لله .

١٧ ـ إثبات أولية الله سبحانه وسبقه لكل شيء .

١٨ ـ إثبات دوامه وبقائه .

١٩ ـ إثبات قربه تعالى من عباده .

٢٠ ـ إثبات إحاطته .

٢١ ـ أن نواصي الدواب بيد الله آخذ بها .

٢٢ ـ عظم شأن الدين يؤيده حديث صلوا على صاحبكم .

٢٣ ـ عظم شأن الفقر يؤيده حديث كاد الفقر أن يكون كفرا .

٢٤ ـ أن الكمال في ما طلبه صلى الله عليه وسلم وهو الغنى من الفقر فقط .

٢٥ ـ أن من أعدى ما للانسان نفسه ولهذا تعوذ من شرها صلى الله عليه وسلم .

٢٦ ـ ان الله يعلم البواطن كما يعلم الظواهر .

٢٧ ـ أن نواصي الخلق بيد الله .

٢٨ ـ الاهتمام بشأن الدين وأنه لا ينبغي الاستهانة به بل يحرص على وفائه .

٢٩ ـ أن الفقر ربما كان فيه ضرر على الإنسان ولهذا سأل صلى الله عليه وسلم أن يغنيه الله منه .

٣٠ ـ إثبات علم الله بكل شيء .

٣١ ـ نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته .

٣٢ ـ ان الله هو الذي تطلب منه الأشياء .

٣٣ ـ أن من أطاع نفسه أوقعته في المعصية .

٣٤ ـ أن في الدواب شراً فلهذا استعاذ من شرها .

٣٥ ـ أن القادر على قضاء الدين هو الله جل وعلا .

٣٦ ـ سعة فضل الله وكرمه وجوده .

٣٧ ـ الحث على التأدب في السؤال .

٣٨ ـ بيان عدد السموات وأنها سبع .

٣٩ ـ إثبات الربوبية الخاصة .

٤٠ ـ إثبات الأفعال الاختيارية .

٤١ ـ منع الوسائط الشركية التي بين الله وبين خلقه .

٤٢ ـ إثبات رأفة الله ورحمته بخلقه حيث بعث اليهم الرسل يدلونهم على ما فيه صلاحهم .

٤٣ ـ أن العرش أكبر وأعظم من السموات .

٤٤ ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه وأحبهم له .

٤٥ ـ الحث على المراقبة .

٤٦ ـ في الحديث ما يدعو إلى محبة الله جل وعلا واستحقار الأعمال أمام جوده وكرمه .

٤٧ ـ الرد على من أنكر السموات وقال ما فيه إلا فضاء .

٤٨ ـ اثبات صفة الخلق .

٤٩ ـ دليل لأهل السنة أن الكتب منزلة التي هي القرآن والتوراة والانجيل .

٥٠ ـ عناية الله بخلقه حيث فلق لهم الحب والنوى .

٥١ ـ اثبات البعث .

٥٢ ـ اثبات الحساب والجزاء عن الأعمال .

٥٣ ـ الرد على من قال ان القرآن والتوراة والانجيل شيء واحد .

٥٤ ـ عظم شأن حقوق الخلق .

٥٥ ـ الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

٥٦ ـ صفة الأخذ .

« اربعوا » : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فان الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه أو لعدم سماعه وأنتم تدعون الله تعالى وهو ليس بأصم ولا غائباً بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة والاطلاع .

ويستنبط من الحديث :

١ ـ الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه .

٢ ـ الحكمة في ذلك أنه إذا حفظه كان أبلغ في التوقير والتعظيم كما جاءت به أحاديث .

٣ ـ دليل على قرب الله .

٤ ـ إثبات صفة السمع .

٥ ـ إثبات صفة البصر .

٦ ـ إثبات قرب الله ممن يتقرب منه بالدعاء ، وقربه سبحانه وتعالى نوعان قرب عام وقرب خاص . فالعام : يقتضي الإحاطة والعلم والاطلاع على جميع الأشياء . والثاني قرب خاص وينقسم إلى قسمين : قرب من داعيه بالإجابة وقرب من عابده بالإثابة ، فالأول كقوله (واذا سألك عبادي عني فاني قريب) والثاني كقوله صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل » فهذا قرب من أهل طاعته وهذا القرب لا ينافي كمال مباينته لخلقه واستوائه على عرشه بل يجامعه ويلازمه فانه ليس كقرب الأجسام .

قال الشيخ : وفي الحديث المتفق عليه « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وذلك لأن الله قريب من قلب الداعي فهو أقرب إليه من عنق راحلته وقربه من قلب الداعي له معنى متفق عليه عند أهل الإثبات الذين يقولون إن الله فوق العرش ومعنى آخر فيه نزاع فالمعنى المتفق عليه عندهم بتقريبه قلب الداعي كما يقرب إليه قلب الساجد فالساجد يقرب إليه قلبه فيدنو قلبه من ربه وإن كان بدنه على الأرض ومتى قرب

أحد الاثنين من الآخر تحرك بذاته كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه ، وقد وصف الله أنه يقرب إليه من يقربه من الملائكة والبشر فقال : (لن يستنكف المسيح) الآية . وأما قرب الرب قرب يقوم به بفعله القائم بنفسه فهذا تنفيه الكلابية ومن يمنع قيام الأمور الاختيارية بذاته ، وأما السلف وأئمة الحديث والسنة فلا يمنعون ذلك ا هـ .

قال ابن القيم في المدارج على قوله « وأنت الباطن فليس دونك شيء » قال : فهذا أقرب للاحاطة العامة ، وأما القرب المذكور في الكتاب والسنة فقرب خاص من عابديه وسائله وداعيه وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب) الآية ، وفي الصحيح « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون ا هـ .

إثبات الرؤية من السنة :

(وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » متفق عليه . إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به) .

تقدم الإيمان برؤية المؤمنين ربهم في الآخرة وأدلتها من القرآن في ص ٣٣٧ وهذا دليل من السنة وأحاديث الرؤية

متواترة . قال يحيى بن معين : عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية كلها صحاح ، وقال الإمام أحمد : والأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم « إنكم ترون ربكم » صحيحة وأسانيدها غير مدفوعة والقرآن شاهد أن الله سبحانه يرى في الآخرة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم » الخطاب للمؤمنين والرؤية بصرية ، وقوله « كما ترون القمر ليلة البدر » تحقيقاً للرؤية وأنها لا شك فيها وهو تشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي ، فانه سبحانه لا شبيه له ولا نظير

قال ابن القيم رحمه الله :

فانْظُرْ إلى قولِ الرسولِ لسائِـلٍ ... مِن صحبهِ عن رُؤْيَةِ الرحمنِ

حقاً تَرَوْنَ الهكُم يومَ اللِّقَـا ... رؤيَا العيانِ كما يُرَى القمَرانِ

كالبدرِ ليلَ تَمامِهِ والشمسِ في ... نَحْرِ الظهيرةِ ما هُمَا مِثْلانِ

بل قَصْدُهُ تحقيقُ رُؤْيتِنَا لَـهُ ... فأتَى بأظهرِ ما يُرَى بِعِيَانِ

ونَفَى السحابَ وذاك أمْر مَانِع ... مِن رؤيةِ القمَريْنِ في ذَا الآنِ

فأتى إذاً بالمُقْتضى ونَفَى المُـ ... وانِع خَشْيَةَ التقصيرِ في تِبْيَانِ

صلى عليـه الله ما هذا الـذي ... يأتي به من بَعْدِ ذا بِبَيَـانِ

ومناسبة ذكر هاتين الصلاتين لأنهما أفضل الصلوات فقد ورد عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى البردين دخل الجنة » متفق عليه . وفي حديث

أبي هريرة : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر » الحديث متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصبح فهو في ذمة الله » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعني الفجر والعصر رواه مسلم ، وسميا بالبردين لوقوعهما في الوقت البارد وهو طرف النهار ، وهما يقعان أول النهار وآخره وهذا وقت رؤية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى فناسب الأمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين .

هذا وأعلاهــم فناظر ربــه   في كل يوم وقته الطرفـان

ومن الأدلة على الرؤية ما ورد عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى : أتريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) » رواه مسلم . وروى أبو داود وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً « أيما امرأة ادخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته ، وأيما والد جحد ولده وهو ينظر إليه إلا احتجب الله عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين » وفي الحديث الذي رواه النسائي لما صلى عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي صلى الله

عليه وسلم « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، إلى أن قال : وأسألك لذة النظر إلى وجهك » الحديث .

وفي الحديث المتقدم :

١ ـ دليل على الرؤية .

٢ ـ إثبات الربوبية .

٣ ـ الرد على من أنكر الرؤية .

٤ ـ أنه لا يحصل للمؤمنين ازدحام في الرؤية ولا يلحقهم ضيم ولا يراه بعضهم دون بعض .

٥ ـ الحث على المسابقة إلى ما يرضي الله .

٦ ـ الحث على المحافظة على الصلوات الخمس وبالأخص الصبح والعصر .

٧ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة .

قال السفاريني :

فنسأل الله النعيمَ والنظَر ... لِربّنا مِن غيرِ ماشَيْنٍ غَبَرْ

فإنه يُنْظَرُ بالأبصارِ ... كما أتَى في النصِ والأخْبَارِ

لأنه سبحانه لم يُحْجَبِ ... إلا عَنِ الكافرِ والمُكَذّبِ

وقوله : « إلى أمثال هذه الأحاديث » لما كان ما ورد في باب الأسماء والصفات ليس محصورا فيما ذكر المؤلف رحمه الله

نبه على أن أمثال الأحاديث التي ذكرها مما يخبر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به فان حكمه كذلك في وجوب الإيمان بما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ثم أعاد فأكد ما اعتقد أهل السنة والجماعة وهو أنهم يؤمنون بما وردت به السنة الصحيحة من الصفات كايمانهم بما أخبر الله به في كتابه الخ فقال :

فان الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة .

وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم .

وفي باب أسماء الايمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرافضة والخوارج قد تقدم الكلام على التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل في ص ٧٠ ، ٧١ وأما معنى كون أهل السنة وسطاً في فرق الأمة فلأنهم وسط بين الطرفين المنحرفين بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار كالنصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام وقالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقالوا : المسيح ابن الله ، وقالوا : ثالث ثلاثة ، وغلوا

في الرهبان كما أخبر الله عنهم بقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم) .

والقسم الثاني : جفوا الأنبياء وأتباعهم وقتلوهم وردوا دعوتهم ، كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيي وحاولوا قتل المسيح ورموه وأمه بالعظائم فجعلوها زانية ، وقد حملت بولد من ذلك قال الله تعالى : (وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) وقال : (وقتلهم الأنبياء بغير حق) .

وأما هذه الأمة فوحدت الله ووصفته بصفات الكمال ، ونزهته عن جميع صفات النقص ، ونزهته عن أن يماثله شيء من المخلوقات ، وآمنت بكل رسول أرسله الله ، واعتقدت رسالتهم ، وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها فهذه الأمة أفضل الأمم على الإطلاق ، كما قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

وقال الشيخ رحمه الله : دين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة فهم وسط في التوحيد بين اليهود التي تصف الرب بالنقائص ويشبهون الخالق بالمخلوق وبين النصارى التي تصف المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها ويشبهون المخلوق بالخالق.

فالمسلمون وحدوا الله ووصفوه بصفات الكمال ونزهوه عن جميع النقص ونزهوه أن يماثله شيء من خلقه في شيء من الصفات فهو موصوف بصفات الكمال لا بصفات النقص

وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله

وقال رحمه الله : وكذلك في العبادات النصارى يعبدون ببدع ما أنزل الله بها من سلطان واليهود معرضون عن العبادات والمسلمون عبدوا الله بما شرع ولم يعبدوه بالبدع وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به جميع النبيين وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره وهو الحنيفية دين إبراهيم ، وقال : كذا في أمر الحلال والحرام في الطعام واللباس وما يدخل في ذلك من النجاسات فالنصارى لا تحرم ما حرم الله ورسوله ويستحلون الخبائث المحرمة ولا يتطهرون ، واليهود حرمت عليهم طيبات أحلت لهم ، وقال : اليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب متعددة ليس هذا موضعها ، وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولا أو عملا أو لا قولا ولا عملا وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله ما لا يعلمون وكان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى اهـ .

وأما توسطهم بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة فوجه ذلك أن المعطل من ينفي صفات الله أو بعضها وينكر قيامها بذات الله المقدسة ، فهو بالحقيقة مقصر عن أهل السنة ، ويقال له جافي وهذا هو أصل الجهمية هو نفي

الصفات بما يزعمونه من دعوى العقليات التي عارضوا بها النصوص إذ كان العقل الصريح الذي يستحق أن تسمى قضاياه عقليات موافقاً للنصوص لا مخالفاً ولما كان قد شاع في عرف الناس أن قول الجهمية مبناه على النفي صار الشعراء ينظمون هذا المعنى كقول أبي تمام :

جهميـــة الأوصـــاف إلا أنهم　　　قد لقبوها جوهر الأشيـــاء

فهؤلاء ارتكبوا أربع عظائم أحدها ردهم نصوص الأنبياء والثاني ردهم ما يوافق ذلك من المعقولات ، الثالث جعل ما خالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هي أصول الدين الرابع تكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول والمشبه هو من يشبهها بصفات المخلوقين ، أو يشبه بعض الصفات بصفات المخلوق فهو غال متجاوز للحد حيث شبه صفات الله بصفات خلقه .

وأما أهل السنة فهم فيما بين ذلك على صراط مستقيم يثبتون لله ما أثبته لنفسه ، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً بلا تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقين تنزيهاً بلا تعطيل ، فهم جمعوا بين التنزيه والإثبات على حد قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . وقوله (قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد) .. الخ .

وأما توسطهم في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية فوجه

ذلك أن الجبرية هم أتباع الجهم بن صفوان الترمذي زعيم المعطلة مذهبهم أن العبد مجبور على فعله وحركاته وأفعاله اضطرارية كحركة المرتعش والعروق النابضة وكحركات الأشجار في مهب الريح ، وإضافتها إلى الخلق مجاز ، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال فهي فعله حقيقة لا افعالهم ، والعبد ليس له قدرة ولا إرادة ولا فعل له البتة ويقول قائلهم :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

ورد عليه بعضهم : فقال :

إن حفّه اللُّطْفُ لم يَضْرُرْهُ مِنْ بَلَلِ
ولم يبال بتكْتِيفٍ وإلْقَاءِ

ويقول بعض الجبرية والوجودية :

أرَانِيَ كآلات وهو مُحَرِّكي ... أنَا قلَم والاقْتِدَارُ أصَابعُ
وما الكونُ في التِّمْثَال إلا كثَلْجة ... وأنْتَ لها الماءُ الذي هُو نَابعُ
فما الثلجُ في تَحْقيقِنَا غيْرَ مَائِهِ ... وغيرَانِ في حُكْمٍ دَعَتْهُ الشرائع

وإلى مذهبهم أشار ابن القيم رحمه الله في النونية :

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرجفان
وهبوب ريح أو تحرك نائم ... وتحرك الأشجار للميلان
والله يصليه على ما ليس من ... امطاله حرّ الحميم الآن
لكن يعاقبه على أفعاله ... فيه تعالى الله ذو السلطان

إلى أن قال :

لكنهم حملوا ذنوبهم على ... رب العباد بعزة وأمان

وتبرؤا منها وقالوا إنها ... أفعاله ما حيلة الإنسان

ما كلف الجبار نفساً وسعها ... أنى وقد جبرت على العصيان

وكذا على الطاعات أيضاً قد غدت ... مجبورة فلها إذاً جبران

والعبد في التحقيق شبه نعامة ... قد كلفت بالحمل والطيران

إذ كان صورتها تدل عليهما ... هذا وليس لها بذاك يدان

فلذاك قال بأن طاعات الورى ... وكذاك ما فعلوه من عصيان

هي عين فعل الرب لا أفعالهم ... فيصح عنه عند ذا نفيان

نفي لقدرتهم عليها أولا ... وصدورها منهم بنفي ثان

فيقال ما صلوا ولا صاموا ولا ... زكوا ولا ذبحوا من القربان

وكذاك ما شربوا وما قتلوا وما ... سرقوا ولا فيهم غوي زان

وكذاك لم يأتوا اختياراً منهم ... بالكفر والإسلام والإيمان

إلا على وجه المجاز لأنها ... قامت بهم كالطعم والألوان

جبروا على ما شاءه خلاقهم ... ما ثم عون وثم غير معان

الكل مجبور وغير ميسر ... كالميت أدرج داخل الأكفان

وكذاك أفعال المهيمن لم تقم ... أيضاً به خوفاً من الحدثان

فإذا جمعت مقالتيه أنتجا ... كذباً وزوراً واضح البهتان

إذ ليست الأفعال فعل إلهنا ... والرب ليس بفاعل العصيان

فإذا انتفت صفة الإله وفعله ... كلامه وفعائل الإنسان

فهناك لا خلق ولا أمر ولا ... وحي ولا تكليف عبد فان

وقضى على أسمائه بحدوثها ... وبخلقها من جملة الأكوان

فانظر إلى تعطيله الأوصاف والـ ... أفعال والأسماء للرحمن

ماذا الذي في ضمن ذا التعطيل من ... نفي ومن جحد ومن كفران

لكنه أبدى المقالة هكذا ... في قالب التنزيه للرحمن

وأتى إلى الكفر الصريح فصاغه ... عجلاً ليَفتنَ أمة الثيران

وكساه أنواع الجواهر والحلي ... من لؤلؤ صاف ومن عقيان

فرآه ثيرانُ الورى فأصابهم ... كمُصاب إخوتهم قديمَ زمان

عجلان قد فتنا العبادَ بصوته ... إحداهما وبحرفه ذا الثاني

ولذا تقاسمت الطوائفُ قولَه ... وتوارثوه إرثَ ذي السُّهمان

لم ينجُ من أقواله طراً سوى ... أهل الحديث وشيعة القرآن

فتبرؤا منها براءةَ حيدرٍ ... وبراءةَ المولود من عمرانِ

ولا شك في فساد هذا المذهب وأدلة الكتاب والسنة بل والعقل متواطئة على رده والجبرية سموا جبرية لأنهم يقولون إنا مجبورون على أفعالنا فغلو في إثبات القدر .

وأما القدرية فهم أتباع معبد الجهني ، لأنه أول من تكلم بالقدر ، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقين وأوصافهم . ونفوا قدرة الله على أفعال المكلفين ، وقالوا : إنه لم يردها ولم يشأها منهم وهم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالا وأنكروا أن يضل من

يشاء ويهدي من يشاء فأثبتوا خالقاً مع الله ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ، وهم الذين ورد فيهم الحديث : « إنهم مجوس هذه الأمة » ويقال لهم : القدرية النفاة ، ومذهبهم باطل لأنه إشراك في الربوبية .

وأما أهل السنة والجماعة فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة وأن أفعالهم تنسب إليهم على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم . قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وقال : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) .

قال السفاريني

أفعالنا مخلوقة لله   لكنها كسب لنا يا لاهي

فكل ما يفعله العباد   من طاعه أو ضدها مراد

لربنا من غير ما اضطرار   منه لنا فافهم ولا تماري

وأهل السنة أثبتوا للعبد مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله . قال تعالى : (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) .

وأما كونهم وسطاً في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية فلأن المرجئة المنسوبين إلى الإرجاء لتأخيرهم الأعمال عن الإيمان حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق وقالوا لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة وعندهم أن الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان وأن الإيمان لا يتبعض وان مرتكب الكبيرة كامل الإيمان غير معرض للوعيد .

ومذهبهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة ، وأما الوعيدية فهم القائلون بانفاذ الوعيد وأن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب منها فهو خالد مخلد في النار وهو أصل من أصول المعتزلة وبه تقول الخوارج قالوا لأن الله لا يخلف الميعاد وقد توعد العاصين بالعقوبة فلو قيل إن المتوعد بالنار لا يدخلها لكان تكذيباً لخبر الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية » رواه الترمذي وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكون في أمتي ضعف ومسخ وذلك في المكذبين بالقدر » رواه أبو داود وروى الترمذي نحوه .

وأهل السنة توسطوا في ذلك فقالوا : إن مرتكب الكبيرة ناقص الإيمان آثم وهو معرض نفسه للعقوبة وهو تحت مشيئة الله إذا مات من غير توبة إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ولكنه لا يخلد في النار بل يخرج منها بعد التطهير والتمحيص من الذنوب والمعاصي إما بشفاعة وإما بفضل الله ورحمته قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية . قالوا وإخلاف الوعيد كرم يمدح به بخلاف الوعد قال الشاعر :

وإني وإن أوعدته او وعدتــه لمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

والمراد بأسماء الإيمان والدين الأحكام مثل مؤمن كافر فاسق منافق والمراد بالأحكام أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة وقبل أن نذكر توسط أهل السنة بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية نذكر سبب تسميتهم بذلك فالحرورية هم الخوارج سموا بذلك نسبة إلى قرية قرب الكوفة اجتمع فيها الخوارج حين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفارقوه بسبب التحكيم وبدعتهم حدثت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه رئيسهم ذو الخويصرة فقال اعدل يا محمد فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ويلك من يعدل إذا لم أعدل» وأمر بقتالهم في أحاديث مشهورة ومعروفة عند أهل العلم وقاتلهم علي يوم النهروان ثم حدثت بدعة المعتزلة .

وأما المعتزلة فهم أتباع عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وأصحابهما سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في أوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره أولئك المعتزلة ويقال إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول المعتزلة وتابعة عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر والنهي عن المنكر . ولبسوا فيها الحق بالباطل .

وأما بيان أن أهل السنة وسط في باب أسماء الإيمان والدين

وبين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية فلأن كلا من الخوارج والمعتزلة يرى أن الدين والإيمان قول وعمل واعتقاد ولكن لا يزيد ولا ينقص ومن أتى كبيرة كفر عند الحرورية وصار فاسقاً عند المعتزلة في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر واتفق الفريقان على حكمهم في الآخرة فعندهم أن من أتى كبيرة فهو خالد مخلد في النار لا يخرج بشفاعة ولا بغير شفاعة ، وعند الخوارج أن من أتى كبيرة أنه مباح الدم والمال في الدنيا خلافاً للمعتزلة فوقع الاتفاق بينهما في أمرين ووقع الخلاف بينهما في موضعين . وأما المرجئة فيقولون إن الإيمان مجرد التصديق بالقلب والقول باللسان أو أنه قول فقط ، قال ابن القيم رحمه الله في النونية حاكياً مذهبهم :

(وكذلك الإرجاء حين تقر بالـــمعبود تصبح كامل الإيمان)

وعند الجهمية أن الإيمان مجرد المعرفة والأعمال ليست من الإيمان فايمان أفسق الناس كايمان أكمل الناس ويقولون لا يضر مع الإيمان معصية ، وقال ابن القيم رحمه الله حاكياً مذهبهم :

(والناس في الإيمان شيء واحـد كالمشط عند تماثل الأسنان)
(قالوا وإقرار العبـــاد بأنـــه خلاّقهم هو منتهى الإيمـــان)

وأما أهل السنة فقالوا الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . قال بعضهم :

وإيماننا قول وفعـــل ونيـــة ويزداد بالتقوى وينقص بالردى

وعند أهل السنة أن من أتى كبيرة يسمى مؤمناً ناقص الإيمان وبعبارة أخرى يسمى مؤمناً بإيمانه فاسقاً بكبيرته ، أو يقال مؤمن عاصي وفي الآخرة تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر له ذنوبه وأدخله الجنة لأول مرة وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ومآله إلى الجنة .

قال السفاريني :

ومن يمت ولم يتب من الخطا   فأمره مفوض لذي العطا
فإن يشا يعفو وإن شاءَ انتقم   وإن يشا أعطى وأجزل النعم

والكبيرة هي ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة كالربا وعقوق الوالدين المسلمين ، زاد شيخ الاسلام : أو ترتب عليه لعنة أو غضب أو نفي إيمان والصغيرة ما دون ذلك ، قال ناظم الكبائر :

فما فيه حد في الدنيا أو توعد   بأخرى فسم كبرى على نص أحمد
وزاد حفيد المجد أو جا وعيده   بنفي الإيمان وطرد لمبعد

قال العلماء وقد يقترن بالكبيرة من الحياء والاستعظام والخوف من الله ما يلحقها بالصغائر وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف من الله والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بقلب الفاعل لها وهو قدر زائد على مجرد الفعل والإنسان يعرف ذلك من نفسه والله لا تخفى عليه خافية .

والرافضة هم الذين غلوا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغلوا في أهل البيت ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثلاثة الخلفاء والسيدة عائشة رضي الله عنها وحفصة وطلحة والزبير وفضلاء المهاجرين والانصار ومن تولاهم وكفروهم ومن والاهم وقالوا لا ولاء إلا ببراء أي لا يتولى أحد علياً حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر وكفروا من قاتل علياً وقالوا إن علياً إمام معصوم . وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فريق منهم ان الرسالة كانت لعلي ولكن جبريل غلط فأداها إلى محمد وآذوا جبريل عليه السلام فوصفوه بالغلط والخيانة وعدوه لذلك عدوهم المبين وآذوا سائر المسلمين حيث لم يوافقوهم على عداوة الصحابة والغلوفيمن يرونه معصوماً وسبب تسمية الشيعة بالرافضة أنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين وارفضوا عنه حينما قالوا له تبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال معاذ الله نتولاهما ونبرأ ممن تبرأ منهما فخرجوا مع زيد فسموا الزيدية وأول من أبتدع الرفض عبد الله بن سبأ كان منافقاً زنديقاً أراد بذلك فساد دين الإسلام كما فعل بولص صاحب الرسائل التي بأيدي النصارى حيث ابتدع لهم بدعاً أفسد بها دينهم وكان يهودياً فأظهر النصرانية نفاقاً لقصد إفساد ملتهم وكذلك كان ابن سبأ يهودياً رأى سلطان الاسلام وقوته وعلوه وظهوره على سائر الأديان وتهاوي عرش الباطل تحت عرش الحق فغاظه ذلك فاراد الكيد له والإيقاع الفظيع بأهله فقصد ذلك وسعى في الفتنة فلم يتمكن لكن حصل بسببه بين المؤمنين تحريش وفتنة قتل فيها

عثمان رضي الله عنه ، ولما حدثت بدعة الشيعة في خلافة علي رضي الله عنه ردها وكانت ثلاث طوائف غالية وسبئية ومفضلة فحرق علي الغالية لما خرج إليهم من باب كندة فسجدوا له فقال ما هذا قالوا أنت هو الله فخدد الأخاديد وأضرم فيها النار ثم قذفهم فيها ، وفيهم قال علي رضي الله عنه :

لَمّا رَأَيْتُ الأَمْرَ أَمْراً مُنْكَـراً أَجَجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَراً

وأما السبئية فلما بلغ علياً أن ابن سبأ يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما طلبه ليقتله فهرب إلى قرقيسياء وكان علي رضي الله عنه يداري أمراءه لأنه لم يكن متمكناً ولم يكونوا مطيعين له في كل ما يأمرهم به وأما المفضلة فقال لهم لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري .

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه بسبب التحكيم وكانوا اثني عشر ألفاً فأرسل إليهم عبد الله بن عباس فجادلهم ووعظهم فرجع بعضهم وأصر بعضهم على المخالفة له ثم انهم أعلنوا الفرقة وأخذوا في نهب من لم ير رأيهم وقد ثبت عن صلى الله عليه وسلم أنه قال « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلها أولى الطائفتين بالحق » فقتلهم علي وطائفته فهم والرافضة في طرفي نقيض لأن الرافضة غلوا في علي وأهل البيت وأما الخوارج فكفروا علياً وعثمان ومن والاهما .

قال القحطاني .

واحفظ لأهل البيت واجب حقهم واعرف علياً أيما عرفـان

لا تنتقصه ولا تزد في قــدره   فعليه تصلى النار طائفتــان

إحداهما لا ترتضيه خليفـــــة   او تنصه الأخرى آلهاً ثـــان

وأما أهل السنة فكانوا وسطاً بين غلو الرافضة وجفاء الخوارج فهداهم الله لموالاة الجميع ومحبتهم وعرفوا لكل حقه وفضله ورأوا أنهم أكمل الأمة إسلاماً وإيماناً وعلماً وعملا وحكمة وأنزلوهم منازلهم وبهذا يتبين تواسطهم بين هاتين الفرقتين الظالمتين، ويجب هجران أهل البدع ومباينتهم وترك الجدال والخصومات في الدين وترك النظر في كتب المبتدعة والإصغاء الى كلامهم وكل محدثة في الدين بدعة وكل متسم بغير الإسلام والسنة مبتدع . قال الشيخ رحمه الله : ومن أعظم أسباب بدع المتكلمين من الجهمية وغيرهم في مناظرة الكفار والمشركين فانهم يناظرونهم ويحاجونهم بغير الحق والعدل لينصروا الإسلام زعموا بذاك فيتسلط عليهم أولئك لما فيهم من الجهل والظلم ويحاجونهم بممانعات ومعارضات فيحتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به صلى الله عليه وسلم ، والظلم والعدوان لإخوانه المسلمين بما استظهر عليهم أولئك المشركون ، فصار قولهم مشتملا على إيمان وكفر وهدى وضلال ورشد وغي وجمع بين النقيضين ، وصاروا مخالفين للكفار والمؤمنين ، وقال : وكثير من أذكياء أهل الباطل ورؤسائهم تراجعوا عن باطلهم واعترفوا بالضلال والحيرة فمنهم من وفق بعد دلك لسلوك طرق أهل العلم والإيمان فصار فصار إماماً في الهدى بعد ما كان إماماً في الضلال ، ومنهم من

لم يتيسر له ذلك فاعترف ببطلان ما كان عليه أولا وبقي على دين العجائز وأهل الفطر الصحيحة ، وكثير منهم في طغيانهم يعمهون وفي غيهم يترددون . وذلك أن الهدى هو ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً فكيف بمن عارضه بما يناقضه وقدم مناقضه عليه ؟

قال الشيخ وطريقة أهل البدع أنهم يجمعون بين الجهل والظلم فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب وإجماع الصحابة ويكفرون من خالفهم في بدعتهم كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا ترك العمل بالسنة المخالفة في زعمهم للقرآن وابتدعوا التكفير بالذنوب وكفروا من خالفهم حتى كفروا عثمان وعلي بن أبي طالب ومن والاهما من المهاجرين والأنصار وسائر المؤمنين .

وكذلك الرافضة ابتدعوا تفضيل علي على الثلاثة وتقديمه في الإمامة والنص عليه ودعوى العصمة له وكفروا من خالفهم وهم جمهور الصحابة وجمهور المؤمنين حتى كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهم هذا هو الذي عليه أئمتهم .

وكذلك الجهمية ابتدعت نفي الصفات المتضمن في الحقيقة لنفي الخالق ولنفي صفاته وأفعاله وأسمائه وأظهرت القول بأنه لا يرى وأن كلامه مخلوق خلقه في غيره لم يتكلم هو في نفسه وغير ذلك ثم امتحنوا الناس فدعوهم إلى هذا وجعلوا يكفرون من لم يوافقهم على ذلك .

وكذلك القدرية ابتدعت التكذيب بالقدر وأنكرت مشيئة الله النافذة وقدرته التامة وخلقه لكل شيء .

ومنهم من كفر من خالفه وكذلك الحلولية والمعطلة للذات والصفات يكفر كثير منهم من خالفهم الخ .

وقال وأئمة السنة والجماعة وأهل العلم والايمان فيهم العلم والعدل والرحمة فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم كما قال تعالى « كونوا قوامين بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ويرحمون الخلق فيريدون لهم الخير والهدى والعلم ولا يقصدون لهم الشر ابتداء بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وان يكون الدين كله لله وان تكون كلمة الله هي العليا . ا . هـ .

وقال : أهل البدع الذين ذمهم الله نوعان : أحدهما عالم بالحق يتعمد خلافه . والثاني جاهل متبع لغيره ، فالأولون يبتدعون ما يخالف كتاب الله ويقولون هو من عند الله إما أحاديث مفتريات وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل ويعضدون ذلك بما يدعون من الرأي والعقل وقصدهم بذلك الرئاسة والماكل وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية وقيل هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ،

وأما النوع الثاني فهم الأميون الجهال الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم الا يظنون .

وقال : ومما يدل على فساد مقولات الفلاسفة وأهل الكلام الباطل بقطع النظر عما يدل على فسادها عقلا ونقلا كثرة التناقض والاضطراب بين أهلها وعدم الاستقرار والاتفاق على رأي واحد بل ربما قال الواحد من أئمتهم ورؤسائهم القول وقال إنه مقطوع به ثم في كتاب آخر يقول إنه مقطوع بخلافه فعقول هذه حالها لا تصلح أن تكون معتبرة في الأمور الجزئية فضلا عن تقديمها على نصوص الأنبياء والمرسلين في الأمور العظيمة من أصول الدين ا هـ .

وقال رحمه الله : ويعلم العالم البصير أنهم من وجه يستحقون ما قاله الشافعي رضي الله عنه حيث قال : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنه وأقبل على الكلام ،ومن وجه آخر إذا نظرت اليهم بعين القدر والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذ عليهم رفقت عليهم أوتوا ذكاء وما أعطوا زكاء وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوما وأعطوا سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بايات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، ومن كان عليما بهذه الأمور تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه وذموا أهله وعلومهم وعلم أن من ابتغى

الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزده إلا بعداً اهـ .

أنشد الشهرستاني في أول كتابه لما قال : قد أشار علي من إشارته غنم وطاعته حتم أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول ولعله استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم :

لعمري لقد طفت المعاهد كلهـــا وسيرت طرفي بين تلك العوالم
فلم أر إلا واضعاً كف حـــائـر على ذقنه أو قارعاً سن نادم

والآمدي على ما قيل إنه من أفضل أهل عصره وصاحب المذاهب المشهورة في الكلام توقف في آخر عمره وتحير .

ويقول الفخر الرازي :

نهـــاية إقدام العقول عقـــال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنـــا وغاية دنيانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنـــا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

وقال لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن إقرأ في الإثبات (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب) واقرأ في النفي (ليس كمثله شيء) (ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

ويقول الاخر : وها أنا أخبرك عن نفسي وأوضح لك ما وقعت في أمسي فاني في آيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد وتارة علم الأصول واكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة فلم أعد من ذلك بغير الخيبة والحيرة وكل ذلك من الأسباب التي حببت إلي مذهب السلف إلى آخر كلامه .

ويقول الآخر

وغايةُ ما حَصَّلْتُهُ مِن مَبَاحِثِي ... ومِن نَظَرِي مِن بَعدِ طولِ التدبرِ

هو الوقفُ مابَيْنَ الطريقَيْنِ حَيْرَةً ... فما عِلْم من لم يَلْقَ غيرَ التحيُّرِ

على أنني قد خُضْتُ منه غِمَارَهُ ... وما قَنِعَتْ نَفْسِي بغيرِ التبَحُّرِ

ومن آخر ما قال الرازي .

لعمري وما أدري وقد آذن البلى ... بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي

وأين محل الروح عند خروجها ... من الهيكل المنحل والجسد البالي

ويقول أبو المعالي الجويني : لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان وها أنا أموت على عقيدة أمي أو قال على عقيدة عجائز نيسابور وقال الخوفجي عند موته ما عرفت مما حصلته شيئا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجع ثم قال الافتقار وصف سلبي أموت وما

عرفت شيئاً وقال آخر أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي منها شيء ومن وصل به الحال إلى مثل هذا تزندق إن لم يتداركه الله برحمته .

وقال الغزالي :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعـزل	وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهـذه	منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد	لغزلي نسجاً فكسرت مغزلي

وعلى كثرة اشتغال الغزالي بفن الكلام وكثرة مؤلفاته فيه انتهى به البحث إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية ثم أعرض عن تلك الطرق .

وقال المعري :

نفارقُ العيْشَ لم نظفَرْ بمعرفةٍ	أي المعاني بأهل الأرض مقصود
لم تعطنا العلم أخبار يجيءُ بهـا	نقل ولا كوكب في الأرض مرْصُود

وقال القشري :

تجاوزت حد الأكثرين إلى العُـلا	وسافرتُ واستبقتُهم في المَفاوِزِ
وخُضْتُ بحاراً ليس يُدرك قعْرُهـا	وسيَّرتُ طرْفي في قِسيْمِ المَفاوِزِ
ولَججْتُ في الأفكار ثم ترَاجعَ اخْ	تيَاري إلى استحسانِ دِيْنِ العَجائزِ

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته

وإلا تزندق كما قال أبو يوسف من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيماء أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب، وتجد بعض هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز فيقر بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها ثم تبين فساده أو لم يتبين له صحتها فيكونون في نهايتهم إذا أسلموا من العذاب بمنزلة اتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب وقال الناظم.

فطالب دين الحق بالرأي ضائع ... ومَن خاض في علم الكلام فما هدي

كفانا بهم نقصاً تناقض قولهم ... فكل يقول الحق عندي فقلد

ولو كان حقاً لم يكن متناقضاً ... ولم يتنقل ربه ذا تلدد

وما الحق إلا ليله كنهاره ... يزيد ضياء خالياً من تردد

به يطمئن القلب غير مروع ... ولا خائف بل آمن من تنكد

فمن قلد الآراء ضل عن الهدى ... ومن قلد المعصوم في الدين يهتدي

فما الدين إلا الإتباع لما أتى ... عن الله والهادي البشير محمد

ومحض التلقي والقبول له بلا ... تأويل أو تشبيه أو رد جحد

فكيف يرجى بالعقول الهدى امرؤ ... وأكثر دين الحق محض تعبد

يعرفك المعقول وحدة خالق ... وصدق رسول بالدليل المؤيد

ويكفي ارتسام للدليل بعقله ... ومن بعده فاعزله والرسل قلد

وقال ابن القيم:

وانظر إلى الأقدار جارية بما ... قد شاءَ من غي ومن إيمان

واجعل لقلبك مقلتين كلاهمـــا	بالحق في ذا الخلق ناظرتان
فانظر بعين الحكم وارحمهم بها	إذ لا ترد مشيئة الديـــــان
وانظر بعين الأمر واحملهم على	أحكامه فهما إذاً نظــــران
واجعل لوجهك مقلتين كلاهما	من خشية الرحمن باكيتـــان
لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهـــم	فالقلب بين أصابع الرحمن

العلو والاستواء والمعية :

(وقوله : وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله : الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه علي على خلقه وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله : (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

وليس معنى قوله (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق فان هذا لا توحيه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته).

شرح المصنف رحمه الله في هذا الفصل مسألة العلو والاستواء والمعية وأن ذلك داخل في الإيمان بالله ووجه دخوله فيه أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر به ورسوله وهو قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية،والاستواء والمعية والعلو: فما أخبر الله به ورسوله وتقدم الإيمان بالاستواء وأدلته في مـــا سبق

وتقدم أيضاً العلو وأدلته في مـــا سبق ، وتقدم أيضاً الكلام على المعيتين في الصفحات السابقة ، وحيث أن مسألة العلو علو الله على خلقه واستوائه على عرشه حصل فيها اختلاف كثير ومخاصمات طويلة بين أهل السنة والجماعة وبين طوائف الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم في هذه المسألة من أشاعرة ونحوهم صنفت فيها المصنفات المستقلة في مسألة العلو وأورد فيها أهل السنة من نصوص الكتاب والسنة مما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه وحققوا في ذلك بالعقل الصحيح وأن الفطر والعقول معترفة بل مضطرة إلى الإيمان بعلو الله إلا من غيرت فطرته العقائد الباطلة . قال الشيخ رحمه الله في الحموية : فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى ، وهو فوق كل شيء وهوعال على كل شيء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء .

ثم ساق رحمه الله أدلة من القرآن ، قال بعدها : إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى إلا بكلفة .

ثم ساق رحمه الله الأدلة من السنة ، ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفاً ، ثم قال : ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من سلف الأمة . لا من الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك ، لا نصاً ولا ظاهرا ، ولم يقل أحد منهم قط : إن الله ليس في السماء ، ولا أنه ليس على العرش ولا أنه بذاته في كل مكان . ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا أنه لا متصل ولا منفصل ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها ، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في أعظم مجمع حضره الرسول صلى الله عليه وسلم جعل يقول « ألا هل بلغت ؟ » فيقولون : نعم ، فيرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : « اللهم اشهد » غير مرة وأمثال ذلك كثير .

قال ابن القيم رحمه الله :

وله العلو من الوجوه جميعهـــا ذاتاً وقدراً مع علو الشان

وعلوه فوق الخلائق كلها ... فطرت عليه الخلق والثقلان
لا يستطيع معطل تبديلها ... أبداً وذلك سنة الرحمن
كل إذا ما نابه شيء يرى ... متوجهاً بضرورة الإنسان
نحو العلو فليس يطلب خلفه ... وأمامه أو جانب الإنسان

إلى أن قال :

شتان بين مقالة أوصى بها ... بعض لبعض أول للثان
ومقالة فطر الإله عباده ... حقاً عليها ما هما عدلان

وقد تقدم الكلام على قوله (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) في ما سبق .

قال ابن القيم رحمه الله : ليس ظاهر اللفظ ولا حقيقته أنه مختلط بالمخلوقات ممتزج بها ولا تدل لفظة « مع » على هذا بوجه من الوجوه فضلا عن أن يكون حقيقة اللفظ وموضوعه ، فان « مع » في كلامهم للصحبة اللائقة ، وهي تختلف باختلاف متعلقاتها ، ومصحوبها ، فكون نفس الإنسان معه لون ، وكون علمه وقدرته وقوته معه لون ، وكون زوجته معه لون ، وكون أميره ورئيسه معه لون ، وكون ماله معه لون ، فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها فيصح أن يقال زوجته معه وبينهما شقة بعيدة ، وكذا يقال : فلان معه دار كذا وضيعة كذا .

فتأمل نصوص المعية كقوله تعالى (محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار) ، (واركعوا مع الراكعين) ، (لن تخرجوا معي أبدا) ، (ينادونهم ألم نكن معكم) ، (وكونوا مع الصادقين) ، (وما آمن معه إلا قليل) ، (فأنجيناه والذين آمنوا معه) ، (فلما جاوزه هو والذين معه) ، (فاكتبنا مع الشاهدين) ، (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) وأضعاف ذلك هل يقتضي موضع واحد منها مخالطة في الذوات التصاقاً وامتزاجاً فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالى عن ذلك حتى يدعى أنها مجاز لا حقيقة فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم ، ولا ملاصقة لهم ولا مخالطة ولا مجاورة بوجه من الوجوه ، وغاية ما تدل عليه « مع » المصاحبة والمرافقة والمقارنة في كل أمر من الأمور وذلك اقتران في كل مقام بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقه فاذا قيل الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم وتدبيره لهم وقدرته عليهم وإذا كان خاصاً كقوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأكيد والمعونة فعلوه سبحانه لا يناقض معيته ومعيته لا تبطل علوه بل كلاهما حق ، انتهى (من مختصر الصواعق ج ٢ الصفحة ٢٦٦) .

وقوله : « بل القمر آية من آيات الله الخ ... » الآية : العلامة ، وتنقسم الآيات إلى قسمين : آيات مشاهدة كالنجوم والقمر والشمس والليل والنهار ، وآيات مسموعة كالقرآن ، وآيات الله العيانة تدل على صدق آياته المسموعة المتلوة ، قال

تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي أن القرآن حق ، فأخبر بأنه يدل باياته المرئية على صدق آياته المسموعة ، ولما ذكر المصنف أنه ليس معنى قوله (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق وأن هذا لا توجبه اللغة ضرب لتقريب المعنى مثلا بالقمر الذي هو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغيره أينما كان ، وتقول العرب : ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا ، وهو في مكانه غير مختلط بهم ولا محاذ ولا مماس ولا مجاور ، ولا يفهم أحد منه هذا فاذا كان هذا في القمر الذي هو من أصغر مخلوقات الله فكيف تكون حقيقة المعية في حق العلي الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً ؟ فيجب الإيمان بكل من علوه تعالى ومعيته واعتقاد أن ذلك كله حق على حقيقته لتواطؤ الأدلة على إثباته .

قوله : « رقيب على خلقه » الرقيب : المطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع أحوالهم .

قال ابن القيم :

وهو الرقيب على الخواطر واللـــوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

المهيمن : الحافظ لخلقه المتصرف فيهم وقال ابن عباس وغير واحد : المهيمن : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم .

وقوله « ولكن يصان عن الظنون الكاذبة .. الخ » يعني أنه يجب على الإنسان قبول هذه النصوص المتقدمة وتنزيهها عن الدلالة على تشبيه أو أن يفهم منها ما لا يليق بجلاله وعظمته ومن الظنون الكاذبة أن يظن أن ظاهر قوله في السماء أنها تقله أي تحمله أو أنه بحاجة إلى أن تظله أي تصير ظلالا فوقه تعالى الله عن هذا الظن علوا كبيرا ووجه بطلانه أن يعلم أنه سبحانه ليس بحاجة إلى شيء من خلقه وأنه الغني عما سواه وأن الخلق كلهم فقراء إليه قال الله تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله .. الآية) .

وقال الشيخ :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وقوله : « فان الله قد وسع كرسيه السموات والأرض » لما ذكر رحمه الله علو الله على خلقه وفوقيته وأنها حقيقة ثابتة على ما يليق بجلاله وعظمته ساق بعد ذلك الأدلة النقلية والعقلية في إثبات ذلك فقال : فانه قد وسع كرسيه السموات والأرض ، فكيف تحويه السموات والأرض أو تحوطه أو تظله ... تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وقوله « وهو يمسك السموات والأرض أن تزولا » أي أنه تعالى هو الذي يمسك السموات والأرض عن الزوال فانهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق ، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما ، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا ليحصل

للخلق القرار والنفع والاعتبار ، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتليء قلوبهم إجلالا وتعظيما ومحبة وتكريما وليعلموا كمال حلمه .

وقوله « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه » أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه أي إلا بأمره ومشيئته .. قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ، وقوله : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أي ومن آياته العظيمة أن قامت السموات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض .

قال الشيخ رحمه الله : فأهل السنة إذا قالوا إنه فوق العرش ، أو إنه في السماء ، لا يقولون إن هناك شيئاً يحويه ، أو يحصره ، ويكون محلا له أو ظرفاً أو وعاء تعالى الله عن ذلك ، بل هو فوق كل شيء ومستغن عن كل شيء ، وكل شيء مفتقر إليه ، وهو عال على كل شيء ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق جل وعلا .

الايمان بقربه تعالى وإجابته الدعاء :

(وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جمع

بين ذلك في قوله (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب ... الآية)
وقوله صلى الله عليه وسلم للصحابة لما رفعوا أصواتهم بالذكر :
« أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا
غائباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »
وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من
علوه وفوقيته ، فانه سبحانه ليس كمثله شيء في نعوته وهو
علي في دنوه قريب في علوه) .

خصص المصنف رحمه الله هذا المبحث بهذين الأمرين
وذلك لشدة الحاجة إلى الإيمان بقربه وإجابته ليكون العبد
مراقباً لله إذا آمن بقربه إيماناً تاماً ، وكان منيباً إليه على الدوام
إذا آمن باجابته للسائلين وإثابته للمطيعين ، ثم ذكر رحمه
الله الجمع بين الإيمان بعلو الله وقربه ومعيته لئلا يظن الظان
أن ذلك مثل صفات المخلوقين وأنه إذا قيل : إنه فوق خلقه ،
كيف يكون معهم وقريباً منهم ، فأجاب بما تضمنه هذا الأصل
الثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهو أنه ليس
كمثله شيء في جميع نعوته ، ومن نعوته اللازمة العلو المطلق
والقرب العام والخاص وأن القرب والعلو في حق الله يجتمعان
لعظمته وكبريائه وإحاطته من كل وجه فهو العلي في دنوه
القريب من علوه .

والآية التي صدر بها المصنف هذا الفصل قيل إن سبب
نزولها ما ورد عن أبي موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم في غزوة فجعلنا لا نصعد جبلا ولا نعلو ولا نهبط

وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير . قال : فدنا فقال « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيرا ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » الحديث ، أخرجاه في الصحيحين .

المعنى : أن الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده في الآية السابقة بصوم الشهر وإكمال العدة وحثهم على التكبير ليعدوا أنفسهم للشكر عقب بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم ، فيجيب دعوة الداعين ويجازيهم بأعمالهم فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه ، فان الله قد وعد بالإجابة ، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة بالانقياد لأوامره والانتهاء عما نهى عنه . ففي الآية إثبات قربه من عباده وهو نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه وقرب من عابده وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق .

وقال ابن القيم رحمه الله على الآية الكريمة (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) : فهذه الآية لها شأن قد اختلف السلف فيها والخلف على قولين فقالت طائفة نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة وعلى هذا فيكون المراد قربه سبحانه بنفسه وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة علمه به ، والقول الثاني المراد قرب ملائكته منه وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم

ومراسيمهم ، فيقول الملك نحن قتلناهم وهزمناهم قال تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) وجبريل هو الذي يقرؤه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه وملائكته هم الذين باشروه إذ هو بأمره ، وهذا القول هو أصح من الأول لوجوه :

أحدها : أنه قيد القرب في الآية بالظرف وهو قوله (إذ يتلقى المتلقيان) فالعامل في الظرف ما في قوله (ونحن أقرب إليه) من معنى الفعل ولو كان المراد قربه سبحانه بنفسه لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين ولا كان في ذكر التقيد به فائدة فان علمه سبحانه وقدرته ومشيئته عامة التعلق .

الثاني : أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة ملائكته لعمل العبد ، وهذا نظير قوله (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) .

الثالث : أن قرب الله تعالى إنما ورد خاصاً لا عاماً وهو نوعان قربه من داعيه بالإجابة ومن مطيعه بالإثابة ولم يجيء القرب كما جاءت المعية خاصة عامة ، فليس في القرآن ولا في السنة أن الله قريب من كل أحد ، وأنه قريب من الكافر والفاجر ، وإنما جاء خاصا كقوله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب) فهذا قريب من داعيه وسائله به ، وقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولم يقل قريبة وإنما كان الخبر عنها مذكرا ، والذي عندي : أن

الرحمة لما كانت من صفات الله تعالى وصفاته قائمة بذاته فاذا كانت قريبة من المحسنين فهو قريب سبحانه منهم قطعا ، ويوضح ذلك أن الإحسان يقتضي قرب العبد من ربه فيقرب ربه منه باحسانه اليه لأنه تعالى يتقرب إلى من تقرب إليه فانه من تقرب منه شبرا يتقرب منه ذراعاً ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً ، فهو قريب من المحسنين بذاته ورحمته قرباً ليس له نظير ، وهو مع ذلك فوق سمواته على عرشه كما أنه سبحانه يقرب من عباده في آخر الليل وهو فوق عرشه ويدنو من أهل الموقف عشية عرفة وهو على عرشه فان علوه سبحانه على سمواته من لوازم ذاته فلا يكون قط إلا عالياً ولا يكون فوقه شيء البتة ، كما قال أعلم الخلق « وأنت الظاهر فليس فوقك شيء » وهو سبحانه قريب في علوه عال في قربه .

والذي يسهل عليك فهم هذا معرفة عظمة الرب وإحاطته بخلقه وأنه ليس كمثله شيء وأنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه ويقرب من خلقه كيف شاء وهو على العرش اه ؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم للصحابة لما رفعوا أصواتهم بالذكر : « اربعوا على أنفسكم » أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فان رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه والله سبحانه وتعالى ليس هو بأصم ولا غائباً بل

سميع قريب وهو معكم بعلمه وإحاطته واطلاعه . فهو سبحانه عال بذاته ومعنا بعلمه وإحاطته واطلاعه .

قال ابن القيم :

وروى ابن نافع الصدوق سماعه	منه على التحقيق والاتقان
الله حقاً في السمـــاء وعلمــه	سبحانه حقاً بكل مكـــان
فانظر إلى التفريق بين الذات والمـ	علوم من ذا العالم الربـــاني
فالذات خصت بالسماءِ وإنمـا	المعلوم عم جميع ذي الأكوان
وكذاك قال الترمــذي بجامــع	عن بعض أهل العلم والإيمان
الله فـــوق العرش لكـن علمــه	مع خلقه تفسير ذي إيمان

ففي الحديث :

(١) الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه .

(٢) الحكمة في ذلك وهو أنه اذا خفض صوته كان أبلغ في التوقير والتعظيم كما جاءت به أحاديث .

(٣) دليل على قرب الله .

(٤) صفة السمع .

(٥) صفة البصر .

(٦) شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته حيث أرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم .

(٧) الأمر بالمعروف وإرشاد الخلق إلى ما فيه خير لهم .

(٨) إثبات صفة الحياة لله جلا وعلا .

(٩) الحث على مراقبة الله .

(١٠) الحث على دعاء الله واستحضار قربه .

(١١) الرد على من أنكر شيئاً من هذه الصفات .

(١٢) أنه سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته .

(١٣) إثبات قدرة الله .

(١٤) أن الله جل وعلا لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي وأنه لا تختلط عليه الأصوات على اختلاف الحاجات .

(١٥) أن ما ذكر من علوه وفوقيته لا يتنافى فانه سبحانه ليس كمثله شيء في نعوته وهو علي في دنوه قريب في علوه .

والخلاصة : أن ما ورد من صفات الله الثابتة يجب إثباتها بلا توقف فان الذي أثبتها هو الله الذي هو أعلم بنفسه ورسوله الذي هو أعلم الخلق وأورعهم وأنصحهم للمخلوقين فان خطر بالبال تمثيل وتشبيه فاذكر قوله تعالى « ليس كمثله شيء » كما أنه لا نظير له في ذاته فكذلك لا نظير له في صفاته .

فصل في الايمان بالقرآن :

ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل

غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وأن الله تكلم به حقيقة وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله وعبارة بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة فان الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا مؤدياً (وهو كلام الله حروفه ومعانيه،ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف) .

وجه دخول هذا الفصل في الإيمان بالله أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر الله ورسوله الخ وقد أخبر الله ورسوله أنه كلامه وتوعد من قال أنه قول البشر ولأن الإيمان بكلام الله على هذا الوصف الذي ذكره المصنف وأنه من الإيمان بالله لأنه وصفه والكلام صفة للمتكلم ، فانه تعالى موصوف بأنه متكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء ، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم ، وكلامه تعالى لا ينفد قال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) ، وقال (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) ، وقال غير واحد من السلف من أنكر أن يكون الله متكلما أو أن يكون القرآن كلامه لقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بل ورسالة جميع الرسل التي حقيقتها تبليغ كلام المرسل وهو الله عز وجل فاذا لم يكن ثم كلام

فماذا يبلغ الرسول وكيف يعقل كونه رسولا ؟ ونوع الكلام أزلي أبدي ومفرداته لا تزال تقع شيئاً فشيئاً بحسب حكمة الله تعالى قال الله تعالى (ورتلناه ترتيلا) ، (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) قال ابن كثير على قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الآيتين : يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج من الأحكام .

وقال شيخ الإسلام : ونفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فانه ليس من جنس الشعر والرجز ولا الرسائل والخطابة ولا نظمه شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم ونفس فصاحة القرآن عجيب خارق للعادة وليس له نظير في كلام جميع الخلق اهـ .

وذكر ابن الحوزي في كتابه الوفاء عن ابن عقيل انه قال حكى لي أبو محمد بن مسلم النحوي قال كنا نتذاكر اعجاز القرآن قال: كان ثم شيخ كثير الفضل فقال ما فيه يعجز الفضلاء عنه ، ثم ارتقى إلى غرفة ومعه صحيفة ومحبرة ووعد أنه سيباديهم بعد ثلاثة أيام بما يعمله مما يضاهي القرآن . فلما انقضت الأيام

الثلاثة صعد واحد فوجده مستندا يابسا وقد جفت يده على القلم ،وختاما فالقرآن آية بينة ومعجزة ظاهرة ودلالة باهرة وحجة قاهرة من وجوه متعددة من جهة اللفظ والنظم والبلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التي أمر بها والتي أخبر بها عن الله وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك . ومن جهة ما أخبر به عن المعاد وما بين فيه من الدلائل والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فسجد فقيل له في ذلك فقال سجدت لفصاحته وسمع آخر رجلا يتلو (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا) فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقوله : « منزل غير مخلوق » هذا قول أهل السنة والجماعة ، خلافا لقول الجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن يقول كلام الله مخلوق .

فالجهمية يقولون : إن الله لا يتكلم بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه ، وما جاء من الأدلة صفة الكلام ، قالوا مجاز .

والمعتزلة قالوا : إن الله متكلم حقيقة لكن معنى ذلك أنه خالق للكلام في غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء وقول الطائفتين باطل مخالف لقول السلف والأئمة ، ومخالف للأدلة العقلية والنقلية والسمعية .

قال الشيخ : ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس مخلوقاً منفصلا عنه وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته لم يقل أحد منهم أن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، وقالوا : إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكلمات الله لا نهاية لها والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية ، قال : ولما ظهر من قال إنه مخلوق قالوا رداً لكلامه إنه غير مخلوق ، وأول من عرف أنه قال قديم هو عبد الله بن سعيد بن كلاب اهـ . قال الشاعر :

إستغفر الله واترك ما حكى لهـمُ   أبو الهذيل وما قال ابن كلاب

فالقرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظاً في الصدور أو متلواً بالألسنة أو مكتوباً في المصاحف ، فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، وأما كتابة العباد وأصواتهم والورق الـذي كتب عليـه القرآن والمداد الذي كتب به ، فهذه كلها مخلوقة وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فانه كلامه غير مخلوق ، فان جميع ما يعود إلى العباد وأوصافهم مخلوق ، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى

ويضاف إليه فانه كلامه غير مخلوق ، وقول السلف منه بدأ وإليه يعود ، أي ظهر وخرج منه فهو المتكلم به لا غيره .

وقال الشيخ في المناظرة : ولما جاءت مسألة القرآن ومن الإيمان به الإيمان بأن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، نازع بعضهم في كونه منه بدأ وإليه يعود ، وطلبوا تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول فهو المأثور عن السلف مثل ما نقله عمرو بن دينار قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون الله الخالق وما سواه مخلوق . إلا القرآن فانه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأما معناه : فان قولهم منه بدأ ، أي هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه وإليه يرجع في آخر الزمان بأن يسري به ويرفع فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف ، ورفع القرآن من أشراط الساعة ، ورد ذلك في عدة آثار

وقوله : « فان الله تكلم به حقيقة » والآيات والأحاديث في إثبات صفة الكلام وأن الله يتكلم حقيقة كثيرة ، وكذلك الآيات والأحاديث الدالة على أن الله تكلم بالقرآن كثيرة ، وكلها دالة على أنه سبحانه تكلم حقيقة لا مجازا ، وتقدمت الآيات الدالة على ذلك .

وقوله : « ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه » فالكلابية قالوا حكاية ، والأشاعرة قالوا عبارة عن كلام الله ، وبعض هؤلاء يقولون : الخلف لفظي

لا طائلة تحته ، فالأشاعرة والكلابية يقولون القرآن نوعان : ألفاظ ومعاني ، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة والمعاني قديمة قائمة بالنفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، أو بالسريانية كان إنجيلا ، وكلا القولين من أقوال أهل البدع .

وقوله : « فان الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغاً مؤدياً » يعني أن الكلام إنما يضاف إلى من قاله ابتداء لأنه الذي ألفه فانه قال (قول رسول) ولم يقل ملك ولا نبي فان الرسول يبلغ كلام مرسله ، وأيضاً قوله (أمين) دليل على أنه لا يزيد ولا ينقص ، بل هو أمين على ما أرسل به ، يبلغه عن مرسله ، وقد توعد الله من قال إنه قول البشر ، والقرآن كلام الله حروفه ومعانيه ومن الأدلة الدالة على أنه حروف قوله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات ، ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة » حديث صحيح ، وقال عليه الصلاة والسلام « اقرءوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمون حروفه إقامة السهم لا يجاوز تراقيهم ، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه » وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه ، وقال علي رضي الله عنه : من كفر بحرف منه فقد كفر به كله ، واتفق المسلمون على عد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه ولا خلاف بين المسلمين في

أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفاً متفقا عليه أنه كافر . وفي ذلك حجة قاطعة على أنه حروف .

قال ابن القيم رحمه الله :

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحْ ... رُفِها تَرَى سِراً عظيم الشان

لم يأت قطُّ بسورة إلا أتـــى ... في إثرها خبر عـــن القرآن

إذ كان إخباراً به عنهـــا وفي ... هذا الشفاءُ لِطالب الإيمـــان

ويدل أن كلامه هو نفسُهــــا ... لا غيرُها والحقُّ ذو تبيان

فانْظر إلى مَبْدَى الكتاب وبعدها ... ال أعْرافُ ثم كذا إلى لقمـــان

مع تلوها أيضاً ومع (حم) مَـــع ... (يَس) وافهم مقتضى الفرقان

وقال رحمه الله :

وتلاوة القـــرآن أفعــــال لنا ... وكذا الكتابة فهي خط بنان

لكنمـــا المتلـــو والمكتوب والمحـ ... فوظ قول الواحد الرحمن

والعبـــد يقرؤه بصوت طيـــب ... وبضـــده فهما له ضـــدان

وكذاك يكتبـــه بخـــط جيـــد ... وبضده فهما له خطـــــان

ولقد أتى في نظمه من قال قـــو ... ل الحق غـــير جبـــــان

إن الذي هو في المصاحف مثبـــت ... بأنامل الأشيـــاخ والشبـــــان

هو قول ربي آيـــه وحروفـــه ... ومدادنا والـــرق مخلوقـــان

فشفى وفرق بين متلو ومصـــ ... نوع وذاك حقيقة العرفان

الكل مخلوق وليس كلامه المتلـــ ... و مخلوقاً ، هنـــا شيئـــان

فعليك بالتفصيل والتمييز فال ... إطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخبطا ال ... آراء والأذهان كل زمان
وتلاوة القرآن في تعريفها ... باللام قد يعني به شيئان
يعني به المتلو فهو كلامه ... هو غير مخلوق للذي الأكوان
ويراد أفعال العباد كصوتهم ... وأدائهم وكلاهما خلقان
هذا الذي نصت عليه أئمة ال ... إسلام أهل العلم والعرفان
وهو الذي قصد البخاري الرضا ... لكن تقاصر قاصرو الأذهان
عن فهمه كتقاصر الأفهام عن ... قول الإمام الأعظم الشيبان
في اللفظ لما أن نفى الضدين عنـ ... ـه واهتدى للنفي ذو العرفان
فاللفظ يصلح مصدراً هو فعلنا ... كتلفظ بتلاوة القرآن
وكذاك يصلح نفس ملفوظ به ... وهو القرآن فذان محتملان
فلذاك أنكر أحمد الإطلاق في ... نفي وإثبات بلا برهان

وعدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلف في ما زاد على ذلك على أقوال ، فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتى آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : مائتان وتسع عشرة آية ، وقيل : ومئتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية .

وأما كلماته فقيل سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وأما حروفه فقيل : ثلاثمائة ألف حرف واحدى وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً ، وعدد نقطه مائة وخمسون ألفاً واحدى وثمانون وعدد جلالته الفان

وستمائة وأربعة وتسعون وعدد سوره مائة وأربع عشرةسورة ،وأما نصفه فقيل هو إلى الفاء من قوله في الكهف (وليتلطف) ونصفه بالآيات قوله في الشعراء (وهم فيها يختصمون) ونصفه بالسور قد سمع ، وفي كل آية منها جلالة وأطول آية فيه آية الدين وأقصر آية « ثم نظر» وأطول كلمة ليستخلفهم وبعدها فسيكفيكهم وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء والثالث إلى آخره وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى : (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) والسبع الثاني إلى التاء من قوله تعالى في سورة الأعراف (أولئك حبطت) والثالث إلى الألف الثانية من قوله في الرعد (أكلها) والرابع إلى الألف في الحج من قوله (جعلنا منسكاً) والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب (ولا مؤمنة) والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح (الظانين بالله ظن السوء) والسابع إلى آخر القرآن .

رؤية الله تعالى يوم القيامة:

(وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته يرونه سبحانه وهم في عرصة القيامة ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى) .

قد تقدم الإيمان برؤية المؤمنين ربهم في الآخرة وأدلتها

من القرآن والرد على منكريها في مواضع سابقــة من هذا الكتاب ، ورؤية المؤمنين ربهم في لآخرة أعلا نعيم الجنة ، وقد دل عليها الكتاب والسنة والاجماع ، وقد ذكرت في الكتب السماوية وأخبرت بها الرسل ، وذلك لما تلقوه من الوحي الذي ينزل به الرسول من الملائكة على الرسول البشري ، ومن ثم كان الإيمان بها من جملة الإيمان بالله وملائكته ورسله ، والمنكر للرؤية مكذب بهذا كله ، والأيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر ، وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة والنار والرؤية وغيرها .

وقوله : « عياناً بأبصارهم » أي رؤية بالعين حقيقة رؤية لا شك فيها ولا امتراء ولا يحصل فيها مشقة ولا نصب .

وقوله : « في عرصة القيامة » العرصة : كل موضع واسع لا بناء فيه ، وعرصة الدار وسطها ، وكل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء قال مالك ابن الريب :

تحمل أصحابي عشاء وغادروا   أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا

وعرصات القيامة : مواقف الحساب والعرض ، والجنة البستان ، والمراد بالجنة هنا الدار التي أعدها الله لأوليائه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيرى المؤمنون الله في الموقف ، وبعد دخول الجنة ، ومن

أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه ، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والقصور إلى هذه اللذة أبدا فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك قال تعالى : (ورضوان من الله أكبر) .

وفي السنن من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب تعالى قد أشرف عليهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، قال : وذلك قوله (سلام قولا من رب رحيم) قال : فينظر إليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم » .

أو ما سمعتَ مناديَ الإيمان يُخْـ ... ـبر عن منادِي جنةِ الحَيَوان

يا أهْلَها لَكُمُ لَدَى الرحمن وعْـ ... ـد وهو منجزُهُ لكم بضمانِ

قالوا أمَا بَيّضْتَ أوجُهَنَا كذَا ... أعْمَالَنَا ثقّلْتَ في الميْزانِ

وكذاك قَدْ أدْخَلْتَنَا الجنّاتِ حِـ ... ـينَ أجَرْتَنَا مِن مَدْخَلِ النيران

فيقولُ عندي مَوْعِد قد آنَ أنْ ... أعْطِيكُمُوهُ برحْمَتِي وحَنَانِي

فيرونَه من بَعْدِ كَشْفِ حِجابِهِ ... جَهْراً روى ذا مُسلمُ بِبَيَان

ولقد أتانا في الصّحيحين اللـذَ ... يْنِ هُمَا أصحُ الكتبِ بعدَ قرآنِ

بروايةِ الثّقَةِ الصدوقِ جَرِيرِ البَجَـ ... ـلِيِ عَمّنْ جاءَ بالقرآن

أن العِبادَ يرونَه سبحانَهُ ... رؤيا العِيانِ كما يُرى القَمَران

فان استطعتم كلَّ وقتٍ فاحفظوا البَرْدَيْنِ ما عِشْتُم مدى الأزمان
ولقد روى بضع وعشرون امرءاً مِن صَحْبِ أحمدَ خيرةِ الرحمن
أخبارَ هذا الباب عمّن قد أتى بالوحي تفصيلاً بلا كتمان
وألذُّ شيءٍ للقلوب فهذه الأخبارُ مع أمثالها هي بهجة الإيمان
والله لولا رؤيةُ الرحمن في الجنّاتِ ما طابَتْ لِذي العرفان
أعلى النعيم نعيمُ رؤيةِ وجهِه وخطابُه في جنّةِ الحيوان
وأشدُّ شيءٍ في العذابِ حجابُه سُبْحانه عن ساكني النيران
وإذا رآه المؤمنون نسوا الذي هُمْ فيه مما نالتِ العينانِ
فاذا توارى عنهم عادوا إلى لذّاتهم من سائر الألوان
فلهم نعيم عند رؤيته سوى هذا النعيم فحبّذا الأمران
أو ما سمعتَ سؤالَ أعرفِ خلقِه بجلالِه المبعوثِ بالقرآن
شوقاً إليه ولذّةَ النظرِ الذي بجلالِ وجْهِ الربِ ذي السلطان
فالشوقُ لذّةُ رُوحِه في هذه الدُّ نيا ويومَ قيامةِ الأبدانَ
تلتذ بالنظر الذي فازت به دون الجوارح هذه العينان
والله ما في هذه الدنيا ألذ من اشتياق العبد للرحمن
وكذاك رؤية وجهه سبحانه هي أكمل اللذاتِ للإنسان

قال الشيخ : وأما احتجاج النفاة بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فالآية حجة عليهم لا لهم لأن الادراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المفيدة بالإحاطة والأول باطل لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال أدركه ، كما لا يقال أحاط به ، كما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال :

ألست ترى السماء ؟ قال : بلى قال : أكلها ترى ؟ قال : لا . ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال إنه أدركها ، وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية ، ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك وإنما ذكرنا هذا بياناً لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية ، وأن كل من رأى شيئا يقال في لغتهم إنه أدركه ، وهذا لا سبيل إليه ، كيف وبين لفظ الادراك والرؤية عموم وخصوص فقد تقع رؤية بلا إدراك وقد يقع إدراك بلا رؤية أو اشتراك لفظ وأن الإدراك يستعمل في إدراك العلم وإدراك القدرة فقد يدرك الشيء بالقدرة وإن لم يشاهد كالأعمى الذي طلب رجلا هارباً فأدركه ولم يره وقد قال تعالى (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معي ربي سيهدين) فنفى موسى الإدراك مع إثبات التراائي ، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك ، والإدراك هنا هو إدراك القدرة أي ملحوقون محاط بنا ، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد انتفى إحاطة البصر أيضا .

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه سبحانه وتعالى ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح لأن النفي المحض لا يكون مدحاً إن لم يتضمن أمراً ثبوتيا لأن المعدوم أيضاً لا يرى والمعلوم لا يمدح فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه وإن كان المنفي هو الإدراك فهو سبحانه لا يحاط به علما ولا يلزم من نفي إحاطة العلم الرؤية

بل يكون ذلك دليلا على أنه يرى ولا يحاط به فان تخصيص الإحاطة يقتضي أن الرؤية ليست بمنفية وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم .

وقد روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره فلا تحتاج الآية إلى تخصيص ولا خروج عن ظاهر الآية فلا نحتاج أن نقول : لا نراه في الدنيا أو نقول : لا تدركه الأبصار بل المبصرون ، أو لا تدركه كلها بل بعضها ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تكلف . اه .

وقال ابن القيم رحمه الله بعد أن ساق خمسة أدلة على الرؤية : الدليل السادس : قوله عز وجل (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) والاستدلال بهذا أعجب فانه من أدلة النفاة وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه وقال لي أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل باية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله فيها فمنها هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمرا وجودياً كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه ونفي

الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثال المتضمن لكمال ذاته وصفاته ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً ، فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكمال بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فلو كان المراد بقوله (لا تدركه الأبصار) أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك فان العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار ، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فاذاً المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به كما كان المعنى في قوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة) أنه يعلم كل شيء ، وفي قوله (وما مسنا من لغوب) أنه كامل القدرة وفي قوله (ولا يظلم ربك أحدا) أنه كامل العدل وفي قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أنه كامل القيومية فقوله (لا تدركه الأبصار) يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه في عظمته لا يدرك بحيث يحاط به فان الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا) فلم ينف موسى الرؤية ولم يريدوا بقولهم : إنا لمدركون إنا لمرئيون ، فان موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله (كلا) ، وأخبره الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله (ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً

في البحر يبساً ، لا تخاف دركاً ولا تخشى) فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به وهذا هو ما فهمه الصحابة والأئمة من الآية .

قال ابن عباس : (لا تدركه الأبصار) لا تحيط به الأبصار ، قال قتادة هو أعظم من أن تدركه الأبصار ، وقال عطية : ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم ، فذلك قوله تعالى (لا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ، فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً ، لا تدركه أبصارهم ، بمعنى أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئا يحيط به وهو بكل شيء محيط .

وتأمل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فانه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به ، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته العالي في قربه القريب في علوه الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، اهـ .

وأما قوله تعالى (لن تراني) فانما يدل على النفي في المستقبل ولا يدل على دوام النفي ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت

قال تعالى (ولن يتمنوه أبداً) مع قوله (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها وقد جاء ذلك في قوله تعالى (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) فثبت أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد . قال ابن مالك :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله انبذ وسواه فاعضدا

الايمان باليوم الآخر :

(وقوله : ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه ، فأما الفتنة فان الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل من ربك وما دينك ومن نبيك فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فيقول المؤمن الله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي .

وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب) .

الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت وهذا هو الركن

الخامس من أركان الإيمان، وجمهور بني آدم يؤمنون بالبعث بعد الموت وهو ـ أي البعث ـ إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها وقد دل على ذلك العقل والفطرة كما صرحت به جميع الكتب السماوية ونادى به الأنبياء والمرسلون قال تعالى (إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) وقال (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) ومما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه والبعث والحشر والنشر والصحف والميزان والحساب والجزاء والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار وأحوالهما وما أعد الله لأهلهما إجمالا وتفصيلا .

والمراد بفتنة القبر ما ورد من أن الناس يمتحنون في قبورهم ففي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) نزلت في عذاب القبر ، وزاد مسلم : فيقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد فذلك قوله سبحانه (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وفي رواية للبخاري إذا قعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وأخرج الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اذا قبر الميت ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما

المنكر والآخر النكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول هو ، عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً ، ثم ينور له فيه – وإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت مثله ، ولا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التئمي عليه ، فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه » .

وفي الصحيحين من حديث أبي قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ – لمحمد صلى الله عليه وسلم – فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، فيراهما جميعا . قال : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره مد البصر ، ثم رجع إلى حديث أنس ، قال : وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقوله الناس ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر . قال : « نعم عذاب القبر حق » وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لقد أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل – أو قريباً – من فتنة المسيح الدجال » ، وفيهما عن أبي أيوب قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس وقد سمع صوتاً فقال يهود تعذب في قبورها » وعن أبي داود فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيقولان له : وما يدريك ؟ فيقول ؛ قرأت كتاب الله تعالى فامنت به وصدقت فينادي مناد : أن صدق عبدي . فافرشوه من الجنة . وافتحوا له باباً إلى الجنة ، وألبسوه من الجنة ويفسح له مد بصره » . وقال في الكافر : فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . إلى أن قال : فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار : وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه » .

ومن الأدلة الدالة على عذاب القبر قوله تعالى في حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) ... الخ وقوله (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى (فان له معيشة ضنكا) قال : المعيشة الضنك هي عذاب القبر . وقيل في قوله تعالى سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم أن أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني عذاب القبر .

وقوله : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية ، وقوله تعالى (وأن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون) وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً ـ أي حية ـ تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة لو أن تنيناً منها نفخ على الأرض ما أنبتت خضراء » .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال بلى إنه كبير ، أما أحدهما فلا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » الحديث . وفي حديث أنس رضي الله عنه « تنزهوا من البول فان عامة عذاب القبر منه » وعن زيد بن ثابت قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به وكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة . فقال : « من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا . قال : فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك ، فقال : إن هذه الأمة

تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه » ثم أقبل بوجهه علينا فقال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر » الحديث ، رواه مسلم .

وعن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما مات أبو سلمة « اللهم افسح له في قبره ونور له فيه » . وقال صلى الله عليه وسلم (إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وان الله ينورها بصلاتي عليهم) .

وعن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى قال : اقرأ (تبارك الذي بيده الملك) وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فانها المنجية ، والمجادلة تجادل - أو تخاصم - يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه من عذاب النار ، وينجي بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » وعن ابن عباس قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات العالم صور الله علمه في قبره يؤنسه إلى يوم القيامة ويدرأ عنه هوام الأرض » أخرجه الديلمي .

ورد أن رجلا غل شملة من الغنم فجاء سهم عائر فأصابه فقتله فقال الناس : هنيئاً له بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها

يوم خيبر من المغانم التي لم تصبها المقاسم تشتعل عليه ناراً » .
ومن الأدلة على نعيم القبر قوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) وقوله (ولا تحسبن الذي قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) وقوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشرو بالجنة التي كنتم توعدون) قال زيد بن أسلم يبشرون عند موته وفي قبره وحين يبعث

وعذاب القبر ونعيمه يحصل للروح والبدن جميعاً ، قال بعضهم :

ونؤمن أن الموت حق وأننـــا سنبعث حقاً بعد موتتنا غـــدا
وأن عذاب القبر حـــق وأنـــه على الجسم والروح الذي فيه ألحدا

والروح تبقى بعد مفارقة البدن إما منعمة وإما معذبة ، وتتصل بالبدن أحياناً . والعذاب في القبر نوعان : دائم كما في قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشيا) الآية ، والنوع الثاني إلى أمد ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم ثم يخفف عنهم العذاب ، كما يعذبون في النار مدة ثم يزول عنهم العذاب ، وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء ، أو صدقة ، أو استغفار ، أو ثواب حج ، أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم . فينبغي للانسان أن يجتهد ويحرص على اهداء ما تيسر من ذلك خصوصا لأبويه

ومن أشفقوا عليه وبروه وقد ورد أن الموتى يستبشرون بالخير الذي يعمله أقاربهم من ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا « تفضحوا أقاربكم بسيآت أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور . ويسوؤهم العمل السيء » .

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عمن سمع أنساً يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم فان كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن بن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم في قبورهم فان كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » .

قال ابن القيم ·

فعلى أني الإنسان يعرض سعيه	وعلى أقاربه مع الإخوان
إن كان سعياً صالحاً فرحوا به	واستبشروا يا لذة الفرحان
أو كان سعياً سيئاً حزنوا وقا	لوا رب راجعه إلى الإحسان

وللروح بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام ، أحدها : تعلقها به في البطن جنيناً ، الثاني تعلقها به بخروجه إلى وجه الأرض ، الثالث : تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق

من وجه ومفارقة من وجه ، الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فلها وإن فارقته وتجردت عنه فانها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة ، فانه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، وهذا الرد خاصة إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة ، الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساد ، قال السفاريني:

فكل ما صح من الأخبار ... أو جاءَ في التنزيل والآثار
من فتنة البرزخ والقبور ... وما أتى في ذا من الأمور
وأن أرواح الورى لم تعدم ... مع كونها مخلوقة فاستفهم
فكل ما عن سيد الخلق ورد ... من أمر هذا الباب حقاً لا يرد

قال ابن القيم : وما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهوى أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه من العذاب ما يصل إلى المقبورين . والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل إخبارهم قسمان ، أحدهما : ما تشهد به العقول والفطر ، الثاني : ما لا تدركه بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالا في العقول أصلا .

وكل خبر يظن أن العقول تحيله فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون الخبر كذباً عليهم ، أو يكون ذلك القول فاسداً ، وهو شبه خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح فيجب أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان .

وقد جعل الله الدور ثلاثاً دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تخصها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعا لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، فاذا كان يوم القيامة عند بعث الأجساد وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين صار النعيم والعذاب على الأرواح والأجسام جميعاً ، وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه ، وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر ، فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

وقال إن الله سبحانه وتعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك فهذا جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويتمثل له رجلا فيكلمه بكلام يسمعه ومن إلى

جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يراه ولا يسمعه وكذلك غيره من الأنبياء وأحيانا يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم ، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يحدثه في الأرض وهو بينهم وقد كان جبريل يقريء النبي صلى الله عليه وسلم ويدارسه القرآن ، والحاضرون لا يسمعون وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها والعبد أضعف بصراً وسمعا من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر وكثيرا ممن أشهده الله ذلك صعق وغشي عليه ولم ينتفع بالعيش زمنا وبعضهم كشف قناع قلبه فمات ،فكيف ينكر في الحكمة الإلهية إسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عيانا ، وهل قياس أمر البرزخ على ما يشاهده الناس في الدنيا إلا محض الجهل والضلال وتكذيب أصدق الصادقين وتعجيز رب العالمين وذلك غاية الجهل والظلم ، وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالم والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الاقرار به والإيمان سببا لسعادتهم فاذا كشف

عنهم الغطاء صار مشاهدا فلو كان الميت بين الناس موضوعا لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب في النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك وقد سرى أثر الضربة والألم إلى جسده الخ .

وقال رحمه الله عن الروح : هو جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم بقي هذا الجسم ساريا في هذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح، وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ثم قال ونحن نسوق الأدلة عليه قال تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » ففي الآية ثلاثة أدلة : الإخبار بتوفيها وإرسالها وإمساكها الثاني قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت» إلى قوله « ولقد

جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » وفيها أربعة أدلة أحدها بسط الملائكة أيديهم لتناولها الثاني وصفها بالإخراج والخروج والثالث الإخبار عن عذابها ذلك اليوم والرابع الإخبار عن مجيئها إلى ربها فهذه سبعة أدلة الثالث قوله تعالى « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار» إلى قوله « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » فيها ثلاثة أدلة الأول الأخبار بتوفي النفس في الليل الثاني ردها إلى الأجساد في النهار الثالث توفي الملائكة عند الموت فهذه عشرة أدلة الرابع قوله « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » وفيها ثلاثة أدلة أحدها وصفها بالرجوع الثاني وصفها بالدخول الثالث وصفها بالرضى فهذه ثلاثة عشر دليلا ثم ساق أدلة من السنة كثيرة . انتهى من كتاب الروح .

واختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة ، والراجح في ذلك أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، فمنها أرواح في أعلا عليين في الملأ الأعلى . وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند عن عبد الله بن جحش أن

رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما لي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال « الجنة ، فلما ولى قال : إلا الدين ، سارني به جبريل آنفاً » ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة ، ومنهم من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم قتل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه نارا في قبره » ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس : « الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشيا » رواه أحمد ، وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، ومنهم من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى ، فانها كانت روحاً سفلية ، ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، بل روح في أعلى اليمين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

وقال رحمه الله في النونية :

فالشأن للأرواح بعد فراقها ... أبدانها والله أعظم شان

إما عذاب أو نعيم دائم ... قد نعمت بالروح والريحان

وتصير طيراً سارحاً مع شكلها ... تجني الثمار بجنة الحيوان

وتظل واردة بأنهار بها ... حتى تعود لذلك الجثمان

لكن أرواح الـذين استشهـدوا   في جوف طير أخضر ريان
فلهم بذلك مزيـة في عيشهـم   ونعيمهـم للروح والأبـدان
بذلوا الجسوم لربهـم فأعاضهم   أجسام تلك الطير بالإحسان
ولهـا قناديل إليهـا تنتهـي   مأوى لها كمساكن الإنسان
فالروح بعد الموت أكمل حالـة   منها بهذي الدار في جثمان

وقال رحمه الله : والحياة التي امتاز بها الشهداء هي أن الله جعل أرواحهم في جوف طير خضر كما في حديث ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم – يعني يوم أحد – جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مظللة في ظل العرش » الحديث رواه أحمد ، ورواه بمعناه مسلم من حديث ابن مسعود ، فانهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير ، ونسمة الشهيد في جوف طير ، وتأمل لفظ الحديثين فانه قال « نسمة المؤمن طير » فهذا يعم الشهيد وغيره ، ثم خص الشهيد بأن قال « هي في جوف طير » ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير ، فنصيبهم من هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير

منهم فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه ا هـ . (من كتاب الروح لابن القيم) .

قال في شرح الطحاوية على قوله (كل شيء هالك إلا وجهه) : قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون : لا تموت الأرواح فانها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فان أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد قبضها في نعيم أو في عذاب ا هـ .

وأجمعت الرسل عليهم السلام أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة ، وهذا معلوم بالاضطرار من دينهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة حتى زعم أنها قديمة مخلوقة .

قال شيخ الإسلام : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكى إجماع العلماء

على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين اهـ .

(وقوله : إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق وتنصب الموازين ، فتوزن فيها أعمال العباد فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) .

قوله : « إلى أن تقوم القيامة الكبرى » إشارة إلى أن فيه قيامة صغرى وهي تقوم في خاصة كل إنسان من خروج روحه وانقطاع سعيه ، والدليل على أن كل من مات قامت قيامته قول النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من الأعراب سألوه عن الساعة فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال « إن يعش هذا حتى يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » رواه مسلم وغيره ، وقال الشاعر :

(خرجت من الدنيا وقامت قيامتي غداة أقل الحاملون جنازتي)
(وعجل أهلي حفر قبري وصيروا خروجي وتعجيلي إليه كرامتي)
(كأنهم لم يعرفـوا قـط صورتي غداة أتى يومي علي وليلتي)

وأما القيامة الكبرى فتعاد فيها الأرواح إلى الأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا وهذه القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليها

أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا قال تعالى (ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) إلى قوله (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) ، وقال . (خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) ، (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) .

قال في شرح الطحاوية : والإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه وأقام الدليل عليه ورد على المنكرين في غالب سور القرآن وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله فان الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فان منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين وكان قد بعث هو والساعة كهاتين وكان هو الحاشر المقفى بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء .

وقال : فان القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم .

وقال : وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة ، وأمر نبيه أن يقسم على المعاد فقال (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ، عالم الغيب) الآيات ، وقال (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ، وقال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن) الآية .

وأخبر عن اقترابها فقال (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) ، وقال (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) إلى قوله (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً) وذم المكذبين بالمعاد فقال (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) ، (ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) . (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا) إلى أن قال (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) ، وقال (إن الساعة آتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ، (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا باياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا ، أو لم يروا

أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا) ، (وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم إلى قوله (إن لبثتم إلا قليلا) .

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فانهم قالوا أولا (أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً) فقيل لهم في جواب هذا السؤال : إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك ؟ فان قلتم كنا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديدا ؟ أو للحجة تقريرا آخر وهو : لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلقاً أكبر منهما قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم : من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله (قل الذي فطركم أول مرة) فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم متى هو ؟ فأجيبوا بقوله (عسى أن يكون قريبا) .

وقال : والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن

الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل تراباً ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى فانه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار عظاماً ولحماً ثم أنشأه خلقاً سوياً ، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب » وفي حديث آخر « إن السماء تمطر مطراً كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات » اهـ .

قال ابن القيم رحمه الله :

وإذا أراد الله إخراج الورى	بعد الممات إلى المعاد الثاني
ألقى على الأرض التي هم تحتها	والله مقتدر وذو سلطان
مطراً غليظاً أبيضاً متتابعاً	عشرا وعشرا بعدها عشران
فتظل تنبت منه أجسام الورى	ولحومهم كنابت الريحان
حتى إذا ما الأم حان ولادها	وتمخضت فنفاسها متدان
أوحى لها رب السما فتشققت	فبدا الجنين كأكمل الشبان
وتخلت الأم الولود وأخرجت	أثقالها أنثى ومن ذكران
والله ينشىء خلقه في نشأة	أخرى كما قد قال في القرآن
هذا الذي جاء الكتاب وسنة الهـا	دي به فاحرص على الإيمان

وقال في شرح الطحاوية : فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجوه . والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم

البداء فرق ، فعجب الذنب هو الذي يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخاً علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائماً في تحلل واستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رآها كبيرة قال هذه تلك وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال إن الصفات هي المغيرة لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فانهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعاً كما ثبت في الصحيحين وغيرها وروي أن عرضه سبعة أذرع وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات وهذه النشأة فانية معرضة للآفات ا هـ .

النفخات الثلاث :

والنفخات ثلاث : الأولى نفخة الفزع وهي التي يتغير بها العالم قال تعالى (ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) .

والثانية : نفخة الصعق قال الله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) والنفخة هذه هي التي فيها الهلاك لكل شيء .

والثالثة : نفخة البعث والنشور قال الله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) .

وقوله : « فيقوم الناس من قبورهم الخ ... » الحفاة الذين ليس على أرجلهم نعال ولا خفاف ، والعراة الذين ليس عليهم لباس . غرلا أي غير مختونين . والغرلة القلفة ... ويلجمهم العرق أي يصير لهم كاللجام الذي يربط به فم الدابة . والمعنى : أنه يصل إلى أفواههم .

وروى مسلم عن المقداد بن الأسود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق قدر أعمالهم منهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً » قال بعض العلماء ظاهر الحديث التعميم ، ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله ، فأشدهم في العرق الكفار . ثم أصحاب الكبائر ، ثم من بعدهم . والمسلمون منهم قليل بالنسبة إلى الكفار كما تقدم تقريره في بعث النار .

ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها وذلك أن النار تحف بأرض الموقف وتدنو الشمس من الرؤوس قدر ميل فكيف تكون حرارة تلك الأرض وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً مع أن كل واحد لا يجد إلا موضع قدمه ؟ فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟! إن هذا لما يبهر العقول ويدل على عظيم القدرة ،

ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة وأنه ليس للعقل فيها مجال ، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب ، ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه . نسأل الله العصمة .

وفائدة الإخبار بذلك أن يتنبه السامع فيأخذ بالأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر إلى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ويتضرع إليه في سلامته من دار الهون وإدخاله دار الكرامة اهـ .

ومما ينبغي للانسان أن يجلس عندما يريد النوم ساعة يحاسب فيها نفسه على ما خسره وربحه في يومه ثم يجدد له توبة نصوحا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة ويعزم عزما لا تردد فيه على أن لا يعود إلى الذنب ويستمر على هذا العمل كل ليلة فان مات في ليلته مات على توبة وان استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسرورا بتأخير الأجل وليس للعبد أنفع من هذه التوبة .

ولا سيما إذا أعقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند النوم حتى يغلبه النوم ومن أراد الله به خيرا وفقه، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله : « وتنصب الموازين » جمع ميزان ، وهو ميزان حقيقي حسي له لسان وكفتان . وتوزن به أعمال العباد قال

الله تعالى : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) الآيتين ، وقال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الآيات ، ومن السنة حديث البطاقة « فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الرحمن الرحيم » ، وخص ممن يحاسب وتوزن أعمالهم طائفتان فمن الكفار من لا ذنب له إلا الكفر ولم يعمل حسنة فانه يقع في النار من غير حساب ولا ميزان ، ومن المؤمنين من لا سيئة له وله حسنات كثيرة زائدة على محض الإيمان فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، كما في قصة السبعين ألفاً ومن شاء الله أن يلحقه بهم ، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح وكأجاود الخيل ، ومن عدا هذين من الكفار والمؤمنين يحاسبون وتعرض أعمالهم على الموازين .

قال أبو اسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العبد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال ، وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا : هو عبارة عن العدل ، فخالفوا الكتاب والسنة لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة فيكونوا على أنفسهم شاهدين ، والحق عند أهل السنة .

وقد اختلف العلماء هل الذي يوزن العمل أو صاحبه : فقيل الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها يوم القيامة

أجساماً . قال البغوي : يروى هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن سورتي « البقرة » و « آل عمران » تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف » ، ومن ذلك ما في الصحيح قصة القرآن وأنه « يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول : من أنت فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك » ، وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : « فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح » وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

قال ابن القيم رحمه الله :

أفما تصدق أن أعمال العبـــا	د تحط يوم العرض بالميزان
وكذا تثقل تارة وتخف أخـــ	رى ذاك في القرآن ذو تبيان
وله لســان كفتــان تقيمـــه	والكفتــان إليه ناظرتــان
ما ذاك أمراً معنوياً بل هو المـــ	حسوس حقاً عند ذي الإيمان
أو ما سمعت بأن تسبيح العبـــا	د وذكرهم وقراءة القـــرآن
ينشيه رب العرش في صور يجـا	دل عنه يوم قيامة الأبدان
أو ما سمعت بأن ذلك حول عـر	ش الرب ذو صوت وذو دوران
يشفعن عند الرب جل جلالــه	ويذكرون بصاحب الإحســان
أو ما سمعت بأن ذلك مــؤنس	في القبر للملفوف في الأكفان
في صورة الرجل الجميل الوجه في	سن الشباب كأجمل الشبان

أو ما سمعت بأن ما تتلوه في — أيام هذا العمر من قـرآن

يأتي يجادل عنك يوم الحشر للـر — حمن كي ينجيك من نـيران

في صورة الرجل الذي هو شاحب — يا حبذا ذاك الشفيع الـدان

أو ما سمعت حديث صدق قدأتى — في سورتين من أول القرآن

فرقان من طير صواف بينهـا — شرق ومنه الضوء ذو تبيان

شبههما بغمامتـين وان تشـا — بغيايتين هما لذا مثـلان

هذا مثال الأجر وهو فعالنـا — كتلاوة القـرآن بالإحسـان

أوما سمعت بقلبـه سبحانـه الـ — أعيان من لون إلى ألـوان

وكذلك الأعراض يقلب ربهـا — أعيانها والكل ذو إمكـان

لم يفهـم الجهـال هـذا كلـه — فأتوا بتأويلات ذي بطلان

فمكـذب ومـؤل ومحـير — ما ذاق طعم حلاوة الإيمـان

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة يدل على ذلك ، وقيل : يوزن صاحب العمل مع عمله ، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » قال : اقرؤوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) .

وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يجني سواكاً وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفيه ، فضحك القوم منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مم تضحكون » ؟ قالوا : يا نبي الله

من دقة ساقيه فقال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها .

والميزان قيل : إنه واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال وأتى بلفظ الجمع باعتبار تعدد الأعمال والأشخاص أو للتفخيم كما في قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدا وكقوله : (يا أيها الرسل) الآية ، وقيل : لكل عبد ميزان وقيل : الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلق به ، وقيل : جمعه لأن الميزان يحتوي على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماعهما .

« نشر الدواوين » والحساب :

(قوله : وتنشر الدواوين ـ وهي صحائف الأعمال ـ فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره ، كما قال سبحانه وتعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ويحاسب الله الخلائق ، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه ، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة . وأما الكفار : فلا يحاسبون محاسبة من توزن

حسناته وسيئاته . فانه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقرون بها ويجزون عليها) .

الدواوين : هي صحائف الأعمال ، ونشرها : فتحها وبسطها ، فيجب الإيمان بها وأخذها بالإيمان أو بالشمائل لثبوت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع قال الله تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه) (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه) وقوله تعالى (وكل إنسان ألزمناهُ طائره في عنقه) وطائره هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ويلزمه به ويجازى عليه ، وقوله (في عنقه) أي جعلنا عمله لازماً له لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه ، وقوله (ونخرج لهُ الخ ..) يذكر جل وعلا في الآية الكريمة أن ذلك العمل الذي لزم الإنسان إياه يخرجه له يوم القيامة حين البعث والحساب يلقاه منشوراً أي مفتوحاً غير مطوي لتمكن قراءته وفيه إشارة إلى أنه أمر مهيء له غير مغفول عنه ، وقوله تعالى (اقرأ كتابك) الآية ، أي يقال له اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا .

وفي هذه الآية إخبار عن كمال عدله جل وعلا قال الحسن : لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك ، قال قتادة : سيقرأ من لم يكن قارئا في الدنيا .

في الآية :

أولا ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

ثانياً ـ كما عدل الله .

ثالثاً ـ أن أعمال الإنسان محصاة عليه ، قال تعالى (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) الآية ، وقال (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، وقال (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وقال (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) وقال (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وفي الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» وفي الحديث الآخر «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوا منهم وأكرموهم» وروى مسلم وأحمد عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا وإياك يا رسول الله قال : « وإياي لكن الله أعانني عليه فأسلم » .

قال السفاريني :

ووكّل اللهُ مــن الكــــرام	اثنــين حافظــين للأنــام
فيكتبــان كل أفعــال الورى	كما أتى بالنص من غير امترا

رابعاً ـ أن أعمال الإنسان لا تتعداه إلى غيره فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله .

وفي الآية دليل على أن الإنسان يذكر جميع ما كان منه ويعرفه ولا ينسى أحد ما كان منه .

قوله « ويحاسب الله الخلائق » الحساب : هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من الحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً ، والدليل قوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) الآية ، وقال (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) الآيتين – وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك فقلت : يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » .

ولهما عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فاني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته » .

قال ابن القيم رحمه الله :

ويحاضر الرحمن واحدهــم محــا	ضرة الحبيب يقول يا بن فلان
هل تذكر اليوم الذي قد كنت فيـ	ـه مبارزاً بالذنب بالعصيــان
فيقول رب أما مَنَنْتَ بغفــرةٍ	قِـدْماً فإنك واسع الغفران
فيجيبه الرحمن مغفــرتي الـتي	قد أوصلتك إلى المحل الــداني

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله » .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنهـــا أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما يبكيك » قالت : ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال هؤم اقرءوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » .

وعنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئاً ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله ، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية ، وقال (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة فانه يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء الله ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة » . رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه .

وبين محاسبة المؤمن والكافر فرق فان المؤمن توزن حسناته

وسيئاته فمن رجحت حسناته بسيئاته دخل الجنة ، ومن خفت موازينه بأن رجحت سيئاته بحسناته دخل النار ، وأما من تساوت حسناته وسيئاته فقيل أولئك أصحاب الأعراف ، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فانه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ، قال الله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وقال (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وقال (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الآية .

قال ابن القيم رحمه الله :

طبقات المكلفين في الآخرة ثماني عشرة طبقة أعلاها مرتبة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهم ثلاث طبقات أعلاهم أولو العزم الخمسة ثم من عداهم ثم الأنبياء الذين لم يرسلوا إلى الأمم .

الرابعة الصديقون ورثة الرسل القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة الخلق إلى الله على طريقهم . الخامسة أئمة العدل وولاته ، السادسة المجاهدون في سبيل الله ، السابعة أهل الإيثار والإحسان والصدقة ، الثامنة من فتح الله عليه باباً من أبواب الخير القاصر على نفسه من صلاة وصيام وحج وغيرها . التاسعة طبقة أهل النجاة وهم من يؤدي فرائض الله ويجتنب محارمه . العاشرة طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم وغشوا كبائر

ما نهى الله عنه ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت فماتوا على توبة صحيحة . الحادية عشرة طبقة أقوام خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولقوا الله مصرين غير تائبين لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم فاذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات فهؤلاء أيضاً ناجحون فائزون ، الثانية عشرة قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أصحاب الأعراف وهو موضع بين الجنة والنار ولكن مآلهم إلى دخول الجنة ، الثالثة عشرة طبقة أهل البلية والمحنة وهم قوم مسلمون خفت موازينهم ورجحت سيآتهم على حسناتهم وهؤلاء الذين ثبتت فيهم الأحاديث أنهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار أعمالهم ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين الرابعة عشرة قوم لا طاعة لهم ولا معصية ولا كفر ولا إيمان وهم أصناف منهم من لم تبلغهم الدعوة بحال ومنهم المجنون الذي لا يعقل ومنهم الأصم الذي لا يسمع شيئا أبدا ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميزوا شيئا فاختلفت الأئمة فيهم على ثمانية مذاهب أرجحها أنهم يمتحنون في عرصات القيامة ويرسل اليهم هناك رسول فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النـــار . وبهذا تتفق الأحاديث وتوافق الحكمة والعدل ، الطبقة الخامسة عشرة طبقة الزنادقة وهؤلاء المنافقون الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر وهم في الدرك الأسفل من النار . الطبقة السادسة عشرة. رؤساء الكفر وأئمته ودعاته ويتغلظ الكفر بغلظ العقيـــدة وبالعناد

وبالدعوة إلى الباطل الطبقة السابعة عشرة طبقة المقلدين وجهال الكفرة وقد اتفقت الأمة على أنهم كفار . الثامنة عشرة طبقة الجن وهم مكلفون مثابون ومعاقبون بحسب أعمالهم ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون . انتهى .

(الحوض والصراط والقنطرة)

(وقوله : وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي صلى الله عليه وسلم ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل آنيته عدد نجوم السماء ، طوله شهر وعرضه شهر . من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا ... والصراط منصوب على متن جهنم - وهو الجسر الذي بين الجنة والنار - يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر . ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح . ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل . ومنهم من يعدو عدوا . ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم ، فان الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط دخل الجنة ، فاذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ويقتص من بعض ، فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة) .

الحوض الموزود هو حوض النبي صلى الله عليه وسلم ،

ومعنى الإيمان به التصديق الجازم بما أجمع عليه أهل الحق من أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضاً في عرصات القيامة ترد عليه أمته صلى الله عليه وسلم .

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من ريح المسك . كيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبداً » وفي صحيح مسلم : « ليردن على الحوض أقوام فيختلجون دوني فأقول أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وعن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدي رب العالمين هل فيه ماء قال « والذي نفسي بيده إن فيه لماء ، ان أولياء الله ليردون حياض الأنبياء ويبعث الله سبعين الف ملك في أيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء » حديث غريب .

وثبت في صحيح مسلم عن أنس قال : أغفي بالنبي صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها فقال : هل تدرون ما الكوثر قالوا الله ورسوله أعلم قال : هو نهر أعطانيه

ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » ورواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تردون على الحوض وأنا أرد عنه الناس بعصاي ، قلنا : يا رسول الله ما عرضه ؟ قال كما بين مقامي هذا إلى عمان ، قلنا : وما آنيته ؟ قال عدد النجوم . فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا » قال ثوبان : فادعو الله عز وجل أن يجعلني من رواديه .

وحوض رسول الله حقاً أعده ... له الله دون الرسل ماء مُبرّدا
أباريقه عد النجوم وعرضه ... كبصرى وصنعا في المسافة حددا

* * *

ويشرب منه المؤمنون وكل من ... سقي منه كاساً لم يذق بعده ظما

وعن أنس قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم مضى به جبريل إلى السماء الدنيا فاذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يشم ترابه فاذا هو مسك . قال « يا جبريل ما هذا النهر ؟ » قال : هو « الكوثر الذي خبأه لك ربك » .

وقال أبو عبد الله القرطبي في المفهم : مما يجب على المكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه

في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي إذ روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة نيف على الثلاثين . منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين وفي غيرهما بقية ذلك . مما صح نقله واشتهرت رواته . ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم . ومن بعدهم أضعاف أضعافهم . وهلم جرا . وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف . وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه عن ظاهره وغلوا في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته ولا حاجة تدعو إلى تأويله . فخرق من حرف إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف . اهـ .

قال في شرح الطحاوية : والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض أنه حوض عظيم ومورد كريم يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك . وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض الأحاديث : إن كل ما شرب منه وهو في زيادة واتساع وإنه ينبت في خلالـه من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب . ويثمر ألوان الجواهر . فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء . وقد ورد في أحاديث أن لكل نبي حوضاً وأن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه

قال العلامة أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في التذكرة : واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر فقيل الميزان وقيل الحوض . قال أبو الحسن القابسي : والصحيح أن الحوض قبل . قال القرطبي : والمعنى يقتضيه فان الناس يخرجون عطاشا من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط . وقال القرطبي : ذهب صاحب القوت وغيره إلى أن الحوض يكون بعد الصراط وذهب آخرون إلى العكس والصحيح أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط . والآخر داخل الجنة . وكل منهما يسمى كوثراً . قال الحافظ : وفيه نظر لأن الكوثر نهر داخل الجنة وماؤه يصب في الحوض ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه .

فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط فان الناس يردون الموقف عطاشاً فيرد المؤمن الحوض وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا ربنا عطشنا فترفع لهم جهنم كأنها سراب فيقال ألا تردون ؟ فيظنونها ماء فيتساقطون فيها .

وقال ابن القيم : ما في حديث لقيط بن عامر « فتطلعون على حوض نبيكم على أظماء والله ناهلة عليها قط » : ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر وكأنهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر . وللسلف في ذلك قولان . وغلط من قال إنه بعد الجسر . وقد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال « بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم هلم فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » قال فهذا الحديث مع صحته أدل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم فمن جازه سلم من النار .

قلت : وليس بين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعارض ولا تناقض ولا اختلاف وحديثه كله يصدق بعضه بعضاً . وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط فحديث أبي هريرة وغيره يرد قولهم وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا وهو لا يناقض كونه قبل الصراط فانه قال طوله شهر وعرضه شهر فاذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده إلى ما وراء الجسر فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده في حيز الإمكان ووقوعه موقوف على خبر الصادق ، والله أعلم .

وقوله : « على أظمأ ناهلة قط » الناهلة الواردون الماء أي يردونه . أظمأ ما هم إليه وهذا يناسب أن يكون بعد الصراط فانه جسر النار وقد وردوها كلهم فلما قطعوها اشتد ظمؤهم إلى الماء فودوا حوضه صلى الله عليه وسلم كما وردوه في موقف

القيامة (الصراط) والصراط لغة : الطريق الواسع الواضح سمي بذلك لأنه يصترط المارة أي يبلعهم إذا سلكوه ، والمراد به هنا الذي يسلكه الناس في القيامة وهو الجسر المنصوب على متن جهنم بين الجنة والنار يرده الأولون والآخرون والإيمان به واجب لما في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يضرب الصراط بين ظهري جهنم ويمر المؤمنون عليه فرقاً ومنهم من يمر كالبرق ثم كمر الريح ثم كمر الطير وأشد الرجال ، حتى يجيء الرجل ولا يستطيع السير إلا زحفاً » وفي حافتيه كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت بأخذه فمخدوش ناج ومكردس في النار» والمرور عليه متفاوت على حسب الأعمال وعلى حسب استقامتهم على الصراط المعنوي في الدنيا الذي هو دين الإسلام فمن استقام على الصراط المستقيم في الدنيا وهو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم استقام على صراط الآخرة ، ومن زل عن الصراط المعنوي زل عن الصراط الحسي وعلى قوة إيمانهم يكون قدر مرورهم والكلاليب جمع كلوب وهو حديدة محنية الرأس يعلق فيها اللحم ويدلى في النار ، والمرور على الصراط بعد مفارقة الناس للموقف وحشرهم وحسابهم يكون قبل الصراط وينجو من يعبره وهم أهل الجنة ويسقط أهل النار فيها .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ قال : على الصراط . وله أيضاً عن ثوبان أن

حبرا من اليهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ قال : « هم في ظلمة دون الجسر ، قال : فمن أول الناس إجازة ؛ قال : فقراء المهاجرين » .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة . قالت حفصة : فقلت يا رسول الله أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) فقال : ألم تسمعيه قال (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله . بل تستلزم انعقاد سببه فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم . ولهذا قال تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هوداً) . (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً) (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً) ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك . وكذا حال الواردين في النار يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا . فقد بين صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور أن الورود المذكور في الآية هو المرور على الصراط . وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر حديثاً طويلا . وفيه قال : « ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم . قيل : يا رسول الله

وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد ، فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمره المؤمن كطرف العين ، وكالبرق وكالريح وكالطير و كأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ومكردس على وجهه في النار » وفي رواية للبخاري « حتى يمر آخرهم سحباً » .

وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد الخدري : بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف . وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث ، وفيه قال : « ويضرب الجسر بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزه ، ولا يتكلم إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمتها إلا الله عز وجل . تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو ... » الحديث .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة فذكر الحديث ، وفيه « فيعطون نورهم عن قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخرهم من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة . إذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفىء قام » فيمر

ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، دحض مزلة ، فيقال لهم امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم كالريح ومنهم من يمر كأشد الرجال ويرمل رملا . فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخر يد وتتعلق يد وتخر رجل وتتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، قال فيخلصون فاذا خلصوا قالوا الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أرانا إياك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً » الحديث رواه الحاكم وصححه ورواه البيهقي وغيره .

(القنطرة)

وأما القنطرة فهي الجسر ، قبل : هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة ، وقيل : إنهما صراطان . ولكن القنطرة صراط خاص بالمؤمنين وليس يسقط أحد منهم في النار . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »

قال ابن القيم رحمه الله:

هذا ومَن يَدْخلْ فليس بداخِلٍ ... إلا بتوقيعٍ من الرحمـن

وكذاك يُكتَبُ للفتى لِدُخُولِهِ ... مِن قبلُ توقيعان مَشهُورانِ

إحداهما بَعْدَ المماتِ وعَرضٍ أرْ ... وَاحِ العِبادِ به على الدَّيَّان

فيقولُ ربُّ العَرش جَلَّ جَلاله ... للكاتبينَ وهمْ أولُو الدِيوَان

ذا الاسم في الديوان يُكْتَبُ ذاكَ دِ ... يوان الجنانِ مُجَاوِرَ المنـان

ديوانُ علِّيينَ أصحابِ القُـرآ ... نِ وسُنّةِ المبعوثِ بالقرآنِ

فإذا انتهَى لِلْجِسْرِ يومَ الحَشْرِ ... يُعْطي للدخولِ إذاً كتاباً ثـان

عُنوانُهُ هذا كتاب مِن عَـزيـْ ... ـزٍ راحمٍ لفُلانِ بنِ فُلان

فَدعُوهُ يَدخلُ جَنّةَ المأوى التي ارْ ... تَفَعَتْ ولكن القطوف دوَان

هذا وقد كُتِبَ اسمهُ مُذْ كانَ في الْ ... أرْحَامِ قبلَ وِلادَةِ الإنسانِ

بل قبلَ ذلكَ وهُوَ وَقْتُ القَبْضَـ ... ـتَيْنِ كِلاهُمَا للعَدْلِ والإحسان

سبحانَ ذِي الجَبَرُوتِ والملكُوتِ والْ ... إجلالِ والاكرامِ والسُّبْحَانِ

والله أكبرُ عالمُ الإسرارِ والْـ ... إعلانِ واللحظـاتِ بالأجفان

(الشفاعة)

(وقوله : وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ، وله صلى الله عليه وسلم في القيامة ثلاث شفاعات ،أما الشفاعة الأولى فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى

تنتهي إليه ، وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة وهاتان الشفاعتان خاصتان له ، وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها ، ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فينشيء الله لها أقواما فيدخلهم الجنة ، وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثورة عن الأنبياء ، وفي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ما يشفي ويكفي فمن ابتغاه وجده) .

ولما ذكر المصنف رحمه الله أنهم بعد التهذيب والتنقية يؤذن لهم في دخول الجنة أعقب ذلك ببيان من يستفتح لهم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » .

وقوله « وله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات ... الخ » الشفاعة لغة الوسيلة والطلب ، وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير ، وقيل : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والشفاعة تنقسم إلى قسمين مثبتة ومنفية فالمثبتة هي التي أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص ، ولها شرطان

مذكوران في قوله : (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) .

قال ابن القيم :

وله الشفاعة كلها وهو الذي ... في ذاك يأذن للشفيع الداني

لمن ارتضى ممن يوحده ولم ... يشرك كما قد جاءَ في القرآن

وأما المنفية فهي التي تطلب من غير الله أو بغير إذنه أو لأهل الشرك قال تعالى : (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) .

وأقسام الشفاعة المثبتة المذكورة في الواسطية ثلاثة . وأنهاها في الطحاوية وشرحها إلى ثمانية :

١ ـ العظمى وهي شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف حتى يقضى بينهم حين بتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وهي المقام المحمود .

٢ ـ شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها .

٣ ـ له ولسائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وغيرهم فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها .

٤ ـ وفيمن دخلها أن يخرج منها .

٥ ـ في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه

ثواب أعمالهم فيشفع صلى الله عليه وسلم فيهم ، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها .

٦ ـ الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب .

٧ ـ الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب .

٨ ـ شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوها فيخرجون منها .

وانقسم الناس في الشفاعة إلى طرفين ووسط . قسم نفوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة فنفوا شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وقسم أثبتوها حتى للأصنام وهم المشركون كما ذكر الله عنهم بقوله (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقسم توسطوا وهم أهل السنة فأثبتوها بشرطيها وهما : إذن الله للشافع أن يشفع . والثاني رضاه عن المشفوع له ولا يرضى من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً ، ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة كما في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم . في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل

فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أُدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه » . وقال بعضهم :

وقل يخـــرج الله العظيم بفضلــــه من النار أقواماً من الفحم تطرح
على النهر في الفردوس تحيا بمائــه كحب جميل السيل إذ جاءَ يطفح

ففي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم » وقال « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا يحمده أهل الجمع كلهم » .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة وأبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزدلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لست بصاحب ذلك .. » فذكر الحديث وفيه « فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقوم فيؤذن له أي في الشفاعة وترسل الأمانة والرحم فيقومان على جنبتي الصراط يميناً وشمالا فيمر أولكم كالبرق » الحديث وفي حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني ثم يؤذن لي في الكلام ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون » .

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم « أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة وأول من يقرع باب الجنة » .

وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر . وأول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر » .

قال ابن القيم رحمه الله :

هذا وأولهم دُخُولاً خيرَ خَـ	لْقِ اللهِ مَن قَد خُصَّ بالقرآن
والأنبيَاءُ على مَراتبهم مِن	التَفْضِيلِ تلكَ مَوَاهبُ المَنّانِ
هذا وأُمّةُ أحمدٍ سُبّاقُ بَا	قِي الخَلْقِ عِنْدَ دخُولِهم لِجنّان
وأحقُهم بالسّبْقِ أسبقهُم إلى الـ	إسلام والتّصْديق بالقرآن
وكذا أبو بكر هو الصديق أسـ	ـبقهُم دُخولاً قولَ ذي بُرْهانَ

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيقول بعض الناس لبعض ألا ترون ما أنتم فيه .. ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض

الناس لبعض أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول آدم إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وأنه نهاني عن أكل الشجرة فعصيت . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري . فيأتون إلى نوح فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكورا فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا . فيقول نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي . نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رسول اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول لهم موسى إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه قال هكذا

هو وكلمت الناس في المهد فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول لهم عيسى إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر له ذنباً اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتوني فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ، فأقوم فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي فيقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأقول رب أمتي أمتي يا رب أمتي أمتي يا رب أمتي أمتي فيقال أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال « والذي نفسي بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر او كما بين مكة وبصرى » .

قال بعضهم :

(وإن لخير المرسلين شفاعة ... بها المصطفى من بين أقرانه يسم)

(وذلك أن الخلق يشتد كربهم ... ليوم به المولود تذهله الأم)

(فيأتون بعض المرسلين ليشفعوا ... إلى الله في فصل القضا والقضا حتم)

(فيحجم كل عن شفاعته لهم ... سوى من به للمرسلين جرى الختم)

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

« لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » متفق عليه .

وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن السابقون الأولون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة » قال ابن القيم : فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم إلى دخول الجنة فالجنة لا يدخلها الأنبياء حتى يدخلها محمد صلى الله عليه وسلم ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته ،وأما أول الأمة دخولاً فروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » فقال أبو بكر يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة » وقوله وددت أني كنت معك حرصاً منه على زيادة اليقين وأن يصير الخبر عياناً كما قال إبراهيم الخليل (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) .. اهـ .

وقوله : « وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة » إلى آخره أي أنواع ما اشتملت دار الجزاء من ثواب المطيع وعقاب العاصي والحساب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكور في الكتب السماوية .. وتقدم الكلام على الحساب وأدلته ذكر المصنف هذا الكلام النفيس المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة وهو كلام جامع واضح .

قال السفاريني :

واجزم بأمر البعث والنشور	والحشر جزماً بعد نفخ الصور
وكذا وقوف الخلق للحساب	والصحف والميزان للثواب
كذا الصراط ثم حوض المصطفى	فيا هنا لمن به نال الشفا
عنه يذاد المفتري كما ورد	ومن نحا سبل السلامة لم يرد
فكن مطيعاً واقف أهل الطاعة	في الحوض والكوثر والشفاعة
فإنها ثابتة للمصطفى	كغيره من كل أرباب الوفا
من عالم كالرسل والأبرار	سوى التي خصت بذي الأنوار

وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار وتفاصيل ذلك الكثير وصنفوا المصنفات المطولة والمبسوطة والمهم أن ذلك كله داخل في الإيمان باليوم الآخر ، واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل وواقع بالسمع فان الله نبه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة وذكر

بما هو مستقر في العقول الصحيحة أنه لا يترك الناس سدى أو أن يكونوا خلقوا عبثاً لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار وهذا شيء محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك ولا يزال يرى عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما تبين به الحق لأولي العقول وأولي الألباب وأما تفاصيل الجزاء ومقاديره فلا يدرك إلا بالسمع . والنقول الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك ليرى عباده كمال حمده وكمال عدله وسعة رحمته وعظمة ملكه ، ولهذا قال (مالك يوم الدين) مع أن ملكه عام لهذا اليوم وغيره .. اهـ .

(الجنة والنار)

ومما يجب اعتقاده والإيمان به أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما لا يفنيان فالجنة دار لأوليائه أعدها الله وما فيها من النعيم المقيم لهم .

وأما موضع الجنة ففي السماء قال تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) وثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وقال تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) قال ابن عباس وما توعدون يعني الجنة وقاله

مجاهد وغير واحد ، وثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » وهذا يدل على أن الجنة في غاية العلو والارتفاع وفي الحديث الصحيح « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فـانه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» . وفي حديث أبي سعيد المتفق عليه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» وأما مكان النار فقال مجاهد قلت لابن عباس أين الجنة قال فوق سبع سموات قلت فأين النار قال تحت سبعة أبحر مطبقة رواه ابن منده وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن جهنم محيطة بالدنيا وإن الجنة وراءها فلذلك كان الصراط على جهنم طريقا إلى الجنة أخرجه أبو نعيم في تاريخ اصبهان وعن يعلى بن أمية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « البحر جهنم » أخرجه أحمد والبيهقي بسند رجاله ثقات وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أين يجاء بالنار يوم القيامة قال يجاء بها من الأرض السابعة » . الحديث أخرجه جويبر في تفسيره .

والدليل على وجود الجنة قوله تعالى في عـــدة آيات

الجنة ، أنها أعدت قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) ، (وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) ومن ذلك قصة آدم وحواء وإسكانهما الجنة وإخراجهما منها قال تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) . والرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينصح قومه ويحضهم على اتباع الرسل الذين أتوهم فقتله قومه قال الله تعالى : (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) .

وفي الصحيحين من حديث الإسراء وفي آخره « ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان ما أدري ما هي قال ثم دخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال لأنحين هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة » متفق عليه . وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس » رواه مسلم . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » وفي حديث الكسوف فقال « إني رأيت الجنة وتناولت عنقودا

ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع » وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال اذهب إليها والى ما أعددت لأهلها فنظر إليها والى ما أعد الله لأهلها » .

وعن جرير بن عبد الله قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كأن هذا الراكب يريدكم » فانتهى إلينا الرجل فسلم فرددنا عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « من أين أقبلت ؟ » قال من أهلي وولدي وعشيرتي قال «فأين تريد» قال أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «فقد أصبته» قال يا رسول الله علمني الإيمان قال «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» قال قد أقررت قال ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جرذن فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علي بالرجل» فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقالا يا رسول الله قبض الرجل قال فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ثم قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما رأيتما إعراضي عن الرجل فاني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة فعلمت أنه مات جائعاً » ثم قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » الآية . الحديث رواه الإمام أحمد .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال : (قد أفلح المؤمنون) ، قال : « وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما اطلعتم عليه ثم قرأ (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قال ابن كثير فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم .

وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة » متفق عليه .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين.وقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم الحديث » وفي حديث صلاة الكسوف قال « إني رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو

أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء » الحديث في الصحيحين واللفظ للبخاري .

وروى أهل السنن وصححه الترمذي من حديث كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق في ثمار الجنة » وروى الليث بن سعد عن معاوية بن صالح بن عبد الملك بن بشير ورفع الحديث قال « ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان تقول الجنة يا رب قد طاب ثمري واطردت أنهاري واشتقت إلى أوليائك فعجل بأهلي ، وتقول النار اشتد حرى وبعد قعري وعظم جمري فعجل علي بأهلي » .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً وداراً فقلت لمن هذا فقيل لرجل من قريش فرجوت أن أكون أنا هو فقيل لعمر بن الخطاب » الحديث .

وفي صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينما أنا أسير في الجنة وإذا بنهر في الجنة حافتاه قباب الدر المجوف قال : قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك بيده وإذا طينه المسك الأذفر » وقال صلى الله عليه وسلم لأم حارثة « إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ،

فاني سمعت دف نعليك في الجنة » الحديث متفق عليه .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقيت إبراهيم صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى بي فقال يا محمد اقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم ان الجنة طيبة التربة عــذبة الماء وانها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وفي حديث البراء بن عازب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال إلى الآخرة نزل به ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة » رواه الإمام أحمد .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت جعفرا يطير في الجنة مع الملائكة . وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة فقلت من هذا قالوا حارثة بن النعمان كذلكم البر كذلكم البر وكان أبر الناس بأمه » رواه في شرح السنة والبيهقي في شعب الإيمان . وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح

مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة الحديث رواه البيهقي في شعب الايمان .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي والحاكم : « اذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب » وأما الدليل على أن الجنة باقية لا تفنى أبداً . فقوله تعالى :

١ ـ (أكلها دائم وظلها) .

٢ ـ (وما هم منها بمخرجين) .

٣ ـ (عطاء غير مجذوذ) .

٤ ـ (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا) . أي جنات إقامة يقال عدن بالمكان أي أقام به.

٥ ـ (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) .

٦ ـ (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) .

٧ ـ (لهم أجر غير ممنون) .

٨ ـ (خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

٩ ـ (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

١٠ ـ (إن المتقين في مقام أمين) .

١١ ـ (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب) .

١٢ ـ (ومساكن طيبة في جنات عدن) .

١٣ - (جنات عدن يحلون فيها من أساور من ذهب).

١٤ - وقال عن لسان أهل الجنة: (الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب).

١٥ - (ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون).

١٦ - (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب).

١٧ - (والله يدعو إلى دار السلام).

١٨ - (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون).

١٩ - (قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقين كانت لهم جزاءا ومصيرا، لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولا).

٢٠ - (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)، (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسناً ماكثين فيه أبداً).

ومن السنة ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة وأبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينادي مناد أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا

وأن لكم أن تحيوا فلا تموموا أبدا ، وأن تشوا فلا تهرموا أبدا ، وأن تنعموا فلا تيأسوا ابدا » رواه مسلم .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد » الحديث . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهل الجنة جرد مرد كحلى لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم » رواه الترمذي والدارمي ، وعن جابر رضي الله عنه قال سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم أينام أهل الجنة ؟ قال « النوم أخو الموت ولا يموت أهل الجنة » رواه البيهقي في شعب الإيمان . وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ويذبح ويقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت » ، رواه البخاري .

والموت صفة وجودية خلافا للفلاسفة ومن وافقهم قال الله تعالى (هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا وتقدم حديث يؤتى بالموت وكما ورد في العمل الصالح أن يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن وورد في القرآن أن يأتي في صورة الشاحب اللون وورد في الأعمال الصالحة أنها توضع في الميزان والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض . وورد في سورة البقرة وآل عمران أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان

أو غيابيتان أو فرقان من طير صواف وفي الحديث أن أعمال العباد تصعد إلى السماء .

وأخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد بما هو فيه » .

قال ابن القيم رحمه الله :

هذا وخاتمة النعيم خلودهـــــم	أبداً بدار الأمن والرضوان
أو ما سمعت منادي الإيمـــان يخـ	بر عن مناديهم بحسن بيـــان
لكم حياة ما بها موت وعــــا	فية بلا سقم ولا أحـــزان
ولكم نعيم ما بـــه بــؤس وما	لشبابكم هرم مدى الأزمان
كلا ولا نوم هنـــاك يكون ذا	نوم وموت بيننـــا أخـــوان
هذا علمناه اضطراراً من كتــا	ب الله فافهم مقتضى القـــرآن

وأما الدليل على أن النار الآن موجودة فقوله تعالى :

١ ـ (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين).

٢ ـ (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) .

٣ ـ (إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) .

٤ ـ (وأعتدنا لهم عذاب السعير) .

٥ ـ (وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) .

٦ ـ (فانا أعتدنا للكافرين سعيرا) .

٧ ـ (وأعتدنا للكافرين سعيرا) .

٨ ـ (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) .

٩ ـ (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) .

١٠ ـ (إن جهنم كانت مرصادا) .

١١ ـ (إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) .

١٢ ـ (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) .

١٣ ـ (إن لدينا أنكالا وجحيما) .

١٤ ـ (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » وقوله صلى الله عليه وسلم «أبردوا بالصلاة فان شدة الحرمن فيح جهنم» وقوله صلى الله عليه وسلم « اشتكت النار إلى ربها عز وجل فقالت : أكل بعضي بعضاً فأذن له بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فاشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير . وحديث « تحاجت الجنة والنار» . وحديث صلاة الكسوف وحديث « ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان » تقدمت دليلا على أن الجنة موجودة الآن وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين خريفاً الآن وصل قعرها » وعند مسلم وحديث عائشة

« إن الله خلق الجنة وخلق النار وخلق لهذه أهلا ، ولهذه أهلا » والأحاديث التي في إثبات عذاب القبر فيها ما يدل على أن النار موجودة الآن فراجعها إن شئت ، وحديث « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » . رواه الترمذي .

وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة وان كان واحدا فواحداً وان أمسى عاصيا لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار» الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » متفق عليه . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر أمعاءه في النار » لأنه أول من سيب السوائب وحمل قريشاً على عبادة الأوثان .

وعن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غير دين ابراهيم » قالوا ومن هو يا رسول الله قال : « عمرو بن لحي أخو بني كعب لقد رأيته يجر قصبه في النار تؤذي رائحته أهل

النار وإني لأعرف أول من بحر البحائر» قالوا ومن هو يا رسول الله قال «رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههما ويطآنه بأخفافهما».

وأما الدليل على أن النار لا تفنى ولا تبيد، أعدها الله وما فيها لأعدائه :

١ - قال تعالى (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون).

٢ - (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون).

٣ - (مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا).

٤ - (الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى).

٥ - (أنه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى).

٦ - (من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت).

٧ - (ونذر الظالمين فيها جثيا).

٨ - (إن عذابها كان غراما).

٩ - (فقد كذبتم فسوف يكون لزاما).

١٠ - (لا يخفف عنهم ولا هم ينظرون).

١١ - (ولا يخفف عنهم من عذابها).

١٢ ـ (وما هم بخارجين من النار) .

١٣ ـ (ولهم عذاب مقيم) .

١٤ ـ (لا يقضى عليهم فيموتوا) .

١٥ ـ (خالدين فيها أبدا) .

١٦ ـ (والذين كذبوا بايات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي) .

١٧ ـ (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

١٨ ـ (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) .

١٩ ـ (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

٢٠ ـ (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) .

٢١ ـ (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

٢٢ ـ (إن الله لعن الكافرين وأعدلهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون ولياً ولا نصيراً) .

٢٣ ـ (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) .

٢٤ ـ (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) .

وأما الأدلة من السنة فمنها الأحاديث المتقدمة دليلا على بقاء الجنة كحديث « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح »

الحديث . وحديث « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار » الحديث . وما أخرجه الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه . عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون في الجنة عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد » .

قال ابن القيم رحمه الله :

أو ما سمعت بذبحه للموت بـــ	ين المنزلين كذبح كبش الضان
حاشا لذا الملك الكريم وإنمـــا	هو موتنا المحتوم للإنســان
والله ينشىء منه كبشاً أملحـــا	يوم المعاد يُرى لنا بعيـــان

القـــدر :

(وقوله : وتؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره ـ والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين .

الدرجة الاولى :

الإيمان بأن الله تعالى علم بما الخلق عاملون به بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، فأول ما خلق الله القلم قال

له : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف . كما قال تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) وقـــال (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وهذا التقدير - التابع لعلمه سبحانه - يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء .. وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا . فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ... ونحو ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكره اليوم قليل) .

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان وتقدم في الكلام عن الإيمان به ، وذكر المصنف رحمه الله هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين فتكون المراتب أربع :

الأولى : الإيمان بأن الله علم بما الخلق عاملون بعلمه القديم ، الذي هو موصوف به أزلا وأبدا ، فالأزل القدم الذي لا نهاية له ، فالأزل هو الدوام في الماضي ، والأبد ما ليس له آخر فهو الدوام في المستقبل ، فالأزل هو الذي لم يزل ولا يزال معناه دوامه وبقاؤه الذي ليس له مبتدأ ولا منتهى اهـ . من كلام الشيخ .

وأنه علم بأعمال العباد قبل خلقهم ، وعلم بجميع أحوالهم ولا يغيب عن علمه شيء ، فيعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، ويعلم الواجبات والممكنات والمستحيلات ، قال تعالى : (وإن الله قد أحاط بكل شيء علما) وقال : (إن الله بكل شيء عليم) وتقدمت أدلة إثبات صفة العلم لله جل وعلا .

وقال الشيخ : والعلم أعم من الإرادة وأصل لها ، والمعلوم أعم من المراد ، فالعلم يتناول الموجود والمعدوم والواجب والممكن ، وما كان وما سيكون ، وما يختاره العالم وما لا يختاره ، وأما الإرادة فتختص ببعض الأمور دون بعض والخبر ، يطابق العلم ، فكل ما يعلم يمكن الخبر به ، والإنشاء يطابق الإرادة ، فان الأمر إما محبوب يؤمر به ، وإما مكروه ينهى عنه ، وأما ما ليس بمحبوب ولا مكروه ، فلا يؤمر به ولا ينهى عنه .

ومرتبة العلم هي أولى مراتب القدر ، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم ، واتفق عليها الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، وخالفهم مجوس هذه الأمة ، وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها ، وقد كفر السلف من الصحابة فمن بعدهم من أنكر علم الله ، وقال ابن عمر : والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره . وكذا كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع

وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة الإسلام كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم : إن المنكرين لعلم الله القديم يكفرون ، فان الله سبحانه وتعالى علم أهل الجنة من أهل النار قبل أن يعملوا اعمال . وهذا حق يجب الإيمان به . بل نص الأئمة كمالك والشافعي وأحمد أن من جحد هذا فقد كفر بل يجب الإيمان به . فان الله علم ما سيكون قبل أن يكون . وفي الصحيح قالوا : يا رسول الله علم الله أهل الجنة من أهل النار . قال : «نعم». قيل : فيم العمل . قال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ». وروى الامام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال رجل يا رسول الله ففيما العمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار » ورواه أبو داود والنسائي والترمذي وغيرهم .

وذلك أن الله علم الأشياء كما هي عليه ، وقد جعل لها أسبابا تكون بها ويعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، فلا بد من

الأسباب التي قد علمها الله سبحانه وتعالى من الدعاء والسؤال وغيره ، فلا ينال العبد شيئاً إلا ما قدره الله من جميع الأسباب والله خالق ذلك الشيء وخالق الأسباب . ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل . والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع . ومجرد الأسباب لا توجب حصول المسبب . بل لا بد من تمام الشروط وزوال الموانع . فكل ذلك بقضاء الله وقدره . ولله در القائل :

وكُن بالذي قد خُطَّ باللوح راضياً فلا مَهْرَبَ مما قَضاهُ وخطّهُ

وإن مَعَ الرزق اشتراطُ التماسه وقد يتعدَّى إن تَعَدَّيْتَ شَرْطَهُ

ولو شاءَ أَلْقَى في فَمِ الطيرِ قُوتَهُ ولكنّه أَوْحَى إلى الطيرِ لِقَطْهُ

وقال الشيخ رحمه الله : على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور : أحدها أن يعلم أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لا بد معه من أسباب أخر ، ومع هذا فلها موانع . فان لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله . الثاني : أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سببا بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلا ، مثل أن يظن أن النذر سبب في دفع البلاء أو حصول النعماء . الثالث : أن الأعمال البدنية لا يجوز أن يتخذ منها سبباً إلا أن تكون مشروعة ، فان العبادات مبناها على التوقيف . وقال في التائية :

وحكمته العليا اقتضت ما اقتضته من ... فُرُوقٍ بعلمٍ ثم أيدٍ ورحمة

يسوق أولي التعذيب بالسبب الذي ... يُقَدِّرُهُ نحوَ العَذابِ بعزة

ويَهدي أولي التنعيم نحوَ نعيمهم ... بأعمال صدقٍ في رَجاءٍ وخشيةٍ

وأمرُ إلهِ الخلق بَيَّنَ ما به ... يسُوقُ أولي التنعيم نحوَ السعادة

فمَن كان مِن أهل السعادة أثّرتْ ... أوامره فيه بتَيْسيرِ صَنْعَة

ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَل ... بأمْرٍ ولا نَهْيٍ بتَيْسيرِ شِقْوةٍ

ولا مَخْرج للعبدِ عَمّا به قَضى ... ولكنه مُخْتارُ حُسْنٍ وسَوْءَةٍ

فلَيس بِمجْبُورٍ عَديمِ إرادةٍ ... ولكنه شَاءٍ بخَلْقِ المَشِيْئَةِ

وكذلك عمل الآخرة فليس بمجرد عمل العبد ، ينال الإنسان السعادة بل العمل سبب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » الحديث . وقال (أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فهذه باء السبب أي بسبب أعمالكم والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم باء المقابلة والعوض ، كما يقال اشتريت هذا بهذا ، أي ليس العمل عوضاً أو ثمنا كافيا في دخول الجنة بل لا بد معه من عفوه تعالى ورحمته وفضله ومغفرته . فمغفرته تمحو السيئات . ورحمته تأتي بالخيرات وتضاعف الحسنات اهـ من كلام الشيخ رحمه الله .

وقال ابن القيم رحمه الله .

وتأمّل الباءَ التي قَد عيّنَتْ ... سَبَبَ الفلاحِ لحكمة الفرقان

وأظنُّ باءَ النفي قد غرَّتْك في ... ذاكَ الحديثِ أتى به الشيخان

لن يدخلَ الجنات أصلاً كادِح بالسعي منه ولو على الأجفان
والله ما بينَ النُّصوص تعارض والكُلُّ مَصْدَرُها عن الرحمن
لكن بالإثبات والتسبيب والباء التي للنَّفْي بالأثمان
والفرقُ بينهما ففرَق ظاهر يَدْرِيه ذُو حَظٍ من العرفان

قال الشيخ تابع لما تقدم : وهنا ضل فريقان فريق أخذوا بالقدر وأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة . وظنوا أن ذلك كاف وهؤلاء يؤول أمرهم إلى الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله . وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر ومتكلين على حولهم وقوتهم وعملهم وهم جهال ضلال فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعيد ناظراً إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب المقام بالأمر والنهي معرضاً عن القدر فقد ضل ، بل لا بد من الأمرين فكل عمل يعمله العامل ولا يكون طاعة وعبادة وعملا صالحا ، فهو باطل وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فانه لا يكون .

المرتبة الثانية . مرتبة الكتابة : وهي أن الله كتب مقادير الخلائق : اللوح المحفوظ وأجمع الصحابة والتابعون وأهل السنة أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب ، وقال عبادة بن الصامت لابنه : يا بني إنلك لن تجد طعم الايمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال رب وما أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يا بني سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » رواه أبو داود وغيره ، وفي لفظ لأحمد « يا بني إن مت على غير هذا دخلت النار » .

وقوله : « جفت الأقلام وطويت الصحف » هذا كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها ، وقد اختلف العلماء : هل القلم أول المخلوقات ، أو العرش ؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني . أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء » فهذا صريح أن التقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة ولا يخلو قوله : « إن أول ما خلق الله القلم » إلخ .. إما أن يكون جملة أو جملتين فان كان جملة ، وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له اكتب كما في اللفظ « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب » بنصب أول والقلم وإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب فهذ االقلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها.

وقد قال غير واحد من أهل التفسير إنه القلم الذي أقسم الله به .

قال ابن القيم رحمه الله :

والناس مختلفون في القلـم الـذي	كتب القضاء به من الديـان
هلْ كان قبل العرش أو هو بعْـده	قولانَ عندَ أبي العَلا الهَمَداني
والحقُّ أنّ العرش قبـــل لأنّـه	قبلَ الكتابة كان ذا أركـان
وكتابةُ القلمِ الشريف تعَقّبَـت	إيجادَهُ مِن غَيرِ فَصْلٍ زَمـان
لَمّا بَراهُ الله قال اكتب كـذا	فَغَدا بأمرِ الله ذا جَرَيـانِ
فجرى بما هـو كائن أبـداً إلى	يومِ المعادِ بقدرةِ الرحمـن

القلم الثاني : خبر خلق آدم وهو قلم عام أيضاً لبني آدم وورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقب خلق أبيهم ... الثالث : حين يرسل الملك إلى الجنين في البطن ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك . ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه . وأجله ، وعمله . وشقي أو سعيد ، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ولمسلم عن حذيفة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول يا رب أشقي أم سعيد فيكتبان ، فيقول يا رب أذكر أم أنثى فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص » . وفي حديث حذيفة هذا التوقيت بأربعين أو خمس وأربعين ليلة . والتوقيت فيه بيان أنها قبل ذلك لا يتعرض لها ولا يتعلق بها تخليق ولا كتابة فاذا بلغت الوقت المحدود وجاوز الأربعين وقعت في أطوار التخليق طبقا بعد طبق ووقع حينئذ التقدير والكتابة . وحديث ابن مسعود صريح في أن وقوع ذلك بعد كونه مضغة بعد الأربعين الثالثة . وحديث حذيفة فيه أن ذلك بعد الأربعين ولم يؤقت البعدية بل أطلقها ووقتها في حديث ابن مسعود ، وحديث حذيفة دال أيضا على ذلك ويحتمل وجها آخر وهو أن التقدير والكتابة تقديران و كتابان فالأول منهما عند ابتداء تعلق التحويل والتخليق في النطفة وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت في طور العلقة وهذا أول تخليقه . والتقدير الثاني والكتابة الثانية اذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكرا أو أنثى من الخارج فيكتب مع ذلك عمله ورزقه وأجله وشقاوته وسعادته فلا تنافي بين الحديثين ويكون التقدير الاول تقديرا لما يكون للنطفة بعد الأربعين فيقدر معه السعادة والشقاوة والرزق والعمل . والتقدير الثاني تقديرا لما يكون للجنين بعد تصويره فيقدر معه ذلك ويكتب أيضاً وهذا التقدير أخص من الأول . ونظير هذا

أن الله سبحانه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

القلم الرابع : الموضوع على العبد عند البلوغ الذي بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم وذلك في الكتاب الكريم والسنة اهـ . من كلام ابن القيم .

وقوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه وأنه محيط بما في السموات والأرض فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، وأنه تعالى علم الكائنات قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء » ، وقوله (إن ذلك على الله يسير) أي إن علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون قال تعالى : (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً) وقال أيضا عن أهل النار (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) ويعلم سبحانه ما لم يكن له كان كيف يكون وقوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) . يخبر تعالى عن قدره

السابق في خلقه قبل أن يبرأ البريّة بان ما أصاب الناس من مصائب في آفاق الأرض مثل قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار وفساد الزرع أو في الأنفس من أمراض وفقدان أولاد إلا وهو مثبت مذكور في اللوح المحفوظ من قبل أن تخلق الأرض والأنفس .وقال ابن عباس : من قبل أن نبرأ المصيبة . وقوله (إن ذلك على الله يسير) أي إن علمه بالأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل لأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

وقوله : « وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا ، وأقسام التقدير أربعة : التقدير العام لجميع الأشياء بمعنى أن الله علمها وكتبها وشاءها وخلقها . الثاني : التقدير العمري وتقدم حديث ابن مسعود المخرج في الصحيحين . الثالث : التقدير السنوي وذلك يكون في ليلة القدر ويدل عليه قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

قال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال ، يقال يحج فلان ويحج فلان .

وقال الحسن ومجاهد : يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة .

الرابع : التقدير اليومي ويدل عليه قوله تعالى : (كل يوم

هو في شأن) وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن حنيف الأزدي وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى (كل يوم هو في شأن) . قال « من شأنه أن يغفر ذنبا . ويفرج كربا . ويرفع قوما ويضع آخرين » .

وذكر الحاكم في صحيحه في حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن مما خلق الله لوحا محفوظا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة أو مرة ففي كل نظرة منها يخلق ويحي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله «كل يوم هو في شأن» .

وقوله « وهذا التقدير » أي المذكور وهو علمه بالأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها قد كان ينكره غلاة القدرية كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وذلك في أواخر عصر الصحابة ثم عمرو بن عبيد وغيره والذي أنكروه من المراتب مرتبة العلم ومرتبة الكتابة ويقولون الأمر أنف أي مستأنف ويزعمون أن الله جل وعلا أمر ونهى وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ورد عليهم من الصحابة : عبد الله بن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم . والقدرية ينقسمون إلى فرقتين : الاولى تنكر أن الله يسبق علمه بالأشياء قبل وجودها وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلا ولم يتقدم علمه بها وإنما يعلمها إذا وقعت . قال العلماء : والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد وهم الذين

قال فيهم الشافعي ناظروهم بالعلم فان أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا وتقدم الكلام على هذه الطائفة . الفرقة الثانية التي تبطل أمره ونهيه بقضائه وقدره : كالذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال الشيخ رحمه الله: وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق مجوسية ومشركية وإبليسية. فالمجوسية الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه فغلاتهم أنكروا العلم والكتابة ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم. والفرقة الثانية المشركية الذين أقروا بالقضاء والقدر وأنكروا الأمر والنهي قال تعالى (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فمن أصبح على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء وهذا قد كثر فيمن يدعي الحقيقة من المتصوفة ، والفرقة الثالثة الإبليسية الذين اقروا بالأمرين لكن جعلوا هذا متناقضا من الرب سبحانه وتعالى وطعنوا في حكمته وعدله كما يذكر عن إبليس مقدمهم .

قال الشيخ :

وتُدعى خصومُ الله يومَ معادهم ... إلى النار طُرّاً مَعْشَرَ القَدريةِ

سواءٌ نَفوه أو سَعوا ليُخاصموا ... به اللهَ أو ما رَوا به لِلشريعةِ

ومَن يكُ خصماً للمُهيمن يرجعَن ... على أمِّ رأسٍ هَاوياً للحُفيرة

(قوله : وأما الدرجة الثانية فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهي الايمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ولا يكون في ملكه إلا ما يريد . وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه . ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين . ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد والعباد فاعلون حقيقة والله خالقهم وخالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم . وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) . وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها) .

قوله « وأما الدرجة الثانية فهي إثبات المشيئة النافذة والقدرة

الشاملة » والنافذة الماضية التي لا راد لها من نفذ السهم نفوذاً اذا خرق الرمية ونفذ الأمر مضى وأمره نافذ أي مطاع ، وشمول قدرته قد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها سلف الامة فلا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن قال تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا) وقال (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) وقال (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) وقال (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقال (ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة) وقال (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) وقال (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت باخرين وكان الله على ذلك قديرا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على إثبات المشيئة .

قال ابن القيم رحمه الله بعد سياق هذه الآيات وغيرها : وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ، ونفاة مشيئة أفعال العباد حركاتهم وهداهم وضلالهم ، وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته ، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدر وكتبه وأنه لو شاء ما عصي وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة ؛ فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته ، وهذا حقيقة الربوبية وهو

معنى كونه رب العالمين وكونه القيوم القائم بتدبير عباده فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا إضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وقال (في أي صورة ما شاء ركبك) وقال (لله ما ما في السموات وما في الأرض يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) الآية ا هـ .

وقوله : « وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان إلخ » هذا تفسير لمعنى الإيمان بهذه المرتبة وأشار إلى الرد على القدرية والمعتزلة الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف مشيئة الله .

وقوله « وأنه سبحانه على كل شيء قدير الخ ... » إشارة إلى شمول وقدرة الله تعالى على كل شيء ، ومن قدرته أنه اذا شاء شيئا فعله من غير ممانع ولا معارض ، وفي هذا رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله ، قال تعالى (إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وقال (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء) ، وقال (الله خالق كل شيء) فأهل السنة والجماعة يؤمنون بعموم خلقه وشمول قدرته ونفوذ مشيئته وعلمه بالأشياء قبل أن تكون وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون .

قال الشيخ رحمه الله تعالى :

وأصلُ ضلالِ الخلقِ في كلّ فرقةٍ   هو الخوضُ في فعلِ الإله بعِلةِ

فإن جَميعَ الكون أوجبَ فعلــه مشيئةُ ربِّ الخلقِ باري البَرِيةِ
وذاتُ إلــه الخلقِ واجبةٌ بمــا لَها مِن صِفات واجباتٍ قَدِيمَــةِ
مشيئَتُــه معْ عِلمه ثم قُـدْرةٍ لوازمُ ذاتِ الرب قاضِي القَضيةِ
وَإبداعُه ما شاءَ مِن مُبْدَعَاتِـه بها حِكمةٌ فيه وأنواع رَحمــةِ

وقوله : « مع ذلك أمر العباد بطاعته إلخ .. » المعنى : لا منافاة بين ما ثبت من عموم مشيئته لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهي فان تلك المشيئة بقوله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ففي قول المصنف ومع ذلك إشارة للرد على من عارض شرعه وأمره بقضائه وقدره وجعل مشيئته العامة دافعة للأمر كفعل الزنادقة إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر . احتج سارق على عمر بالقدر . فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره . وقال ابن القيم رحمه الله : أهل الهدى آمنوا بقدر الله وشرعه ولم يعارضوا بينهما بل كل منهما يصدق الآخر فالأمر تفصيل للقدر وكاشف له وحاكم عليه والقدر أصل للأمر ومنفذ له وشاهد له ومصدق له فلولا القدر لما وجد الأمر ولا تحقق ولا قام على ساقه ولولا الأمر لما تميز القدر ولا تبينت مراتبه وتصاريفه فالقدر مظهر للأمر والأمر تفصيل له والله له الخلق والأمر فلا يكون إلا خالقا آمراً فأمره تصريف لقدره وقدره منفذ لأمره ومن أبصر هذا تبين له سر ارتباط الأسباب بمسبباتها وأن القدح فيها إبطال للأمر وأن كمال التوحيد إثباتها .

قال الشيخ رحمه الله في التائية رداً على المحتج وذكر

إلزامات في غاية القوة والوضوح يبطل كل واحد منها اعتذار المعتذرين بالأقدار فقال:

ويكفيك نقضاً أن ما قد سألته | من العذر مردود لدى كل فطرة
فأنت تعيب الطاعنين جميعهم | عليك وترميهم بكل مذمة
وتنحل من والاك صفو مودة | وتبغض من عاداك من كل فرقة
وحالهم في كل قول وفعلة | كحالك يا هذا بأرجح حجة
وهبك كففت اللوم عن كل كافر | وكل غوي خارج عن محجة
فيلزمك الإعراض عن كل ظالم | على الناس في نفس ومال وحرمة
فلا تغضبن يوماً على سافك دماً | ولا سارق مالاً لصاحب فاقة
ولا شاتم عرضاً مصوناً وإن علا | ولا ناكح فرجاً على وجه غية
ولا قاطع للناس نهج سبيلهم | ولا مفسد في الأرض من كل وجهة
ولا شاهد بالزور إفكاً وفرية | ولا قاذف للمحصنات بزنية
ولا مهلك للحرث والنسل عامداً | ولا حاكم للعالمين برشوة
وكف لسان اللوم عن كل مفسد | ولا تأخذن ذا جرمة بعقوبة
وسهل سبيل الكاذبين تعمداً | على ربهم من كل جاء بفرية
وإن قصدوا إضلال من يستجيبهم | بروم فساد النوع ثم الرياسة
وجادل عن الملعون فرعون إذ طغى | فأغرق في اليم انتقاماً بغصة
وكل كفور مشرك بإلهه | وآخر طاغ كافر بنبوة
كعاد ونمروذ وقوم لصالح | وقوم للوط ثم أصحاب أيكة
وخاصم لموسى ثم سائر من أتى | من الأنبياء محيياً للشريعة
على كونهم قد جاهدوا الناس إذ بغوا | ونالوا من العاصي أشد العقوبة

ثم ذكر إلزامات أخر :

وهبْكَ رَفعْتَ اللومَ عن كلِ فاعلٍ فعالَ ردىً طرداً لهذي المقيْسة

فهَل يُمكننْ رفعُ الملام جميعِه عن الناسِ طرّاً عندَ كلِّ قبيْحة

وتركُ عقوبــاتِ الذينَ قد اعتَـدوا وتركُ الورى الإنصافَ بينَ الرعيةِ

فلا تُضمَنَنْ نفسٌ ومالٌ بمثلـــه ولا يُعْقَبَنْ عادٍ بمثلِ الجريمَةِ

وهل في عقُول الناس أو في طباعِهم قبُولٌ لِقَول النّذْل ماوجْهُ حيلتي

وقَول حَليفِ الشّرِ إني مُقَدّرٌ عليَّ كَقَولِ الذئبِ هَذي طَبيعتَي

فهلْ يَرْفعَنْ ذمَّ المَلُومِ بأنـــه كذا طبعُهُ أمْ هَلْ يُقالُ لِعثرْةِ

أمِ اللذمُّ والتعذيبُ أوكَد لِلّــذي طَبيْعَتُه فِعل الشرورِ الشّنيعةِ

وقال ابن القيم رحمه الله :

وأما الاعتذار بالقدر فهو مخاصمة لله واحتجاج من العبد على الرب وحمل لذنبه على الأقدار وهذا فعل خصماء الله الخ .

قال والمقصود إن الإحتجاج بالقدر مناف للتوبة وليس هو من الأعذار في شيء وفي بعض الآثار: إن العبد إذا أذنب فقال يا رب هذا قضاؤك وأنت قدرت علي وأنت حكمت علي وأنت كتبت علي يقول عز وجل وأنت عملت وأنت كسبت وأنت أردت واجتهدت وأنا أعاقبك عليه وإذا قال يا رب أنا ظلمت وأنا أخطأت وأنا اعتديت وأنا فعلت يقول الله عز وجل وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت وأنا أغفر لك

وإذا عمل حسنة فقال يا رب أنا عملتها وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعمت يقول عز وجل وأنا أعنتك وأنا وفقتك وإذا قال يا رب أنت أعنتني ووفقتني وأنت مننت علي يقول الله وأنت عملتها وأنت أردتها وأنت كسبتها فالإعتذار اعتذاران اعتذار ينافي الاعتراف فذلك منساف للتوبة واعتذار يقرر الإعتراف فذلك من تمام التوبة ،وقال ودفع القدر بالقدر نوعان أحدهما دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولما يقع بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع و قوعه كدفع العدو بقتاله ودفع الحر والبرد ونحوه ،الثاني دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله كدفع قدر المرض بقدر التداوي ودفع قدر الذنب بقدر التوبة ودفع قدر الاساءة بقدر الاحسان فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار لا الاستسلام لها وترك الحركة والحيلة فانه عجز والله تعالى يلوم على العجز فاذا غلب العبد وضاقت به الحيلة ولم يبق له مجال فهناك الاستسلام للقدر والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء اه .

وقال الشيخ رحمه الله : الاحتجاج بالقدر حجة باطلة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العاملين والمحتج به لا يقبل من غيره هذه الحجة إذا احتج به في ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ما له عليه ويعاقبه على عدوانه ، وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التي تعرض في العلوم ولا يحتج به أحد الا مع عدم علمه بالحجة بما فعله فاذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة وهو المأمور وهو

الذي ينبغي فعله لم يحتج بالقدر ، وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأمورا به لم يحتج بالقدر بل إذا كان متبعاً لهواه بغير علم احتج بالقدر . وفي ذلك وأمثاله يقول ابن القيم :

وعند مراد الله تفنى كميت ... وعند مراد النفس تسدى وتلحم

وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا ... ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم

وقال الشيخ رحمه الله : والناس في الشرع والقدر ، على أربعة أنواع : فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ، ولا يراه حجة لغيره يستند إليه في الذنوب ، والمعائب ولا يطمئن اليها في المصائب وبازاء هؤلاء خير الخلق الذين يستغفرون من المعائب ويصبرون على المصائب والثالث من لا ينظر إلى القدر لا في المعائب ولا في المصائب التي هي أفعال العباد . بل يضيفون ذلك إلى العبد وإذا أساؤوا استغفروا وهذا حسن . لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذي مضى بها عليهم ولا يقولون لمن قصر في حقهم دعوه لو قضي شيء لكان ، لا سيما وقد تكون المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها . قال الله تعالى : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) الآية . ورابعهم من يحتج بالقدر لكل أحد . وهذا مذهب غلاة الجبرية ، وقد بين فساده شرعاً وعقلا . وقال رحمه الله : وللعبد حالان حال قبل القدر فعليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه وحال بعد القدر فعليه أن يحمد الله في الطاعة ويصبر ويرضى في المصيبة ، ويستغفر في

الذنب وفي الطاعة من النقص . وقال عقب كلام سبق في التدمرية في باب شرع الله وقدره : وجماع الأمر أنه لا بد له في الأمر من أصلين ،ولا بد له في القدر من أصلين ،ففي الأمر عليه الاجتهاد في امتثال الأمر علما وعملا فلا يزال يجتهد في العلم بما أمر الله به والعمل بذلك . ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في الأمر وتعديه للحدود وأما في القدر فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب إليه ويستعين ويكون مفتقرا إليه في طلب الخير وترك الشر ، وعليه أن يصبر على المقدور ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وإذا آذاه الناس علم أنه مقدر عليه . وقوله : «. والله يحب المتقين والمحسنين والمقسطين » ففي ذلك رد على من زعم أن المشيئة والمحبة سواء أو متلازمان كما يقول الجبرية والقدرية ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا . فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوبا مرضيا . وقالت القدرية النفاة ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فليست مقدرة ولا مقضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة . أما أدلة المشيئة والإرادة فقد تقدم البحث فيها وأما نصوص المحبة والرضا . قال الله تعالى : (والله لا يحب الفساد) وقال : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال : (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) وقال : (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) مع أن ذلك

كله بمشيئة الله وفي المسند « إن الله يحب أن توتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » فقد يشاء الله ما لا يحبه كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ، وقد يحب مالا يشاء كونه كمحبته لإيمان الكافر وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ، ولو شاء لوجد ذلك كله فانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قال في شرح الطحاوية : فان قيل كيف يريد الله أمرا ، ولا يرضاه ، ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع إرادته وبغضه وكراهته ؟ قيل هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت طرقهم وأقوالهم فاعلم أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير . مراد إرادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً لما يريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه ، وذاته مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه وقطع العضو المتآكل اذا علم أن في قطعه بقاء جسده وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه ، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عاقبته فكيف ممن لا تخفى عليه خافية . فهو سبحانه يكره الشيء ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوته ،

من ذلك أنه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ووجودها أحب إليه من عدمها منها أنه يظهر لعباده قدرة الرب على خلق المتضادات والمتقابلات فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير فتبارك خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والداء والدواء والحياة والموت والحسن والقبيح والخير والشر ، وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه فانه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته ، ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار والشديد العقاب والسريع العقاب وذي البطش الشديد والخافض والمذل ، فان هذه الأسماء والأفعال كمال لا بد من وجود متعلقها ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء ،ومنها ظهور أثر أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن يشاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه بقوله « لو لم

تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » . ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ا هـ .

الدرجة الثالثة

وقوله : « والعباد فاعلون حقيقة قـال الله تعالى : (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) . (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وقال : (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) : (ولو شاء الله ما فعلوه) ففي هذا رد على الجبرية الذين يقولون لا فعل للعبد ، وقوله : « والله خالق أفعالهم » قال الله تعالى : (والله خلقكم وما تعلمون) ، (الله خالق كل شيء) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) ، (الحمد لله رب العالمين) قال ابن القيم رحمه الله : ومن الدليل على خلق أعمال العباد : قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا . وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم) فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل ، وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل ، إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم : فاذا كانت مجعولة لله ، فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ، ومادتها ، وهيأتها ونظير هذا قوله : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم

من جلود الأنعام بيوتاً ، تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) ، فأخبر سبحانه أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له ، وهي إنما صارت بيوتا بالصنعة الآدمية .

وقال :

وعمـــومُ قدرتـه تـــدلُّ بأنـــه	هو خالقُ الأفعالِ لِلحيَوانِ
هي خلقـه حقـاً وأفعـال لهـــم	حَقاً ولا يتناقض الأمـــرانِ
لكنْ أهلَ الجبرِ والتكذيبِ بـــا	لأقدارِ ما انْفتَحتْ لَهم عيْنانِ
نَظَروا بعَينَيْ أعْورٍ إذ فاتَهـــم	نَظَرُ البصيرِ وغـارتِ العينـــان
فحقيقةُ القَدرِ الذي حـَـار الورى	في شأنه هو قُدْرَةُ الرحمـــن
واستحسنَ ابنُ عقيل ذا من أحمدٍ	لما حكاهُ عن الرضى الربـــاني
قال الإمام شفى القلوبَ بلفْظـــةٍ	ذاتِ اختصارٍ وهي ذاتُ معَانِ

وثبتت النصوص أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم وأن أعمالهم خيرها وشرها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم التي خلقها الله لهم ، وخالق السبب التام خالق للمسبب . ففي ذلك رد على القدرية النفاة الذين يقولون إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وإنها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم دون مشيئة الله ، وإن الله لم يقدر ذلك عليهم . ولم يكتبه ولا شاءه ، وإن الله لا يقدر أن يهدي ضالا . ولا يضل مهتدياً . وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله . فشابهوا المجوس في كونهم أثبتوا خالقاً مع الله ، ولذا سموا مجوس هذه الأمة ، وقد أطبق الصحابة والتابعون على ذمهم وتبديعهم وتضليلهم ،

وبين أئمة الإسلام أنهم شابهوا المجوس ، وأنهم خالفوا أدلة الكتاب والسنة بل وخالفوا العقل والفطرة .

قال الشيخ رحمه الله : أهل السنة متفقون على أن الله خالق أفعال العباد ، وعلى أن العبد قادر مختار ، يفعل بمشيئته وقدرته ، والله خالق ذلك كله ، وعلى الفرق بين الأفعال الاختيارية والاضطرارية ، وعلى أن الرب يفعل بمشيئته وقدرته وأن ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لم يزل قادراً على الأفعال موصوفاً بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون علمه المحيط ، ومشيئته النافذة ، وقدرته الكاملة ، وخلقه لكل شيء ، ومن هداه لفهم قولهم علم أنهم جمعوا محاسن الأقوال ، وأنهم وصفوه بغاية الكمال ، وأنهم المتمسكون بصحيح المنقول وصريح المعقول وأن قولهم القول السديد السليم من التناقض ، وأنه القول الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه .

وقوله : « والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر الخ » العبد تارة يعني به العبيد فيعم الخلق كما في قوله : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) ، وتارة يعني به العابد فيخص ثم يختلفون ، فمن كان أعبد علماً وحالا كانت عبوديته أكمل ، فكانت الإضافة في حقه أكمل ، مع أنها حقيقة في جميع المواضع ، والعبودية نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم برهم وفاجرهم ، فهذي عبودية القهر والملك ، قال تعالى : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) فهذا يدخل فيهم مؤمنهم وكافرهم . وقال : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) فسماهم عباده مع ضلالهم لكن تسمية مقيدة بالإشارة ، وأما المطلقة فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني ، وقال : (إن الله قد حكم بين العباد) ، (وما الله يريد ظلما للعباد) . فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

وأما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر ، قال تعالى : (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ، (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) ولهذا أضافها إلى اسمه الرحمن ، إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته ، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته ، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته ولا يجيء في القرآن إضافة العباد اليه مطلقاً إلا لهؤلاء وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة ، لأن أصل معنى اللفظ الذل والخضوع ، يقال طريق معبد إذا كان مذللا بوطء الأقدام ، قال طرفة بن العبد البكري ؛ :

تباري عتاقاً ناجيـــات وأتبعــــت   وظيفاً وظيفاً فوق موْرٍ مُعبَّـــد

وفلان عبده الحب إذا ذلله .

ففي كلام المصنف رد على الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على أعماله الاختيارية . فالعبد إذا صلى وصام وحج أو عمل شيئاً من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح أو السيء . وفعله بلا ريب قد وقع باختياره . وهو يعلم ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك ، وأنه لو شاء لم يفعل ، والله سبحانه أضاف الأعمال سيئها وحسنها إلى العباد ، وأخبر أنهم الفاعلون لها ، وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون عليها ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

قال الشيخ رحمه الله : وفعل العبد حادث ممكن فيدخل في عموم خلق الله للحوادث واتفق أهل السنة أن الله خص المؤمنين بنعمه دون الكافرين بأن هداهم للايمان ولو كانت نعمته على المؤمنين مثل نعمته على الكافرين لم يكن المؤمن مؤمناً كما قال تعالى (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) والله خالق الملائكة والأنبياء وخالق الشياطين والحيات والعقارب وغيرها من الفواسق فهذا محمود معظم وهذا فاسق يقتل في الحرم وهو سبحانه خالق في هذه طبيعة كريمة تقتضي الخير والإحسان وفي هذا طبيعة خبيثة توجب الشر والعدوان .

وقال رحمه الله : وقد استقر في بداية العقول أن الأفعال الاختيارية من العبد تكسب نفس الإنسان صفات محمودة

وصفات مذمومة بخلاف لونه وطوله وعرضه فانها لا تكسبه ذلك فالعلم النافع والعمل الصالح والصلاة الحسنة وصدق الحديث وإخلاص العمل لله ونحو ذلك تورث القلب صفات محمودة ، ففعل الحسنة له آثار محمودة في النفس والخارج وكذلك السيئات والله جعل السيئات سبباً لهذا كما جعل السم سبباً للمرض والهلاك وأسباب الشر لها أسباب تدفع بمقتضاها فالتوبة والأعمال الصالحة تمحى بها السيئات ، والمصائب في الدنيا يكفر بها السيئات ، والله تعالى يخلق الاختيار والرضى في الراضي والمحبة في المحب وهذا رد على من قال اجبر الله العباد .
وقوله : « وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة » هذا إشارة للرد على الجبرية لأنهم غلوا في القدر وزعموا أن العبد لا فعل له بل هو بمثابة الشجرة التي تحركها الريح يمنة ويسرة وبمنزلة السيارة أو الطائرة يسيرها السائق حيث شاء .

قال ابن عدوان :

وللعبـد يا ذا قـدرة وإرادة   على العمل افهم فهم غير مبلد
فيفعل يـاذا باختيـار وقـدرة   وليس بمجبور ولا بمضهـد

وقوله : « والله خالقهم وخالق قدرتهم » إشارة للرد على القدرية نفاة القدر الذين يقولون إن العبد هو الذي يخلق فعله وكذب عامة القدرية بهذه الدرجة من القدر ولذا سموا مجوس هذه الأمة لمشابهتهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة وممن قال بذلك واشتهر عنه مانيء بن ماش

وتنسب إليه طائفة المانوية ، كان في الأصل مجوسياً فأحدث ديناً ودعا إليه وزعم أن صانع العالم اثنان أحدهما فاعل الخير وهو النور وثانيهما فاعل الشر وهو الظلمة قال أبو الطيب في مدحه لكافور الأخشيدي وكان أسود اللون :

وكم لظلام الليل عندك من يـــد تخبر أن المانويـــة تكـذب

وأما القدرية فيضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر لا يكون شيء إلا بمشيئته . قال الشيخ رحمه الله : الشر لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله إضافته وحده إلى الله ولكنه يأتي على أحد ثلاثة أوجه إما على وجه العموم أو بحذف فاعله كقوله تعالى (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض) أو باضافة إلى فاعله من المخلوقين اهـ .

وقابل القدرية طائفة الجبرية الذين غلوا في الإثبات للقدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ولأجل ذلك نفوا الحكمة والتعليل فالقدرية النفاة قصروا وهؤلاء غلوا وأهل السنة وسط بين الطرفين فلا إفراط ولا تفريط . وقد دل على إثبات الأمرين الكتاب والسنة كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) فأول الآية يرد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو أن له مشيئة مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن تكون سبباً فيه . وقوله : وآخر

الآية وهو قوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله بل متى شاء العبد الفعل وجد ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد بل هو يفعله بدون مشيئة الله فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين .. والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد وأدلة العقل الصريح أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فما لم يشأ لم يكن البتة كما أن ما شاء كان ولا بد ؛ وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر والأسباب والمسببات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ولكل منهما عبودية مختصة بها فعبودية الآية الأولى الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي ،وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجوء إليه واستنزال التوفيق والعون منه والعلم بأنه لا يمكن العبد أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله رب العالمين ينتظم ذلك كله ويتضمنه فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها .

وقال : وكمال العبد أن يؤمن بقدر الله وقضائه فعليه أن يوافق الله في حبه وبغضه فقضاء الشرور من جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية لأن الله خلقها لماله في ذلك من الحكمة والعبد فعلها وهي ضارة له موجبة له العذاب فنحن ننكرها ونكرهها ونناى عنها ــ وقال : أنعم الله على المكلفين بنعم أصولية وفروعية مشتركة بين البر والفاجر وخص المؤمنين بنعم أخرى بها تمت

عليهم النعمة فأوجدهم بعد العدم وخلق لهم من الأسماع والأبصار والعقول ما تتم به العافية وأعطاهم قوتين عظيمتين ، بهما يوجدون أفعالهم ويختار كل منهم ما أراد من الأفعال الحسنة والقبيحة وهما المشيئة والإرادة والقدرة وباجتماع القوتين تتم الأقوال والأفعال ثم إنه كمل على جميعهم النعمة بأن أمرهم أن يصرفوا مشيئتهم وإرادتهم إلى ما ينفعهم مما يحبه الله ويرضاه وأن يمتنعوا عما يكرهه الله وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب لتفصيل ما يحبه الله مما يكرهه والترغيب في هذا والترهيب من هذا بكل وسيلة وطريق وأخبرهم بما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب وأشهدهم أنموذجا من ذلك في دار الدنيا وكل هذه الأمور وتوابعها اشترك فيها كل أحد فلم يبق لأحد على الله حجة بل حجته ورحمته وصلت إليهم كلهم . ثم إنه تعالى خص المؤمنين بخصائص من رحمته بها آمنوا واهتدوا وعملوا الصالحات وهو أنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم كلما فعلوا شيئاً من الهداية وقصدوا مراضي ربهم أمدهم بهديات متنوعة ولطف بهم ويسرهم لليسرى وجنبهم للعسرى وحفظهم ودفع عنهم بايمانهم السوء والفحشاء فاستقاموا على الصراط بمنته ورحمته (والله يختص برحمته من يشاء) الآية ، فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل أفبعد هذا يبقى حجة للمعاند وشغب للمكابر يحتج فيه بالقدر ولم يبق إلا أن يقول كيف خص المؤمنين بما خصهم به دوننا فيقال هذا فضله وإحسانه يؤتيه من يشاء فلم يمنع الكافر

والفاجر حقاً له يستحقه بل منع عنه فضله الذي خص به المؤمنين لكمال حكمته ولعلمه أنه لا يستحق هذا الفضل لإعراضه عن ربه واعتراضه عليه (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

الإيمان والدين عند أهل السنة :

(وقوله : ومن أصول أهل السنة ، أن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصاص (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان) وقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) .

الدين المراد هنا جميع ما أمر الله به على ألسنة رسله والإيمان شرعاً هو ما ذكره المصنف وقد تنوعت عبارات السلف ، فبعضهم يقول هو قول وعمل ونية واتباع سنة ، وبعضهم يقول قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وكله صحيح فقول القلب يكون بتصديقه وإيقانه قال الله تعالى

(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) ، وقال (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) ، وقول اللسان هو النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والإقرار بلوازمهما قال الله تعالى : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وقال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » وقال لسفيان بن عبد الله: « قل آمنت بالله ثم استقم »، وعمل القلب هو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله والتوكل على الله والإنابة ولوازم ذلك وتوابعه . قال الله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) الآية ، وقال : (إنما نطعمكم لوجه الله) وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » قال الشيخ : أصل الإيمان بالقلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار العبد بالتصديق والحب والانقياد بالأبدان ، يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح فالأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ودليل عليه وشاهد له وشعبه من مجموع الإيمان المطلق وبعضه له وما في القلب أصل له وهو الملك والأعضاء جنوده ،والتحقيق أن الإيمان المطلق قد يتناول الأصل مع الفرع وقد يخص بالاسم وحده أو بالاسم مع الاقتران بعمل الجوارح وهو كالشجرة يتناول الأصل والفرع اذا وجد وقد يقطع من الفروع شيء فتبقى شجرة ناقصة بحسب ما زال

منها ، وكذلك الإيمان كما مثله الله بالشجرة وعمل اللسان ما لا يؤدى إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتكبير والتهليل والدعاء والاستغفار قال الله تعالى : (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة) وقال : (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك) وقال : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) الآية (واذكر ربك في نفسك تضرعاً) الآية ، وقال : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) وهي : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وعمل الجوارح ما لا يؤدى إلا بها كالقيام والركوع والسجود والمشي في مرضاة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحج والجهاد في سبيل الله ، قال الله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) الآية ، وقال : (وقوموا لله قانتين) وقال : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وقال : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده » الحديث : وقال : « الايمان بضع وسبعون شعبة فأعلاه شهادة أن لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » . قال ابن القيم : الإيمان له ظاهر وباطن فظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته فلا ينفع ظاهر لا باطن له ولا يجزي باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز

أو إكراه أو خوف هلاك ، فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته ، فالإيمان قلب الإسلام ولبه واليقين قلب الايمان ولبه وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول . وقال : اسم الإيمان تارة يذكر مفردا غير مقرون بغيره فيدخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة وتارة يقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح أو بالذين أوتوا العلم فيكون الايمان اسماً لما في القلب وما قرن معه اسماً للشرائع الظاهرة ، ثم إن نفي الايمان عند عدمها دل على أنها واجبة لا ينفي إلا النفي بعض واجباته وإن ذكر فعل إيمان صاحبها ولم ينف إيمانه دل على أنها مستحبة ، اهـ .

قال الشيخ : كان السلف يستثنون في الإيمان لأن الإيمان يتضمن فعل جميع الواجبات فلا يشهدون لأنفسهم بذلك كما لا يشهدون لهم بالبر والتقوى فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم قال السفاريني :

ونحـنُ في إيماننـــا نَسْتَثْنِـي	مِن غير شكٍ فاستمعْ واسْتَبِنِ
نُتَابِعِ الأخيارَ مِن أهـل الأثـرْ	ونَقْتَفِي الآثارَ لا أهلَ الأشرْ
ولا تَقُلْ إيماننـا مخلـوقُ	ولا قـديمٌ هكذا مَطْلُوقُ
فإنـه يَشْمَـلُ للصـلاة	ونحوِها مِن سَائرِ الطاعات

وقوله : « وان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية »

قال الله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) ، وقال : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) ، وقال : (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) ، وقال : (وزدناهم هدى) ، وقال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) ، وقال : (فاخشوهم فزادهم إيمانا) ، وقال : (وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) ، وحديث « الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من إيمان » ومن الادلة أيضا أن الله جل وعلا قسم المؤمنين إلى ثلاث طبقات : سابقون بالخيرات ومقتصدون وظالمون لأنفسهم ، وقوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون - إلى قوله - وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) ، وقال : (فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) .

وقال الشيخ : وزيادة الايمان من وجوه أحدها : الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم ، الثاني : أن العلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد من الشك والريب ؛ الثالث : أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله ، الرابع والخامس : أن أعمال القلوب والجوارح تتفاوت تفاوتاً عظيماً ويتفاضل الناس بها ؛ السادس : ذكر الإنسان ما أمر به بقلبه واستحضاره لذلك بحيث لا يكون

غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه ، السابع: قد يكون بعض المؤمنين كثيرا من التفصيلات التي ينكرونها لجهلهم أنها مما جاء به الرسول فيكون ذلك نقصاً عمن ليس كذلك .

وقال : الدين والايمان واليقين أمران : أحدهما كون الله في قلب العبد بالمعرفة والمحبة فهو فرض على كل واحد ولا بد لكل مؤمن منه ، فان أدى واجبه فهو مقتصد وإن ترك بعض واجبه فهو ظالم لنفسه ، وإن تركه فهو كافر بربه ، والثاني : موافقته ربه فيما يحبه ويكرهه ويرضاه ويسخطه ، فهذا على الإطلاق إنما هو للسابقين المقربين الذين تقربوا إلى الله بالنوافل التي يحبها ولم يفرضها ، بعد الفرائض التي يحبها ويفرضها ويعذب تاركها ، ولهذا كان هؤلاء لما أتوا بمحبوب الحق من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المنتظمة للمعارف والأحوال أحبهم الله، فعلوا محبوبه فأحبهم، فان الجزاء من جنس العمل مناسب له مناسبة المعلول لعلته ، ولا يتوهم أن المراد بذلك أن يأتي العبد بعين كل حركة يحبها الله فان هذا ممتنع ، وإنما المقصود أن يأتي منها بأكثر مما يأتي به من الظاهرة كما ورد بذلك النصوص اهـ .

قال : وهل يستلزم الإسلام الإيمان ؟ هذا فيه نزاع ، والوعد الذي في القرآن بالجنة والنجاة من العذاب انما هو معلق باسم الايمان ، وأما اسم الإسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة لكن فرضه ، وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبالإسلام بعث جميع النبيين ، وحقيقة الفرق

أن الإسلام دين ، والدين مصدر دان يدين ديناً إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله ، هو الاستسلام وأصله في القلب ، هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع له والعبودية هكذا ، قال أهل اللغة : أسلم الرجل إذا استسلم ، فالاسلام في الاصل من باب عمل القلب والجوارح وأما الإيمان فأصله تصديق وأقوال ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له ، فلهذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم بايمان القلب وبخضوعه ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الإسلام باستسلام مخصوص ، وهو المباني الخمس ، وهذا في سائر كلام النبي صلى الله عليه وسلم يفسر الإيمان بذلك النوع ، ويفسر الإسلام بهذا ، وذاك النوع أعلى ، وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً . فان الايمان يستلزم الأعمال ، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان المطلق لأن الاستسلام لله والعمل لا يتوقف على هذا الايمان الخاص .

وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام ، والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، ولكن حقيقة الإيمان في قلوبهم انما يحصل

شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ، والا فكثير من الناس لا يصلون ، لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفاراً ولا منافقين ، بل عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب وليس عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء ان عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق ، وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم عامة أهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق . فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام ودخلوا الجنة ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم ، وقال : وفي الجملة في الأخبار ممن نافق بعد إيمانه مما يطول ذكره هنا فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الإسلام الذي يثابون عليه ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان ولا من المنافقين الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا وأكثرهم اذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيرا وينافق كثير منهم ، ومنهم من يظهر الردة اذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة واذا كانت العافية أن كان

المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن إيمانا لا يثبت على المحنة . وقوله : « وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي كما يفعله الخوارج » يعني أن أهل السنة لا ينسبون أهل القبلة للكفر ولا يحكمون عليهم به وأهل القبلة كل من يدعي الإسلام ويستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا » فالكبائر دون الكفر والشرك لا يخرج مرتكبها من الملة كما قال المصنف بعد قليل : « ولا يسلبون الفاسق » الخ .

قال الشيخ رحمه الله . لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا بدعة يبتدعها ولو دعا الناس إليها كافراً في الباطن إلا إذا كان منافقاً فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به وقد غلط فيما تأوله من البدع فهذا ليس بكافر أصلا قال : وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقه من كان منهم منافقاً فهو كافر بالباطن ومن لم يكن منافقاً بل مؤمناً بالله ورسوله في الباطن لم يكن كافرا في الباطن وإن أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه وقد يكون في بعضهم شعبة من النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار ومن قال إن الثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين والسبعين فرقة وإنما يكفر بعضهم بعضاً وقال رحمه

الله الانسان قد يكون فيه شعبة إيمان ونفاق وكفر واسلام وخير وشر وأسباب الثواب وأسباب العقاب بحسب ما قام به من أصول الإيمان ولوازمه وفروعه وما ضيعه منها .

وقول المؤلف : « كما يفعله الخوارج » فالخوارج يقولون من أتى كبيرة فهو في الدنيا كافر وفي الآخرة اذا لم يتب فهو مخلد في النار ، وتقدم تعريف الكبيرة ، وقوله : « بل الأخوة الايمانية ثابتة » ووجه الدلالة من الآية الأولى أنه سماه أخا مع وجود المعصية وهي القتل فهذا دليل على أن العاصي لا يخرج من الايمان بالمعصية دون الشرك خلافا للمعتزلة والخوارج .

وقال في مجموع الرسائل والمسائل : ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة والخوارج المارقون الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والاجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في

مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم فلا يحل لأحدى هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ولا تستحل دمها وما لها وإن كانت فيها بدعة فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ والغالب أنهم جميعا جهال بحقائق ما يختلفون فيه،والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأغراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا باذن الله ورسوله وإذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يكفر كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وهذا في الصحيحين، وفيهما أيضاً من حديث الافك أن أسيد بن حضير قال لسعد بن عبادة إنك منافق تجادل عن المنافقين واختصم الفريقان فأصلح بينهم النبي صلى الله عليه وسلم،فهؤلاء البدريون فيهم من قال لآخر منهم انك منافق ولم يكفر النبي صلى الله عليه وسلم لا هذا ولا هذا بل شهد للجميع بالجنة،فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الآية . فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض أخوة مؤمنون وأمر بالاصلاح بينهم بالعدل ولهذا كان السلف مع الإقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الذين لا يعادون

كمعاداة الكفار فيقبل بعضهم شهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك وقال : والناس مضطربون في تكفير أهل الأهواء، لكن الشخص المعين الذي قال لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها وهذا كما في نصوص الوعيد فان الله تعالى قال « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع فقد لا يكون التحريم بلغه وقد يتوب من فعل المحرم وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع وهذه الأقوال التي تكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق وقد يكون بلغه ولم يثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فان الله يغفر له خطأه كائنا ما كان سواء كان في المسائل النظرية والعملية أو المسائل الفروعية هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : وأما تفريق المسائل إلى مسائل أصول يكفر بانكارهـــا ومسائل فروع لا يكفر بانكارها فهذا التفريق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم باحسان ولا أئمة الاسلام وإنما مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل

البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم وهو تفريق متناقض فانه يقال لمن فرق بين النوعين ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطيء فيها وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟ فان قال : مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد والفروع مسائل العمل ،قيل له أفتنازع الناس في محمد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه أم لا وفي أن عثمان أفضل أم علي أفضل وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية لا العملية ولا كفر فيها بالاتفاق ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر مسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق ،وان قال الأصول هي المسائل القطعية قيل له كثير من مسائل العمل قطعية وكثير من مسائل النظر ليست قطعية وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له لمن يسمع النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتيقن مراده منه وعند رجل لا تكون ظنية فضلا عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه أو لعدم ثبوته عنده أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته .

وقال الشيخ رحمه الله : وردت نصوص كثيرة في الوعد بالجنة والنجاة من النار على أعمال لا تكفي وحدها في ذلك بالاجماع ، ووردت أيضا نصوص الوعيد على أعمال بالخلود في النار أو تحريم دخول الجنة وهي لا تخرج عن الإسلام باجماع السلف، فأصح الأقوال فيها وأحسنها ما فيه تصديق

للنصوص كلها وهي أنها من باب الموجبات والأسباب التي لا بلم فيها من وجود الشروط وانتفاء الموانع وبهذا يزول الإشكال وينتفي التعارض بين النصوص الصحيحة ، وقال : ثم حيث قدر قيام الموجب للوعيد فان الحكم يتخلف عنه لمانع وموانع لحوق الوعيد متعددة منها التوبة ومنها الاستغفار ومنها الحسنات الماحية ومنها بلاء الدنيا ومصائبها ومنها شفاعة شفيع مطاع ومنها رحمة أرحم الراحمين فاذا عدمت هذه الأسباب كلها ، ولن تعدم إلا في حق من تمرد ، فهناك يلحق الوعيد به اهـ .

الآية الثانية : وهي قوله : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية . الطائفة الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) وقوله (فأصلحوا بين أخويكم) أي فكفوهما عن القتال بالدعاء إلى كتاب الله والرضا به وبما فيه ، وقوله : (فان بغت) أي فان تعدت وجارت (تفيء) ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه : (فان فاءت) أي رجعت إلى الحق (وأقسطوا الخ) أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ان الله يحب العادلين في جميع أعمالهم وفي أهليهم وما ولوا ويجازيهم أحسن الجزاء .

المعنى : يقول تعالى آمرا عباده بالاصلاح وأنه اذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فان على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالاصلاح بينهم والتوسط ،ووجه الدلالة من الآية أن الله جل وعلا سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال

وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الايمان بالمعصية، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقي في النار» أخرجاه في الصحيحين، فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما تعدون المفلس فيكم» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال فيأتي وقد شتم هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا وقذف هذا وضرب هذا فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فاذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار» رواه مسلم وقال تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته.

ففي الآية الكريمة.

١ ـ النهي عن الاقتتال.

٢ ـ إثبات الألوهية.

٣ ـ التثبت في خبر الفاسق.

٤ ـ الحث على العدل.

٥ - إثبات صفة المحبة .

٦ - الحث على الإصلاح .

٧ - النهي عن الظلم والحيف في الصلح وغيره .

٨ - على الإنسان أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه .

٩ - الرجوع إلى كتاب الله .

١٠ - النهي عن البغي والتطاول والفساد .

١١ - وجوب قتال الفئة الباغية .

١٢ - الرد على من منع من قتال البغاة من المؤمنين محتجاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « قتال المؤمن كفر » ولو كان قتال الباغي كفراً لكان الله قد أمر بالكفر تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

١٣ - أن الأخوة الدينية أثبت من أخوة النسب لانقطاع أخوة النسب بمخالفة الدين .

١٤ - الحث على ما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل .

١٥ - النهي عن التفرق والاختلاف .

١٦ - الحث على التقوى .

١٧ - أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من حواجب الرحمة .

١٨ - أن ذلك سبب للرحمة وهو فعل ما أمر الله به مما تقدم .

١٩ - أن المعاصي دون الكفر والشرك لا يخرج بها الإنسان من الايمان .

٢٠ ـ إثبات البعث .

٢١ ـ إثبات الحشر والحساب والجنة والنار .

٢٢ ـ في الآية ناحية اقتصادية ترك القتال .

٢٣ ـ ناحية اجتماعية اصلاح بين الناس .

٢٤ ـ ان الصلح المأمور به بين المسلمين ، أما الكفار فمن صالح المسلمين تقاتلهم لأن فيه نقصهم ونقص أموالهم واضعاف معنوية من يبقى منهم .

٢٥ ـ ناحية صحية لأن في توقيف القتال السلامة مما ينشأ عنه لو استمر .

٢٦ ـ التحذير من شب الحرب بين المؤمنين .

٢٧ ـ اثبات صفة الكلام لله .

٢٨ ـ الرد على من أنكر شيئا مما ذكر من الصفات أو أولها بتأويل باطل .

٢٩ ـ لطف الله بعباده المؤمنين حيث حثهم إلى ما فيه مصلحتهم .

٣٠ ـ المبادرة إلى الصلح بين المسلمين امتثالا لأمر الله جل وعلا .

٣١ ـ إثبات علم الله .

٣٢ ـ الرد على من أنكر صفة العلم .

٣٣ ـ أن في الآية الكريمة قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من التفكك والتفرق .

٣٤ ـ اقرار الحق والعدل والصلاح .

٣٥ ـ أن التكليف الموحد بالاصلاح لغير الطائفتين المتقاتلتين أن يقوموا بالاصلاح بين المتقاتلين .

٣٦ ـ ان الطائفتين اذا رفضتا الصلح يقاتلان لأنه يصدق على كل أنه باغي .

٣٧ ـ أنه اذا رفضا حكم الله في المسائل المتنازع فيها فعلى المؤمنين أن يقاتلوا .

٣٨ ـ أن القتال يستمر حتى يرجعوا إلى أمر الله .

٣٩ ـ أن أمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه وأدى إلى الخصام والقتال .

٤٠ ـ أنه اذا تم قبول البغاة لحكم الله قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبا لرضاه .

٤١ ـ ان الله لا يأمر الا بما فيه الصلاح .

٤٢ ـ أنه يجب على المصلح أن لا يراعي أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل .

٤٣ ـ الرد على الذين اذا فعلوا فاحشة قالوا أمرنا الله .

٤٤ ـ في الآية إخبار عن ما لم يقع قبل وقوعه وقد وقع وهو التقاتل بين الطوائف المؤمنة .

٤٥ ـ أن الصلح قد يوجد ولكن لا يكون بالعدل ولهذا قال : « فأصلحوا بينهما بالعدل » .

قال الشيخ : ومما ينبغي أن يعلم أن الأمة يقع فيها أمور بالتأويل في دمائها وأموالها وأعراضها كالقتال واللعن والتكفير وجماهير العلماء يقولون إن أهل العدل والبغاة اذا اقتتلوا بالتأويل لم يضمن هؤلاء ما أتلفوا لهؤلاء كما قال الزهري : وقعت الفتنة وأصحاب محمد متوافرون فأجمعوا أن كل دم أو مال أصيب بتأويل القرآن فانه هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية في الدماء والأموال فكيف بالأعراض كـاللعن والتكفير والتفسيق .

وقال : ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الفتن تكون مشتركة فيرد على القلوب من الواردات ما يمنع القلوب عن معرفة الحق وقصده ولهذا تكون بمنزلة الجاهلية والجاهلية ليس فيها معرفة الحق وقصده والإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح بمعرفة الحق وقصده .

وقال : ويترتب على هذا الأصل أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقرونا بالظن ونوع من الهوى الخفي فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله ويصير فتنة لطائفتين طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في

ولايته وتقواه بل في بره وكونه من أهل الجنة بل في إيمانه حتى تخرجه من الإيمان وكل هذين الطرفين فاسد ، ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه فيعظم الحق ويرحم الخلق ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات فيحمد ويذم ويثاب ويعاقب ويحب من وجه ويبغض من وجه ، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم .

وقوله « ولا يسلبون الفاسق الملي الإيمان بالكلية » ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الايمان المطلق كما في قوله تعالى (فتحرير رقبة مؤمنة) وقد لا يدخل في اسم الايمان المطلق كما في قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » .

ونقول : هو مؤمن ناقص الإيمان بايمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم .

الفسق لغة : الخروج عن الاستقامة والجور ، وبه سمي الفاسق فاسقاً ، وشرعا : الفاسق من أتى كبيرة أو أصر على

صغيرة ، والفسق قسمان : فسق اعتقادا ، الثاني فسق عمل ، كالزنا والقتل واللواط ، وشرب الخمر ، والقذف والتولي يوم الزحف ، وأكل الربا . والملي : وهو من على ملة الإسلام ولم يرتكب من المعاصي ما يوجب كفره ، فأهل السنة والجماعة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة الإسلامية بالكلية وعلى أنه لا يخرج من الإيمان والاسلام ويدخل في الكفر . قال السفاريني :

لا يخـرج المرء مـن الإيمـان ... بموبقـات الذنـب والعصيـان
وواجب عليـه أن يتوبـا ... من كل ما جرَّ عليه حُوْبَـا
ويقبـل المولى بمحض الفضـل ... منْ غير عبد كافر منفصـل
ما لم يتب من كفره بضـده ... فيرتجع عن شركه وصـده

ومتفقون على أنه لا يستحق الخلود مع الكافرين وأن من مات على التوحيد فلا بد له من دخوله الجنة خلافا للمعتزلة والخوارج ، قال بعضهم :

ويغفر دون الشرك ربي لمن يشا ... ولا مؤمن الا له كافر فدا
ولم يبق في نار الجحيم موحـد ... ولو قتل النفس الحرام تعمُّدا

وقوله : « بل الفاسق الملي يدخل في اسم الإيمان المطلق الخ .. » الإيمان المطلق هو الذي لا يتقيد بمعصية ولا فسوق ولا نقص ونحو ذلك ويقال له الإيمان الكامل وهو الإتيان بالواجبات

وترك المحرمات وأما مطلق الايمان فهو ما كان معه ترك واجب أو فعل محرم فمن أعتق رقبة مؤمنة فيما يشترط فيه إيمان الرقبة أجزأت الرقبة الفاسقة لدخولها في اسم الايمان المطلق وإن لم تكن من أهل الإيمان الكامل فالفاسق يدخل في جملة أهل الايمان المطلق الخ » الفاسق لا يسلب عنه اسم الإيمان على الاطلاق ولا يثبت له على الإطلاق ولكن يقال مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته ، أو يقال مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاصي .

قال الشيخ : الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به على ذهاب بعضه وبقاء بعضه ولهذا كان السلف يقولون إنه يتفاضل ويزيد وينقص والناس فيه متفاوتون بحسب قيامهم به وبلوازمه ومكملاته .

وقوله : (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية . «انما» أداة حصر تثبت الحكم للمذكور وتنفي ما عداه والألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ، وقوله : (وجلت) أي فزعت وخافت يقال وجل يوجل قال الشاعر :

لعمرك مـــا أدري وإني لأوجـــل   على أينا تغدو المنيـــة أول

وقوله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) معناه وإذا قريء عليهم القرآن زادتهم آياته تصديقاً ويقيناً .

المعنى الإجمالي للآية :

يقول الله تعالى إنما المؤمنون حقاً المخلصون في إيمانهم الذين اجتمعت فيهم خمس خصال :

١ ـ الأولى أنهم اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خافت ورهبت فأوجبت لهم الخشية من الله تعالى الانكفاف عن المحارم الآية بمعنى قوله (وبشر المخبتين) الآية .

٢ ـ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وجه ذلك أنهم يلقون السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره لأن التدبر من أعمال القلوب فيزيد إيمانهم ويكمل يقينهم لتظاهر الأدلة ونعم المؤمن كلما كثرت الأدلة وتعاضدت الآيات والحجج والبراهين ازداد قوة في الإيمان ورسوخاً في العقيدة ونشاطاً في العمل فابراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمناً باحياء الله الموتى وقد دعى ربه أن يريه كيف يحيى الموتى قال « أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » . فمقام الطمأنينة في الإيمان يزيد على ما دونه من الايمان قوة وكمالا ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي إن للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان .

قال الشيخ رحمه الله : من أسباب نور الإيمان وقوته سماع القرآن وتدبره ومعرفة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته والنظر في آيات الله والتفكير في ملكوت السموات والأرض والتأمل في أحوال نفس الإنسان ومثل رؤية أهل

الإيمان والنظر في أحوالهم والضرورات التي يحدثها الله للعبد يضطره بها إلى ذكر الله تعالى والاستسلام له والالتجاء إليه وقد يكون هذا سبباً لشيء آخر من الايمان وهذا سبباً لشيء آخر، وسبب الايمان وشعبه تارة من العبد وتارة من غيره مثل من يقيض الله له من يدعوه إلى الايمان ويأمره بالخير وينهاه عن الشر اهـ.

ففي الآية الكريمة :

أولا : الحث على ذكر الله وأنه حياة للقلوب .

ثانياً : إثبات الألوهية .

ثالثاً : الحث على الإنصات عند قراءة القرآن وتدبر الآيات .

رابعاً : أن الايمان يتفاضل .

خامساً : أن من اتصف بهذه الصفات فهو من أهل الإيمان الكامل .

سادساً : الحث على الإكثار من ذكر الله وتنبيه الغافل عنه لعله أن يحدث له رغبة في الخير أو وجلا من العقوبة وانزجاراً عن المعاصي فيزداد إيمانه وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

سابعاً : في الآية دليل على البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار .

وكمل الآيتين تجد الخصال الخمس المشار إليها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » إلخ . هذا الحديث الجليل فيه دليل على أن المتصف باحدى الصفات المذكورة حين فعله قد انتفى عنه الإيمان وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك فعلم أن الإيمان المنفي في هذا الحديث وغيره إنما هو كمال الإيمان الواجب .

فان أصل الإيمان التصديق والانقياد فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن وقد تواتر في الأحاديث « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من خير » « والإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة وأن قليله يخرج به صاحبه من النار وإن دخلها وليس كما يقول الخارجون عن مقالة أهل السنة إنه لا يقبل التبعيض والتجزئة بل هو شيء واحد إما أن يحصل كله وإما أن لا يحصل منه شيء وقوله صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث نفى الإيمان الواجب عنه الذي يستحق به الجنة ولا يستلزم ذلك نفى أصل الإيمان وسائر أجزائه وشعبه، وحقيقة ذلك أن الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحب المذكور في قول الفقهاء الغسل كامل ومجزي ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا » ليس المراد به أنه كافر كما تأولته

الخوارج ولا أنه ليس من خيارنا كما تأولته المرجئة ولكن المضمر يطابق المظهر والمضمر هم المؤمنون المستحقون للثواب السالمون من العذاب والفاسق ليس منا لأنه متعرض لعذاب الله وسخطه فان الله ورسوله لا ينفي اسم أمر أمر به الله ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته كقوله « لا صلاة إلا بأم القرآن » وقوله « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » ونحو ذلك، فأما إذا كان الفعل مستحبا في العبادة لم ينفها الانتفاء المستحب فان هذا لو جاز لجاز أن ينفى من جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة لأنه ما من عمل الا وغيره أفضل منه وليس أحد يفعل أفعال النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا أبو بكر ولا عمر فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وهذا لا يقوله عاقل، فمن قال: إن المنفى هو الكمال فان أراد الكمال الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ولا يجوز أن يقع فان من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينقص من واجبه شيئا لم يجز أن يقال ما فعلته لا حقيقة له ولا مجاز، فاسم الايمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله فانه يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ومن نفى الله ورسوله عنه الإيمان فلا بد أن يكون قد ترك واجبا أو فعل محرما فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد بل يكون من أهل الوعيد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا زنى العبد خرج من الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فاذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان » رواه الترمذي وأبو داود .

ففي الحديث :

رد على الجهمية والمرجئة ومن تبعهم ممن قال إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ويزعمون أن الإيمان لا يتفاضل وهو إما أن يزول بالكلية أو يبقى كاملا وقولهم باطل .

وفي الحديث :

١ - النهي عن الزنا .

٢ - عظم جريمة الزنا حيث بديء به أولا .

٣ - إن الزنا فيه مضار لنهي الشارع عنه ، ومن مضاره :

(١) أنه جناية على الأعراض .

(٢) والأخلاق .

(٣) والأنساب .

(٤) والأموال .

(٥) وفيه نشر للأمراض الفاتكة .

(٦) وقتل للأولاد .

(٧) وغش للزوج إن كانت المزنى بها ذات زوج .

(٨) وتلبيس على الزوج .

(٩) وإدخال أولاد عليه يرثونه أو يرثهم ويتكشفون محارمه وربما كانوا أولياء على بناته في عقد أنكحة أو محارم في حج وعمرة وغير ذلك .

ومما يؤخذ من الحديث :

٤ ـ النهي عن السرقة .

٥ ـ احترام مال المسلم .

٦ ـ أن السرقة فيها مضار عظيمة لنهي الشارع عنها ومن مضارها معصية الله ورسوله وأنها أكل للمال الحرام وأنها ربما أدت إلى ذهاب الأرواح إذا قاوم أهلها السراق وأنها مفسدة للأخلاق .

ومما يؤخذ من الحديث أيضاً :

٧ ـ الحث على التخلق بالأخلاق الفاضلة .

٨ ـ النهي عن شرب الخمر .

٩ ـ وفيه أنها مضرة لنهي الشارع عنها .

١٠ ـ وفيه دليل على أن المعاصي بعضها أعظم من بعض .

١١ ـ وفيه رأفة الشارع بالعباد حيث نهاهم عما فيه مضرة .

١٢ ـ وفيه النهي عن النهب لأموال الناس وكما أنه نقص في الدين فهو أيضا نقص في العقل .

١٣ – في الحديث ناحية اقتصادية ترك الزنا .

وقوله : « ونقول هو مؤمن ناقص الايمان ... الخ » ، وذلك لما تقدم من أن الله سبحانه أطلق عليه اسم الإيمان في قوله (فمن عفي له من أخيه شيء) وقوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآيتين ، وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) الآية كان سبب نزولها قصة حاطب ابن أبي بلتعة ، وقال صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وقال « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » ولأنه صلى الله عليه وسلم عامل العصاة معاملة المسلمين ولم يأمر بقتلهم ولا أوجب ذلك إلا ما في الحديث « لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

(قوله : ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) .

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « لا تسبوا صحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ») .

من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الحقد والبغض والاحتقار والعداوة والحسد والكراهية وسلامة ألسنتهم من الطعن والسب واللعن والشتم والوقيعة فيهم ويعتقدون فضلهم ويعرفون سابقتهم ومحاسنهم ويترحمون عليهم ويستغفرون لهم ولا يقولون إلا ما حكاه الله عنهم في الآية .

المعنى الإجمالي للآية : بعد أن أثنى الله عز وجـــل على المهاجرين والأنصار ذكر ما يقوله من جاء بعدهم من المتبعين لهم في آثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة بأنهم يسألون ربهم المغفرة لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم ويدعونه أن لا يجعل في قلوبهم حقدا وحسدا للمؤمنين ، والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة وينبوع كل معصية ، فهما يوجبان سفك الدماء والبغي والظلم والسرقة ونحو هذه الآية (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (ربنا إنك رؤوف رحيم) ختموا هذه الآية بعد دعائهم باسمين كريمين دالين على كمال رحمته وشدة رأفته تعالى وإحسانه بهم الذي من جملته بل من أجله توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده .

يفهم من الآية :

١ ـ إثبات الربوبية .

٢ ـ الحث على الدعاء للصحابة .

٣ ـ الحث على الدعاء لسائر المؤمنين .

٤ ـ أن يحب لإخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه .

٥ ـ من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين .

٦ ـ المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك .

٧ ـ أن من صفاتهم الإقرار بالذنوب والاستغفار منها

٨ ـ الاجتهاد في إزالة الحقد والغل لإخوانه المسلمين .

٩ ـ دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم .

١٠ ـ إثبات صفة الرحمة .

١١ ـ إثبات صفة الرأفة .

١٢ ـ الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق .

١٣ ـ الرد على الرافضة والخوارج .

١٤ ـ البداءة بالنفس في الدعاء .

١٥ ـ التحذير من بغض المؤمن ومعاداة أولياء الله .

١٦ ـ إثبات صفة الكلام لله .

١٧ ـ إثبات علم الله بما لم يكن اذا كان كيف يكون .

١٨ ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار .

١٩ - أن في الآية تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها في تضامن وتكافل وتوادد وتعاطف .

٢٠ - تحريك المشاعر خلال القرون الطويلة فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي أو أشد في إعزاز وكرامة وحب .

وقوله « وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : لا تسبوا أصحابي الخ » . مناسبة قوله صلى الله عليه وسلم ذلك ، هو ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . قال : كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف ، شيء فسبه خالد بن الوليد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابي » الحديث . السب : الشتم . الصحابي : من لقيه صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على ذلك ، وآخر من مات من الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مائة وقيل مائة وعشر ، وأما عدد الصحابة فقيل مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً (١٢٤,٠٠٠) . المد : مكيال معروف . نصيفه : أي نصفه . أحد : جبل معروف بالمدينة .

المعنى الجملي للحديث : يذكر أبو سعيد رضي الله عنه أنه كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء ، وأن خالداً سب عبد الرحمن فنهى صلى الله عليه وسلم عن سب أصحابه وبين أن العمل القليل من أحدهم يفضل العمل الكثير من الذي دونه في الفضل لأن عبد الرحمن ونظراءه

من السابقين الأولين الذين صحبوه في وقت كان خالد وأمثاله يعادونه .

وابن عوف رضي الله عنه وعن الجميع ممن أنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى فقد انفردوا من الصحابة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الفتح الذي هو صلح الحديبية وقاتل ، فنهى أن يسب أولئك الذين صحبوه قبله ومن لم يصحبه قط نسبته إلى من صحبه كنسبة خالد إلى السابقين وأبعد ؛ وهو خطاب لكل أحد أن يسب لمن انفرد عنه بصحبته وقد وردت آثار في فضل المتمسكين بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فساد الزمان وأن المحيي لسنته له أجر خمسين من الصحابة كما في سنن أبي داود ، وله شاهد في صحيح مسلم : « ان العبادة وقت الهرج والفتن كهجرة إلي ، ومن أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنة » رواه الترمذي وروى أيضاً « إنما مثل أمتي مثل الغيث لا يدرى أوله خير أم آخره » ، والآثار في هذا المعنى كثيرة وقد أشكل تفسيرها على كثير من أهل العلم لاتفاق الأئمة على أن الصحابة أفضل الأمة علماً وعملا وتصديقاً وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسبقا إلى كل خصلة جميلة وشهودهم للمشاهد مع رسول الله وبذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ووجه الإشكال أنه قد يخطر ببال من سمعها أنها تدل على تفضيل العامل في آخر الزمان على الصحابة . قال الشيخ رحمه الله في معرض ذكر السلف والمتأخرين : وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل

منهم أجر خمسين رجلا يعملها في ذلك الزمان لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك لكن تضعيف الأجر لهم في أمورهم لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكون أفضل من الصحابة ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة فان الذي سبق اليه الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته بل ومع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال « خير القرون قرني ـ الذي بعث فيهم ـ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » . ا هـ ، وقال ابن القيم رحمه الله في النونية :

في البـــــاب آثار عظيم شأنهـــــا	أعيت على العلماء في الأزمان
اذ أجمـــع العلماء أن صحابة المـ	ـختـــار خير طوائف الإنســـان
ذا بالضرورة ليس فيه الخلف بـــــ	ـين اثنين ما حكيت به قـــولان
فلذاك ذي الآثار أعضلَ أمرُهـــا	وبَغوا لهـــا التفسيرَ بالإحســـان
فاسمع إذاً تأويلَهـــا وافهمــــه لا	تَعْجَلْ برد منك أو نكـــران
إن البـــدار برد شيء لم تحـــط	علماً به سبب إلى الحرمـــــان

الفضـــل منه مطلـــق ومقيـد … وهما لأهل الفضل مرتبتـــان

والفضل ذو التقييد ليس بمـوجب … فضلاً على الإطلاق من إنسان

لا يوجب التقييد أن يقضى لــه … بالاستواء فكيف بالرجحـان

إذ كان ذو الإطلاق حاز من الفضا … ئل فوق ذي التقييد بالإحســان

فإذا فرضنا واحداً قد حاز نــو … عاً لم يحـزه فاضل الإنســان

لم يوجـب التخصيص من فضـل … عليه ولا مساواة ولا نقصـان

ما خلق آدم باليدين بمــوجـب … فضلاً على المبعوث بالقــرآن

وكذا خصائص من أتى مــن بعده … من كل رسل الله بالبرهـــان

فمحمد أعلاهمــو فوقـاً ومـا … حكمت لهم بمزية الرجحـان

فالحائز الخمسين أجـراً لم يحـز … ها في جميع شرائع الإيمـــان

هل حازها في بدر او أحد أو الفـ … ـتح المبـين وبيعة الرضــوان

بل حازها إذ كان قد عدم المعـ … ـين وهم فقد كانوا أولى أعوان

والرب ليس يضيع ما يتحمل المتـ … ـملون لأجلـه من شـــان

فتحمل العبـد الوحيد رضـاه مع … فيض العـدو وقلـة الأعـوان

مما يدل على يقـين صـادق … ومحبـــة وحقيقة العرفـــان

يكفيه ذلاً واغترابـــاً قلـة الأ … نصار بين عساكر الشيطـان

في كل يـوم فرقة تغـــزوه إن … ترجع يوافيه الفريق الثـــاني

فسل الغريب المستضام عن الــذي … يلقاه بـين عدى بلا حسبـان

هذا وقد بعد المدى وتطاول الـ … ـعهد الذي هو موجب الإحسان

ولذاك كان كقابض جمراً فسَلْ … أحشاءَه عَن حرِّ ذي النيران

والله أعلـم بالذي في قلبـه ... يكفيه علم الواحـد المنـان
في القلب أمر ليس يقدر قـدره ... إلا الذي آتـاه للإنسـان
برٌّ وتوحيدٌ وصَبْرٌ مع رضـا ... والشكر والتحكـيم للقـران
سبحـان قاسم فضلـه بين العبا ... د فذاك مُولِ الفضل والإحسان

(وقوله : ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة ، والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ، ويفضلون مـن أنفق من قبـل الفتح ، وهو صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ، ويؤمنون بأن الله اطلع على أهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة) .

وقوله : « ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع الخ ، الفضائل : جمع فضيلة وهي الخصلة الجميلة ، يحصل لصاحبها بسببها علو ومنزلة ، والمراتب : جمع مرتبة وهي المنزلة ، والمكان الحديبية : قرية متوسطة ليست بالكبيرة وسميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها ، وبين الحديبية ومكة مرحلة ؟ وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت ، وبدر قرية مشهورة تقع على نحو أربع مراحل من المدينة ، وسميت الواقعة المشهورة

باسم موضعها الذي وقعت فيه ، وهي من أشهر الوقائع التي أعز الله بها الإسلام ، وقمع الله بها المشركين ، وكانت الواقعة نهاراً في يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة قتل من الكفار سبعون وأسر سبعون ، واستشهد فيها من المسلمين أربعة عشر ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، والشجرة تقع بالحديبية ، ولما كان في خلافة عمر ، أمر رضي الله عنه بقطعها وإخفاء مكانها خشية الافتتان بها ، لما بلغه أن أناساً يذهبون إليها فيصلون تحتها ويتبركون بها . وقال: كان رحمة من الله يعني إخفاءها .وسميت البيعة التي تمت تحتها ببيعة الر ضوان أخذا من الآية الكريمة قوله تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين) الآية .

قوله : « ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية ، وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل » . المعنى : أن أهل السنة والجماعة يفضلون السابقين الأولين الذين أسلموا قبل الفتح ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقــل المعين ، على من أنفق من بعد الفتح وقاتل ، لقوله تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ، وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفضيلة بقوله في الحديث المتقدم : « لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، ولما كان التفضيل قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول قال : (وكلا وعد الله الحسنى) ، أي وكلا

من المنفقين قبل الفتح وبعده وعده الله الجنة ، وإن كان بينهم تفاوت في الدرجات كما قال في الآية الأخرى : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم الآية) .

قوله : « ويقدمون المهاجرين على الأنصار » والمهاجرون هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، والأنصار المراد بهم الأوس والخزرج ، ووجه تقديمهم المهاجرين لأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة ، وقد جاء تقديمهم في القرآن بقوله تعالى (للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآيتين ، وقال : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وكل العشرة المشهود لهم بالجنة من المهاجرين وهذا تفضيل للجملة على الجملة ، لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الآخرين .

قوله : « ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر ... الخ » ، أهل بدر هم الذين حضروا الغزوة المشهورة في صف المسلمين ، وقاتلوا المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وعددهم كما قال المؤلف: ثلاثمائة وبضعة عشر ، والذي قال لهم الله تعالى ما ذكره المؤلف .

وقوله : « وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » الذين بايعوا تحت الشجرة : هم الصحابة الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت في سنة ست من الهجرة ، فأهل السنة يصدقون ويؤمنون بذلك كله قال الله تعالى : (لقد

رضي الله عــن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين بايعوه أحد » وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

قال الشيخ رحمه الله : والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وطاعة رسوله ، ويدور على ذلك ويتبعه أين وجده ، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة ، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عاماً إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً إلا للصحابة رضي الله عنهم فان الهدى يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا فاذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط .

وقال : وفي الجملة فكل ما ذكر في القرآن من خطاب المؤمنين والمتقين والمحسنين ومدحهم والثناء عليهم فالصحابة رضي الله عنهم أول من دخل في ذلك من هذه الأمة وأفضل من دخل في ذلك من هذه الأمة كما استفاض عنه صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال « خير القرون قرني الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم » وما تواتر في الكتاب والسنة من فضائلهم ومناقبهم والشهادة لهم بعلو الدرجات وكمال الصفات

أمر معلوم من الدين بالضرورة فلا يناقضه شيء مما قاله الضالون المفترون من الرافضة وغيرهم . وقال : وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولله الحمد من أصدق الناس حديثاً عنه لا يعرف منهم من تعمد عليه كذباً مع أنه يقع من أحدهم من الهنات ما يقع ولهم ذنوب وليسوا معصومين ومع هذا فقد جرب أصحاب النقد والامتحان أحاديثهم واعتبروها بما تعتبر به الأحاديث فلم يوجد عن أحد منهم تعمد كذبة بخلاف من بعدهم فانهم لا يساويهم ولا يقاربهم أحد رضي الله عنهم ولهذا كان الصحابة كلهم ثقاة باتفاق أهل العلم بالحديث والفقه حفظا من الله لهذا الدين ولم يتعمد أحد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هتك الله ستره وكشف أمره ، وقد كان التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة لا يكاد يعرف فيهم كذاب لكن الغلط لم يسلم منه بشر . قال ابن القيم رحمه الله في حق الصحابة رضي الله عنهم .

يا باغي الإحسان يَطْلُب ربّــه	ليَفُوزَ منه بغاية الآمــالي
أنظر إلى هَدْيِ الصحابة والـذي	كانوا عليه في الزمـان الخالي
واسلكْ طريقَ القومِ أينَ تيممُوا	خُذْ يَمْنَةً ما الدربُ ذاتُ شمال
تالله ما اختارُوا لأنفسِهم سِوَى	سُبُلَ الهُدَى في القولِ والأفعال
دَرَجُوا على نهجِ الرسولِ وهَدْيِهِ	وبه اقْتَدَوا في سائِرِ الأحوالِ
نِعْمَ الرفيقُ لِطالبٍ يَبْغِي الهُدى	فمآله في الحَشْرِ خَيْرُ مَـآلي
القانتينَ المُخْبِتِيْـنَ لِرَبِّهِـم	الناطِقِينَ بأصدق الأقــوال
التارِكِينَ لكُلِّ فعــلٍ سَيِّءٍ	وسِوَاهُم بالضدِ في ذَا الحال

أهواؤهُم تبعٌ لِدِين نبيهـــم والعامِلِينَ بأحْسَنِ الأعمـــال
ما شابَهمْ في دينهـــم نقصٌ ولا في قولهم شطْحُ الجَهُول الغَالِ
عَمِلُوا بما عَلِمُوا ولم يتَكلَّفُـــوا فلذلك ما شابُوا الهُدى بِضلال
وَسِوَاهُمُ بالضدِّ حتى أنهُـــمْ تركوا الهُدَى ودَعَوْا إلى الإضْلال
فهم الأدلةُ للحيارَى مَنْ يقُلْ بهُدَاهمو لم يَخْشَ من إضْلالِ
وهم النجـــومُ هِـــدَايةً وإضاءة وعلُو مَنْزِلَةٍ وبُعْدَ مَنَـــال
يمشون بَيْنَ الناسِ هَوْناً نطقُهُمْ بالحق لا بجَهَالَـــةِ الجُهَّـــالِ
حِلْماً وعِلْماً معْ تقىً وتواضُعٍ ونصيحةٍ مَعْ رُتْبَةِ الافضـــالِ
يُحْيُونَ لَيلَهمُ بطاعةِ ربهـــم بتِلاوةٍ وتضرعٍ وسُـــؤالِ
وعُيُونُهم تجري بفَيْضِ دُمُوعهم مثلَ انْهِمَالِ الوابلِ الهَطَّـــالِ
في الليل رُهْبانٌ وعند جهادِهـــم لِعَدُوهم مِن أشجع الشُجْعَـــانِ
وإذا بَدَا عَلَم الرهان رأيتَهُـــم يَتَسَابَقُونَ بِصَالحٍ الأعمال
بوجوههم أثر السُجُـــودِ لِرَبهِم وبها أشعَّة نوره المتـــلالى
ولقد أبان لك الكتـــاب صفاتهم في سورة الفتـــح المبين العالي
وبرابعِ السبع الطوال صفاتهـــم قومٌ يحبهم ذَوُوْ آمَـــالِ
وبراءَةٍ والحشرِ فيه صفاتهـــم وبِهَلْ أتى وبِسورَةِ الأنفـــالِ

وقوله : « ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن غيره ، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ويثلثون

بعثمان ، ويربعون بعلي رضي الله عنهم . كما دلت عليه الآثار ، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ، مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر ، أيهما أفضل ، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي ، وقدم قوم علياً ، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي ، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة . وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله) .

وقوله : « ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الخ » أهل السنة والجماعة يشهدون بالجنة لمن شهد له رسوله صلى الله عليه وسلم كالعشرة وهم :

١ ـ أبو بكر .

٢ ـ وعمر .

٣ ـ وعثمان .

٤ ـ وعلي .

٥ ـ وعبد الرحمن بن عوف .

٦ ـ والزبير بن العوام .

٧ ـ وسعد بن أبي وقاص .

٨ ـ وسعيد بن زيد .

٩ ـ وأبو عبيدة بن الجراح .

١٠ ـ وطلحة بن عبيد الله ، وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهم بالجنة .

١١ ـ والحسن .

١٢ ـ والحسين لما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

١٣ ـ وثابت بن قيس بن شماس لقوله صلى الله عليه وسلم « إنه من أهل الجنة » .

١٤ ـ وعبد الله بن سلام لما روى البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام .

١٥ ـ والرجل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « يطلع الآن رجل من أهل الجنة » ففي حديث أخرجه الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أيام ثلاثة : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع فيها رجل من الأنصار فبات معه عبد الله بن عمرو ابن العاص ثلاث ليال مستكشفاً حاله فلم ير له كثير عمل

فأخبره الخبر فقال ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق .

١٦ ـ وعكاشة بن محصن لما ذكر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : أنت منهم الحديث .

١٧ ـ والمرأة التي قالت إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي : فقال : « إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك » فقالت : أصبر ، ثم قالت : « إني أنكشف فادع الله أن لا أنكشف » ، فدعا لها .

١٨ ـ والرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة ، فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل والحديث في الصحيحين .

١٩ ـ وبلال لما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : « يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فاني سمعت دق نعليك بين يدي في الجنة » الحديث .

٢٠ ـ والأعرابي الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة فقال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت .. » الخ .

فقال الأعرابي : والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا ، فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

٢١ ـ وحارثة ، كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فان كان في الجنة صبرت . وإن غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء فقال : « يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

٢٢ ـ وجعفر ، لما روى الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة » .

٢٣ ـ وابن النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم ، لما روى البخاري عن البراء قال لما توفي إبراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن له مرضعاً في الجنة » .

٢٤ ـ وفاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ رضي الله عنها لما في الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ؟ » وفي حديث حذيفة في آخره : « إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

٢٥ ـ وخديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم وبقية زوجاته اللاتي خيرهن الله بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة وإليك عدد أسمائهن ، قال بعضهم :

توفي رسول الله عن تسع نسوة   إليهن تعزى المكرمات وتنسب

٢٦ فعائشة ٢٧ ميمونة ٢٨ فصفيــة   ٢٩ وحفصة تتلوهن ٣٠ هند ٣١ وزينب

٣٢ ـ جويرية مع ٣٣ ـ رملة ثم ٣٤   ـ سودة ثلاث وست نظمهن مهذب

وعمار بن ياسر ٣٥ وأمه ٣٦ وأبوه ٣٧ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بهم وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة فيقول « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » وعمير بن الحمام الأنصاري عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » قال عمير بخ بخ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما يحملك على قولك بخ بخ قال رجاء أن أكون من أهلها قال له فانك من أهلها » ومالك والد أبي سعيد الخدري الذي مص جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنقاه فقال له مجه فقال لا والله لا أمجه أبدا ثم ذهب فقال النبي صلى الله عليه وسلم «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

٤٠ ـ وعمرو بن ثابت بن وقش المعروف بالأصيرم الذي كان يوم أحد قذف الله في قلبه الاسلام فأسلم وأخذ سيفه ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقاتل فأثبت

بالجراح فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هو من أهل الجنة » .

٤١ - وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قال ابن اسحاق : فلما أصيب القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فيما بلغني أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا » ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيرت وجوه الانصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحه ما يكرهون ثم قال «أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ثم لقد رفعوا في الجنة على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله ازورارا عن سرير صاحبيه فقلت عم هذا فقيل لي مضيا وتردد ثم مضى » .

وقال شيخ الإسلام : ولا يشهد لأحد بالجنة الا من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم أو اتفقت الأمة على الثناء عليه .

وقال في كتاب النبوات : وقيل لا يشهد بذلك لغير النبي وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي وعلي بن المديني وغيرهم ، وقيل : يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبرا صحيحاً كمن شهد له النبي بالجنة فقط وسذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح كعمر ابن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهم وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة وقد جاء في الحديث الذي في المسند : « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار » قالوا

بماذا يا رسول الله ؟قال : « بالثناء الحسن والثناء السيء» . وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال : « وجبت وجبت» ، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال: « وجبت وجبت» ، فقيل يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت ؟ قال : « هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » وفي حديث آخر إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت واذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت،وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال « تلك عاجل بشرى المؤمن » .

قوله : « ويقرون بما تواتر به النقل الخ » احتوى هذا المبحث على مسألتين : الأولى مسألة التفضيل ، الثانية مسألة الخلافة .

فمسألة التفضيل : أهل السنة يقرون بذلك ويرون أنأفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ، ثم علي المرتضى رضي الله عنهم . روى الامام أحمد والبخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر » قال الحافظ الذهبي هذا متواتر وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا الأنبياء والمرسلين» وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر وعمر » .

قال القحطاني :

وهمـــا وزيراه اللذان هما هما	لفضائل الأعمـــال مستبقـــان
وهما لأحمد ناظـــراه وسمعـه	وبقربه في القبر مضطجعـان
كانا على الإسلام أشفـق أهلـه	وهما لدين إلهنا جبـلان
أصفاهمـا أقواهمـا أخشاهما	أتقاهما في السر والاعـلان
أسناهمـا أزكاهمـا أعلاهمـا	أوفاهما في الوزن والرجحان

وذكر الشيخ تقي الدين رحمه الله اتفاق العلماء على أن أعلم الصحابة أبو بكر ثم عمر ، وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا نقول والنبي صلى الله عليه وسلم حي أبو بكر ثم عمر ثم عثمان فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكره وأجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة .

وقوله « مع أن بعض أهل السنة الخ .. » إشارة إلى ما روي عن أبي حنيفة وهو تقديم علي على عثمان رضي الله عنهما ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان وكذلك روي عن سفيان الثوري تقديم علي على عثمان ويقال إنه رجع لما اجتمع به أبو أيوب السختياني وقال : من قدم علياً فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وقيل : لا يفضل أحدهما على الآخر قاله مالك في المدونة وتبعه جماعة منهم يحيى القطان ومن المتأخرين ابن حزم ، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي.

وقوله : « وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي الخ » يريد مسألة التفضيل بين عثمان وعلي أنها ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لوجود الخلاف فيها .

والمسألة الثانية مسألة الخلافة : وهي ما أشار اليه بقوله لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة ، فأهل السنة يؤمنون بأن الأحق بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لفضله وسابقته وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة على جميع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم على تقديمه ومبايعته ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة .

ويقول في مرض الوفاة يؤمكم	عني أبو بكر بلا روغان
ويظل يمنع من إمامة غيره	حتى يرى في صورة ميلان
ويقول لو كنت الخليل لواحد	في الناس كان هو الخليل الدان
لكنه الأخ والرفيق وصاحبي	وله علينا منة الإحسان
ويقول للصديق يوم الغار لا	تحزن فنحن ثلاثة لا اثنان
الله ثالثنا وتلك فضيلة	ما حازها إلا فتى عثمان

ثم من بعده عمر رضي الله عنه لفضله وعهد أبي بكر إليه ثم عثمان رضي الله عنه لتقديم الشورى له ثم علي رضي الله عنه لفضله وإجماع أهل عصره عليه وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » وقال « الخلافة بعدي ثلاثون سنة » فكان آخرها خلافة علي رضي الله عنه .

قال الشيخ رحمه الله : الخلفاء الأربعة الراشدون لهم في تبليغ كليات الدين ونشر أصوله وأخذ الناس عنهم ذلك ما ليس لغيرهم ، وإن كان يروى عن صغار الصحابة من الأحاديث المفردة أكثر مما يروى عن بعض الخلفاء فلهم عموم التبليغ وقوته الذي لم يشاركهم فيه غيرهم ثم لما قاموا بتبليغ ذلك شاركهم فيه غيرهم فصار متواترا كجمع أبي بكر وعمر القرآن في المصحف ثم جمع عثمان له في المصاحف التي أرسلها إلى الأمصار فكان الاهتمام بجمع القرآن وتبليغه أهم مما سواه ، وكذلك تبليغ شرائع الإسلام إلى أهل الأمصار ومقاتلتهم على ذلك واستنابتهم في ذلك الأمراء والعلماء وتصديقهم لهم فيما بلغوه عن الرسول فبلغ من أقاموه من أهل العلم حتى صار الدين منقولا نقلا عاماً متواتراً ظاهرا معلوماً قامت به الحجة ووضحت به المحجة وتبين به أن هؤلاء خلفاؤه المهديون الراشدون الذين خلفوه في أمته علماً وعملا وهو صلى الله عليه وسلم كما قال الله في حقه (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) الآية ، وكذلك خلفاؤه الراشدون الذين قال فيهم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » فانهم خلفوه في ذلك فانتفى عنهم بالهدى الضلال وبالرشد الغي وهذا هو الكمال في العلم والعمل اهـ .

وقوله : « ومن طعن في خلافة واحد منهم فهو أضل من حمار أهله » ، لمخالفته النصوص الصريحة والإجماع ولم يخالف في ذلك إلا ضال زائغ ، ويلي الخلفاء في الأفضلية باقي العشرة المبشرين بالجنة المتقدم ذكرهم فأهل بدر ثم أهل الشجرة وقيل أهل أحد المقدمة في الزمن والأفضلية ، والقول الأول أولى لورود النصوص من الكتاب والسنة ، وروى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا في الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم خير أهل الأرض » وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال لأهل الحديبية « لا يدرك بعدكم صاعكم ولا مدكم » وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر » قال السفاريني .

وبعد فالأفضل باقي العشرة فأهل بدر ثم أهل الشجرة
وقيل أهل أحد المقدمة والأول أولى للنصوص المحكمة

(وقوله : « ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم « أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » وقال أيضا للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال : « والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي » . وقال :

« ان الله اصطفى بني إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ».

قال بعضهم :

قريش خيار بني آدم — وخير قريش بنو هاشم
وخير بني هاشم أحمد — رسول الإله إلى العالم

وقال آخر :

لله مما قد برى صفوة — وصفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من بينهم — محمد النور أبو القاسم

ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصا خديجة رضي لله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية ، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم وسلم : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ») قال القحطاني .

أكرم بعائشة الرضى من حرة — بكر مطهرة الإزار حصان
هي زوج خير الأنبياء وبكره — وعروسه من جملة النسوان
هي عرسه هي إلفه هي أنسه — هي حبه صدقاً بلا إدهان

وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حرمت عليهم الصدقة ، وهم آل علي وآل جعفر وآل العباس وبنو

الحارث بن عبد المطلب وكذلك أزواجه من أهل بيته كما دل عليه سياق آية الأحزاب، وأفضلهم علي رضي الله عنه وفاطمة والحسن والحسين الذين أدار عليهم الكساء وخصهم بالدعاء .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي حدثنا شداد بن خمار قال دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا علياً ، فلما قاموا قال : ألا أخبركم بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : بلى ، قال : أتيت فاطمة - رضي الله عنها - أسألها عن علي - رضي الله عنه - فقالت : توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست أنتظره حتى جاء - آخذا كل واحد منهما بيده ، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة - رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً - رضي الله عنهما - كل واحد منهما على فخذه ولف عليهما ثوبه ، أو قال كساءه ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، وأهل بيتي أحق » قال القحطاني .

أكرم بفاطمة البتول وبعلها ... وبمن هما لمحمد سبطان

غصنان أصلهما بروضة أحمد ... لله در الأصل والغصنان

فأهل السنة يحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحترمونهم ويكرمونهم لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم في نصرة دين الله

وغير ذلك من فضائلهم فاحترامهم ومحبتهم والبر بهم من توقيره صلى الله عليه وسلم واحترامه ، وامتثال لما جـــاء في الكتاب والسنة من الحث على ذلك قال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) .

قوله : « ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم ... الخ » الحفظ : الصيانة ، غدير خم : اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير والغيضة الشجر الملتف ووصيته صلى الله عليه وسلم في أهل بيته هي قوله صلى الله عليه وسلم : « أذكركم الله في أهل بيتي ... الخ » .

وقوله : « وقال أيضاً للعباس الخ ... » اشتكى من الشكوى أن تخبر عن مكروه أصابك ، يجفو ، الجفاء ترك البر والصلة ، لا يؤمنون : هذا نفي لكمال الإيمان الواجب ، ففيه دليل على عظيم حقهم ووجوب احترامهم والتحذير من بغضهم .

وقال الشيخ رحمه الله : ، ولا ريب أن لآل النبي صلى الله عليه وسلم حقاً على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة مالا يستحقه سائر بطون قريش من القبائل كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة مالا يستحقه سائر أجناس بني آدم وتفضيل الجملة على الجملة لا يقتضي تفضيل كل فرد على فرد كما أن تفضيل القرن الأول على الثاني والثاني على الثالث لا يقتضي ذلك بل في القرن الثالث خير من كثير من القرن الثاني .

وقرابته صلى الله عليه وسلم من ينسب إلى جده الأقرب وهو عبد المطلب ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه ، وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : ارقبوا محمداً في أهل بيته ، وفي الصحيح أن الصديق قال لعلي رضي الله عنه : « والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصلهم من قرابتي » ، وقال عمر للعباس : « والله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب » .

وقوله : « إن الله اصطفى بني إسماعيل الخ » المعنى أنه صلى الله عليه وسلم خيار من خيار من خيار وقد جمع الله له أنواع الشرف من كل وجه وهو أفضل الخلق على الاطلاق روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، وقال ابن عباس : إن الله فضل محمدا على أهل السماء وعلى الأنبياء .

وقوله : « ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ » المعنى أن أهل السنة يحبون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ويودونهن ويترضون عنهن ، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة ، وأنهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتعظيم ومحبتهن وإكرامهن ، ويتبرؤون ممن آذاهن أو سبهن وقد أجمع المسلمون على تحريم نكاحهن بعد موته على غيره

قال الله تعالى : (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيماً) .

وقال الشيخ رحمه الله : النبي أولى المؤمنين من أنفسهم فهو الأب الروحاني والوالد الأب الجثماني وهو صلى الله عليه وسلم سبب السعادة الأبدية للمؤمن في الدنيا والآخرة والأب سبب لوجوده في الدنيا ، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين في الحرمية لا في المحرمية ولهن من الاحترام ما ليس للوالدة ومعلوم أن الإنسان يجب أن يطيع معلمه الذي يدعوه إلى الخير ويأمره بما أمر الله به ولا يجوز أن يطيع أباه في مخالفة هذا الداعي لأنه يدله على ما ينفعه ويقربه إلى ربه ويحصل له باتباعه السعادة الأبدية فظهر فضل الأب الروحاني على الجثماني فهذا أبوه في الدين وهذا أبوه في الطين وأين هذا من هذا اهـ .

ولا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم توفي عن تسع نسوة وكان يقسم منهن لثمان :

١ ـ عائشة .

٢ ـ وحفصة .

٣ ـ وزينب بنت جحش .

٤ ـ وأم سلمة .

٥ ـ وأم حبيبة .

٧ ـ وجويرية .

٨ ـ وصفية والتاسعة سودة .

وأفضل نسائه صلى الله عليه وسلم خديجة وعائشة ، وخديجة هي ابنة خويلد الأسدي تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم ، وهي التي وازرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وأرسل الله تعالى إليها السلام مع جبرائيل ـ وهذه خاصة لا تعرف لامرأة سواها ـ وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين . رحمة الله عليها .

وعائشة هي أم عبد الله الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سموات حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضها عليه الملك قبل نكاحها في سرقة من حرير وقال : هذه زوجتك ، تزوج بها في شوال وعمرها ست سنين ، وبنى بها في شوال في السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين ولم يتزوج بكرا غيرها وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها وكانت أحب الخلق إليه ونزل عذرها من السماء واتفقت الأمة على كفرقاذفها ، وهي أفقه نسائه وأعلمهن بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق : وكان الأكابر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرجعون إلى قولها ويستفتونها ، وعن أبي هريرة قال « أتى جبريل النبي صلى الله

عليه وسلم فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» رواه البخاري ومسلم ، وعن عائشة قالت: « ما غرت على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن » رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية ، فربما قلت له كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد» . وفي الصحيحين عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير نسائها خديجة وخير نسائها مريم » وزاد مسلم وأشار وكيع إلى السماء والأرض . وأخرج النسائي باسناد صحيح والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية » وفي الصحيحين عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام » قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى ، تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وقد اختلف العلماء

في خديجة وعائشة أيهما أفضل ؟ قال السبكي : الذي ندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة .

والخلاف شهير ولكن الحق أحق أن يتبع .

وقال ابن تيمية : جهات التفضيل بين خديجة وعائشة متقاربة وكأنه رأى التوقف .

وقال ابن القيم : إن أريد بالتفضيل كثرة الثواب عند الله فذلك أمر لا يطلع عليه إلا الله فان عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح وإن أريد شرف الأصل ففاطمة أيضا لا محالة ، وهي فضيلة لا يشركها فيها غير أخواتها ، وإن أريد شرف السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها . قال السفاريني :

وعائشة في العلم مع خديجة في السبق فافهم نكتة النتيجة

(وقوله : ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ويمسكون عما شجر بين الصحابة . قال القحطاني .

والعن زنادقة الروافض إنهم أعناقهم غلت إلى الأذقان
جحدوا الشرائع والنبوة واقتدوا بفساد ملة صاحب الايوان
لا تركنن إلى الروافض إنهم شتموا الصحابة دون ما برهان

ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو

كذب ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذرون : إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون .

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم ، وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة . ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر . حتى إنه يغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم ، وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم خير القرون ، وأن المـــد من أحدهم اذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم ، ثم اذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته ، أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته ، أو أبتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه ، فاذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور لهم ؟ .

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح . ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان

ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله) .

تقدم الكلام على الرافضة وبيان طريقتهم فأهل السنة يتبرؤون من طريقة الروافض وطريقة النواصب وهم الذين نصبوا العداوة لأهل البيت وتبرؤا منهم وكفروهم وفسقوهم ، فأهل السنة كما تقدم بيان طريقتهم وأنهم يتولون جميع المؤمنين ، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ويرعون حقوقهم وحقوق أهل البيت ، ولا يرضون بما فعله المختار بن أبي عبيد وغيره من الكاذبين ولا ما فعله الحجاج وغيره من الظالمين .

قوله : « ويمسكون عما شجر بين الصحابة » أهل السنة طريقتهم الإمساك عما شجر بين الصحابة لما في ذلك من توليد العداوة والبغضاء والحقد على أحد الطرفين وذلك من أعظم الذنوب والواجب حب الجميع والترضي عنهم والترحم عليهم وحفظ فضائلهم والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر مناقبهم لقوله تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) وما روي من الآثار في مساويهم كما قال المؤلف رحمه الله :

١ ـ منها ما هو كذب خالص .

٢ ـ وما دخلته الزيادة أو النقص وغير عن وجهه .

٣ ـ والصحيح منه هم فيه معذرون إما مجتهدون مصيبون

اما مجتهدون مخطئون ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » وأهل السنة لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة .

قال الشيخ رحمه الله : ولم يقل أحد يعتد به أن الصحابة رضي الله عنهم أو غيرهم من الأولياء أو القرابة معصومون من كبائر الذنوب أو من الصغائر بل يجوز عليهم وقوع الذنب والله يغفر لهم ، وقصة حاطب في الصحيح فقد غفر له الذنب العظيم بشهوده بدرا .

قوله : « ولهم من السوابق الخ » أي إلى الايمان والطاعات من الجهاد والإنفاق في سبيل الله ونحو ذلك ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر فلهم من الحسنات والأسباب التي يمحو الله بها السيئات أعظم نصيب : حتى إنه يغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم . قال ابن عدوان :

ونمسك عما كان بين صحابة ... وما صح معذورون فيه فقل قد
فإما لهم أجران أو أجر يا فتى ... فلا تبغ قولاً غير ذلك تعتد
وليسوا بمعصومين فاسمع مقالنا ... ولكن لهم ما يوجب العفو فاهتد
فقد صح عن خير الخلائق أنهم ... لخير القرون افهم بغير تردد

وقوله : « وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنهم خير القرون ، كما في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا الحديث ، والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ويقال ان ذلك مخصوص بما اذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة واحدة أو مذهب أو عمل . ويطلق القرن على مدة من الزمان واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين ووقع في حديث عبد الله بن بسر ما يدل على أن القرن مائة وعشرون وهو المشهور ، وقال صاحب المطالع : القرن أمة هلكت فلم يبق منهم أحد .

وقوله : « وان المد من أحدهم الخ » تقدم الكلام على حديث أبي سعيد :

قوله : « ثم اذا كان قد صدر من أحدهم ذنب إلخ » المعنى أنه إذا كان قد صدر فأسباب مغفرة الله لهم كثيرة منها الخمسة التي ذكرها رحمه الله :

١ ـ أحدها التوبة منه وهي مقبولة من جميع الذنوب ، قال الله تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات) وقال (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته » متفق عليه

٢ ـ أو أتى بحسنات تمحوه قال الله تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال صلى الله عليه وسلم « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

٣ ـ أو غفر له بفضل سابقته قال الله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) وقال : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) .

٤ ـ أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته .

٥ ـ أو ابتلي ببلاء في الدنيا فالمصائب الدنيوية يكفر الله بها عن المؤمن الخطايا كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » وهذا المعنى متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة ، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يبتلون بالمصائب الخاصة وابتلوا بمصائب مشتركة كالمصائب التي حصلت في الفتن ولو لم يكن إلا أن كثيرا منهم قتلوا والأحياء أصيبوا بأهلهم وأقاربهم ، هذا أصيب في ماله وهذا أصيب بجراحته وهذا أصيب بذهاب ولايته وعزه إلى غير ذلك فهذه

كلها مما يكفر الله بها ذنوب المؤمنين من غير الصحابة فكيف الصحابة وهذا مما لا بد منه .

والمقصود أن الفتن التي بين الأمة والذنوب التي لها بعد الصحابة أكثر وأعظم ومع هذا فمكفرات الذنوب موجودة لهم . وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم ما دخلوا في الفتنة ، قال محمد بن سيرين : هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف ما حضرها منهم مائة بل لم يبلغوا ثلاثين .

وقوله : « فاذا كان هذا في الذنوب المحققة » أي أنها تسقط عقوبتها عن غيرهم بأسباب عديدة فما الظن بمن اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم بل هم أولى وأحق بذلك لما تقدم .

وقوله : « فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين الخ .. » تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر » وقال صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه « يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا اغفر الذنوب جميعاً » .

قوله : « ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم الخ » المعنى أن القدر الذي ينكر من فعل بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قليل تافه مغطى في جنب فضائلهم ومزاياهم التي

منها الجهاد في سبيل الله والهجرة والنصرة والعلم النافع والنفقة فيما يرضي الله وسائر الأعمال الصالحة .

وقوله : « ومن نظر في سيرة القوم الخ » أي من تدبر وتأمل وتفكر في ما كانوا عليه من الأحوال الفاضلة والزهادة في الدنيا والإقبال على الآخرة والأخلاق الفاضلة .

وقوله : « بعلم وبصيرة » أي يقين وحق ، ومنه فلان مستبصر بهذا ، علم يقيناً أي لا يدخله شك أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم الصفوة أي الخيار ، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين . وقال فيهم عبد الله بن مسعود : من كان مستناً فليستن بمن قد مات فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوباً تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علما وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لنبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقال الشيخ رحمه الله في المنهاج : فمن تكلم في هذا الباب أي مدح الصحابة أو القدح فيهم بجهل أو بخلاف ما يعلم كان مستوجباً للوعيد ولو تكلم بحق لقصد الهوى لا لوجه الله أو ليعارض به حقاً آخر لكان أيضاً مستوجبا للذم

والعقاب . ومن علم ما دل عليه القرآن والسنة من الثناء على القوم ورضى الله عنهم واستحقاقهم الجنة وأنهم خير هذه الأمة التي أخرجت للناس لم يعارض هذا المتيقن المعلوم بأمور مشتبهة : منها ما لا يعلم صحته ، ومنها ما تبين كذبه ، ومنها ما لا يعلم كيف وقع ومنها ما يعذر القوم فيه ومنها ما يعلم توبتهم منه ، ومنها ما يعلم أن لهم من الحسنات ما يغمره . فمن سلك سبيل أهل السنة استقام قوله وكان من أهل الحق والاستقامة والاعتدال وإلا حصل في جهل ونقص وتناقض الرافضة .

وقال رحمه الله : والرجل الصالح المشهود له بالجنة قد يكون له سيئات يتوب منها أو تمحوها حسناته أو تكفر عنه عشرة أسباب ثلاثة منه وثلاثة من الناس وباقيها من الله، التوبة والاستغفار والحسنات الماحية ودعاء المؤمنين وإهداؤهم له العمل الصالح وشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم والمصائب المكفرة في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة ومغفرة الله له بفضله اهـ .

ونشهد أن الله خص رسوله ... بأصحابه الأبرار فضلاً وأيدا

فهم خير خلق الله بعد نبيه ... بهم يقتدي في الدين كل من اقتدى

وأفضلهم بعد النبي محمد ... أبو بكر الصديق ذو الفضل والندى

لقد صدق المختار في كل قوله ... وآمن قبل الناس حقاً ووحدا

وفاداه يوم الغار طوعاً بنفسه ... وواساه بالأموال حتى تجردا

ومن بعده الفاروق لا تنس فضله لقد كان للاسلام حصناً مشيدا
لقد فتح الفاروق بالسيف عنوة كثير بلاد المسلمين ومهدا
وأظهر دين الله بعد خفائه وأطفأ نار المشركين وأخمدا
وعثمان ذو النورين قد مات صائماً وقد قام بالقرآن دهراً تهجدا
وجهز جيش العسر يوماً بماله ووسع للمختار والصحب مسجدا
وبايع عنه المصطفى بشماله مبايعة الرضوان حقاً وأشهدا
ولا تنس صهر المصطفى وابن عمه فقد كان حبراً للعلوم وسيدا
وفادى رسول الله طوعاً بنفسه عشية لمّا بالفراش توسدا
ومن كان مولاه النبي فقد غدا علي له بالحق مولا ومنجدا
وطلحتهم ثم الزبير وسعدهم كذا وسعيد بالسعادة أسعدا
وكان ابن عوف باذل المال منفقاً وكان ابن جراح أميناً مؤيدا
ولا تنس باقي صحبه أهل بيته وأنصاره والتابعين على الهدى
فكلهم أثنى الإله عليهم وأثنى رسول الله أيضاً وأكدا

فصل

(ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها . وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة) .

الأصل لغة : ما يبنى عليه غيره واصطلاحاً ما له فرع ، الكرامة : أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم المتابعة لنبي كلف بشريعته مصحوبا بصحة الأعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه ولا ولايته ولا فضله على غيره لجواز سلبها وأن تكون استدراجاً ... ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى النبوة بخلاف الكرامة ، وقول أهل السنة والجماعة التصديق بالكرامة وأنها حق ، ويتضمن وقوع الكرامة حكماً ومصالح أعظمها الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته وأنه فعال لما يريد وأنه كما أن لله سنناً وأسباباً تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعا وقدرا فان لله أيضا سننا أخرى لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة كلها تدل دلالة واضحة على أن الأمر كله لله والتدبير والتيسير كله بيد الله وأن لله سنناً لا يعلمها إلا الله جل وعلا وتقدس ، وقيل : إن الكرامة من المبشرات التي يجعلها الله لمن أتت على يديه والكرامة دالة بالحقيقة على رسالة الرسول الذي اتبعه من أتت على يديه لأنها لم تحصل له إلا ببركة اتباعه .

ولا يضر المسلم أن لا يحصل له كرامة بل قد يكون عدمها أنفع له في دينه وهي باقية إلى قيام الساعة فما كان من خوارق العادات من باب العلم ، فتارة بأن يسمع العبد

ما لا يسمعه غيره ، وتارة أن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناماً ، وتارة بأن يعلم ما لا يعلمه غيره وحيا وإلهاماً أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات والعلم مكاشفة ويسمى ذلك كله كشفا ومكاشفة أي كشف له عنه وما كان باب القدر فهو التأثير وقد يكون همة وصدقاً ودعوة مجابة وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال مثل هلاك عدوه بغير أثر منه كقوله : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث المجرد » ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك .

وكذلك من باب العلم والكشف فقد يكشف لغيره من حاله بعض أمور كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أنتم شهداء الله في الأرض » وقد جمع الله لنبينا صلى الله عليه وسلم جميع أنواع المعجزات والخوارق . أما العلم والأخبار الغيبية والسماع في الرؤية فمثل إخباره صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطبته لهم وأحواله معهم ، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم ، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر ، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم فاخباره عن الأمور

الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق للعادة وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم وقتال الترك وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها ، وأما القدرة والتأثير فكانشقاق القمر وكذا معراجه إلى السموات وكثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره وكذا إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وتكثير الماء في عين تبوك وعين الحديبية ونبع الماء من بين أصابعه وكذا تكثير الطعام . ويأتي إن شاء الله بعضها موضحاً مفصلا قريباً .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال : « سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فاتبعته باداوة من ماء فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير شيئاً يستتر فاذا شجرتان بشاطىء الوادي فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصنين من أغصانها فقال انقادي علي باذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوم الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعض أغصانها فقال انقادي علي باذن الله فانقادت كذلك حتى اذا كان بالمنتصف فيما بينهما فلئم بينهما حتى جمع بينهما ، فقال التئما علي باذن الله فالتأمتا عليه فخرجت احضر مخافة أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربي فتباعدت فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فاذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا

وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق » ذكر الحديث .

ومنها أنها لما انكسرت رجل عبد الله بن عتيك رضي الله عنه بعد ما قتل أبا رافع الذي يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم قال فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال لي « أبسط رجلك » فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط .

وقصة أم معبد مشهورة من حديثها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها طلب لبناً أو لحماً يشترونه وكان مرملين مسنتين فلم يجدوا عندها شيئاً قط فنظر إلى شاة في كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها هل بها من لبن ؟ فقالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ فقالت بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً ، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرت واجترت ودعا باناء يشبع الرهط فحلب حتى ملأه وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل ثم غادره عندها وذهبوا فجاء أبو معبد فلما رأى اللبن قال ما هـــذا يا أم معبد ؟ أنى لك هذا والشاة عازب حيال ولا حلوبة بالبيت فقالت لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك فقال صفيه فوصفته له ، وذلك في طريق هجرته صلى الله عله وسلم إلى المدينة وقد قيل في ذلك الأبيات المشهورة ، قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تشير إلى ما ذكر من أنه أقبل رجل من

الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وأن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائِــه ... رفيقين حلاّ خيمتي أمِّ معبد
هُما نزلا بالبرِّ ثــم تروّحــا ... فأفلح من أمسى رفيقَ محمدِ
ليهنْ بني كعب مكانُ فتاتِهــم ... ومقعدُها للمؤمنينَ بمرصد
سلُوا أختكم عن شاتِهــا وإنائِها ... فإنكمُو إن تسألوا الشاةَ تشهد
دعاها بشاةٍ حائلٍ فتحلّبــتْ ... له بصريح ضرةِ الشاةِ مُزبدِ
فغادرهُ رهناً لديهــا لحــالــب ... يُدِرُّ لها في مصدرٍ ثمَّ موردِ

فلما سمع حسان بن ثابت أنشأ مجيبا للهاتف :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهــم ... وقدس من يسرى إليهم ويغتــد
ترحل عن قوم فضلــت عقولهــم ... وحل على قوم بنور مجــدد
هداهــم به بعد الضلالــة ربهــم ... وأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وقد نزلت منه عــلى أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حولــه ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وان قال في يوم مقالة غــائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعــادة جــده ... بصحبته من يسعد الله يسعــد

وفي الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها

فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله » رواه الحاكم في صحيحه .

وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بم أعرف أنك نبي ؟ قال « إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال ارجع فعاد ، فأسلم الأعرابي » .

ولما بعثت قريش في فداء أسراهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا وكان العباس أسيرا فقال : يا رسول الله قد كنت مسلما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله علم باسلامك فان يكن كما تقول فان الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخويك » قال العباس ما ذاك عندي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل فقلت لها إن أصبت في سفري هذا فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم ؟». قال والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل الخ .

وقصة ارتجاف أحد : وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم «اثبت أحد فانما عليك نبي وصديق وشهيدان» .

وقصة ماء الركوة : وهي ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال «ما لكم؟» قالوا ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك قال جابر فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا قال سالم قلت لجابر كم كنتم قال : لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة (١٥٠٠) .

وقصة موت النجاشي : وهي ما ورد عن أم كلثوم بنت أبي سلمة ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة قال لها إني قد أهديت للنجاشي أواقي من مسك وحنة وإني لا اراه إلا قد مات ولا أرى الهدية إلا استردت الي فهي لك فكان كما قال صلى الله عليه وسلم مات النجاشي وردت إلى النبي صلى الله عليه وسلم هديته فأعطى كل امرأة من نسائه أوقية من ذلك المسك وأعطى سائره أم سلمة .

وقصة عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي حينما اندفع يقاتل المشركين يوم بدر ويحصد فيهم حصدا حتى انكسر سيفه فلم يثنه ذلك عن خوض المعركة ولم يتخذ من كسر سيفه معذرة عن القتال فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم

يخبره بكسر سيفه وإرادة غيره فدفع صلى الله عليه وسلم جذلا من حطب فقال له « قاتل بهذا يا عكاشة » فلما أخذه عكاشة من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه فعاد في يده سيفا صارما طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة فقاتل به رضي الله عنه حتى فتح الله تعالى على المسلمين ولم يزل عنده ذلك السيف يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد في قتال الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقصة عمير بن وهب الجمحي: وذلك أنه كان مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر وكان عمير شيطانا من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة وكان ابنه وهب بن عمير في أساري بدر قال فذكر عمير أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير ،قال عمير: صدقت والله أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله فان لي قبلهم علة ابني أسير في أيديهم ، قال فاغتنمها صفوان وقال علي دينك أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء يعجز عنهم فقال عمير فاكتم شأني وشأنك قال أفعل ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ راحلته على باب المسجد متوشحا السيف فقال عمر هذا الكلب عدو الله والله ما جاء إلا لشر ثم دخل عمر على رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه قال « فأدخله علي » فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها وقال لرجال من الأنصار ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فانه غير مأمون ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أرسله» فدنا عمير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «فما جاء بك يا عمير؟» قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه يعني ولده. قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا قال « اصدقني ما الذي جاء بك؟» قال ما. جئت إلا لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك » قال عمير أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله فالحمد لله الذي هداني للاسلام وساقني هذا المساق ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فقهوا أخاكم في دينه واقرؤوه القرآن وأطلقوا له أسيره » ففعلوا الخ .

وقصة حنين الجذع: ما ورد عن جابر بن عبدالله رضي

الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه فان لي غلاما نجارا قال « إن شئت» قال فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر الذي صنع فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت .

وقصة عكة أم سليم: ما ورد عن أنس عن أمه قال كانت لنا شاة أجمعت من سمنها في عكة فملأت العكة ثم بعثت بها مع ربيبة فقالت يا ربيبة بلغي هذه العكة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتدم بها فانطلقت بها الربيبة حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم فقال « أفرغوا لها عكتها » ففرغت العكة فدفعت إليها فانطلقت بها وجاءت وأم سليم ليست في البيت فعلقت العكة على وتد فجاءت أم سليم فرأت العكة ممتلئة تقطر فقالت أم سليم يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت قد فعلت فان لم تصدقيني فانطلقي فسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقت ومعها ربيبة فقالت يا رسول الله إني قد بعثت معها إليك بعكة فيها سمن قال « قد فعلت قد جاءت » قالت والذي بعثك بالحق ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنا قال : فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أم سليم «أتعجبين إن كان الله أطعمك

كما أطعم نبيه كلي وأطعمي» قالت فجئت إلى البيت فقسمت في قعب لنا كذا وكذا وتركت فيها ما ائتدمنا به شهرين

وقصة طيب عتبة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أم عاصم إمرأة عتبة بن فرقد كنا عند عتبة ثلاث نسوة ما منا واحدة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب ريحا من صاحبتها وما يمس عتبة بن فرقد طيباً الا أن يلتمس دهنا وكان أطيب ريحاً منا فقلت له في ذلك فقال أصابني الشرى « حكة في الجلد » على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقعدني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه فتجردت وألقيت ثيابي على عورتي فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفه ثم دلك بها الأخرى ثم أمرهما على ظهري فعبق بها ما ترون .

وقصة قتادة بن النعمان: فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات ليلة لصلاة العشاء وهاجت الظلماء من السماء وبرقت برقة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قتادة بن النعمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قتادة؟ » قال نعم يا رسول الله علمت ان شاهد الصلاة الليلة قليل فأحببت أن أشهدها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا انصرفت فأتني » فلما انصرف أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرجونا وقال « خذه فسيضيء أمامك عشرا وخلفك عشرا » . وقصة أبي جابر: وهي ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال توفي أبي شهيدا في أحد وعليه دين فاستعنت

النبي صلى الله عليه وسلم على غرمائه أن يضعوا من دينه فطلب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يفعلوا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم «إذهب فصنف تمرك أصنافا العجوة على حدة وعذق زيد على حدة (أنواع التمر) ثم أرسل إلي» قال جابر ففعلت ثم أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على أعلاه أو في وسطه ثم قال «كل للقوم» قال جابر فكلتهم حتى أوفيتهم الذي لهم وبقي تمري كأن لم ينقص منه شيء. وقصة حاطب ابن أبي بلتعة: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسير كتب حاطب كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر بالسير اليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها عطاء على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها «جدائلها» وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما فقال «أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا عليه في أمرهم»، فخرجا حتى أدركاها بالخليقة «اسم موضع» فاستنزلاها فالتمسا في رحلها فلما يجدا شيئا فقال لها علي بن أبي طالب إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك فلما رأت الجد منه قالت أعرض فأعرض

فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا «فقال يا حاطب ما حملك على هذا ؟» فقال يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني امرؤ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فان الرجل قد نافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم» فأنزل الله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء الآية). ومن ذلك مجيء المطر في مسيره صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بدر وكان للمسلمين نعمة وقوة وعلى الكفار بلاء ونقمة. ومن ذلك امداده صلى الله وأصحابه بجند من السماء حتى سمع بعض الصحابة أصواتهم حين قالوا أقدم حيزوم ورأوا الرؤس تساقط من الكواهل من غير قطع ولا ضرب وأثر السياط في أبي جهل وغيره . ورميه صلى الله عليه وسلم المشركين بالحصى والتراب حتى عمت رميته الجمع وتقليل المشركين في أعين المؤمنين، وإشارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصارع المشركين بقوله «هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان» فرأى المسلمون ذلك على ما أشار إليه وذكره، وقوله صلى الله عليه وسلم لعقبة بن أبي معيط «ان وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبرا» فحقق الله ذلك، ومن ذلك نعيه صلى الله عليه وسلم زيدا وجعفرا وابن رواحة فقد روى البخاري عن

أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى زيداً وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتي خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله» يعني خالد بن الوليد حتى فتح الله عليهم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قبيل الفتح «إن أبا سفيان يأتيكم ليزيد في المدة» فلم يلبثوا أن جاء أبو سفيان يطلب الزيادة في مدة الهدنة التي عاقدهم النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عليها وذلك بعد غدر أبي سفيان وقريش ونقضهم العهد باعانتهم بني بكر على خزاعة وخزاعة قد دخلوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده فلم ينل أبو سفيان ما جاء له من النبي صلى الله عليه وسلم فرجع مخزياً، ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن علي ابن أبي طالب يفتح الله على يديه خيبر فكان كما قال

وقصة لبن أهل الصفة وذلك أن ابا هريرة قعد يوما على الطريق فمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رأه وعرف ما في نفسه وما في وجهه ثم قال «يا ابا هريرة» قلت لبيك يا رسول الله قال «الحق» ومضى فتبعته فاستاذن فأذن لي فدخل فوجد لبنا في قدح فقال «من أين هذا اللبن؟» قالوا من فلان أو فلانة قال «أبا هر» قلت لبيك يا رسول الله قال «الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي» قال أبو هريرة فساءني ذلك فقلت وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن

شربة أتقوى بها، فاذا جاؤوا أمرني أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن قال فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت فقال «يا أبا هريرة» قلت لبيك يا رسول الله قال «خذ فاعطهم» قال فأخذت القدح فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح . حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال «يا أبا هر» قلت لبيك يا رسول الله قال «بقيت أنا وأنت» قلت صدقت يا رسول الله قال «اقعد فاشرب» فقعدت فشربت فقال «اشرب» فشربت فما زال يقول اشرب حتى قلت والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال «فأرني» فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة صلى الله عليه وسلم . وقصة طعام جابر وذلك ما ورد عنه قال لما حفر الخندق رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً فانكفأت إلى امرأتي فقلت هل عندك شيء فاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً فأخرجت إلي جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحناها وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن معه فجئته فساررته فقلت يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم فقال «يا أهل الخدق إن جابرا قد صنع سورا فحي هلابكم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن

عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت بك وبك فقلت قد فعلت الذي قلت فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال «ادع خابزة فلتخبز معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وان برمتنا لتغط كما هي وان عجيننا ليخبز كما هو . وعن علي رضي الله عنه قال كنت شاكيا فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرجني وإن كان متأخرا فارفعني وان كان بلاء فصبرني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قلت فأعاد عليه ما قال فضربه برجله وقال « اللهم عافه أو اشفه» شك شعبة قال فما اشتكيت وجعي بعد . قال الترمذي حديث حسن صحيح .

ومن ذلك رد عين قتادة بن النعمان فقد أصيبت عينه في غزوة أحد حتى وقعت على وجنته فردها النبي صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً وفي ذلك يقول ابنه :

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول مرة ... فيا حسن ما عين ويا حسن ما خد

وقال رفاعة بن رافع رميت بسهم يوم بدر ففقئت عيني فبصق فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا لي فما آذاني منها شيء بعد .

ومن ذلك استسقاؤه واستصحاؤه صلى الله عليه وسلم ، ففي الصحيحين عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم رفع يديه ثم قال : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا » قال أنس والله ما نرى في السماء من سحاب ولا من قزعة وإن السماء لمثل الزجاجة وما بيننا وبين سلع من دار ، فوالذي نفسي بيده ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل من منبره حتى رأيت المطر يتحدر عن لحيته وفي ذلك يقول عمه أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتم وبيت الله نبرى محمدا ... ولما نقاتل دُونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفي رواية أخرى قال : فلا والله ما رأيت الشمس سبتا قال : ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة فاستقبله قائما فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يمسكها عنا ، قال فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر » ، قال فما يشير بيده إلى ناحية إلا انفرجت حتى رأيت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهرا .

واستسقى مرة فقام أبو لبابة فقال يا رسول الله إن التمر في

المرابد فقال « اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة ، عرياناً فيشد ثعلب مربده بازاره» فأمطرت فاجتمعوا إلى أبي لبابة فقالوا إنها لن تقلع حتى تقوم عريانا فتشد ثعلب مربدك بازارك ففعل فأقلعت السماء .

ومن ذلك ما في غزوة خيبر من أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى علي وهو أرمد فبصق في عينيه فبر يء كأن لم يكن به وجع .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة فقال مالك؟ قال: «فعل هؤلاء وفعلوا» ، قال: فقال له جبريل أتحب أن أريك آية ؟ قال «نعم» فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال ادع تلك الشجرة فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه فقال مرها فلترجع إلى مكانها فقال لها « ارجعي » فرجعت حتى عادت إلى مكانها فقال النبي صلى الله عليه وسلم «حسبي» .

وقال يوسف بن منصور الصرصري :

مُحمدٌ المبعوث للناسِ رَحْمَةً يُشَيّدُ ما اوْهَى الضَلالُ ويُصْلِحُ
لئن سبّحَتْ صُمُّ الجبَالِ مُجيبَةً لداوُد أولان الحديد المُصفّح
فإن الصُخورَ الصُّمَّ لانَتْ لِكفّهِ وإن الحصَا في كفه ليُسَبِّحُ
وإن كان مُوسى أنبَعَ الماءَ من العَصَا فمِنْ كفِهِ قد أصبَحَ الماءُ يَطْفَحُ

وإن كانت الريحُ الرخاءُ مُطيْعَةً سليمانَ لا تألوا تَروح وتَسرَحُ

فان الصبَا كانت لِنَصْرِ نَبِيِّنَا برعْبٍ على شَهْرٍ به الخَصْمُ يَكلم

وإن أوتي الملكَ العَظيمَ وسُخِّرَتْ له الجن تشفي ما رضيه وتلدح

فإن مَفَاتيح الكُنُوزِ بأسْرِهَا أتَتْهُ فَرَدَّ الزَّاهِدُ المُتَرَجِّحُ

وإن كان ابراهيم أُعطِيَ خُلَّةً وموسى بتكليم على الطور يمنح

فهذا حَبِيْبٌ بل خليلٌ مُكَلَّمٌ وخُصِّصَ بالرُّؤيَا وبالحقِّ أشرح

وخصصَ بالحوض العظيم وباللوا ويَشفع لِلْعَاصِينَ والنارُ تَلفحُ

وبالمقعد الأعلى المقرب عنده عطاء بِبُشْراه أقر وأفرحُ

وبالرتبة العليا الوسيلة دونها مراتب أرباب المواهب تلمح

وفي جنةِ الفردوسِ أولُ داخلٍ له سائرُ الأبوابِ بالخارِ تُفْتَحُ

وبما أشير فيه الى المعجزات المذكورة في كتاب الله تعالى هذه الأبيات:

هو الله من أعطى هداه وصح من هواه أراه الخارقات بحكمة

بذاك على الطوفان نوح وقد نجا به من نجا فى قومه فى السفينة

وغاض له ما فاض عنه استجابة وجد إلى الجودي بها واستقرت

وسار ومتن الريح تحت بساطه سليمان بالجيشين فوق البسيطة

وقبل ارتداد الطرف أحضر من سبا له عرش بلقيس بغير مشقة

وأخمد لابراهيم نار عدوه وفى لطفه عادت له روض جنة

ولما دعا الأطيار فى رأس شاهق وقد قطعت جاءته غير عصية

وفي يده موسى عصاه تلقفت من السحر أهو الأعلى النفس شقة

ومن حجر أجرى عيوناً بضربة بها دائماً سقت وللبحر شقت

ويوسف إذا ألقى البشير قميصه على وجه يعقوب عليه بأوبة

رآه بعين قبل مقدمــــه بكــى ... عليه بها شوقاً إليه فكفت

وفي آل إسرائيل مائدة من السمـا ... لِعِيْسَى بن مَرْيَمْ أنزلت ثم مدت

ومن ألم أبرى ومن وضح غـدا ... شفى وأعاد الطير طيراً بنفخة

وصح بأخبـــار التواتر أنـــه ... أمات وأحيا بالدعا رب ميت

وأبعد من هذا عن السحر أنـــه ... رضيع ينادي باللسان الفصيحة

ينزه عن ريـب الظنون عفيفـة ... مبرأة من كل سوء وريبـة

وقال لأهل السبت كونوا الهنـا ... قروداً فكانوا عبرة أي عبرة

وصرع أهل الفيل من دون بيتـه ... بطير أبابيل صغار ضعيفـة

وأحرق روض الجنتين عقوبـة ... بكاف ونون عبرة للبريـة

ومن باب القدرة عصا موسى وفلق البحر والقمل والضفادع والدم وناقة صالح وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى ، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلو ن وما يدخرون في بيوتهم ، وأما ما كان لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم ، فمثل قصة عمر لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلا يسمى سارية ، فبينما عمر يخطب إذ جعل يصيح على المنبر : يا سارية الجبل يا سارية الجبل فقدم رسول الجيش فسأل فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا ، فاذا بصائح : يا سارية الجبل يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

ومن كرامات الأولياء قصة سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ركبنا البحر في سفينة فانكسرت السفينة ، فركبت لوحا من ألواحها فطرحني في أجمة فيها أسد ،

فلم يرعني إلا به فقلت : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطأطأ رأسه وغمز بمنكبه شقي ، فما زال يغمزني ويهديني الطريق حتى وضعني على الطريق وهمهم ، فظننت أنه يودعني .

ومنها قصة أبي مسلم الخولاني فانه لما قال له الأسود العنسي المتنبي : أتشهد أني رسول الله ، قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ، قال : نعم فأمر بنار فأوقدت له وألقي فيها فجاءوا إليه فوجدوه يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً ، فقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فعل به كما فعل بابراهيم . والعلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين ، وكان يقول في دعائه يا عليم يا حليم يا علي يا عليم فيستجاب له ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ، ودعا الله أن لا يروا جسمه إذا مات فلم يجدوه في اللحد . ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل ووجدوا له قبرا محفورا في لحد من صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب ، ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق ، فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا ، فقال لهم : أمهلوني هنيهة

ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ومن كرامات الأولياء مثل ما كان لأسيد بن حضير وهو يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها ، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما ، رواه البخاري وغيره .

وقصة الصديق في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته ، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربي من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك ، وخبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله ، وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة ، وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وقال عروة فيرون الملائكة رفعته ، وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت عطشا ، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فاذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها ، والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله أبر قسمه ، وكان الحرب اذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون

يا براء أقسم على ربك فيقول : يا رب اقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية قال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا ، وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا فقالوا : لا نسلم حتى نشرب السم فشربه فلم يضره ، وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق وذلك انه لما وقف أمام المدائن ولم يجد شيئا من السفن وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية وقد ازدادت دجلة زيادة عظيمة واسود ماؤها ورمت بالزبد من كثرة مائها فخطب سعد الناس على الشاطىء وقال ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجال وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض الخ .

ولما عذبت الزنيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلا والله فرد الله بصرها ، ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمى الله بصرها لما كذبت عليه ، فقال ، اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها ، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت ، وتغيب الحسن

البصري عن الحجاج الظالم المشهور فدخلوا عليه ست مرات ، فدعا الله عز وجل فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيهم ، فخر ميتا . وصلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا فرسه ، فلما وصل إلى بيته قال : يا بني خذ سرجه فانه عارية فأخذ سرجه فمات الفرس .

قال الشيخ : والآيات الخارقة جنسان : جنس في نوع العلم وجنس في نوع القدرة. فما اختص به النبي صلى الله عليه وسلم من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن. وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس ، لأن الجن هم من جملة من دعاهم الأنبياء إلى الايمان وأرسلت اليهم الرسل ، ومعلوم أنه إذا دعي الجن إلى الإيمان فلا بد أن يأتي باية خارجة عن مقدورهم .

وقال : والتحقيق أن من كان مؤمناً بالأنبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق ، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله .

وقال : وأما من لم يكن مقرا بالأنبياء فهذا لا يعرف الولي من غيره ، إذ الولي لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل ، لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء الا اذا آمن بالرسل ، لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء

على الحق دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبياء ، كما قد يتنازع المسلمون والكفار ، فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على صحة دينهم كما كانت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً ونحوه .

وقال الشيخ : والخوارق ثلاثة أنواع : إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى ، فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه خوارقهم لحجة في الدين ، أو في حاجة للمسلمين ، والثاني أن تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة ، فهذا متوسط وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه ، وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان ، والأول مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الايمان . فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الأمور المباحة كاستخدام سليمان لهم في صنع محاريب الخ . والثالث أن تعينه على محرمات ، مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل ، فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار ، مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم اﻫ .

وقال الشيخ رحمه الله : من الفروق بين آيات الأنبياء وبين السحرة والكهنة ، أحدها : أن ما تخبر به الأنبياء لا يكون الا صدقا ، وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين ، وأهل الكتاب ، وأهل البدع والفجور من المسلمين . فانه لا بد فيه من الكذب ، الثاني: أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ، ولا تفعل إلا العدل ، وهؤلاء المخالفون لهم لا بد لهم من الظلم ، فان ما خالف العدل لا يكون إلا ظلماً فيدخلون

في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم . الثالث : أن من يأتي به من يخالفهم معتاد لغير الأنبياء كما هو معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور وآيات الأنبياء هي معتادة ، أنها تدل على خبر الله وأمره على علمه وحكمه فتدل على أنهم أنبياء وعلى صدق من أخبر بنبوتهم سواء كانوا هم المخبرين أو غيرهم وكرامات الأولياء هي من هذا فانهم يخبرون بنبوة الأنبياء وكذا أشراط الساعة هي أيضا تدل على صدق الأنبياء ، اذ كانوا قد أخبروا بها . الرابع : آيات الأنبياء ، إنما تنال بعبادة الله وطاعته ، فانه لا يقول عاقل إن أحدا يصير نبياً بالكذب والظلم بل بالصدق والعدل . الخامس : أن ما تأتي به السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل لا يخرج عن كونه مقدورا للانس والجن وآيات الأنبياء لا يقدر عليها لا الانس ولا الجن ، كما قال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . السادس : ما يأتي به السحرة والكهان وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه وآيات الأنبياء لا يمكن أحد أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها وكذا كرامات الصالحين لا تعارض بمثلها . ولا بأقوى منها . السابع : أن آيات الأنبياء هي الخارقة للعادة عادات الانس والجن بخلاف خوارق مخالفيهم . الثامن : أن هذه لا يقدر عليها مخلوق فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجن ولا للانس وان كانت الملائكة قد يكون لها فيها سبب بخلاف

تلك فانها إما مقدورة للانس أو للجن أو مما يمكنهم التوصل إليها بسبب وأما كرامات الأنبياء فهي من آيات الأنبياء . التاسع: أن خوارق غير الأنبياء تنال بأفعالهم كعباداتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك بل الله يفعلها آية وعلامة لهم . العاشر : أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله وحده والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والايمان بجميع الكتب والرسل فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء وأما السحرة والكهان والمشركون ، وأهل البدع فانهم يخرجون عما اتفقت عليه اهـ .

والفراسة ثلاثة أنواع: إيمانية وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده وهذه الفراسة على حسب قوة الايمان فمن كان أقوى إيمانا فهو أحد فراسة ، وفراسة رياضية وهي التي تحصل بالجوع والسهر فان النفس اذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها ولا تدل هذه على إيمان ولا على ولاية ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم ، وفراسة خلقية وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الإرتباط الذي اقتضته حكمة الله كالاستدلال بصغر الرأس على صغر العقل وبكبره على كبره وسعة الصدر على سعة الخلق .

(قوله : ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ، واتباع سبيل

السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس .

ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة ، وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة ... وان كان لفظ الجماعة قد صار اسما لنفس القوم المجتمعين والإجماع هو الاصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين ... وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأفعال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين، والاجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة) .

قوله : « ثم من طريقة أهل السنة اتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً » .

آثاره صلى الله عليه وسلم نوعان : قسم هو ما أثر عنه من قول وفعل وتقريرات فهذا القسم يجب الأخذ به والتمسك به وأما مواضع أكله وشربه وجلوسه ونومه ونحو ذلك فلا

يشرع اتباعه في ذلك بل تتبع هذه من وسائل الغلو فيه ، وقد أنكر بعض أعيان الصحابة على ابن عمر - رضي الله عنهما - في ذلك ، وقلع عمر - رضي الله عنه - الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم ولما علم أن الناس يقصدون مسجدا صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم في الطريق أنكر ذلك وقال ما معناه : « إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبيائهم فمن أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يقصدها» . وأما ما صلى فيه صلوات التشريع فالصلاة فيه مشروعة كمسجده صلى الله عليه وسلم والكعبة ومسجد قباء ، والموضع الذي صلى فيه في بيت عتبان رضي الله عنه ، كما طلب منه ذلك ليتخذه مصلى فأجابه صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وهكذا التبرك بشعر النبي صلى الله عليه وسلم وريقه وعرقه وما مس جسده فكله لا بأس به لأن السنة قد صحت بذلك . وقد قسم صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بين الناس شعر رأسه لما قد جعل الله فيه من الخير والبركة .

وليس هذا من الغلو الممنوع ، وأما التبرك بغيره صلى الله عليه وسلم فهو ممنوع لأمور :

أولا : أن غيره صلى الله عليه وسلم لا يقاس عليه لما جعل الله فيه من الخير والبركة بخلاف غيره فلا يتحقق فيه ذلك .

ثانيا : أن ذلك ربما يوقع في الغلو وأنواع الشرك فوجب

سد الذرائع بالمنع من ذلك وإنما جاز في حقه صلى الله عليه وسلم لمجيء النص به والأمر .

الثالث : أن الصحابة لم يفعلوا ذلك مع غير النبي صلى الله عليه وسلم ، لا الصديق ولا عمر رضي الله عنهما – ولا مع غيرهما ولو كان ذلك سائغا أو قربة لسبقونا إليه ولم يجمعوا على تركه فلما تركوه علم أن الحق ترك ذلك وعدم إلحاق غيره به صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « واتباع آثار السابقين ... الخ » . المعنى : أن من أصول أهل السنة والجماعة اتباع آثار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم – رضي الله عنهم – عند موافقتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما اذا وجد النص من الكتاب أو السنة فانه يجب اتباعه وتقديمه على رأي كل أحد قال تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) الآية .

ولما أراد أبو بكر رضي الله عنه قتال مانعي الزكاة لم يساعده عمر أولا على ذلك واستدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» فاستدل عليه أبو بكر بقوله صلى الله عليه وسلم «الا بحقها» يريد والزكاة من حقها فانشرح صدر عمر لما أمره أبو بكر من قتال مانعي الزكاة فلم يقبل عمر رضي الله عنه قول أبي بكر حتى أقام الدليل من السنة .

وقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من

السماء ، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر وعمر .

وقال الإمام أحمد عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله يقول (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وقال الشافعي رحمه الله : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد . وقال مالك رحمه الله : ما منا الا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم .

وقال صاحب الهداية في روضة العلماء إنه قيل لأبي حنيفة اذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه قال اتركوا قولي بكتاب الله فقيل إذا كان خبر الرسول يخالفه قال اتركوا قولي لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم . فقيل له اذا كان قول الصحابي يخالفه قال اتركوا قولي لقول الصحابي .

وعن معن بن عيسى قال سمعت مالكا يقول إنما أنا بشر أخطيء وأصيب فانظروا في رأيي كل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه، وسأل رجل الإمام الشافعي عن مسألة فقال يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا وكذا فقال له السائل يا أبا عبد الله تقول بهذا فارتعد الشافعي واصفر لونه وقال ويحك وأي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم شيئا ولم أقل به نعم على الرأس والعين نعم على الرأس والعين وقال إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت ،وروى البيهقي عنه أيضاً أنه قال اذا حدث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يترك لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديث أبدا إلا حديث وجد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه وروي عنه أيضا أنه قال له رجل وقد روى حديثا أتأخذ به فقال متى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب، وحكى ابن القيم في أعلام الموقعين أن الربيع قال سمعت الشافعي يقول كل مسألة يصح في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي وقال حرملة بن يحي قال الشافعي ما قلت وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال بخلاف قولي فما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى فلا تقلدوني ونقل إمام الحرمين في نهايته عن الشافعي أنه قال إذا صح خبر يخالف مذهبي فاتبعوه واعلموا أنه مذهبي .

قوله : « واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال عليكم بسنتي ... الحديث » . والخلفاء هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ووصيته صلى الله عليه وسلم نحوهم

هي قوله « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي إلخ » وقوله « عضوا عليها بالنواجذ » كناية عن شدة التمسك بها والنواجذ: هي آخر الأضراس والمحدثات المراد البدع والبدعة: لغة ما عمل على غير مثال سابق وفي الشرع فهي ما لم يدل عليه دليل شرعي.

وعن العرباض بن سارية قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال « أوصيكم بتقوى والسمع والطاعة وإن عبد حبشي فانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » رواه أحمد والترمذي وصححه ورواه ابن ماجه وزاد « فقد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» وقال عبد الله ابن مسعود اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم وقال ابن الماجشون سمعت مالكا يقول من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة لأن الله يقول (اليوم أكملت لكم دينكم) فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا وقال الشافعي من استحسن يعني بدعة فقد شرع، فأمر صلى الله عليه وسلم بلزوم سنته وسنة الخلفاء الراشدين عند وقوع الاختلاف في الأمة في أصول الدين وفروعه. والسنة هي الطريقة فيشمل

ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الإعتقادات والأعمال والأقوال وهذه هي السنة الكاملة ولهذا كان السلف قديما لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله . وفي أمره صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده وأمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموما دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور وإنما وصفوا بالرشد لأنهم عرفوا الحق وقضوا به وإنما تتبع آثار الصحابة عند موافقتها لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وعند خفاء سنة النبي صلى الله عليه وسلم وقوله «عضوا عليها بالنواجذ» : المراد المبالغة في التمسك بها بكل ممكن وبكل سبب وان لا يتبعوا آراء أهل البدع والأهواء والمقاصد الفاسدة .

وأما ما وقع من استحسان بعض البدع فانما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية . ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك قال نعمت البدعة هذه وروي أن أبي ابن كعب قال له إن هذا لم يكن فقال عمر قد علمت ولكنه حسن ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليها، والبدعة منقسمة إلى خمسة أقسام لأنها إذا عرضت على القواعد الشرعية لم تخل من واحد من تلك الأحكام الخمسة فمن البدع الواجبة على الكفاية الاشتغال بالعلوم العربية المتوقف عليها فهم كتاب الله

وسنة رسوله كالنحو واللغة وكتدوين القرآن وكتمييز صحيح الأحاديث من سقيمها وكتدوين الفقه وأصوله والرد على طوائف أهل البدع كالرافضة والجهمية والقدرية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم لأن حفظ الشريعة فرض كفاية ولا يتأتى حفظها إلا بذلك وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد وتزويق المصاحف ومن البدع المحرمة المكوس والمظالم والقوانين الوضعية ومن البدع المحرمة التي حدثت أخيرا الدخان وآلة التصوير والمذياع (الراديو) والعود والتلفزيون والسينما والكرة والورق والبكمات والخنافس والتوليتات وحلق اللحي وإسبال الشوارب وقص رؤوس النساء والرؤس الصناعية والتأمين .

ومن المباحة اتخاذ المناخل والملاعق والآلات الحديثة كالطائرات ونحوها والسيارات والمكائن بأنواعها والثلاجات والغسالات والمراوح والدفايات والدراجات والتوسع في المآكل والمشارب والملابس على الوجه الشرعي،ومن المسنونة اتخاذ الربط ومدارس العلم والمعاهد العلمية والجامعات للعلم الشرعي وتصنيف العلوم المستحسنة شرعاً وتقرير القواعد والضوابط والأصول .

وقوله : « ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله ... الخ » . المعنى : أن أهل السنة يعلمون أنه لا أحد أصدق قولا ولا خبرا من الله سبحانه ، قال تعالى (ومن أصدق من الله قيلا) ، (ومن أصدق من الله حديثا) وقال (وتمت كلمة ربك

صدقاً وعدلا) ، ويعلمون أن خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم والمراد تفضيل دينه وسنته على سائر الأديان والسنن فدينه أكمل الأديان على الإطلاق وشريعته أفضل الشرائع اختارها الله لخيرته من خلقه ولأمته خير أمة أخرجت للناس وجعلها حجة باقية إلى يوم القيامة لا يتطرق إليها النسخ ولا يعتريها التبديل والتغيير الذي وقع في الشرائع قبلها . وقوله : « ويؤثرون كلام الله إلخ » أهل السنة يقدمون كلام الله على كلام غيره من خلقه كائنا ما كان ولا يعدلون عنه ولا يعارضونه بمعقول ولا منقول فانه الفرقان المفرق بين الحق والباطل والنافع والضار . وقوله : « ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة » أي لاتباعهما والأخذ بهما وتحكيمهما في القليل والكثير . وقوله : « وسموا أهل الجماعة » أي لاجتماعهم على الحق الصريح من الكتاب والسنة فالجماعة المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعا قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) . وقوله : « والاجماع الذي ينضبط الخ » والإجماع هو اتفاق المجتهدين في عصر من العصور على أمر من أمور الدين وهو حجة قاطعة قال الله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وعن ابن عمر مرفوعا « لا تجمع هذه الأمة على ضلالة أبداً » رواه الترمذي . وعن أنس مرفوعا « لا تجمع هذه الأمة على ضلالة فان رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم الحق وأهله » رواه ابن ماجة وعن أبي ذر مرفوعا « عليكم بالجماعة فان الله لم يجمع امتي الا

على هدى » رواه أحمد والاجمـــاع الذي ينضبط أي يحفظ ويضبط ضبطاً تاماً هو ما كان عليه الصحابة والسلف الصالح لا ما بعد ذلك لكثرة التفرق والاختلاف وانتشار الأمة وكثرة العلماء وتفرقهم في البلدان فالأصول التي يعتمد عليها أهل السنة والجماعة في العلم والدين ويزنون بها جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين ثلاثة أولها كتاب الله الذي هو خير الكلام وأصدقه الذي فيه الهدى والنور فلا يقدمون عليه كلام أحد والأصل الثاني سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أثر عنه من هدى وطريقة فيتمسكون بها ولا يعدلون بها غيرها ، والأصل الثالث الإجماع .

قال ابن القيم :

قوم اذا مـــا ناجـــذ النص بـــدا ... طاروا له بالجمـــع والوحـــدان

وإذا بدا علم الهدى استبقوا لـــه ... كتسابق الفرسان يوم رهـــان

وإذا سمعوا بمبتـــدع هـــذى ... صاحوا به طراً بكل مكـــان

ورثـــوا رسول الله لكـــن غيرهـــم ... قد راح بالنقصـــان والحرمـــان

واذا استهان سواهـــم بالنص لـــم ... يرفع به رأساً من الخسران

عضوا عليـــه بالنواجذ رغبـــة ... فيه وليس لديهمـــو بمهـــان

ليسوا كمن نبذ الكتاب حقيقـــة ... وتلاوة قصدا بترك فـــلان

قال الشيخ رحمه الله : فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعا لقوله

وعمله تبعا لأمره فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين فلذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يؤسس دينا غير ما جاء به الرسول واذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر وبه ويستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول بل على ما رأوه أو ذاقوه ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك فاذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضا أو حرفوها تأويلا . وقال : وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل بل يكون عنده جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطنا وظاهرا فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا والاعتقاد الباطل لا يكون علما وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه فمن نهى عنه فهو نهي عن العدل ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم فان ضد العدل الظلم فلا يكون ما يخالفه إلا جهلا وظلما وظنا وما تهوى الأنفس . وقال : والكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين وأما الإجماع فهو في نفسه حق إذ لا يجمع الأمة على ضلالة وكذا القياس فانه بعث رسوله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب والميزان يتضمن العدل وما به يعرف العدل ،

وقال : فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فانها ما بين الله فيه الهدى ، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين ، وأما إذا كان يظن الإجماع ولا يقطع به فهنا أيضا قد لا يقطع بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر ، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع وما لا يكفر ، والإجماع هل هو قطعي الدلالة أو ظني الدلالة .

فصل

(ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء ، أبراراً كانوا أو فجارا ، ويحافظون على الجماعات ، ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه) .

فصل

(وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .. ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ، ويدعون

إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ... ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ») .

فصل

(ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك .. ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق .. ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها) .

وقوله : « ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الخ » المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس،والمنكر ضده وقيل المعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه الله وينهى عنه ووجوبهما وجوب كفائي يخاطب به الجميع ، ويسقط بمن يقوم به ، وإن كان العالم به واحدا تعين عليه ، وان كانوا جماعة لكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعا تعين عليهم ، والأصل في وجوبهما . قوله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ومن السنة ما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقوله : « على ما توجبه الشريعة » أي أنه يجب أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالما بما يأمر به . قال الله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة) . وقال شيخ الإسلام : لا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بد من العلم بحال الأمر والنهي ، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم ، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود ولا بد في ذلك من الرفق ولا بد أن يكون حليما صبورا على الأذى . فانه لا بد أن يحصل له أذى فان لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح فلا بد من العلم والرفق والصبر ، العلم قبل الأمر والنهي والرفق معه ، والصبر بعده .

قال وهنا خلط فريقان من الناس فريق بترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلا لهذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه . إنكم تقرؤن هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه» . والفريق الثاني من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقا من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما

يقدر عليه وما لا يقدر عليه كما في حديث ثعلبة الخشني : سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت أمر الناس لا يدان لك به فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام فان من ورائك أياما الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله » ، فيأتي بالأمر والنهي معتقدا أنه مطيع في ذلك الله ورسوله وهو معتد في حدوده كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي على الجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال « أدوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم » ولهذا كان من أصول أهل السنة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة وترك القتال في الفتنة ولما سئل بعض الأئمة عن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك أناس فيخرج على الجماعة هل ترى ذلك قال لا قلت ولم وقد أمر الله ورسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة قال هو كذلك لكن ما يفسدون أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام ، وقال الشيخ وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت فانه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت فان الأمر

والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض فان كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرق بينهما بل إما أن يفعلوهما جميعا أو يتركوهما جميعا لم يجز أن يؤمروا بمعروف بل ولا أن ينهوا عن منكر بل ينظر فان كان المعروف أكثر أمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات وإن كان المنكر أغلب نهى عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما فتارة يصلح الأمر وتارة يصلح النهي وتارة لا يصلح أمر ولا نهي حيث كان الأمر والنهي متلازمين وذلك في الأمور المعينة الواقعة . وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً وينهى عن المنكر مطلقاً وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها ويحمد محمودها

ويذم مذمومها بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه وفوات معروف أرجح منه وإذا اشتبه الأمران استبان المؤمن حتى يتبين له الحق فلا يقدم على طاعة الا يعلم أنه إذا تركهـا كان عاصيا فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما أنهى عنه من الأمر معصية .

ويشترط في وجوب الإنكار أن يأمن على نفسه وأهله وماله ، فان خاف على نفسه سوطا أو عصا أو أعظم من ذلك كالسيف أو نحوه سقط عنه أمرهم ونهيهم . فان خاف السب أو سماع الكلام السيء لم يسقط والحزم أن لا يبالي لما ورد : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وقوله : « لا يمنعن أحدكم هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » ، ومقام الرسل وأتباعهم بالصدع بالحق معلوم مشهور من أراد الاقداء بهم وجده .

قال الله تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) الآية وقد كان موقف الخليل عليه السلام أمام أبيه وقومه حين أعلن الدعوة إلى الحق دون خوف أو خجل وهو وحده،حين أمر الله موسى بتبليغ الدعوة اعتراه ما يعتري البشر أمام الطغاة والظلمة والجبابرة فقال (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أجابه ربه (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) ولقد وقف المشركون أمام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يدفعونهم عن الدعوة ويخوفونهم فما يزيدهم

ذلك إلا ثباتا على الحق وقوة بالأيمان بالله وتوكلا عليه .

واليك نماذج ممن نالهم الاضطهاد والتعذيب وإيمانهم يزداد قوة ورسوخاً وثباتاً منهم عمار بن ياسر أسلم هو وأبوه وأمه وكان ياسر حليفا لبني مخزوم فكانوا يخرجون عمارا وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرها ومات ياسر في العذاب وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها في قلبها بحربة في يديه فماتت وهي أول شهيدة في الاسلام وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره تارة ، ومنهم خباب بن الأرت سبي وبيع على سباع حليف بني زهرة فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً فكانوا يجردونه ثم يلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالحجارة المحماة فلم يجبهم إلى شيء ، ومنهم صهيب بن سنان الرومي وكان ممن يعذب في الله عذاباً شديداً ولما أراد الهجرة منعته قريش فافتدى نفسه بماله كله،ومنهم عامر بن فهيرة أسلم قديما وكان من المستضعفين وعذب في الله فلم يرجع عن دينه اشتراه أبو بكر وأعتقه،ومنهم أبو فكيهة وكان عبدا لصفوان بن أمية أسلم مع بلال فأخذه أمية وربط في رجله حبلا وأمر به فجر ثم ألقاه في الرمضاء فاشتراه أبو بكر فأعتقه ، ومنهم النهدية مولاة لبني فهد كانت لامرأة من بني عبد الدار وكانت تعذبها على الإسلام،ومنهم أم عنيس وهي أمة لبني زهرة فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها فاشتراها أبو بكر فأعتقها ؛ وهكذا بالغ المشركون في تعذيب المستضعفين من المسلمين

وأرهقوهم ارهاقا شديدا حتى كان منهم من ليس يقوى على التعذيب يموت بين أيديهم نعوذ بالله من الظلم والجور والتعدي على أولياء الله .

قال ابن القيم :

والحـــق منصـــور وممتحن فـــلا	تجزع فهذي سنة الرحمـــــن
ولأجل ذاك الحرب بين الرسل والكـــ	فار مذ قام الورى سجـــلان
وبذاك يظهر حزبه مـــن حربـــه	ولأجل ذاك الناس طائفتـــان
لكنمـــا العقبى لأهل الحـــق إن	فاتت هنا كانت لدى الديـــان

قال الشيخ : فمن كان مجاهدا لله باللسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الدين وتبليغ ما في الكتاب والسنة من الأمر والنهي والخبر وبيان الأقوال المخالفة لذلك والرد على مخالف الكتاب والسنة ، أو باليد كقتال الكفار فاذا أوذي على جهاده بيد غيره أو لسانه فأجره في ذلك على الله لا يطلب من هذا الظالم عوض مظلمته بل هذا الظالم إن تاب وقبل الحق الذي جوهد عليه فالتوبة تجب ما قبلها وان لم يتب بل أصر على مخالفة الكتاب والسنة فهو مخالف لله ولرسوله اهـ .

ومن هذا الباب إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان فازالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة ازالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه ؛ وقال ابن القيم وقد شرع النبي صلى الله عليه

وسلم لأمته إيجاد انكار المنكر ليحصل بانكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله فاذا كان انكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فانه لا يسوغ انكاره وان كان الله يبغضه ويمقت أهله وهذا كالانكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فانه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا أفلا نقاتلهم؟ فقال «لا ما أقاموا الصلاة» وقال «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعة» ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب ازالته فتولد منه ما هو أكبر منه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها بل طالما فتح الله مكة وصارت بلد إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد ابراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه ...

وقال ابن القيم : إنكار المنكر أربع درجات الأولى : أن يزول ويخلفه ضده . الثانية : أن يقل وإن لم يزل من جملته . الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله . الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه ، فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة . فاذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب

وسبق الخيل ونحو ذلك واذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب او سماع مكاء وتصدية فان نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد والا كان تركهم على ذلك من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة فدعه وكتبه الأولى وهذا باب واسع .

ومن أصول أهل السنة أنهم يرون إقامة الجهاد والحج والجمع والجماعات والأعياد مع الأمراء أبرارا أو فجارا ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ، وفي الصحيح : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا » ، وفي الحديث الآخر : « والجهاد ماض منذ بعثني الله عز وجل حتى يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار » ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يصلون خلف من يعرفون فجوره ، كما صلى عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة خلف الوليد ابن عقبة بن أبي معيط ، وقد كان يشرب الخمر ، وصلى مرة الصبح أربعاً ، وجلده عثمان بن عفان رضي الله عنه على ذلك ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يصلي خلف الحجاج بن يوسف ، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف

ابن أبي عبيد وكان متهما بالإلحاد داعياً إلى الضلال ، نسأل الله العفو والعافية .

قال الشيخ : الواجب على كل مسلم اذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم ، وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وان كان قادرا على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه ، وان قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه ، وان لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، وان كان في هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره ، وأما اذا ولى غيره بغير إذنه ، وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلا وضلالا ، وكان قد رد بدعة ببدعة ، والصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة اذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع ، ولم يأمر الله تعالى قط أحدا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة .

وقال : ومن أمر بمعروف ونهى عن منكر أعين على ذلك اذا لم يكن في ذلك مفسدة راجحة ، وأنه لا بد من إقامة الجمعة والجماعة ، فان أمكن تولية إمام بر لم تجز تولية فاجر ولا مبتدع يظهر بدعته ، فان هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الإمكان ولا يجوز توليتهم ، فان لم يمكن الا تولية

أحد رجلين كلاهما فيه بدعة وفجور ، كان تولية أصلحهما ولاية هو الواجب واذا لم يمكن في الغزو إلا تأمير أحد رجلين أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد والآخر فيه منعفة في الجهاد مع ذنوب له ، كان تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين خيرا من تولية من ولايته أضر على المسلمين ، وإذا لم يمكن صلاة الجمعة والجماعة وغيرها إلا خلف الفاجر والمبتدع صليت خلفه ولم تعد ، وإن أمكن الصلاة خلف غيره وكان في ترك الصلاة خلفه هجر له ليرتدع هو وأمثاله عن البدعة والفجور فعل ذلك ، وإن لم يكن في ترك الصلاة خلفه مصلحة دينية صلى خلفه وليس على أحد أن يصلي الصلاة مرتين ، ففي الجملة أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان كما قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) اهـ .

قوله : « ويدينون بالنصيحة الخ » النصيحة هي حيازة الحظ للمنصوح له وقيل إخلاص النية من الغش للمنصوح له ، ومعنى الديانة بها أي التعبد بها وهي لمن ذكر في الحديث الذي رواه تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ ، قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ، والنصيحة طريقة الرسل كما ذكر الله ، قال نوح لقومه : (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم) ، وقال هود : (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) ، وقال صالح : (لقد أبلغتكم رسالة ربي

ونصحت لكم) ، فالنصيحة لله الإيمان به ، ونفي الشريك ، وترك الإلحاد في أسمائه وصفاته ووصفه بأوصاف الكمال ، وتنزيهه عن النقائص ، وطاعة أمره ، واجتناب نهيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وغير ذلك مما يجب له ، وجميع هذه الأشياء في الحقيقة ترجع مصلحتها إلى العبد ، فهي نصيحة لنفسه وكسب خير لها ، والنصيحة لكتابه الإيمان به بأنه كلام الله ، وتحليل ما حلله وتحريم ما حرمه ، والاهتداء بهديه والتدبير لمعانيه ، والقيام بحقوقه ، والاتعاظ بمواعظه ، والاعتبار بزواجره الخ ... والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم تصديقه فيما جاء به ومحبته ، وتقديمه فيها على النفس والمال والولد ، وتوقيره حياً وميتاً ، ومعرفة سنته ونشرها والعمل بها وتقديم قوله على قول كل أحد كائنا ما كان والاجتهاد بالاهتداء بهديه والنصر لدينه .

ولله فانصح بالدعاء لدينه	وطاعته مع خوفه ورجائه
وكن تالياً آي الكتاب مداوياً	بها كل داء فهي أرجى دوائه
فمنه ينابيع العلوم تفجرت	وما فاض من علم فمن عذب مائه
هدى وشفاء للقلوب ورحمة	من الله يشفى ذو العمى بشفائه
وكن ناصحاً للمصطفى باتباعه	ونصرته مع حب أهل ولائه

وأما النصيحة لأئمة المسلمين فهي إعانتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم بحوائج العباد ونصحهم برفق وعدل واعتقاد ولايتهم . والسمع والطاعة لهم في غير معصية الله ، وحث الناس على ذلك وبذل ما يستطيعه من

إرشادهم وتنبيههم إلى ما ينفعهم وينفع الناس والى القيام بواجبهم .

قال الشيخ : ويجب على أولي الأمر أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر فالأول : مثل شرائع الإسلام كالصلوات الخمس وما يتبعها من واجبات وسنن لأسباب وغير أسباب والصدقات والصوم والحج فرض ذلك ونفله ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ومثل الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك، وكل معروف صدقة ومثل سائر ما أمر الله به من الأمور الباطنة والظاهرة كاخلاص الدين لله والتوكل على الله ، وأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها وبر الوالدين وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى والإحسان إلى اليتيم والجار والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك والعدل في المقال والفعال ، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق كلها . والثاني : مثل الشرك والقتل والزنا والسحر والربا والميسر وأكل الأموال بالباطل والمعاملات التي نهى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم و قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وتطفيف المكيال والميزان والإثم والبغي بغير الحق والقول على الله بلا علم كالبدع الاعتقادية والبدع العملية والإفتاء بغير علم والتعاون على الإثم والعدوان وهو جميع

المعاصي وجميع الظلم للعباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم اهـ.

وقال أهل السنة : يقولون ينبغي أن يولى الأصلح للولاية اذا أمكن إما وجوبا أو استحبابا ومن عدل عن الأصلح مع القدرة لهوى فهو ظالم ومن كان عاجزا عن تولية الأصلح مع محبته لذلك فهو معذور ، ويقولون من تولى فانه يستعان به على طاعة الله بحسب الإمكان ولا يعان الا على طاعة الله ولا يستعان به على معصية الله ولا يعان على معصية الله . والمراد بأئمة المسلمين قادتهم في تنظيم شؤون الدنيا ، وفي إقامة معالم الدين ونشره بين الناس فيدخل في ذلك الإمام الأعظم والقضاة والأمراء وجميع من لهم ولاية عامة أو خاصة .

وقال الشيخ : الإمام هو من يقتدى به إما أن يرجع اليه في العلم والدين بحيث يطاع باختيار المطيع لكونه عالماً بأمر الله آمراً به فيطيعه لذلك وان كان عاجزا عن الإلزام بالطاعة واما أن يكون صاحب يد وسيف بحيث يطاع طوعا وكرها قادرا على إلزام المطيع بالطاعة وهؤلاء القسمان هم المراد بقوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ولا يتم كل واحد منهما إلا بالآخر ولا يستقيم الدين والدنيا الا باجتماعهما ووجود الظلم والمعاصي من بعض المسلمين ولاة الأمور وعامتهم لا يمنع أن يشارك فيما يعمله من طاعة الله فيعاونون على الخير ولا يطاع أحد من الخلق في معصية الله وملوك المسلمين حسناتهم كثيرة وسيئاتهم كثيرة فلهم من

الحسنات ما ليس لآحاد الأمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وجهاد العدو وإيصال كثير من الحقوق إلى مستحقيها ومنع كثير من الظلم وإقامة كثير من العدل اه .

والنصيحة لعامتهم إرشاد عامة المسلمين إلى مصالحهم في دنياهم وأخراهم وكف الأذى عنهم وتعليمهم ما جهلوا وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وأن يكره لهم ما يكره لنفسه وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان .

قال بعضهم :

وكن ناصحاً للمسلمين جميعهم	بارشادهم للحق عند خفائه
ومرهم بمعروف الشريعة وانههم	عن السوء وازجر ذا الخنا عن خنائه
وعظهم بآيات الاله بحكمة	لعلك تبري داءهم بدوائه
فإن يهد مولانا بوعظك واحداً	تنل منه يوم الحشر خير عطائه
والا فقد أديت ما كان واجبا	عليك وما ملكت أمر اهتدائه

قال الشيخ : وأما المؤمنون وولاة الأمور من العلماء والأمراء ، ومن يدخل في ذلك من المشائخ والملوك فلهم حقوق بحسب ما يقومون به من الدين فيطاعون في طاعه الله ويجب لهم من النصيحة والمعاونة على البر والتقوى وغير ذلك ما هو من حقوقهم ولعموم المؤمنين أيضا من المناصحة والموالاة وغيرها من الحقوق ما دل عليه الكتاب والسنة .

وقوله : « ويعتقدون قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان .. إلخ » الحديث الذي ذكره المؤلف حديث جليل يفيد أن المؤمنين من شأنهم التناصر والتناصح والتكاتف والتظاهر على مصالحهم الخاصة والعامة وأن يكونوا متراحمين وأن يكونوا متحابين متعاطفين كما في الحديث الآخر الذي رواه البخاري ومسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ويفيد أن يكونوا على هذا الوصف فكما أن البنيان المجموع من أساسات وحيطان كلية وجزئية وسقوف وعمد ، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده قياما تاما حتى ينضم بعضها إلى بعض ، وإن قام فهو قيام ضعيف عرضة للعواصف التي تزلزل البناء أو تطرحه فيجب على المؤمنين أن يراعوا قيام دينهم وشرائعه وما يقوم ذلك ويقويه ويزيل موانعه وعوارضه متساعدين يرون الغاية واحدة وان تباينت الطرق . والمقصود واحداً وإن تعددت الوسائل ومثل صلى الله عليه وسلم اتحاد المسلمين وتعاونهم بالتشبيك بين الأصابع ، ويفيد الحديث النهي عن :

١ ـ التفرق .

٢ ـ الاختلاف .

٣ ـ التخاذل .

٤ ـ التباغض .

٥ ـ التحاسد والتعادي .

ويفيد الحديث الحث على التواصل والتوادد والتراحم وكل ما يقوي المسلمين ويفيد الحديث أن المذكورات هي من محاسن الدين الاسلامي أعزه الله .

٦ – وفي الحديث نصح النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الشيخ : يجب على جميع المسلمين أن يكونوا يدا واحدة على الكفار وان يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله ويدعو المسلمين إلى ما كان عليهم سلفهم من الصدق وحسن الأخلاق فان هذا من أعظم أصول الإسلام وقواعد الايمان الذي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه أمر عباده عموما بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف . وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم » والتودد والتراحم والتعاطف كلها من باب التفاعل يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل ، فالتراحم: رحمة بعضهم بعضاً بسبب الأخوة الإيمانية . والتوادد : التواصل الجالب للمحبة ، كالتزاور والتهادي ، والتعاطف : إعانة لبعضهم بعضا كما يعطف الثوب على الثوب يقويه ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يمثل المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد فكما أن الجسد اذا مرض منه عضو تألم جميع البدن ، فكذلك المؤمنون حقيقة اذا نابت واحدا منهم نائبة شعر بألمها الباقون فسعوا حسب طاقتهم لإزالة ما أصابه ، فهم كشخص واحد وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص . قال تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة (محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا) الآية . وفي الحديث : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » الحديث . وفي الحديث الآخر : « المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه » فيؤخذ من الحديث دليل على عظم حق المسلم على أخيه والحث على ما يكون سبباً للثلاث المذكورة في الحديث . وفيه النهي عن التقاطع والتعادي .

ومما يفيده الحديث أن الأخوة الايمانية سبب للتراحم فيما بينهم وفي الحديث الحث على اجتماع الكلمة وفيه الحذر من الاستهانة بحق المسلم وعدم الاهتمام بما يناله من أذى أو نحوه وفيه الحث على تفقد أحوال المسلمين وفيه السعي في ازالة ما يضرهم وفي الحديث نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته حيث أرشدهم إلى ما يحصل به جمع كلمتهم وتكاتفهم .

وقوله : « ويأمرون بالصبر عند البلاء الخ .. » الصبر لغة : الحبس وشرعا : حبس النفس على ما تكره تقرباً إلى الله تعالى.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله : هو حبس النفس عن الجزع وحبس اللسان عن التشكي والتسخط ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود ، وشق الجيوب . وقد تكاثرت الأدلة في الأمر بالصبر والحث عليه ، ومن أسمائه تعالى الصبور ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم » متفق عليه .

قال ابن القيم :

وهو الصبور على أذى أعدائـــه	شتموه بل نسبــوه للبهتـــان
قالـــوا له ولـــد وليس يعيدنـــا	شتماً وتكذيباً من الإنســـان
هـــذا وذاك بسمعــــه وبعلمـــه	لو شاءَ عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهـــم ويرزقهــــم وهم	يؤذونه بالشرك والكفــــران

وأقسام الصبر ثلاثة : صبر على طاعة الله ؛ وصبر عن معاصي الله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة .. البلاء : الغم والتكليف والبلاء يكون منحة ، ويكون محنة ، والشكر لغة : عرفان الإحسان ونشره وشرعا : صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله ، ويتعلق بالقلب واللسان والجوارح كما قيل :

أفادتكـــم النعمـــاء مني ثلاثـــة	يدي ولساني والضمير المحجبا

والرخاء : بالفتح سعة العيش .. والرضى : ضد السخط ، ومحاسن الأعمال جميلها ، فأهل السنة يدعون إلى كل خلق فاضل ويحثون على ذلك . والمكارم : جمع مكرمة وهي كل فائق في بابه يقال له كريم وقوله « والرضا بمر القضاء » الرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا

منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية – والرضى بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغناء والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له فليس للرضى به عبودية ، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها ، وأن لا يعصى المنعم بها وأن يرى النقص في جميع ذلك ، والرضى بالقضاء الكوني القدري الجارف على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب ، وهو من مقامات أهل الايمان وفي وجوبه قولان وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك وأما الرضى بالقدر الجاري باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان فحرام يعاقب عليه وهو مخالف لربه تعالى ، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضى ما يسخطه الحبيب ويبغضه .

قال السفاريني :

وكل ما قدر أو قضاه	فواقع حتماً كما قضاه
وليس واجب على العبد الرضا	بكل مقضي ولكن بالقضا
لأنه من فعله تعالى	وذاك من فعل الذي تقالى

وسبق الكلام حول هذا المبحث . قوله : « ويدعون

إلى مكارم الأخلاق الخ .. » الخلق : يطلق على كل صفة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير تكلف وهو صورة الإنسان الباطنة . وقد ورد في الحث عليه أحاديث كثيرة ، ومما يثمره حسن الخلق تيسير الأمور لصاحبه وحب الخلق له ومعونتهم له والابتعاد عن أذاه وقلة مشاكله في الحياة مع المعاملين والمجالسين له واطمئنان نفسه وطيب عيشه ورضائه به .

وقد جاء في الحديث النبوي عن الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقد سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن ولا غرو فقد كان صلى الله عليه وسلم أوسع الناس صدرا وأطهرهم قلبا وأصدقهم قولا وأخلصهم عملا وأعفهم نفساً وأوفاهم عهداً وأكثرهم عفواً وحلماً،وجملة القول كان صلى الله عليه وسلم في كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) فالدين الاسلامي الحنيف إنما انتشر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميد والأعمال الصالحة وبها ساد المسلمون في صدر الاسلام وشادوا وملأوا جوانب الأرض حقا وعدلا فتم باذن الله لهم النصر والفوز . قال الله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال (لينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) شعرا قال بعضهم :

وإنما الأمم الأخـــلاق ما بقيــت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

آخر

وإذا أصيب القـوم في أخلاقهم فأقم عليهـم مأتمـاً وعويلا

آخر

وليس بعـامر بنيـان قـوم إذا أخلاقهم كانت خرابـا

آخر :

صلاح أمـرك للأخـلاق مرجعه فقوم النفس بالأخـلاق تستقم

ومن محاسن الأخلاق الصدق والشهامة والنجدة وعزة النفس والتواضع والتثبت وعلو الهمة والعفو والبشر والرحمة والحكمة والشجاعة والوقار والصيانة والصبر والورع والحياء والسخاء والنزاهة وحفظ السر والقناعة والعفة والإيثار .

وقال الشيخ : وجماع حسن الخلق مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والنفقة والمال وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

وقال ابن القيم : الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان : الصبر والعفة والشجاعة والعدل ، فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة . والعفة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل . والشجاعة

تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم على البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته وتحمله على كظم الغيظ والحلم فانه بقوة نفسه وشجاعتها أمسك عنانها عن النزق والبطش وحقيقة الشجاعة ملكة يقتدر بها على قهر خصمه والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط فمنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان : الجهل والظلم والشهوة والغضب اهـ .

قال : وجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته . وفي الحديث « ان الأعمال داخلة في الإيمان » وفيه تفاضل الناس في الايمان والرد على من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأن الناس في الايمان شيء واحد .

قوله : « ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك الخ .. » الحرمان المنع . العفو : الصفح والتجاوز عن الذنب . الظلم : وضع الشيء في غير موضعه فأهل السنة يحثون على كل خصلة حميدة قال تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف) وقال : (وليعفوا وليصفحوا) وقال : (والعافين عن الناس) ومن السنة ما روى ابن جرير وابن أبي حاتم قال : لما أنزل الله تعالى على نبيه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض

عن الجاهلين) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : « أن تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك » .

قوله : « يأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام » البر : الصلة والخير والاتساع في الإحسان وبر الوالدين يكون بطاعتهما بما لا يخالف الشرع ، وبالإحسان إليهما وباكرامهما وبالتواضع لهما والشفقة عليهما والتلطف بهما بأن يقول لهما قولا حسنا وكلاما طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم عملا بقوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً) . وأما الأحاديث من السنة فكثيرة شهيرة ولا يختص برهما في حال الحياة بل يكون بعد الموت أيضاً .

فقد روى ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما » قوله : وصلة الأرحام ، الرحم القرابة لأنها داعية إلى التراحم بين الأقرباء ، وصلتها مشروعة وتكون بزيارتهم ومعونتهم بالنفس والمال هدية وصدقة وهبة وزكاة إن كانوا

فقراء وهو لا يرثهم في مسألة إعطائهم من الزكاة ويعمل كل ما يستطاع من جر نفع ودفع ضر .

وأما الدليل فقوله تعالى : (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) .

وأما الدليل من السنة فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » إلى غير ذلك من الأدلة .

قال ابن القيم : قال الله تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) يدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه فيصلون ما بينهم وبين الله بالقيام بحق عبوديته والاجتهاد في تكميلها ظاهراً وباطناً ، وأمرنا أن نصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء واتباعه وتقديم محبته على كل أحد وأمرنا أن نصل ما بيننا وبين الوالدين ببرهم وبصلة الأرحام والقيام بحق الجيران والأصحاب والعيال والعاملين وجميع المخالطين بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل اهـ .

قوله : « وحسن الجوار » .

الجار يطلق على الداخل في الجوار والساكن مع الإنسان

ي البيت وعلى الساكن مع الإنسان في البلد وعلى المجاور في
لبيت الملاصق بيته لبيتك وعلى أربعين دارا من كل جانب ،
وعنه صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة : جار له حق
واحد ، وهو المشرك له حق الجوار وجار له حقان ، وهو
المسلم له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وجار له ثلاثة حقوق
وهو المسلم القريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق
الرحم » .

وأما الدليل فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني
الجار حتى ظننت أنه سيورثه » رواه البخاري ومسلم ، والإحسان
إليه يكون بكل ما يستطيع معه من أنواع الخبر باهداء ما تيسر
وبداءته بالسلام ، وإظهار البشر له وإعانته والتوسيع له في
معاملته وإقراضه وعيادته وتعزيته عند المصيبة وتهنئته بما
يفرحه ويستر ما انكشف له من عورة . ويغض بصره عن
محارمه ، ويمنع أولاده من أذى أولاد جاره ولا يرفع صوت
المذياع في أوقات راحتهم إن كان ممن قد ابتلى به لأنه ينشأ
عنه سهرهم ولا يطل عليهم من سطح أو نافذة ويمنع أولاده
ونساءه من ذلك ، ويتلطف لأولاده ، ويصفح عن زلته ،
ويعمل ما استطاع من أعمال الخير وكف الأذى .

وقوله : « الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل
والرفق بالمملوك » اليتيم من مات أبوه ولم يبلغ . والإحسان
إليه يكون بكفالته وتعليمه ورعاية حاله والتلطف به وإكرامه

والشفقة عليه والعناية بأموره وتنمية ماله ، ونحو ذلك من أنواع الإحسان إليه ، وقد ورد في الحث على الإحسان اليه آيات وأحاديث . أما القرآن فقوله تعالى : (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) وقال صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

وأما المسكين: فهو الساكن لما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئاً وإذا أطلق دخل فيه الفقير ، وبالعكس اذا ذكرا معاً كما في أصناف الزكاة فقال بعض المفسرين لآية الزكاة : ان الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا ، والمسكين هو الذي يسأل . وقيل : الفقير هو من به زمانه ، والمسكين الصحيح الجسم ، وأما ابن السبيل فهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره .

ويكون الإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل بأنواع الاحسان من صدقة فريضة ونافلة وإعارة وهدية وتقريبهم والتلطف بهم وإكرامهم ونحو ذلك . والدليل على الإحسان إلى المسكين وابن السبيل قوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية وكما في آية الحقوق العشرة (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) الآية . وكما في آية سورة براءة (إنما الصدقات للفقراء) الآية .

وأما الأحاديث : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » الحديث . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » وأما الرفق بالمملوك فلين الجانب بالقول وبالفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف . وقد تكاثرت الأدلة على ذلك قال الله تعالى : (وما ملكت أيمانكم) وأوصى صلى الله عليه وسلم بهم وأمر بالإحسان إليهم فقال صلى الله عليه وسلم : « الصلاة وما ملكت ايمانكم » .

قال الشيخ : الاحسان إلى المحتاجين كأبناء السبيل والفقراء والمساكين والأقارب المحتاجين من الواجبات ومن أصول الشرائع التي بها قيام مصلحة العالم فان الله لما قسم عباده بين غني وفقير ولا تتم مصلحتهم الا بسد خلة الفقراء فأمر بالصدقة وحرم الربا الذي يضر بالفقراء .

قوله : « وينهون عن الفخر والخيلاء إلخ.. » الفخر: التمدح بالخصال ، والخيلاء : الكبر والاستطالة على الخلق والترفع عليهم واحتقارهم والوقيعة فيهم . والبغي : التعدي ، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي .

وأما الأدلة فقال تعالى : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) وقال : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض

بغير الحق) وقال : (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) ، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء فخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة . وعن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » .

قوله : « ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها » .

المعنى :

أن أهل السنة يأمرون بذلك ومثال ما كان من معالي الأخلاق العفة ، الأمانة ، الشجاعة ، السخاء ، الحياء ، التواضع ، العدل ، الحلم ، الصدق ، حسن الخلق ، الصبر ، القناعة ، علو الهمة ، النزاهة .

ومثال ما ينهون عنه وهو سفساف الأمور : الظلم ، البغي ، الكبر ، الخيانة ، المكر ، الخداع ، الكذب ، الحسد ، البخل ، الجبن ، الغيبة ، النميمة ، الشح ، الغش ، الوقاحة ، البذاءة ، الفحش ، النفاق ، الرياء ، الخور ، الجور ، الجزع ، الطمع ، إلخ .

قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم

تذكرون) وقوله : (خذ العفو وأمر بالعرف) وقوله (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

وقال أبو سفيان حينما قال له هرقل فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة ، وعن سهل بن سعد مرفوعاً « إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها » وعن جابر – رضي الله عنه – مرفوعاً : « إن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها » والسفساف الأمر الحقير والرديء من كل شيء .

(وقوله : وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فانما هم فيه متبعون للكتاب والسنة وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ،لكن لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وفي حديث عنه أنه قال « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة) .

المعنى : أن أهل السنة يتمشون مع إرشادات الكتاب والسنة فهم متبعون لهما في الأقوال والأفعال ، ولذا سموا أهل الكتاب والسنة .

قال ابن القيم :

يا مَن يريد نجاتــه يومَ الحســا	ب مِن الجحيم وموقَدِ النيران
إتبعْ رسولَ الله في الأقــوالِ والْ	أعمالِ لا تخرجْ عَن القُــرآن
وخذ الصَّحيحَــين هما لِعَقْــ	ـدِ الدين والإيمان واسطتــان
واقرأهُما بَعدَ التَجرُّدِ مِن هوى	وتَعَصُّبٍ وحميةِ الشيطـــان
واجعلهما حَكَماً ولا تحكم على	ما فيهما أصلاً بقَولِ فــلان
واجعلْ جلُوسَك بين صَحبِ محمدٍ	وتلقَ مَعَهم عنه بالإحســان
وتَلَقَّ عنهم بما تَلَقَوهُ هُمُــو	عنــه مِن الإيمان والعِرفــان
أفليس في هذا بـلاغ مســـافر	يبغي الاله وجنــة الحيـــوان
لولا التنافس بين هذا الخلق مـــا	كان التفرق قط في الحسبــان
فالرب رب واحـــد وكتابـــه	حق وفهم الحق منـــه دان
ورسولـــه قد أوضح الحق المبـ	ـين بغاية الإيضاح والتبيـــان
ما ثم أوضح من عبـــادته فـلا	يحتــاج سامعهــا إلى تبيــان
والنصح منه فوق كــل نصيحــة	والعلم مأخوذ عن الرحمــن
والنقل عنه مصدق والقول مـــن	ذي عصمة ما عندنا قــولان

وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم عملا بقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) فأهل السنة والجماعة هم أهل الإسلام والتوحيد المتمسكون بالسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقائد والنحل والعبادات الباطنة والظاهرة الذين لم يشوبوها ببدع أهل الأهواء وأهل الكلام في أبواب العلم والاعتقادات

ولم يخرجوا عنها في باب العمل والإرادات كما عليه جهال أهل الطرائف والعبادات فان السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه حتى الهدى والسمت ، ثم خصت في بعض الإطلاقات بما كان عليه أهل السنة من إثبات الأسماء والصفات خلافاً للجهمية المعطلة النفاة وخصت باثبات القدر ونفي الجبر ، خلافا للقدرية النفاة والقدرية الجبرية العصاة وتطلق أيضاً على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتفضيل والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من إطلاق الاسم على بعض مسمياته ، وروى أبو داود والترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى واثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » . وروى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق ثلاثاً وسبعين ملة – يعني الأهواء – كلها في النار الا واحدة ، وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى عرق ولا مفصل إلا دخله » ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه

وسلم لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به » ورواه أبو داود وغيره .

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة ، وهم أهل السنة لهم علامة فارقة بينهم وبين غيرهم من الفرق ، وهي ما أشار إليها صلى الله عليه وسلم « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

قوله : « صار المتمسكون بالإسلام المحض » الخالص من كل شيء ، ومنه سمي اللبن الخالص الذي لم يخالطه ماء محضاً والشوب المخالط ، وكل ما خلط بغيره فهو مشوب ، فأهل السنة تمسكوا بالإسلام الخالص من شوائب البدع وطرق الضلال .

(وقوله : وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال ، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » فنسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً) .

وقوله : « وفيهم الصديقون الخ .. » الصديق هو الذي صدق في قوله وفعله المبالغ في الصدق ، أي الكثير الصدق ،

كما تفيده المبالغة ، وأفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ، ولهذا قدمهم عليهم في آية النساء وآية الحديد ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « أثبت أحد فانما عليك نبي أو صديق أو شهيد » والشهيد المراد قتيل المعركة .

وقوله : « ومنهم أعلام الهدى الخ » العلم : ما يهتدى به إلى الطريق من جبل وغيره ، قال تعالى : (ومن آياتـه الجوار في البحر كالأعلام) .

وقالت الخنسا :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

والمراد بالأعلام هنا العلماء المهتدين ، وأهل الخيرات من المصلحين تشبيها لهم بالجبال الشاهقة والعلامات الواضحة ، التي يعرف بها طريق الفلاح والفوز ، وكذا مصابيح الدجى المراد بهم العلماء .

قال بعضهم :

ذَوُو العِلم في الدنيا نجومُ هِدَايَـةٍ ... إذا غارَ نجمٌ لاحَ بَعْدُ جَدِيدُ

بهم عَزَّ دِينُ اللهِ طراً وهم لَــهُ ... مَعَاقِلُ مِن أعدائِهِ وجُنُودُ

وقال الآخر :

سلامي على أهل الحديث فإنهـم ... مصابيح علم بل نجوم سمائـه

بهم يهتدي من يقتدي بعلومهـــم ويرقي بهم ذو الداء علة دائه
ويحيي بهم من مات بالجهل قلبـــه فهم كالحيا تحيى البقاع بمائه

روى ابن عبد البر من حديث معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم » وفي مسند أحمد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فاذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » وفي حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وقال أبو أمامة الباهلي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين: أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير » ..

وقوله : « أولو المناقب المأثورة ... الخ » .

المناقب المفاخر والفضائل جمع فضيلة وهي ضد النقيصة والرذيلة والمأثورة المنقولة ومنه أثر الحديث أي نقله ، والفضل

الخير ، والمذكورة الذائعة الصيت المترددة على الألسن والذكر هو الصيت والشرف وقيل في قوله تعالى : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي اجعل لي ثناء حسنا وذكرا جميلا وجاها وصيتا وقبولا عاما في الأمم الآخرين الذين يأتون بعدي في الدنيا يبقى أثره إلى يوم القيامة وكذلك في آية الزخرف . قوله تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) إيماء إلى أن الذكر الجميل والثناء الحسن أمر مرغوب فيه ولولا ذلك ما أمتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم به ولما طلبه إبراهيم عليه السلام كما تقدم .

قال الدقوقي :

وما مَاتَ مَنْ تَبْقَى التَّصانيفُ بَعْدَهُ
مخلدة والعلـم والفضل ولـــدهُ

وقال الآخر :

إن العُلومَ لَتُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِها كالوَبْلِ يُحْيِي نداهُ السَّهْلَ والجبلا

وقال ابن دريد :

وإنما المرءُ حديثٌ بَعْــــدَهُ فكُنْ حديثاً حَسَنَاً لِمَن وَعَى

وقال أبو الطيب :

ذِكرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثاني وحاجتــه ما قَاتَه وفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ

وقال الآخر :

وَمَا دَامَ ذِكْرُ العبدِ بالفضلِ بَاقياً فذلك حَيٌّ وهو في التُّرْبِ ذَاهِبُ

وقال الآخر :

وحاضر من أبقى له العلم بعـــده على الدهر ذكراً أنـــه ميت بالِ

الأبدال : قيل هم الأولياء والعباد سموا بذلك لأنهم كلما مات واحد أبدل باخر ونص أحمد على أن لله أبدالا في الأرض قيل من هم ؟ قال : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالا . وقوله : « وفيهم أئمة الدين » المراد في أهل السنة والجماعة أئمة الدين المقتدى بهم في الدين كالأئمة الأربعة .

قال الناظم :

وما زال فينا كـــل عصر أئمـــة يذبون عن دين الهدى بالمهنـــد

فينفون تحريف الغواة ويظهروا الصــ ـحيح من المعلول في كل مشهـــد

فأربعة في أول الأمـــر عمـــدة وأربعة في آخر الأمر عدد

فكل أتى في الدين أقصى اجتهاده وأحمدهم في النقد مذهب أحمد

لفرط اتبـــاع للنـبي وصحبـه فمن أجل ذا لم يستجب لمبدد

دعوه إلى قول الضلال فلم يجب ورد عليهـــم زد خير مســـدد

وجاد لنصر الحق بالنفس صابـرا على الجلد والتهديد من كل معتد

فباء بحمد الله بالنصر والهـــدى وباءُوا بخسران وذل مؤبـــد

وما زالت العقبى لكل من اتقـــى كذلك وعد الله في الذكر فاهتد

فالأئمة في الدين: العلماء المقتدى بهم قال الله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا باياتنا يوقنون) قال أحد

العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين أخذاً من هذه الآية الكريمة وكل من اشتهرت إمامته وأجمع المسلمون على هدايته ودرايته فلا يقبل فيه قول جارح ولا طاعن إذ من ظهرت عدالته واشتهرت إمامته فلا يلتفت فيه إلى قول قائل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » . قال ابن القيم : وهذا يتضمن تعديله صلى الله عليه وسلم لحملة العلم الذي بعث به فلهذا اشتهر عن الأمة عدالة نقلته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراءا ولا ريب أن من عدله الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمع فيه جرج جارح .. اهـ .

وقال الشيخ رحمه الله : يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين عموماً كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم . قال : وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاماً يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته دقيق ولا جليل فانهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه وجميع الأعذار ثلاثة أصناف أحدها : عدم اعتقاده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله .

الثاني : عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول ، والثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ . قال : وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل في الحديث لم نطلع نحن عليها فان مدارك العلم واسعة ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها وإذا أبداها فقد تبلغنا ولا تبلغ وإذا بلغتنا فقد ندرك مواضع احتجاجه وقد لا ندركه سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا لكن نحن وإن جوزنا هذا فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم إلى قول آخر قاله عالم يجوز أن يكون معه ما يدفع به هذه الحجة وإن كان أعلم إذ تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية فان الأدلة الشرعية حجة الله على جميع عباده بخلاف رأي العالم والدليل الشرعي يمتنع أن يكون خطأ إذا لم يعارضه دليل آخر ، ورأي العالم ليس كذلك ولو كان العمل بهذا التجويز جائزا لما بقي شيء من الأدلة التي يجوز فيها مثل هذا لكن الغرض أنه في نفسه قد يكون معذورا في تركه ونحن معذورون في تركنا . قال : وإذا كان الترك يكون لبعض هذه الأسباب فاذا جاء حديث صحيح فيه تحليل أو تحريم أو حكم فلا يجوز أن يعتقد أن التارك له من العلماء الذين وصفنا أسباب تركهم يعاقب لكونه حلل الحرام أو حرم الحلال أو حكم بغير ما أنزل الله وكذلك إن كان في الحديث وعيد على فعل من لعنة أو غضب أو عذاب ونحو ذلك فلا يجوز أن يقال إن ذلك العالم الذي أباح

هذا أو فعله داخل في هذا الوعيد وهذا مما لا نعلم بين الأمة فيه خلافاً إلا شيئاً يحكى عن معتزلة بغداد مثل المريسي وأضرابه أنهم زعموا أن المخطيء من المجتهدين يعاقب على خطئه وهذا لأن لحوق الوعيد لمن فعل المحرم مشروط بعلمه بالتحريم أو بتمكنه من العلم بالتحريم اه.

وقال رحمه الله: وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا أو فعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها وإما لرأي رؤوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم وإذا راقب الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ».

وقوله « وهم الطائفة المنصورة .. الخ » الطائفة الجماعة دون الفرقة قال تعالى: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) والمنصورة بالحجة والبرهان أو بالسيف والسنان أو بهما جميعاً فعلى الأول هم أهل العلم وبه قال البخاري وغيره ، وقال ابن القيم: هم أهل العلم والمعرفة بما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وقاله ، ظاهرين: أي على من خالفهم أي غالبين أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورون والأول أولى وقد وقع عند مسلم من حديث جابر بن سمرة « لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » وله في حديث عقبة بن عامر « ولا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ولا يضرهم من

خالفهم حتى تأتيهم الساعة » . وقد اختلف في الطائفة المنصورة ما هي قال البخاري في صحيحه : هم أهل العلم ، وقال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ، وقال ابن المبارك وعلي بن المديني وأحمد ابن سنان والبخاري وغيرهم : إنهم أهل الحديث .

وقوله « حتى تقوم الساعة » المراد ساعة موتهم حين يبعث الله ريحاً طيبة فتوفي كل من في قلبه حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين أمتهم .

وقوله « فنسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا الخ .. » أي نطلب من الله أن لا يميل قلوبنا عن الحق بعد أن من علينا ووفقنا له ، ووهب لنا من عنده رحمة ،، إنه الوهاب الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه فهو مولى الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب ومن أسمائه تعالى : الوهاب . قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وكذلك الوهاب من أسمائه ... فانظر مواهبه لدى الأزمان
أهل السموات العلى والأرض عن ... تلك المواهب ليس ينفكان



وكان الفراغ من هذا الكتاب الجامع لكثير من الضوابط والقواعد والأصول والتفاصيل والفروق والتقاسيم والردود على طوائف البدع في ليلة السبت الموافق ١٣٨٨/١١/٧ هـ الساعة ٥ ن ٣ .

وسميته « الكواشف الجلية عن المعاني الواسطية »

ومن أراد طباعته لوجه الله تعالى لا يريد به عرضاً من الدنيا وإنما يريد وقفاً لوجه الله تعالى فقد سمحنا على أن يكتب مثل ما ذكر في هذه الصفحة ليعلم كل من له رغبة في ذلك ، هذا وأسأل الله العلي العظيم الحي القيوم ذا الجلال والإكرام الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به نفعاً عاماً وأن يجعله مقرباً لنا ولمن نشره ولمن قرأه ولمن سمعه لديه في جنات النعيم إنه رؤوف رحيم ، على كل شيء قدير ، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة
بالرياض غفر الله له ولوالديه وجميع
المسلمين اللهم صل على محمد وآله وسلم

الفهرس

صفحة

وصلى الله على محمد